كيف نبني أمة؟

قصة الإسلام

قصة التتــــار

من البداية.. إلى عين جالوت

الدكتور راغب السرجاني



الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٢٦٢٨
الترقيم الدولي:I.S.B.N
977 – 6119 – 73 – 5

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

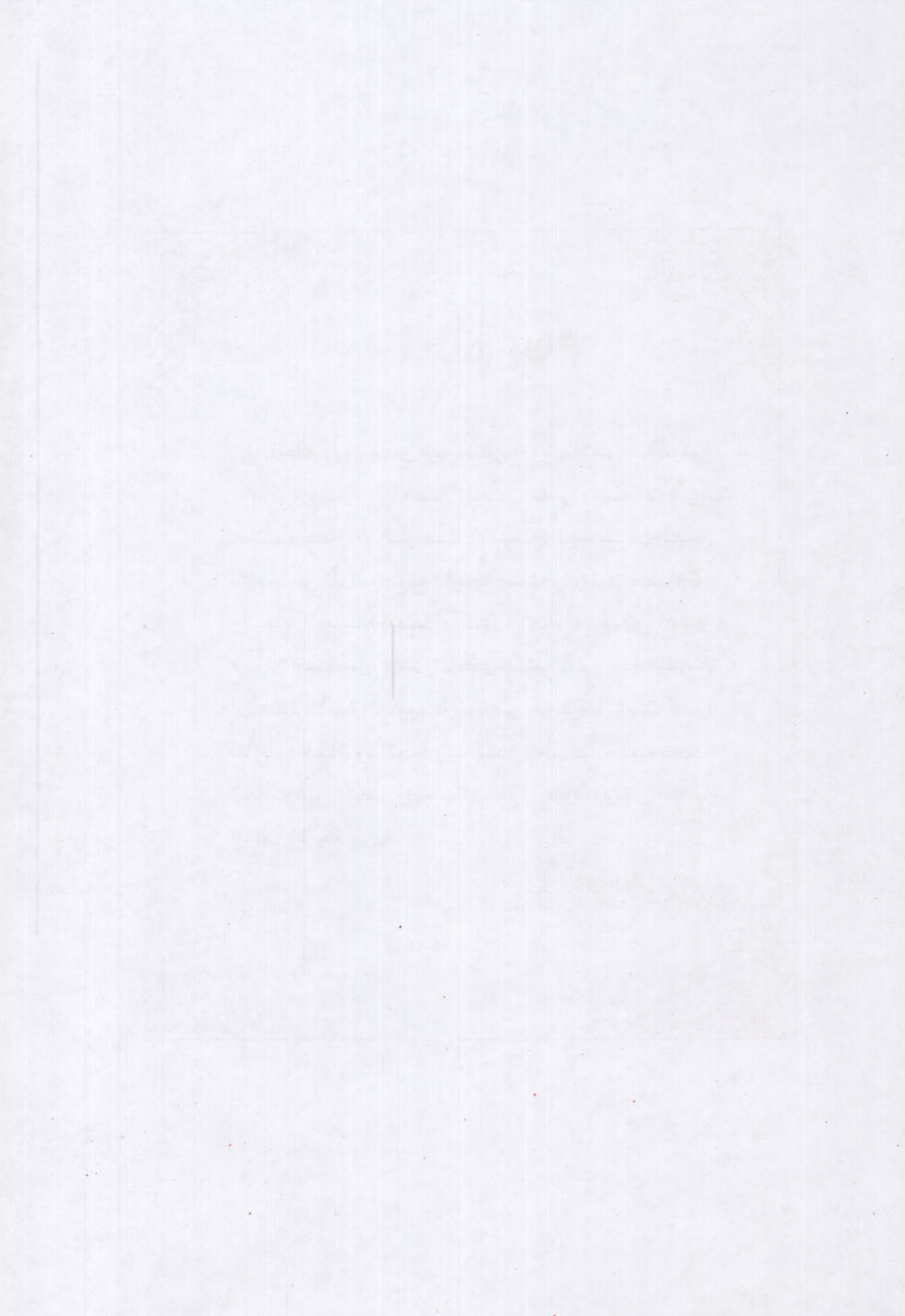
مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠/٥٢٢٤٢٠٧

أحلم بيوم

أحلم بيوم يصل فيه التاريخ الإسلامي الحقيقي — دون تزوير- إلى كل إنسان على وجه الأرض.. مسلمًا كان أو غير مسلم؛ ليعلم الجميع أن الدين الإسلامي الرائع صنع تاريخًا إسلاميًا رائعًا كذلك، وليعلم الجميع أيضًا أن هذه الأمة لها جذور أعمق من أن تُستأصَل، وليدرك كل مُطَّلِع على هذا التاريخ أن هذه الأمة العظيمة ستبقى حية ما دامت على الأرض حياة، وستعود إلى صدارة الدنيا حتمًا كما كانت قبل ذلك، والله غالب على أمره.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.





مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد..

فإن الله -عز وجل- من رحمته بخلقه أنه ثبّت لهم في الأرض سننًا لا تتغير ولا تتبدل.. بهذه السنن تستقيم حياة الناس.. وعليها يعتمد الخلق في حركاتهم وسكناتهم.. ولو كان لكل زمان سنّة، أو لكل مكان سنّة تختلف عن غيرها لاضطربت حياة الناس، ولضاعت كل الخبرات السابقة.

لكن ـ بفضل الله ـ الخبرات السابقة لا تضيع.. ما حدث معك بالأمس يتكرر اليوم.. وما يحدث معك اليوم سيتكرر غدًا.. وهكذا إلى يوم القيامة.

ومن هنا جاءت أهمية دراسة التاريخ..

فالأحداث السابقة تتكرر دائماً، وبصورة تكاد تكون متطابقة، فليس هناك جديد على الأرض.. فإذا درسنا

التاريخ وعرفنا أن حدثاً ما قد مرَّ قبل ذلك، وكانت فيه نفس الظروف والملابسات التي تواكب حدثاً نعيشه الآن، فإننا نستطيع أن نستنتج النتائج، فإن كان الحدث نصراً مجيداً سرنا على نفس الطريق الذي سار فيه المنتصرون فوصلنا إلى نفس النتيجة، وإن كان الحدث هزيمة مخزية تجنبنا أخطاء السابقين فلا نصل إلى هزيمة كهزيمتهم.

دراسة التاريخ بهذه الطريقة، تجعل التاريخ حياً ينبض.. أنت تقرأ لتتفاعل، لا لمجرد التسلية أو الدراسة الأكاديمية البحتة.. دراسة التاريخ بهذه الصورة لها هدف واضح هو البحث عن «العبرة».. وهو ما ذكره الله -عز وجل- في كتابه عندما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١].

ولهذا السبب جعل الله -عز وجل- ثلث القرآن قصصاً؛ حتى يستقرئ المسلمون سنن الله -عز وجل- في الأقوام السابقين.. وليعلموا حتماً أن هذه السنن ثابتة.. فيستطيعوا توقع الشيء قبل حدوثه، ومن ثم الاستفادة منه.. ولا يأتي هذا إلا بتفكر عميق في كل قصة.. ودراستها من كل زاوية.. ولهذا يقول الله -عز وجل-: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وبين أيدينا الآن حدث من الأحداث الهامة جداً في تاريخ المسلمين.. بل وفي تاريخ الأرض بصفة عامة.

وهو حدث ظهور قوة جديدة رهيبة على سطح الأرض في القرن السابع الهجري.. وقد أدى ظهور هذه القوة إلى تغييرات هائلة في الدنيا بصفة عامة.. وفي أرض الإسلام بصفة خاصة.

تلك القوة هي «دولة التتار»..!!

وقصة التتار عجيبة حقًا.. عجيبة بكل المقاييس.. ولولا أنها موثقة في كل المصادر، وبصورة تكاد تكون متطابقة في كثير من الأحيان لقلنا إنها خيال، أو

أغرب من الخيال.

القصة عجيبة لأن التغيير فيها من ضعف إلى قوة، أو من قوة إلى ضعف لم يأخذ إلا وقتًا يسيرًا جدًا.. فما هي إلا أعوام قليلة جدًا حتى يعز الله دولة ويذل أخرى.. ثم تمر أعوام أخرى قليلة فيذل الله -عز وجل- الأولى ويعز الأخرى!!

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٦].

والقصة عجيبة أيضًا للمبالغة الشديدة في الأحداث: المبالغة في الأرقام في كل حدث.. المبالغة في أعداد القتلى، وفي أعداد الجيوش، وفي أعداد المدن المنهارة، وفي مساحات البلاد المحتلة، وفي أعداد الخيانات وأسلوبها.

كما أن القصة عجيبة لشدة التطابق بينها وبين واقعنا الآن.

وسبحان الله!!

وقد أراد الله -عز وجل- أن يوضح لنا حقيقة ثبات السنن، وتكرار التاريخ.. فجعل الأحداث التي تمر بها أمتنا في وقتنا هذا تكاد تكون متطابقة مع الأحداث التي جرت على سطح الأرض في القرن السابع الهجري.. ولو بحثنا في التاريخ فسنجد تطابقاً مع أحداث أخرى كثيرة.. ولكن وقع اختياري على هذا الحدث بالذات لأنه يدور في نفس المنطقة التي تدور فيها الآن أحداث مهمة جداً بالنسبة للعالم الإسلامي.. ومن ثم يستطيع القارئ بسهولة أن يربط بين التاريخ والواقع، ويستطيع بسهولة أيضاً أن يستقرئ سنن الله -عز وجل- في أرضه وفي خلقه.

وليس الغرض من هذه الصفحات هو الدخول في كل تفصيل والبحث عن

كل موقف، فهذا يطول شرحه، ولكن فقط سنمر على الأحداث في عجالة نبحث فيها عن مواطن العبرة.. وعن أوجه الشبه بينها وبين زماننا المعاصر.. ونحلل بسرعة أسباب الهزيمة وأسباب النصر.. ومن أراد أن يستزيد فليعد إلى المراجع الكثيرة العظيمة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية.

والله أسأل أن ينفعنا بكل صفحة وكل كلمة، بل وبكل حرف في هذه القصة العجيبة.

الدكتور راغب السرجاني

* * *

ظهـور التتـار

ظهرت قوة التتار في أوائل القرن السابع الهجري، وحتى نفهم الظروف التي نشأت فيها هذه القوة لابد من إلقاء نظرة على واقع الأرض في ذلك الزمان.

الناظر إلى الأرض في ذلك الوقت يجد أن القوى الموجودة كانت متمثلة في قوتين رئيسيتين:

أما الأولى فهي أمة الإسلام.

المساحات الإسلامية في هذا الوقت كانت تقترب من نصف، مساحات الأراضي المعمورة في الدنيا.. كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وأفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا حيث بلاد الأندلس..(انظر الخريطة رقم ١).

وهي مساحة شاسعة للغاية، لكن وضع العالم الإسلامي -للأسف الشديد- كان مؤلماً جداً.. فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والموارد والسلاح والعلوم.. مع كل هذا إلا أنه كانت هناك فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية.. والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجري.. حيث كانت أمة الإسلام قوية منتصرة متحدة رائدة.. ولكن هذه سُنة ماضية: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]

ولنلق نظرة على العالم الإسلامي في أوائل القرن السابع الهجري (انظر الخريطة رقم ٢):

١- الخلافة العباسية: وهي خلافة قديمة جدًا؛ فقد نشأت بعد سقوط الدولة الأموية العظيمة في سنة ١٣٢هـ. وكانت -في مطلع القرن السابع الهجري- قد ضعفت جداً، حتى أصبحت لا تسيطر حقيقة إلا على العراق، وتتخذ من بغداد عاصمة لها منذ سنة ١٣٢ هجرية... وحول العراق عشرات من الإمارات المستقلة استقلالاً حقيقياً عن الخلافة، وإن كانت لا تعلن نفسها كخلافة منافسة للخلافة العباسية.. فتستطيع أن تقول: إن الخلافة العباسية كانت «صورة خلافة» وليست خلافة حقيقية.. وكانت كالرمز الذي يحب المسلمون أن يظل موجوداً حتى وإن لم يكن له دور يذكر.. تماماً كما يُبقى الإنجليز الآن على ملكة إنجلترا كرمز تاريخي فقط، دون دور يذكر لها في الحكم، بخلاف الخليفة العباسي الذي كان يحكم فعليًا منطقة العراق باستثناء الأجزاء الشمالية منها.

وكان يتعاقب على حكم المسلمين في العراق خلفاء من بني العباس.. حملوا الاسم العظيم الجليل: «الخليفة»، ولكنهم (في هذه الفترة من القرن السابع الهجري) ما اتصفوا بهذا الاسم أبداً، ولا رغبوا أصلاً في الاتصاف به؛ فلم يكن لهم من همّ إلا جمع المال، وتوطيد أركان السلطان في هذه الرقعة المحدودة من الأرض.. ولم ينظروا نظرة صحيحة أبداً إلى وظيفتهم كحكام.. لم يدركوا أن من مسئولية الحاكم أن يوفر الأمان لدولته، ويقوي من جيشها، ويرفع مستوى المعيشة لأفراد شعبه، ويحكم في المظالم، ويرد الحقوق لأهلها، ويجير المظلومين، ويعاقب الظالمين، ويقيم حق الله -عز وجل- على العباد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدافع عن كل ما يتعلق بالإسلام، ويوحد الصفوف والقلوب..

لم يدركوا هذه المهام الجليلة للحاكم المسلم، كل ما كانوا يريدونه فقط هو البقاء أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم، وتوريث الحكم لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يحرصون على جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويحرصون على إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغاني

والموسيقى والإسراف في اللهو والطرب.

حياة الحكام كانت حياة لا تصلح أن تكون لفرد من عوام أمة الإسلام فضلاً عن أن تكون لحاكم أمة الإسلام.

لقد ضاعت هيبة الخلافة.. وتضاءلت طموحات الخليفة!.

كانت هذه هي «الخلافة العباسية» في أوائل القرن السابع الهجري.

٢- مصر والشام والحجاز واليمن: كانت هذه الأقاليم في أوائل القرن السابع الهجري في أيدي الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبي، ولكنهم - للأسف - لم يكونوا على شاكلة ذلك الرجل العظيم.. بل تنازعوا الحكم فيما بينهم، وقسَّموا الدولة الأيوبية الموحدة -التي هزمت الصليبيين في حطين هزيمة منكرة- إلى ممالك صغيرة متناحرة!! فاستقلت الشام عن مصر، واستقلت كذلك كل من الحجاز واليمن عن الشام ومصر.. بل وقسمت الشام إلى إمارات متعددة متحاربة..!! فانفصلت حمص عن حلب ودمشق.. وكذلك انفصلت فلسطين والأردن، وما لبثت الأراضي التي كان حررها صلاح الدين من أيدي الصليبيين أن تقع من جديد في أيديهم بعد هذه الفرقة، ولا حول لا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

٣- بلاد المغرب والأندلس: كانت تحت إمرة «دولة الموحدين».. وقد كانت فيما سبق دولة قوية مترامية الأطراف تحكم مساحة تمتدّ من ليبيا شرقاً إلى المغرب غرباً، ومن الأندلس شمالاً إلى وسط أفريقيا جنوباً.. ومع ذلك ففي أوائل القرن السابع الهجري كانت هذه الدولة قد بدأت في الاحتضار.. وخاصةً بعد موقعة «العقاب» الشهيرة سنة ٦٠٩ هجرية، والتي كانت بمثابة القاضية على هذه الدولة الضخمة.. دولة الموحدين.

٤- خوارزم: كانت الدولة الخوارزمية دولة مترامية الأطراف، وكانت تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا.. تمتد حدودها من غرب الصين شرقاً إلى أجزاء

كبيرة من إيران غرباً.. وكانت هذه الدولة على خلاف كبير مع الخلافة العباسية.. وكانت بينهما مكائد ومؤامرات متعددة، ومالت الدولة الخوارزمية في بعض فترات من زمانها إلى التشيع، وكثرت فيها الفتن والانقلابات، وقامت في عصرها حروب كثيرة مع السلاجقة والغوريين والعباسيين وغيرهم من المسلمين.

٥- الهند: كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت، وكانت الحروب بينهم وبين دولة خوارزم كثيرة ومتكررة.

٦- فارس: وهي إيران الحالية، وكانت أجزاء منها تحت سلطان الخوارزميين، وكانت الأجزاء الغربية منها -والملاصقة للخلافة العباسية- تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية، وهي طائفة من طوائف الشيعة كانت شديدة الخبث، ولها مخالفات كثيرة في العقيدة جعلت كثيراً من العلماء يخرجونهم من الإسلام تماماً.. خلطت طائفة الإسماعيلية الدين بالفلسفة، وكانوا أصلاً من أبناء المجوس؛ فأظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وتأولوا آيات القرآن على هواهم، وهم إحدى فرق الباطنية، الذين يؤمنون بأن لكل أمر ظاهر في الدين أمرًا آخر باطنًا خفيًّا لا يعلمه إلا بعض الناس (وهم من أولئك الناس) ولا يُطلعون أحدًا على تأويلاتهم، إلا الذين يدخلون معهم في ملتهم، وهم ينكرون الرسل والشرائع، ومن أهم مطالبهم «الملك والسلطان»؛ ولذلك فهم مهتمون جدًا بالسلاح والقتال..

وعلى العموم، فإن «الإسماعيلية» من أخطر طوائف الباطنية، وقد كانت سببًا دائمًا لتحريف العقيدة والدين، ولقلب أنظمة الحكم الإسلامية، ولاغتيال الشخصيات الإسلامية البارزة، سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو علماء أو قواداً.

٧- الأناضول (تركيا): وهذه المنطقة كانت تُحكم بسلاجقة الروم، وأصول السلاجقة ترجع إلى الأتراك، وكان لهم في السابق تاريخ عظيم وجهاد

كبير، وذلك أيام القائد السلجوقي المسلم الفذ «ألب أرسلان» رحمه الله، ولكن للأسف فإن الأحفاد الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة الحساسة والخطيرة والملاصقة للإمبراطورية البيزنطية كانوا على درجة شنيعة من الضعف أدت إلى مواقف مؤسفة من الذل والهوان.

وبعد..

فهذه نظرة على الأمة الإسلامية في ذلك الوقت.

ونلاحظ أنه قد انتشرت فيها الفتن والمؤامرات، وتعددت فيها الحروب بين المسلمين وإخوانهم في الدين، وكثرت فيها المعاصي والذنوب، وعم الترف والركون إلى الدنيا.. وهانت الكبائر على قلوب الناس.. حتى كثر سماع أن هذا ظلم هذا، وأن هذا قتل هذا، وأن هذا سفك دم هذا.. يقال هذا الكلام ببدم بارد.. وكأن الأرواح التي تزهق ليست بأرواح بشر!.

وقد عُلم على وجه اليقين أن من كان هذا حاله فلا بد من استبداله..!!

وأصبح العالم الإسلامي ينتظر كارثة تقضي على كل الضعفاء في كل هذه الأقطار، ليأتي بعد ذلك جيل من المسلمين يغير الوضع، ويعيد للإسلام هيبته، وللخلافة قوتها ومجدها.

القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجري كانت قوة الصليبيين.

وكان المركز الرئيسي لهم في غرب أوروبا، حيث لهم هناك أكثر من معقل.. وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين.. فكان نصارى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا يقومون بالحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام ومصر، وكان نصارى أسبانيا والبرتغال -وأيضاً فرنسا- في حروب مستمرة مع المسلمين في الأندلس.

وبالإضافة إلى هذا التجمع الصليبي الضخم في غرب أوروبا كانت هناك تجمعات صليبية أخرى في العالم، وكانت هذه التجمعات أيضاً على درجة عالية

من الحقد على الأمة الإسلامية، وكانت الحروب بينها وبين العالم الإسلامي على أشدها، وكانت أشهر هذه التجمعات كما يلي:

١- الإمبراطورية البيزنطية: وحروبها مع الأمة الإسلامية شرسة وتاريخية، ولكنها كانت في ذلك الوقت في حالة من الضعف النسبي والتقلص في القوة والحجم؛ فلم يكن يأتي من جانبها خطر كبير، وإن كان الجميع يعلم قدر الإمبراطورية البيزنطية.

٢- مملكة أرمينيا: وكانت تقع في شمال فارس وغرب الأناضول، وكانت أيضاً في حروب مستمرة مع المسلمين، وخاصة السلاجقة.

٣- مملكة الكُرج: وهي دولة جورجيا حالياً، ولم تتوقف الحروب كذلك بينها وبين أمة الإسلام، وتحديدًا مع الدولة الخوارزمية.

٤- الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين وتركيا: وهذه الإمارات كانت تحتل هذه المناطق الإسلامية منذ أواخر القرن الخامس الهجري (بدءاً من سنة ٤٩١ هجرية).

وعلى الرغم من انتصارات صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - على القوات الصليبية في حطين وبيت المقدس وغيرها إلا أن هذه الإمارات ما زالت باقية، بل وما زالت من آن إلى آخر تعتدي على الأراضي الإسلامية المجاورة غير المحتلة، وكانت أشهر هذه الإمارات: أنطاكية وعكا وطرابلس وصيدا وبيروت.

وهكذا استمرت الحروب في كل بقاع العالم الإسلامي تقريباً، وزادت جداً ضغائن الصليبيين على أمة الإسلام.

وشاء الله سبحانه تعالى أن تكون نهاية القرن السادس الهجري سعيدة جداً على المسلمين، وتعيسة جداً على الصليبيين، فقد أذن الله -عز وجل- في نهاية القرن

السادس الهجري بانتصارين جليلين لأمة الإسلام على الصليبيين.. فقد انتصر البطل العظيم «صلاح الدين الأيوبي» -رحمه الله- على الصليبيين في موقعة «حطين» في الشام، وذلك في عام ٥٨٣ هجرية، وبعدها بثماني سنوات فقط انتصر البطل الإسلامي الجليل «المنصور الموحدي» - رحمه الله - زعيم دولة الموحدين على نصارى الأندلس في موقعة «الأرك» الخالدة في سنة ٥٩١ هجرية.

وبالرغم من هذين الانتصارين العظيمين فإن المسلمين في أوائل القرن السابع الهجري كانوا في ضعف شديد، وذلك بعد أن تفكك شمل الأيوبيين بوفاة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك انفرط عقد الموحدين بعد وفاة المنصور الموحدي، غير أن الصليبيين كانوا كذلك في ضعف شديد لم يمكنهم من السيطرة على البلاد المسلمة، وإن كانت رغبتهم في القضاء عليها قد زادت.

كان هذا هو وضع العالم في أوائل القرن السابع الهجري.

وبينما كان هذا هو حال الأرض في ذلك الوقت، ظهرت قوة جديدة ناشئة قلبت الموازين، وغيرت من خريطة العالم، وفرضت نفسها كقوة ثالثة في الأرض.. أو تستطيع أن تقول: إنها كانت القوة الأولى في الأرض في النصف الأول من القرن السابع الهجري.

هذه القوة هي قوة **دولة التتار أو المغول**..!!

من هم التتار؟

ظهرت دولة التتار في سنة ٦٠٣ هجرية تقريباً، وكان ظهورها الأول في «منغوليا» في شمال الصين، وكان أول زعمائها هو «جنكيزخان».

و«جنكيزخان» كلمة تعني: قاهر العالم، أو ملك ملوك العالم، أو القوي.. حسب الترجمات المختلفة للغة المنغولية.. واسمه الأصلي «تيموجين».. وكان رجلاً سفاكاً للدماء.. وكان كذلك قائداً عسكرياً شديد البأس.. وكانت له القدرة على تجميع

الناس حوله.. وبدأ في التوسع تدريجيًّا في المناطق المحيطة به، وسرعان ما اتسعت مملكته حتى بلغت حدودها من كوريا شرقاً إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غرباً، ومن سهول سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً (انظر الخريطة رقم ٣).. أي أنها كانت تضم من دول العالم حاليًّا (الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا.. إلى جانب مملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان!!)

ويطلق اسم التتار ـ وكذلك المغول ـ على الأقوام الذين نشأوا في شمال الصين في صحراء «جوبي»، وإن كان التتار هم أصل القبائل بهذه المنطقة.. ومن التتار جاءت قبائل أخرى مثل قبيلة «المغول»، وقبائل «الترك» و«السلاجقة» وغيرها، وعندما سيطر «المغول» - الذين منهم جنكيزخان - على هذه المنطقة أطلق اسم «المغول» على هذه القبائل كلها.

وكان للتتار ديانة عجيبة، هي خليط من أديان مختلفة.. فقد جمع جنكيزخان بعض الشرائع من الإسلام، والبعض من المسيحية، والبعض من البوذية، وأضاف من عنده شرائع أخرى، وأخرج لهم في النهاية كتاباً جعله كالدستور للتتار وسمى هذا الكتاب بـ «الياسك» أو «الياسة» أو«الياسق».

وكانت حروب التتار تتميز بأشياء خاصة جداً مثل:

١ـ سرعة انتشار رهيبة.

٢ـ نظام محكم وترتيب عظيم.

٣ـ أعداد هائلة من البشر.

٤ـ تَحَمُّل ظروف قاسية.

٥ـ قيادة عسكرية بارعة.

٦ـ أنهم بلا قلب..!!.

فكانت حروبهم حروب تخريب غير طبيعية.. فكان من السهل جداً أن

ترى في تاريخهم أنهم دخلوا مدينة كذا أو كذا فدمروا كل المدينة وقتلوا سكانها جميعاً.. لا يفرقون في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب، ولا بين صغير وشيخ، ولا بين ظالم ومظلوم، ولا بين مدني ومحارب..!! إبادة جماعية رهيبة، وطبائع دموية لا تصل إليها أشد الحيوانات شراسة.

وكما يقول الموفق عبد اللطيف في خبر التتار: «وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال».

٧ـ رفض قبول الآخر.. والرغبة في تطبيق مبدأ «القطب الواحد!».. فليس هناك طرح للتعامل مع دول أخرى محيطة.. والغريب أنهم كانوا يتظاهرون دائماً بأنهم ما جاءوا إلا ليقيموا الدين، ولينشروا العدل، وليخلصوا البلاد من الظالمين..!!

٨ ـ أنهم لا عهد لهم.. فلا أيسر عندهم من نقض العهود وإخلاف المواثيق.. ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] كانت هذه صفة أصيلة لازمة لهم، لم يتخلوا عنها في أي مرحلة من مراحل دولتهم منذ قيامها وإلى أن سقطت.

هذه هي السمات التي اتصف بها جيش التتار، وهي صفات تتكرر كثيراً في كل جيش لم يضع في حسبانه قوانين السماء وشريعة الله -عز وجل-.. فالذي يملك القوة ويفتقر إلى الدين لابد أن تكون هذه صورته.. قد يتفاوتون في الجرائم والفظائع.. لكنهم في النهاية مجرمون.

كانت حروب المرتدين قريباً من هذا.. كذلك حروب الفرس.. وكذلك كانت حروب الرومان.. وكذلك كانت حروب الصليبيين في الشام ومصر.. وكذلك كانت حروب الصليبيين في الأندلس.. ثم سار على طريقتهم بعد ذلك

أتباعهم من المستعمرين الإسبان والبرتغال والإنجليز والفرنسيين والطليان واليهود.. ثم الأمريكان..!!

قد يختلف الشكل الخارجي.. وقد تختلف الوجوه والأجسام.. ولكن القلوب واحدة.. حقد وضغينة وشحناء وبغضاء على كل ما هو مسلم، أو كل ما هو حضاري.

وسبحان الله إذ يقول في حقهم جميعاً: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

إذن.. كملخص للقوى الموجودة على الساحة في أوائل القرن السابع الهجري نستطيع أن نقول: إنه كانت هناك ثلاث قوى رئيسية:

١- **قوة الأمة الإسلامية:** وهي قوة ذات تاريخ عظيم.. وأمجاد معروفة، لكنها تمر بفترة من فترات ضعفها.. وهذا الضعف- وإن كان شديداً- إلا أنه لم يسقط هيبة الأمة تماماً.. لأن أعداءها كانوا يعلمون أن أسباب النصر وعوامل القوة مزروعة في داخل الأمة، وإنما تحتاج فقط إلى من يستخرجها وينميها.

٢- **قوة الصليبيين:** وهم وإن كانوا أيضاً في حالة ضعف، وفي حالة تخلف علمي وحضاري شديد بالمقارنة بالأمة الإسلامية.. إلا أنهم قوة لا يستهان بها.. لكثرة أعدادهم، وشدة حقدهم، وإصرارهم على استكمال المعركة مع المسلمين إلى النهاية.

وصدق الله العظيم إذ يصفهم بقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]

وكانت قوة الإسلام وقوة الصليبيين تمثلان معًا قوة العالم القديم في ذلك الوقت.

٣- **قوة التتار:** وهي قوة همجية بشعة.. وهي قوة بلا تاريخ.. وبلا حضارة.. ظهرت فجأة.. وليس عندها مخزون ثقافي أو حضاري أو ديني يسمح لها بالتفوق على غيرها.. فكان لابد لها من الاعتماد على القوة الهمجية والحرب

البربرية لفرض سطوتها على من حولها.

وكانت قوة التتار تمثل العالم الجديد في ذلك الوقت.

ومن سنة الله -عز وجل- أن يحدث الصراع بين القوى المختلفة.. والتدافع بين الفرق المتعددة.. ومن سنة الله -عز وجل- كذلك أن الأقوياء المفتقرين إلى الدين لا يقبلون بوجود الضعفاء إلى جوارهم.. ومن سنة الله -عز وجل- كذلك أن الباطل -مهما تعددت صوره- لابد أن يجتمع لحرب الحق.. ومن سنة الله -عز وجل- كذلك أن الحرب بين الحق والباطل لابد أن تستمر إلى يوم القيامة.

إذا وضعنا كل هذه السنن في أذهاننا، فإننا يجب أن نتوقع تعاوناً بين التتار والصليبيين - على اختلاف توجهاتهم وسياستهم ونظرياتهم- لحرب المسلمين.

وهذا -سبحان الله- ما حدث بالضبط!.

أرسل الصليبيون وفداً رفيع المستوى من أوروبا إلى منغوليا (مسافة تزيد على اثني عشر ألف كيلو متر ذهاباً فقط!!) يحفزونهم على غزو بلاد المسلمين، وعلى إسقاط الخلافة العباسية، وعلى اقتحام «بغداد» درة العالم الإسلامي في ذلك الوقت.. وعظموا لهم جداً من شأن الخلافة الإسلامية، وذكروا لهم أنهم - أي الصليبيين - سيكونون عوناً لهم في بلاد المسلمين، وعيناً لهم هناك.. وبذلك تم إغراء التتار إغراءً كاملاً.

وقد حدث ما توقعه الصليبيون.. سال لعاب التتار لأملاك الخلافة العباسية، وقرروا فعلاً غزو هذه البلاد الواسعة الغنية بثرواتها المليئة بالخيرات.. هذا مع عدم توافق التتار مع الصليبيين في أمور كثيرة.. بل ستدور بينهم بعد ذلك حروب في أماكن متفرقة من العالم، ولكنهم إذا واجهوا أمة الإسلام، فإنهم يوحّدون صفوفهم لحرب الإسلام والمسلمين.. وهذا الكلام ليس غريبًا، بل هو من الطرق الثابتة لأهل الباطل في حربهم مع المسلمين.

تعاون قبل ذلك اليهود مع المشركين لحرب الرسول ﷺ مع الاختلاف الكبير في عقائد اليهود عن عقائد المشركين.

بل تعاون الفرس مع الروم في حرب المسلمين مع شدة الكراهية بين الدولتين الكبيرتين فارس والروم.. ومع الثارات القديمة، والخلافات المستمرة والحروب الطويلة.

وتعاون الإنجليز مع اليهود لإسقاط الخلافة العثمانية، ولاحتلال فلسطين، وزرْع إسرائيل في داخل هذه الأرض المباركة.. مع شدة العداء بين اليهود والنصارى.

ويتعاون الروس مع الأمريكان الآن في القضاء على ما يسمونه «الإرهاب الإسلامي».. فتسهل روسيا لأمريكا حروبها في أفغانستان والعراق وفلسطين.. على أن تسهل أمريكا لروسيا حربها في الشيشان.. والضحية في الحالين من المسلمين.

إذن.. اتحاد أهل الباطل في حربهم ضد المسلمين أمر متكرر.. وسنّة ماضية.

ولذلك.. لا يستقيم أن يتعامل المسلمون بالمبدأ القائل: «عدو عدوي صديقي»، بل لابد أن يعرف المسلمون أعداءهم، ولابد أن يعرفوا أيضاً أن عدو عدوهم قد يكون أيضاً عدوهم.. نعم قد تتم التحالفات بين المسلمين وبين بعض الأعداء لأجل معين ولهدف خاص.. ولكن ذلك يكون بلا تفريط في الدين، ولا تساهل في الحقوق، ويكون بحذر كاف، وإلى أجل معلوم.. لكن لا يصل الأمر أبداً إلى الولاء والصداقة ونسيان الحقائق التي ذكرها الله -عز وجل- واضحة في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والمهم في كل ذلك أن التتار بدءوا يفكرون جدياً في غزو بلاد المسلمين.. وبدءوا يخططون لإسقاط الخلافة العباسية، ودخول بغداد.. عاصمة الخلافة الإسلامية.

* * *

الاجتياح التتري الأول

فكر «جنكيزخان» في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان؛ لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية في منطقة متوسطة بين العراق والصين.. كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية.. وكانت من حواضر الإسلام المشهورة، وكنوزها كثيرة.. وأموالها وفيرة.. هذا بالإضافة إلى أنه لا يستطيع -تكتيكيًا- أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة قد تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد.

كل هذه العوامل جعلت «جنكيزخان» يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية.. وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران.. وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة «أورجندة» (في تركمنستان حاليًا).

وكان جنكيزخان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم (محمد بن خوارزم شاه) على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيزخان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمّن ظهره إلى أن يستتب له الأمر في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية!.

ولا مانع -طبعاً- من نقض العهد، وتمزيق الاتفاقيات السابقة.. وهي سنة في أهل الباطل: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]

ولكن.. حتى تكون الحرب مقنعة لكلا الطرفين، لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث «جنكيزخان» عن سبب مناسب، ولكنه لم يجد..

ولكن - سبحان الله - لقد حدث أمر مفاجئ بغير إعداد من جنكيزخان..!! وهذا الأمر المفاجئ يصلح أن يكون سبباً مقنعاً للحرب.. نعم، لقد جاء هذا السبب مبكراً بالنسبة لإعداد جنكيزخان ولرغبته، ولكن لا مانع من استغلاله.. ولا مانع أيضاً من تقديم بعض الخطوات في خطة الحرب، وتأخير بعض الخطوات الأخرى.

ما هي الذريعة التي دخل بها «جنكيزخان» أرض خوارزم شاه؟!

لقد ذهبت مجموعة من تجار المغول إلى مدينة «أوترار» الإسلامية في مملكة خوارزم شاه.. ولما رآهم حاكم المدينة المسلم، أمسك بهم وقتلهم!.

أما عن سبب قتلهم.. فقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الحادثة:

فمنهم من يقول: إن هؤلاء ما كانوا إلا جواسيس أرسلهم جنكيزخان للتجسس على الدولة الإسلامية أو لاستفزازها، ولذلك قتلهم حاكم مدينة أوترار.

ومنهم من يقول: إن هذا كان عمداً كنوع من الرد على عمليات للسلب والنهب قام بها التتار في بلاد ما وراء النهر، وهي بلاد خوارزمية مسلمة.

ومنهم من يقول: إن هذا كان فعلاً متعمداً بقصد استثارة التتار للحرب،

ليدخل خوارزم شاه بعد ذلك منطقة تركستان، والتي هي في ملك التتار آنذاك.. وإن كان هذا الرأي مستبعداً؛ لأن «محمد بن خوارزم شاه» لم تكن له أطماع تذكر في أرض التتار.. وكل ما كان يريده هو العهد على بقاء كل فريق في مملكته دون تعدٍّ على الآخر.. وليس من المعقول أن يستثير التتار وهو يعلم أعدادهم وجيشهم، وليس من المعقول أيضاً أنه لم يكن يدري عن قوتهم شيئاً وهم الملاصقون له تماماً، وقد ذاع صيت زعيمهم «جنكيزخان» في كل مكان.

ومن المؤرخين أيضًا من يقول: إنما أرسل جنكيزخان بعضاً من رجاله إلى أرض المسلمين ليقتلوا تجار التتار هناك حتى يكون ذلك سبباً في غزو البلاد المسلمة، وإن كان هذا الرأي لا يقوم عليه دليل.

ومنهم من قال: إن خوارزم شاه طمع في أموال التجار فقتلهم لأجلها.

كل هذه احتمالات واردة، لكن المهم في النهاية أن التجار (أو الجواسيس) قد قُتلوا.. ووصل النبأ إلى جنكيزخان، فأرسل رسالة إلى «محمد بن خوارزم شاه» يطلب منه تسليم القتلة إليه حتى يحاكمهم بنفسه، ولكن «محمد بن خوارزم شاه» اعتبر ذلك تعدياً على سيادة البلاد المسلمة؛ فهو لا يسلم مجرماً مسلماً ليحاكم في بلدة أخرى بشريعة أخرى.. غير أنه قال: إنه سيحاكمهم في بلاده.. فإن ثبت بعد التحقيق أنهم مخطئون عاقبهم في بلاده بالقانون السائد فيها وهو الشريعة الإسلامية.

وهذا الكلام وإن كان منطقياً ومقبولاً في كل بقاع الأرض إلا أنه بالطبع لم يكن مقنعاً لجنكيزخان.. أو قل: إن جنكيزخان لم يكن يرغب في الاقتناع؛ فليس المجال مجال حجة أوبرهان أو دليل.. حقيقة الأمر أن جنكيزخان قد أعد لغزو بلاد المسلمين خططًا مسبقة.. ولن يعطلها شيء.. وإنما كان يبحث فقط عن علة مناسبة، أو شبه مناسبة، وقد وجد في هذا الأمر العلة التي كان يريدها.

وبدأ الإعصار التتري الرهيب على بلاد المسلمين..!!

بدأت الهجمة التترية الأولى على دولة خوارزم شاه (انظر الخريطة رقم ٤).

وجاء جنكيزخان بجيشه الكبير لغزو خوارزم شاه، وخرج له «محمد بن خوارزم شاه» بجيشه أيضاً.. والتقى الفريقان في موقعة شنيعة استمرت أربعة أيام متصلة، وذلك شرق نهر سيحون (وهو يعرف الآن بنهر «سرداريا»، ويقع في دولة كازاخستان المسلمة)، وقتل من الفريقين خلق كثير.. لقد استُشهد من المسلمين في هذه الموقعة عشرون ألفاً، ومات من التتار أضعاف ذلك.. ثم تحاجز الفريقان، وانسحب «محمد بن خوارزم شاه» بجيشه لأنه وجد أن أعداد التتار هائلة.. وذهب ليحصن مدنه الكبرى في مملكته الواسعة (وخاصة العاصمة: أورجندة).. كان هذا اللقاء الدامي في عام ٦١٦ هجرية.

انشغل «محمد بن خوارزم شاه» في تحضير الجيوش من أطراف دولته، ولكن لا ننسى أنه كان منفصلاً ـ بل معادياً ـ للخلافة العباسية في العراق، ولغيرها من الممالك الإسلامية؛ فلم يكن على وفاق مع الأتراك ولا مع السلاجقة ولا مع الغوريين في الهند.. وهكذا كانت مملكة خوارزم شاه منعزلة عن بقية العالم الإسلامي.. ووقفت وحيدة في مواجهة الغزو التتري المهول.

وهذه المملكة -وإن كانت قوية- وتمكنت من الثبات في أول اللقاءات، فإنها ـ ولا شك ـ لن تصمد بمفردها أمام الضربات التترية المتوالية.

وفي رأيي أنه مع قوة التتار وبأسهم وأعدادهم إلا أن سبب المأساة الإسلامية بعد ذلك لن يكون في الأساس بسبب هذه القوة، وإنما سيكون بسبب الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦]

فجعل الله -عز وجل- الفشل قريناً للتنازع.. والمسلمون كانوا في تنازع

مستمر، وخلاف دائم.. وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحروب مع التتار -كما سنرى- كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم...!! وقد عُلم يقيناً أن من كانت هذه صفتهم، فلا يكتب لهم النصر أبدًا.

روى الإمام مسلم رحمه الله عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «...وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسَنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال: من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا».

فالمسلمون كانوا - في تلك الآونة - يهلك بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا... فلا عجب إن غلب عليهم جيش التتار أو غير التتار.

وبالإضافة إلى داء الفرقة فإن هناك خطأ واضحًا في إعداد «محمد بن خوارزم»، وهو أنه مع اهتمامه بتحصين العاصمة «أورجندة» إلا أنه ترك كل المساحات الشرقية من دولته دون حماية كافية..! ولكن... لماذا يقع قائد محنك خبير بالحروب في مثل هذا الخطأ الساذج؟!

الواقع أن الخطأ لم يكن تكتيكياً في المقام الأول، ولكنه كان خطأ قلبياً أخلاقيًا في الأساس.. لقد اهتم «محمد بن خوارزم» بتأمين نفسه وأسرته ومقربيه، وتهاون جداً في تأمين شعبه، وحافظ جداً على كنوزه وكنوز آبائه، ولكنه أهمل الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه.. وعادة ما يسقط أمثال هؤلاء القواد أمام الأزمات التي تعصف بأممهم.. وعادة ما تسقط أيضًا الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المقلوبة دون إصلاح.. ولننظر ماذا تحمل الأيام لمحمد بن خوارزم وشعبه..!!

ماذا فعل جنكيزخان بعد هذه المعركة الأولى؟

تعالوا نتتبع خطواته في البلاد المسلمة!!

اجتياح بخارى:

لقد جهز جنكيزخان جيشه من جديد، وأسرع إلى اختراق كل إقليم كازاخستان الكبير، ووصل في تقدمه إلى مدينة بخارى المسلمة (في دولة أوزبكستان الآن)، وهي بلدة الإمام الجليل، والمحدث العظيم «البخارى» رحمه الله، وحاصر جنكيزخان البلدة المسلمة في سنة ٦١٦ هجرية، ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان، وكان «محمد بن خوارزم شاه» بعيدًا عن بخارى في ذلك الوقت.. فاحتار أهل بخارى: ماذا يفعلون؟.. ثم ظهر رأيان:

أما الرأي الأول فقال أصحابه: نقاتل التتار وندافع عن مدينتنا، وأما الرأي الثاني فقال أصحابه: نأخذ بالأمان ونفتح الأبواب للتتار لتجنب القتل، وما أدرك هؤلاء أن التتار ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠].

وهكذا انقسم أهل البلد إلى فريقين: فريق من المجاهدين قرر القتال، وهؤلاء اعتصموا بالقلعة الكبيرة في المدينة، وانضم إليهم فقهاء المدينة وعلماؤها.. وفريق آخر من المستسلمين، وهو الفريق الأعظم والأكبر، وهؤلاء قرروا فتح أبواب المدينة، والاعتماد على أمان التتار!.

وفتحت المدينة المسلمة أبوابها للتتار.. ودخل جنكيزخان إلى المدينة الكبيرة.. وأعطى أهلها الأمان فعلاً في أول دخوله خديعةً لهم، وذلك حتى يتمكن من السيطرة على المجاهدين بالقلعة.

وفعلاً.. بدأ جنكيزخان بحصار القلعة، بل أمر أهل المدينة من المسلمين أن يساعدوه في ردم الخنادق حول القلعة ليسهل اقتحامها، فأطاعوه وفعلوا

ذلك !!!وحاصر القلعة عشرة أيام.. ثم فتحها قسرًا.. ولما دخل إليها قاتل من فيها حتى قتلهم جميعًا..!! ولم يبق بمدينة بخارى مجاهدون.

وهنا بدأ جنكيزخان في خيانة عهده، فسأل أهل المدينة عن كنوزها وأموالها وذهبها وفضتها.. ثم اصطفى كل ذلك لنفسه.. ثم أحل المدينة المسلمة لجنده، ففعلوا بها ما لا يتخيله عقل!.. وأترُك ابن كثير ـ رحمه الله ـ يصور لكم هذا الموقف كما جاء في (البداية والنهاية) فيقول:

«فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله -عز وجل-، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهلهن..!! (ارتكبوا الزنا مع البنت في حضرة أبيها، ومع الزوجة في حضرة زوجها)، فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قُتل، ومنهم من أُسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم أشعلت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها..»!!!

انتهى كلام ابن كثير.. ولا حول لا قوة إلا بالله!.

حقًا... لا حول لا قوة إلا بالله!.

هلكت المدينة المسلمة..!!

هلك المجاهدون الصابرون فيها.. وكذلك هلك المستسلمون المتخاذلون..!!

روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**».

وكان الخبث قد كثر في هذه البلاد.. فمن الخبث ألا يرفع المسلمون

سيوفهم ليدافعوا عن دينهم وأرضهم وعرضهم.. ومن الخبث أن يصدق المسلمون عهود الكافرين لهم.. ومن الخبث أن يُسلم المسلمون من رفعوا راية الجهاد فيهم إلى عدوهم.. ومن الخبث أن يتفرق المسلمون ويتقاتلوا فيما بينهم، ومن الخبث ألا يحتكم المسلمون إلى كتاب ربهم، وإلى سنة نبيهم محمد ﷺ.

هذا كله من الخبث!.

وإذا كثر الخبث، لابد أن تحدث الهلكة!.. وصدق الرسول الحكيم ﷺ

وهكذا هلكت بخارى في سنة ٦١٦ هجرية..!!

ولكن.. هل كانت هذه آخر المآسي؟!.. هل كانت آخر الكوارث؟!.. لقد كانت هذه أولى صفحات القصة.. كانت بداية الطوفان وبداية الإعصار.. وستكون صفحات القصة القادمة أشد سوادًا وأكثر دماءً.. سيدخل المسلمون في سنة ٦١٧ هـ، وهي - بلا شك - من أبشع وأسوأ وأظلم السنوات التي مرت على المسلمين عبر تاريخهم الطويل.

ودخلت سنة ٦١٧ هجرية:

وإنا لله، وإنا إليه راجعون!.

كانت هذه السنة من أبشع السنوات التي مرت على المسلمين منذ بعثة الرسول ﷺ، وإلى هذه اللحظة.. لقد علا فيها نجم التتار.. واجتاحوا البلاد الإسلامية اجتياحًا لم يُسْبَق، وأحدثوا فيها من المجازر والفظائع والمنكرات ما لم يُسمع به، وما لا يُتخيل أصلاً.

وأرى أنه من المناسب أن نقدم لهذه الأحداث بكلام المؤرخ الإسلامي العلامة «ابن الأثير الجزري» رحمه الله في كتابه القيم (الكامل في التاريخ) وكلامه في غاية الأهمية.. ويعتبر به جداً في هذا المجال أكثر من كلام غيره؛ لأنه

كان معاصراً لكل هذه الأحداث، وليس من رأى كمن سمع.

اسمعوا ماذا يقول ابن الأثير -رحمه الله- وهو يقدم لشرحه لقصة التتار في بلاد المسلمين:

«لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدِّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها.. عمّت الخلائق، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله «بختنصر» ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟!! وما بنو إسرائيل إلى من قتلوا؟! فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال، فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول لا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح».

كانت هذه مقدمة كتبها ابن الأثير رحمه الله لكلام طويل يفيض ألمًا وحزنًا وهمًا وغمًا.

لقد كانت كارثة على العالم الإسلامي.. كارثة بكل المقاييس.. كارثة بمقاييس الماضي والحاضر.. وكارثة أيضًا بمقاييس المستقبل.. فإن هذه المصيبة فعلاً تتضاءل إلى جوارها كثير من مصائب المسلمين في كل العصور.

ماذا حدث في سنة ٦١٧هجرية؟

اجتياح «سمرقند..»:

فبعد أن دمر التتار مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها، وحرّقوا ديارها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى المدينة المجاورة «سمرقند» (وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية)، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسارى المسلمين من مدينة بخارى، وكما يقول ابن الأثير: «فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قُتل».

أما لماذا كانوا يصطحبون الأسارى معهم؟ فلأسباب كثيرة:

أولاً: كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علمًا من أعلام التتار يرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار، وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

ثانياً: كانوا يجبرون الأسارى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم.. ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه.

ثالثاً: كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف كالدروع لهم، ويختبئون خلفهم، ويطلقون من خلفهم السهام والرماح، وهم يحتمون بهم.

رابعاً: كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم،

وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

خامساً: كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال أسر رجال من التتار في القتال.. وهذا قليل لقلة الهزائم في جيش التتار.

كيف كان الوضع في «سمرقند»؟

كانت «سمرقند» من حواضر الإسلام العظيمة، ومن أغنى مدن المسلمين في ذلك الوقت، ولها قلاع حصينة، وأسوار عالية.. ولقيمتها الاستراتيجية والاقتصادية فقد ترك فيها «محمد بن خوارزم شاه» زعيم الدولة الخوارزمية خمسين ألف جندي خوارزمي لحمايتها.. هذا فوق أهلها، وكانوا أعدادًا ضخمة تقدّر بمئات الآلاف.. أما «محمد بن خوارزم شاه» نفسه فقد استقر في عاصمة بلاده مدينة «أورجندة».

وصل جنكيزخان إلى مدينة «سمرقند» وحاصرها من كل الاتجاهات.. وكان من المفروض أن يخرج له الجيش الخوارزمي النظامي، ولكن لشدة الأسف.. لقد دب الرعب في قلوبهم، وتعلقوا بالحياة تعلقاً مخزياً، فأبوا أن يخرجوا للدفاع عن المدينة المسلمة..!!

فاجتمع أهل البلد وتباحثوا في أمرهم بعد أن فشلوا في إقناع الجيش المتخاذل أن يخرج للدفاع عنهم.. وقرر البعض من الذين في قلوبهم حمية من عامة الناس أن يخرجوا لحرب التتار.. وبالفعل خرج سبعون ألفاً من شجعان البلد، ومن أهل الجَلد، ومن أهل العلم.. خرجوا جميعاً على أرجلهم دون خيول ولا دواب.. ولم يكن لهم من الدراية العسكرية حظ يمكنهم من القتال.. ولكنهم فعلوا ما كان يجب أن يفعله الجيش المتهاون الذي لم تستيقظ نخوته بعد.

وعندما رأى التتار أهل «سمرقند» يخرجون لهم قرروا القيام بخدعة خطيرة،

وهي الانسحاب المتدرج من حول أسوار المدينة، في محاولة لسحب المجاهدين المسلمين بعيداً عن مدينتهم.. وهكذا بدأ التتار يتراجعون بعيداً عن «سمرقند» وقد نصبوا الكمائن خلفهم.. ونجحت خطة التتار، وبدأ المسلمون المفتقدون لحكمة القتال يطمعون فيهم ويتقدمون خلفهم.. حتى إذا ابتعد رجال المسلمين عن المدينة بصورة كبيرة أحاط جيش التتار بالمسلمين تماماً.. وبدأت عملية تصفية بشعة لأفضل رجال «سمرقند».

كم من المسلمين قُتل في هذا اللقاء غير المتكافئ؟!

لقد قتلوا جميعاً..!!

لقد استشهدوا عن آخرهم..!!

فقد المسلمون في «سمرقند» سبعين ألفاً من رجالهم دفعة واحدة.. (أتذكرون كيف كانت مأساة المسلمين يوم فقدوا سبعين رجلاً فقط في موقعة أحد؟!). والحق أن هذه لم تكن مفاجأة، بل كان أمرًا متوقعًا؛ لقد دفع المسلمون ثمن عدم استعدادهم للقتال، وعدم اهتمامهم بالتربية العسكرية لأبنائهم، وعدم الاكتراث بالقوى الهائلة التي تحيط بدولتهم.

وعاد التتار من جديد لحصار «سمرقند».

وأخذ الجيش الخوارزمي النظامي قراراً مهيناً..!!

لقد قرروا أن يطلبوا الأمان من التتار على أن يفتحوا أبواب البلدة لهم.. وذلك مع أنهم يعلمون أن التتار لا يحترمون العهود، ولا يرتبطون باتفاقيات، وما أحداث بخارى منهم ببعيد، ولكن تمسكهم بالحياة إلى آخر درجة جعلهم يتعلقون بأهداب أمل مستحيل.. وقال لهم عامة الناس: إن تاريخ التتار معهم واضح.. ولكنهم أصروا على التسليم.. فهم لا يتخيلون مواجهة مع التتار،

وبالطبع وافق التتار على إعطاء الأمان الوهمي للمدينة، وفتح الجيش أبواب المدينة بالفعل، ولم يقدر عليهم عامة الناس، فقد كان الجيش الخوارزمي كالأسد على شعبه، وكالنعامة أمام جيوش الأعداء..!!

وفتح الجنود الأبواب للتتار وخرجوا لهم مستسلمين، فقال لهم التتار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم، ونحن نسيّركم إلى مأمنكم.. ففعلوا ذلك في خنوع، ولما أخذ التتار أسلحتهم ودوابهم فعلوا ما كان متوقعاً منهم.. لقد وضعوا السيف في الجنود الخوارزمية فقتلوهم عن آخرهم..!! ودفع الجند جزاء ذلتهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم دخل التتار مدينة «سمرقند» العريقة، ففعلوا بها مثلما فعلوا سابقاً في «بخارى».. فقتلوا أعداداً لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال، ونهبوا كل ثروات البلد، وانتهكوا حرمات النساء، وعذبوا الناس بأنواع العذاب البشعة بحثاً عن أموالهم، وسبوا أعداداً هائلة من النساء والأطفال، ومن لم يصلح للسبي لكبر سنه، أو لضعف جسده قتلوه، وأحرقوا الجامع الكبير، وتركوا المدينة خراباً..!!

وليت شعري..!! كيف سمع المسلمون في أطراف الأرض آنذاك بهذه المجازر ولم يتحركوا؟!

كيف وصل إليهم انتهاك كل حرمة للمسلمين، ولم يتجمعوا لقتال التتار؟!

كيف علموا بضياع الدين، وضياع النفس، وضياع العرض، وضياع المال، ثم ما زالوا متفرقين؟!.. لقد كان كل حاكم من حكام المسلمين يحكم قطراً صغيراً، ويرفع عليه علماً، ويعتقد أنه في أمان ما دامت الحروب لا تدور في قطره المحدود..!! لقد كانوا يخدعون أنفسهم بالأمان الوهمي حتى لو كانت الحرب على بعد أميال منهم..! ولا تندهش مما تقرأ الآن.. وخبرني بالله عليك:

كم جيشًا مسلمًا تحرك لنجدة المسلمين في الفلوجة أو في فلسطين؟؟!

لم يفكر حاكم من حكام المسلمين آنذاك أن الدائرة حتماً ستدور عليه.. وأن ما حدث في بخارى وسمرقند ما هو إلا مقدمة لأحداث دامية أليمة سيعاني منها كل المسلمين، ولن ينجو منها قريب ولا بعيد.. ولا حول لا قوة إلا بالله.

نهاية ذليلة!!

واستقر جنكيزخان - لعنه الله - بسمرقند؛ فقد أعجبته المدينة العملاقة التي لم ير مثلها قبل ذلك، وأول ما فكر فيه هو قتل رأس هذه الدولة ليسهل عليه بعد ذلك احتلالها دون خوف من تجميع الجيوش ضده؛ فأرسل عشرين ألفاً من فرسانه يطلبون «محمد بن خوارزم شاه» زعيم البلاد.. وإرسال عشرين ألف جندي فقط فيه إشارة كبيرة إلى استهزاء جنكيزخان بمحمد بن خوارزم وبأمته؛ فهذا الرقم الهزيل لا يقارن بالملايين المسلمة التي سيتحرك هذا الجيش التتري في أعماقها.. ولنشاهد ماذا فعلت هذه الكتيبة التترية الصغيرة.. قال لهم جنكيزخان: «اطلبوا خوارزم شاه أين كان، ولو تعلق بالسماء..!!»

فانطلق الفرسان التتار إلى مدينة «أورجندة» حيث يستقر «محمد بن خوارزم شاه»، وهي مدينة تقع على الشاطئ الغربي من نهر جيحون (نهر أموداريا)، وجاء الجنود التتار من الجانب الشرقي للنهر، وهكذا فصل النهر بين الفريقين، وتماسك المسلمون، ولكن هذا التماسك لم يكن إلا لعلمهم أن النهر يفصل بينهم وبين التتار، وليس مع التتار سفن..!!

فماذا فعل التتار؟! لقد أخذوا في إعداد أحواض خشبية كبيرة ثم ألبسوها جلود البقر حتى لا يدخل فيها الماء، ثم وضعوا في هذه الأحواض سلاحهم وعتادهم ومتعلقاتهم، ثم أنزلوا الخيول في الماء، والخيول تجيد السباحة، ثم أمسكوا بأذناب الخيول، وأخذت الخيول تسبح والجنود خلفها.. يسحبون

خلفهم الأحواض الخشبية بما فيها من سلاح وغيره.

وبهذه الطريقة عبر جيش التتار نهر جيحون، ولا أدري أين كانت عيون الجيش الخوارزمي المصاحب لمحمد بن خوارزم شاه!.. وفوجئ المسلمون بجيش التتار إلى جوارهم، ومع أن أعداد المسلمين كانت كبيرة إلا أنهم كانوا قد مُلئوا من التتار رعباً وخوفاً، وما كانوا يتماسكون إلا لاعتقادهم أن النهر الكبير يفصل بينهم وبين وحوش التتار.. أما الآن وقد أصبح التتار على مقربة منهم فلم يصبح أمامهم إلا طريق واحد.. أتراه طريق القتال؟!

لا.. بل طريق الفرار..!!

وكما يقول ابن الأثير -رحمه الله-: «ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته» واتجه إلى نيسابور (في إيران حالياً)، أما الجند فقد تفرق كل منهم في جهة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وأما التتار فكانت لهم مهمة محددة وهي البحث عن «محمد بن خوارزم شاه»، ولذلك فقد تركوا أورجندة، وانطلقوا في اتجاه نيسابور مخترقين الأراضي الإسلامية في عمقها.. وهم لا يزيدون على عشرين ألفاً!! وجنكيزخان ما زال مستقراً في «سمرقند»، وكان من الممكن أن تُحاصَر هذه المقدمة التترية في أي بقعة من بقاع البلاد الإسلامية التي يتجولون فيها.. لكن الرعب كان قد استولى على قلوب المسلمين؛ فكانوا يفرون منهم في كل مكان، وقد أخذوا طريق الفرار اقتداءً بزعيمهم الذي ظل يفر من بلد إلى آخر كما نرى.

ولم يكن التتار في هذه المطاردة الشرسة يتعرضون لسكان البلاد بالسلب أو النهب أو القتل؛ لأن لهم هدفاً واضحاً، فهم لا يريدون أن يضيعوا وقتاً في القتل وجمع الغنائم، إنما يريدون فقط اللحاق بالزعيم المسلم، ومن جانب آخر فإن الناس لم يتعرضوا لهم لئلا يثيروا حفيظتهم؛ فيصيبهم من أذاهم!..

وهكذا وصل التتار إلى مسافة قريبة من مدينة نيسابور العظيمة في فترة وجيزة، ولم يتمكن «محمد بن خوارزم شاه» من جمع الأنصار والجنود، فالوقت ضيق، والتتار في أثره، فلما علم بقربهم من نيسابور، ترك المدينة واتجه إلى مدينة «مازندران» (من مدن إيران)، فلما علم التتار بذلك لم يدخلوا نيسابور بل اتجهوا خلفه مباشرة، فترك مازندران إلى مدينة «الري»، ثم إلى مدينة «همدان» (وهما من المدن الإيرانية أيضًا)، والتتار في أثره، ثم عاد إلى مدينة «مازندران» في فرار مخزٍ فاضح.. ثم اتجه إلى إقليم «طبرستان» (الإيراني) على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين) حيث وجد سفينة فركبها وسارت به إلى عمق البحر، وجاء التتار ووقفوا على ساحل البحر، ولم يجدوا ما يركبونه خلفه.

لقد نجحت خطة الزعيم الخوارزمي المسلم..!! نجحت خطة الفرار!!

وصل الزعيم محمد بن خوارزم في فراره إلى جزيرة في وسط بحر قزوين (انظر الخريطة رقم ٥)، وهناك رضي بالبقاء فيها في قلعة كانت هناك، في فقر شديد وحياة صعبة.. وهو الملك الذي ملك بلاداً شاسعة، وأموالاً لا تُعدّ.. ولكن رضي بذلك لكي يفر من الموت!.

وسبحان الله.. فإن الموت لا يفر منه أحد.. فما هي إلا أيام، حتى مات «محمد بن خوارزم شاه» في هذه الجزيرة في داخل القلعة وحيداً طريداً شريداً فقيرًا؛ حتى إنهم لم يجدوا ما يكفنونه به، فكفنوه في فراش كان ينام عليه..!!

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]

أيهما أشرف يا إخواني؟.. أن يموت الزعيم المسلم ذليلاً في هذه الجزيرة في عمق البحر أم يموت رافع الرأس، ثابت الجأش، مطمئن القلب في ميدان الجهاد؟!.

أيهما أشرف.. أن يموت مقبلاً أم أن يموت مدبرًا؟!.

أيهما أشرف.. أن يموت هاربًا أم أن يموت شهيدًا؟!.

إن الإنسان لا يختار ميعاد موته، ولكنه يستطيع أن يختار طريقة موته.. الشجاعة لا تقصر الأعمار.. كما أن الفرار والهرب والجبن لا تطيلها أبداً.. والذي يعيش مجاهداً في سبيل الله يموت مجاهداً في سبيل الله، وإن مات على فراشه.

روى الإمام مسلم عن سهل بن حنيف ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**».

ونعود إلى ابن الأثير -رحمه الله- وهو يحكي لنا عن سيرة «محمد بن خوارزم شاه» الذاتية، لنجد فيها أموراً عجيبة.. فعندما تقرأ صفته تجد أنك أمام عظيم من عظماء المسلمين، فإذا راجعت حياة الرجل الأخيرة وخاتمته وفراره وهزيمته تبدى لك غير ذلك.. فما السر في حياة هذا الرجل؟!

يقول ابن الأثير -رحمه الله- في ذكر سيرته: «وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً تقريباً، واتسع ملكه وعظم محله، وأطاعه العالم بأسره، وملك من حد العراق إلى تركستان، وملك بلاد غزنة (في أفغانستان) وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان (باكستان) وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس (وكلها مناطق في إيران)..»

إذن من هذه الفقرة يتضح أنه كان عظيماً في مُلكه.. استقر له الوضع في بلاد واسعة لفترة طويلة.. ومن هنا يظهر حسن إدارته لبلاده، حتى إن ابن الأثير يقول في فقرة أخرى: «وكان صبوراً على التعب وإدمان السَير، غير متنعم ولا مقبل على اللذات، إنما همه في الملك وتدبيره، وحفظه وحفظ رعاياه».

وعندما تحدث عن حياته الشخصية العلمية قال: «وكان فاضلاً عالماً، وكان

مُكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم، يكثر مجالستهم ومناظرتهم بين يديه، وكان معظماً لأهل الدين، مقبلاً عليهم، متبركاً بهم».

هذا الوصف لمحمد بن خوارزم شاه يمثل لغزاً كبيراً للقارئ.. فكيف يكون على هذه الصفة النبيلة، ثم تحدث له هذه الهزائم المنكرة؟! وكيف لا يجد جيشاً من كل أطراف مملكته الواسعة يصبر على حرب التتار.. حتى ينتهي هذه النهاية المؤسفة؟!.

وكنت في حيرة من أمري وأنا أحلل موقفه.. لولا أني وجدت نصاً في مكان آخر عند ابن الأثير أيضاً يفسر كثيراً من الألغاز في حياة هذا الرجل.. وفي تفسير هذه الحقبة من حياة الأمة الإسلامية.

يقول ابن الأثير -رحمه الله-: «وكان «محمد بن خوارزم شاه» قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها».

في هذا النص تفسير واضح جلي لمدى المأساة التي كان يعيشها المسلمون في ذلك الوقت.. لقد كان «محمد بن خوارزم شاه» جيداً في ذاته وفي إدارته، لكنه قطع كل العلاقات بينه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية.. لم يتعاون معها أبداً، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخرى.. وكان يقتل ملوك هذه الأقطار ويضمها إلى مملكته، ولا شك أن هذا خلف أحقاداً كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا ليس من الحكمة في شيء.. انظروا إلى رسول الله ﷺ عندما كان يفتح البلاد، كان يولي زعماء هذه البلاد عليها ويحفظ لهم مكانتهم، ويبقي لهم ملكهم، فيضمن بذلك ولاءهم وحب الناس له.. فأبقى على حكم البحرين ملكها المنذر بن ساوى، وأبقى على حكم عمان ملكَيْها: جيفر وعباد.. بل وأبقى على اليمن واليها باذان بن ساسان الفارسي عندما أسلم، وهكذا..

هذه سياسة وحكمة في آنٍ معًا.. هذا مزج جميل بين الحزم وبين الحب.. هذا

أسلوب راقٍ في الإدارة.

أما هنا في قصتنا.. فقد افتقد الزعيم محمد بن خوارزم هذا الجمع الحكيم بين الحب والحزم.. وأصبح حاكماً بقوّته لا بحب الناس له، فلما احتاج إلى الناس لم يجدهم، ولما احتاج إلى الأعوان افتقر إليهم.. فلم تكن الصراعات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية وخارجية، ومكائد كثيرة، ومؤامرات عديدة.. فلم تتوحد القلوب في هذه البلاد، ومن ثم لم تتوحد الصفوف ولم يحدث النصر.. وما كان للنصر أن يتحقق والأمة على هذا النحو.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]

كان هذا هو سر اللغز في حياة قائد عالم فقيه اتسع ملكه وكثرت جيوشه.. ثم مات طريداً شريداً وحيداً في جزيرة نائية في عمق البحر.

وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ يقول فيما رواه النسائي وأحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «عليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب القاصية» أي يأكل الغنم القاصية.

ماذا فعل التتار بعد أن هرب منهم «محمد بن خوارزم شاه»؟ ماذا فعلت الفرقة التي تبلغ عشرين ألف فارس فقط.. وقد توغلت في أعماق الدولة الإسلامية؟

اجتياح فارس:

كانت المسافة بين الفرقة التترية الصغيرة وبين القوة الرئيسية لجنكيزخان في «سمرقند» تزيد على ستمائة وخمسين كيلومترًا.. هذا في الطرق السوية والمستقيمة، فإذا أخذت في الاعتبار الطبيعة الجبلية لهذه المنطقة، وإذا أخذت في الاعتبار أيضاً الأنهار التي تفصل بين «سمرقند» ومنطقة بحر قزوين، والتي كانت تعتبر من العوائق الطبيعية الصعبة، بالإضافة إلى أن التتار ليسوا من سكان هذه المناطق ولا يعرفون مسالكها ودروبها وطرقها الفرعية، كل ذلك إلى جانب

العداء الشديد الذي يكنه أهل هذه المناطق المنكوبة للتتار.. إذا أخذت كل ما سبق في الاعتبار فإنك تعلم أن جيش التتار أصبح مقطوعاً عن مدده في «سمرقند» بصورة كبيرة.. وأصبح في موقف حرج لا يحسد عليه بالمرة.. وهو ليس بالكبير العدد.. إنما هو عشرون ألفاً فقط.. فإذا أضفت إلى كل الاعتبارات السابقة الكثافة السكانية الإسلامية الهائلة في تلك المناطق أدركت أن فرقة التتار ستهلك لا محالة؛ فلو خرج عليها أهل البلاد - وقد تجاوزوا الملايين بلا مبالغة - فإن التتار لا يقدرون عليهم بأي حال من الأحوال.

كان هذا هو تحليل الورقة والقلم.

فماذا حدث على أرض الواقع؟!

لقد شاهدنا أمراً عجيباً مخزياً مشيناً..!!

لقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين.. وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً لا يُفهم.. ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرقة التترية الصغيرة.

روى أبو داود عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل.. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يارسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**».

لقد سيطر حب الدنيا على القلوب، وكره المسلمون الموت في سبيل الله؛ فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل.. إذا توجه السيل شرقاً شرَّقوا معه، وإذا توجه السيل غرباً غرَّبوا معه، لا رأي ولا هدف ولا طموح، ونزع الله -عز وجل- مهابة المسلمين من قلوب التتار؛ فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة، وألقى في قلوب

المسلمين الوهن والضعف والخور حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترياً واحداً..!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ماذا فعلت الفرقة التترية الخاصة؟

لقد عادوا من شاطئ بحر (قزوين) إلى بلاد «مازندران» (في إيران) فملكوها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها، وكانت من أشد بلاد المسلمين قوة.. حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصي خراسان أيام عمر بن الخطاب ﷺ لم يستطيعوا أن يدخلوا مازندران، ولم تُدخل إلا في زمان سليمان بن عبد الملك -رحمه الله - الخليفة الأموي المعروف.. ولكن التتار دخلوها بسرعة عجيبة، لا لقوتهم، ولكن لضعف نفسيات أهلها في ذلك الوقت، ولما دخلوها فعلوا بها ما فعلوه في غيرها، فقتلوا وعذبوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد.

ثم اتجهوا من مازندران إلى الري (مدينة إيرانية كبيرة)، وسبحان الله !! وكأن الله -عز وجل- قد أراد أن يتم الذلة لمحمد بن خوارزم شاه حتى بعد وفاته؛ فإن التتار وهم في طريقهم من مازندران إلى الري وجدوا في طريقهم والدته ونساءه ومعهم الأموال الغزيرة والذخائر النفيسة التي لم يسمع بمثلها، فأخذوا كل ذلك سبياً وغنيمة، وأرسلوه من فورهم إلى جنكيزخان المتمركز في «سمرقند» آنذاك.

ثم وصل التتار إلى الري فملكوها ونهبوها، وسبوا الحريم، واسترَقوا الأطفال، وفعلوا الأفعال التي لم يُسمع بمثلها، ثم فعلوا مثل ذلك في المدن والقرى المحيطة حتى دخلوا مدينة قزوين (من المدن الإيرانية أيضًا) واقتتلوا مع أهلها في داخل البلد، وقتلوا من أهل قزوين المسلمين ما يزيد على أربعين ألفًا..!! ولا حول ولا قوة إلا بالله..!!

اجتياح أذربيجان:

اتجه التتار إلى غرب بحر قزوين حيث إقليم أذربيجان المسلم.

مر التتار في طريقهم على مدينة تبريز (كانت مدينة أذربيجانية في ذلك الوقت بينما هي الآن من مدن شمال إيران)، فقرر زعيم أذربيجان «أوزبك بن البهلوان» - وكان يستقر في مدينة تبريز - أن يصالح التتار على الأموال والثياب والدواب، ولم يفكر مطلقاً في حربهم؛ لأنه كان لا يفيق من شرب الخمر ليلاً أو نهاراً!! ورضي التتار منه بذلك، ولم يدخلوا تبريز لأن الشتاء القارس كان قد حل، وتبريز في منطقة باردة جداً، فاتجه التتار إلى الساحل الغربي لبحر قزوين، وبدءوا في اجتياح الناحية الشرقية لأذربيجان متجهين ناحية الشمال.

اجتياح أرمينيا وجورجيا:

هذان الإقليمان يقعان في غرب وشمال أذربيجان، وقد اتجهوا إليهما قبل الانتهاء من مدن أذربيجان؛ لأنهم سمعوا بتجمع قبائل «الكرج» لهم، وقبائل الكرج هي قبائل وثنية ونصرانية تقطن في منطقة جورجيا الروسية، وكان بينهم وبين المسلمين قتال دائم، وقد علموا أن الخطر يقترب منهم فتجمعوا في مدينة تفليس (في جورجيا الآن)، وحدث هناك قتال طويل بينهم وبين التتار انتهى بانتصار التتار وامتلاك أرمينيا وجورجيا، وقُتل من الكرج ما لا يحصى في هذه الموقعة.

ماذا فعل جنكيزخان في سنة ٦١٧ هجرية بعد مطاردة «محمد بن خوارزم شاه»؟

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى هروب «محمد بن خوارزم شاه» زعيم البلاد في اتجاه الغرب، وانتقاله من مدينة إلى أخرى هرباً من الفرقة التترية المطاردة له، بدأ جنكيزخان يبسط سيطرته على المناطق المحيطة بسمرقند، وعلى الأقاليم

الإسلامية الضخمة الواقعة في جنوب «سمرقند» وشمالها.

وجد جنكيزخان أن أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق: إقليم خوارزم وإقليم خراسان.

أما إقليم خراسان فإقليم شاسع به مدن عظيمة كثيرة مثل بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وغيرها (وهو الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان).

وأما إقليم خوارزم فهو الإقليم الذي كان نواة للدولة الخوارزمية، واشتهر بالقلاع الحصينة والثروة العددية والمهارة القتالية، وهو يقع إلى الشمال الغربي من «سمرقند»، ويمر به نهر جيحون (وهو الآن في دولتي أوزبكستان وتركمنستان).. ولكن جنكيزخان أراد القيام بحرب معنوية تؤثر في نفسيات المسلمين قبل اجتياح هذه الأقاليم العملاقة، فقرر البدء بعمليات إبادة وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين في الإقليمين الكبيرين خوارزم وخراسان، فأخرج جنكيزخان من جيشه ثلاث فرق:

فرقة لتدمير إقليم «فرغانة» (في أوزبكستان الآن) وهو على بعد حوالي خمسمائة كيلومتر إلى الشرق من «سمرقند».

وفرقة لتدمير مدينة «ترمذ» (في تركمنستان الآن) وهي مدينة الإمام «الترمذي» صاحب السنن رحمه الله، على بعد حوالي مائة كيلومتر جنوب «سمرقند».

وفرقة لتدمير قلعة «كلابة» وهي من أحصن قلاع المسلمين على نهر جيحون.

وقد قامت الفرق الثلاث بدورها التدميري، كما أراد جنكيزخان، فاستولت على كل هذه المناطق، وأعملت فيها القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب والحرق، مثلما اعتاد التتار أن يفعلوا في الأماكن الأخرى، ووصلت الرسالة

التترية إلى كل الشعوب المحيطة: إن التتار لا يرتوون إلا بالدماء، ولا يسعدون إلا بالخراب والتدمير، وأنهم لا يُهزمون، فعمت الرهبة منهم أرجاء المعمورة، ولا حول لا قوة إلا بالله.

ولما عادت هذه الجيوش من مهمتها القبيحة بدأ جنكيزخان يعد للمهمة الأقبح.. بدأ يعد لاجتياح إقليمي خراسان وخوارزم.

اجتياح خراسان:

١- مدينة بلخ وما حولها (شمال أفغانستان الآن):

هذه المدينة تقع جنوب مدينة ترمذ التي دمرها التتار منذ أيام قلائل، ولا شك أن أخبار مدينة ترمذ قد وصلت إليهم.. وكان في قلوب أهل هذه البلدة رعب شديد من التتار، فلما وصلت جيوش التتار إليهم طلبوا منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يعطوهم الأمان، ولم يتعرضوا لهم بالسلب أو النهب، وقد تعجبتُ من فعل التتار مع أهل بلخ !وتعجبتُ لماذا لم يقتلوهم كما هي عادتهم؟! ولكن زال العجب عندما مرت الأيام ووجدت أن جنكيزخان قد عاد إلى بلخ وأمر أهلها أن يأتوا معه ليعاونوه في فتح مدينة مسلمة أخرى هي «مرو» كما سيأتي، والغريب أن أهلها جاءوا معه بالفعل لمحاربة أهل مرو..!! والجميع من المسلمين.. ولكن الهزيمة النفسية الرهيبة التي كان يعاني منها أهل بلخ نتيجة الأعمال البشعة التي تمت في مدينة ترمذ المجاورة لهم جعلتهم ينصاعون لأوامر جنكيزخان، حتى وإن كانوا سيقتلون إخوانهم..!! وبذلك يكون جنكيزخان قد وفّر قواته لمعارك أخرى، وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

وإن كنا نذكر ذلك على سبيل العجب الآن، فقد رأيناه في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي، وما زلنا نراه، فقد استخدم الأمريكان أهل الشمال في أفغانستان (نفس منطقة بلخ) لحرب المسلمين في كابل سنة ٢٠٠٢ ميلادية،

واستخدم الأمريكان أيضاً أكراد الشمال العراقي في حرب بقية العراق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- اجتياح الطالقان:

اتجهت فرقة من التتار من «سمرقند» إلى منطقة الطالقان (شمال شرق أفغانستان بالقرب من طاجكستان) وقد صعب عليهم فتحها لمناعة حصونها، فأرسلوا إلى جنكيزخان فجاء إليها وحاصرها شهوراً حتى تم فتحها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، ونهبوا أموالها ومتاعها كما كانت عادتهم.

٣- مأساة مرو:

ومرو مدينة كبيرة جداً في ذلك الوقت، وتقع الآن في دولة تركمنستان المسلمة، على بعد أربعمائة وخمسين كيلومترًا تقريباً غرب مدينة بلخ الأفغانية، وقد ذهب إليها جيش كبير من التتار على رأسه بعض أولاد جنكيزخان، واستعانوا في هذه الموقعة بأهل بلخ المسلمين، كما ذكرنا من قبل.. وتحرك الجيش التتري الرهيب الذي لم تذكر الروايات عدده، ولكنه كان جيشاً هائلاً يقدر بمئات الألوف.. هذا غير المسلمين من شمال أفغانستان، وعلى أبواب مرو وجد التتار أن المسلمين في مرو قد جمعوا لهم خارج المدينة جيشاً يزيد على مائتي ألف رجل، وهو جيش كبير جداً بقياسات ذلك الزمان، وكانت موقعة رهيبة بين الطرفين على أبواب مرو.. وحدثت المأساة العظيمة، ودارت الدائرة على المسلمين، وانطلق التتار يذبحون في الجيش المسلم حتى قتلوا معظمه، وأسروا الباقي، ولم يسلم إلا أقل القليل، ونهبت الأموال والأسلحة والدواب من الجيش.. ويعلق ابن الأثير في أسى وإحباط على هذه الموقعة فيقول: «فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا، فصبر المسلمون، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة».

وتخيل جنداً يقاتلون عدوهم وهم يعتقدون أن هذا العدو لا يُهزم.. كيف تكون نفسياتهم؟ وكيف تكون معنوياتهم؟

وقعت الهزيمة المرة بالجيش المسلم، وفتح الطريق لمدينة مرو ذات الأسوار العظيمة.. وكان بها من السكان ما يزيد على سبعمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال.

وحاصر التتار المدينة الكبيرة، وقد دب الرعب في قلوب أهلها بعد أن فني جيشهم أمام عيونهم، ولم يفتحوا الأبواب للتتار مدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس أرسل قائد جيش التتار (ابن جنكيزخان) رسالة إلى قائد مدينة مرو يقول فيها: «لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا نجعلك أمير هذه البلدة، ونرحل عنك».

فصدق أمير البلاد ما قاله زعيم التتار، أو أوهم نفسه بالتصديق، وخرج إلى قائد التتار، فاستقبله قائد التتار استقبالاً حافلاً، واحترمه وقرّبه، ثم قال له في خبث: «أخرج لي أصحابك ومقربيك ورؤساء القوم حتى ننظر من يصلح لخدمتنا، فنعطيه العطايا، ونقطع له الإقطاعات، ويكون معنا»، فأرسل الأمير المخدوع إلى معاونيه وكبار وزرائه وجنده لحضور الاجتماع الهام مع ابن جنكيزخان شخصياً.. وخرج الوفد الكبير إلى التتار، ولما تمكن منهم التتار قبضوا عليهم جميعاً وقيدوهم بالحبال!.

ثم طلبوا منهم أن يكتبوا قائمتين طويلتين:

- أما القائمة الأولى: فتضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو.

- وأما القائمة الثانية: فتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة.. ثم أمر ابن جنكيزخان أن يأتي التتار بأهل البلد أجمعين، فخرجوا جميعاً من البلد حتى

لم يبق فيها واحد، ثم جاءوا بكرسي من ذهب قعد عليه ابن جنكيزخان ثم أصدر الأوامر الآتية:

الأمر الأول: أن يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء فيقتلوا جميعاً أمام عامة أهل البلد!! وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبدءوا في قتله واحداً واحداً بالسيف، والناس ينظرون ويبكون.

الأمر الثاني: إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم الصناعية هناك.

الأمر الثالث: إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك، ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لافتداء نفسه.

الأمر الرابع: دخول المدينة وتفتيش البيوت بحثاً عن المال والمتاع النفيس، حتى إنهم نبشوا قبر السلطان «سنجر» أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره.

واستمر هذا البحث ثلاثة أيام.

ثم الأمر الخامس الرهيب: أمر ابن جنكيزخان - لعنه الله ولعن أباه - أن يُقتل أهل البلاد أجمعون!!..!!

وبدأ التتار يقتلون كل سكان مرو.. يقتلون الرجال.. والنساء.. والأطفال..!!

قالوا: إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره.

يقول ابن الأثير -رحمه الله-: «وأمر ابن جنكيزخان بعد أن قتلوا جميعاً أن يقوم التتار بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون!!».

قتل من مدينة مرو سبعمائة ألف مسلم ومسلمة، وهذا ما لا يتخيل، وحقاً فإنه لم تمر على البشرية منذ خلق آدم ما يشبه هذه الأفعال من قريب ولا بعيد، ولا حول لا قوة إلا بالله.

وفنيت مدينة مرو، واختفى ذكرها من التاريخ..!!

٤- اجتياح نيسابور:

وهي مدينة كبيرة أخرى من مدن إقليم خراسان، (وهي تقع الآن في الشمال الشرقي لدولة إيران)، واتجه إليها التتار بعد أن تركوا خلفهم مدينة مرو وقد خربت تماماً، وهناك حاصروا مدينة نيسابور لمدة خمسة أيام، ومع أنه كان بالمدينة جمع لا بأس به من الجنود المسلمين، إلا أن أخبار مرو كانت قد وصلت إلى نيسابور، فدب الرعب والهلع في أوصال المسلمين، وما استطاعوا أن يقاوموا التتار، ودخل التتار المدينة، وأخرجوا كل أهلها إلى الصحراء، وجاء من أخبر ابن جنكيزخان أن بعضاً من سكان مدينة مرو قد سلم من القتل، وذلك أنهم ضربوا بالسيف ضربات غير قاتلة، وظنهم التتار قد ماتوا فتركوهم، ولذا فقد أمر ابن جنكيزخان في مدينة نيسابور أن يقتل كل رجال البلد بلا استثناء، وأن تقطع رؤوسهم لكي يتأكدوا من قتلهم، ثم قام اللعين بسبي كل نساء المسلمين في مدينة نيسابور، وأقاموا في المدينة خمسة عشر يوماً يفتشون الديار عن الأموال والنفائس.. ثم تركوا نيسابور بعد ذلك أثراً بعد عين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥- اجتياح هراة:

وهي من أحصن البلاد الإسلامية، وكانت مدينة كبيرة جداً كذلك، وتقع في الشمال الغربي لأفغانستان، وتوجه إليها ابن جنكيزخان بقواته البشعة، ولم

تسلم المدينة من المصير الذي قابلته مدينتا مرو ونيسابور، فقتل فيها كل الرجال، وسبيت كل النساء، وخربت المدينة كلها وأحرقت.. وإن كـان أميرهـا - وكـان يُدعى: «ملك خان» - قد استطاع الهروب بفرقـة مـن جيشـه في اتجاه غزنـة في جنوب أفغانستان!! وهكذا كان الملـوك والرؤسـاء في ذلـك الـزمن يُوَفَّقُـون إلى الهروب، بينما تسقط شعوبهم في براثن التتار..!!

وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سـقط بكاملـه في أيـدي التتـار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة، وتمت كل هذه الأحداث في عام واحـد هـو العـام السابع عشر بعد ستمائةٍ مـن الهجـرة.. وهـذا مـن أعجـب الأمـور الـتي مـرت بالأرض على الإطلاق..!!

اجتياح خوارزم:

وخوارزم هـي مركـز عائلـة خـوارزم شـاه، وبهـا تجمـع ضـخم جـداً مـن المسلمين، وحصونها من أشد حصون المسلمين بأساً وقوة، وهي تقع الآن علـى الحدود بين أوزبكستان وتركمنستان، وتقع مباشرة على نهـر جيحـون، وكانـت تمثل للمسلمين قيمة اقتصادية واستراتيجية وسياسية كبيرة.

ولأهمية هذه البلدة فقد وجه إليها جنكيزخان أعظم جيوشه وأكبرها، وقد قام هذا الجيش بحصار المدينة لمدة خمسـة أشـهر كاملـة دون أن يسـتطيع فتحهـا، فطلبوا المدد من جنكيزخان، فأمـدهم بخلـق كـثير، وزحفـوا علـى البلـد زحفـاً متتابعاً، وضغطوا عليه من أكثر من موضع حتى اسـتطاعوا أن يحـدثوا ثغـرة في الأسوار، ثم دخلوا إلى المدينة، ودار قتال رهيب بين التتار والمسلمين، وفني مـن الفريقين عدد كبير جداً، إلا أن السيطرة الميدانية كانت للتتار، ثم تـدفقت جمـوع جديدة من التتار على المدينة، وحلـت الهزيمـة السـاحقة بالمسـلمين، ودار القتـل على أشده فيهم، وبدأ المسلمون في الهروب والاختفـاء في السـراديب والخنـادق

والديار، فقام التتار بعمل بشع إذ قاموا بهدم سد ضخم كان مبنياً على نهر جيحون، وكان يمنع الماء عن المدينة، وبذلك أطلقوا الماء الغزير على خوارزم، فأغرق المدينة بكاملها.. ودخل الماء في كل السراديب والخنادق والديار، وتهدمت ديار المدينة بفعل الطوفان الهائل، ولم يسلم من المدينة أحد ألبتة !!فمن نجا من القتل قتل تحت الهدم أو أغرق بالماء، وأصبحت المدينة العظيمة خراباً، وتركها التتار وقد اختفت من على وجه الأرض وأصبح مكانها ماء نهر جيحون، ومن مر على المدينة الضخمة بعد ذلك لا يستطيع أن يرى أثراً لحياة سابقة.. وهذا لم يُسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، اللهم ما حدث مع قوم نوح، ونعوذ بالله من الخذلان بعد النصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكانت هذه الأحداث الدامية أيضاً في عام ٦١٧ من الهجرة..!!

التتار يتوجهون إلى وسط وجنوب أفغانستان:

بتدمير إقليمي خراسان وخوارزم يكون التتار قد سيطروا على المناطق الشمالية ومناطق الوسط من دولة خوارزم الكبرى، ووصلوا في تقدمهم إلى الغرب إلى قريب من نهاية هذه الدولة (على حدود العراق)، ولكنهم لم يقتربوا بعد من جنوب دولة خوارزم.. وجنوب دولة خوارزم كان تحت سيطرة «جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه»، وهو ابن الزعيم الخوارزمي الكبير محمد بن خوارزم، والذي فر منذ شهور قليلة أمام التتار.. وهرب إلى جزيرة ببحر قزوين حيث مات هناك.

وجنوب دولة خوارزم كان يشمل وسط وجنوب أفغانستان وباكستان، وكان يفصل بينه وبين الهند نهر السند، وكان جلال الدين - زعيم الجنوب - يتخذ من مدينة «غزنة» مقراً له (مدينة غزنة في أفغانستان الآن، وتقع على بعد حوالي مائة وخمسين كم جنوب مدينة كابول، وهي مدينة حصينة تقع في وسط

جبال باروبا ميزوس الأفغانية).

ولما انتهى جنكيزخان من أمر الزعيم الرئيسي للبلاد «محمد بن خوارزم شاه» وأسقط دولته، بدأ يفكر في غزو وسط أفغانستان وجنوبها لقتال الابن «جلال الدين»، فوجه إلى «غزنة» جيشاً كثيفاً من التتار..

وبالطبع.. كان جلال الدين قد جاءته أخبار الاجتياح التتري الرهيب لمناطق الشمال والوسط من الدولة الخوارزمية، وبلغه ما حدث لأبيه، وكيف مات في جزيرة ببحر قزوين، وأصبح هو الآن الزعيم الشرعي للبلاد، ومن ثم عظمت مسئوليته جدًا، فبدأ يعد العدة لقتال التتار، وجمع جيشاً كبيراً من بلاده، وانضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين اسمه «سيف الدين بغراق»، وكان شجاعاً مقداماً صاحب رأي ومكيدة في الحروب، وكان معه ثلاثون ألف مقاتل، ثم انضم إليه أيضاً ستون ألفاً من الجنود الخوارزمية الذين فروا من المدن المختلفة في وسط وشمال دولة خوارزم بعد سقوطها، كما انضم إليه أيضاً «ملك خان» أمير مدينة هراة بفرقة من جيشه، وذلك بعد أن أسقط جنكيزخان مدينته.. وبذلك بلغ جيش جلال الدين عدداً كبيراً، ثم خرج جلال الدين بجيشه إلى منطقة بجوار مدينة غزنة تدعى «بلق»، وهي منطقة وعرة وسط الجبال العظيمة.. وانتظر جيش التتار في هذا المكان الحصين، ثم جاء جيش التتار!.

دارت بين قوات جلال الدين المتحدة وقوات التتار معركة من أشرس المواقع في هذه المنطقة.. وقاتل المسلمون قتال المستميت.. فهذه أطراف المملكة الخوارزمية، ولو حدثت هزيمة فليس بعدها أملاك لها، وكان لحمية المسلمين وصعوبة الطبيعة الصخرية والجبلية للمنطقة، وكثرة أعداد المسلمين، وشجاعة الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق، والقيادة الميدانية لجلال الدين... كان لكل ذلك أثر واضح في ثبات المسلمين أمام جحافل التتار.

واستمرت الموقعة الرهيبة ثلاثة أيام.

ثم أنزل الله -عز وجل- نصره على المسلمين.. وانهزم التتار للمرة الأولى في بلاد المسلمين!! وكثر فيهم القتل، وفر الباقون منهم إلى ملكهم جنكيزخان، والذي كان يتمركز في «الطالقان» في شمال شرق أفغانستان.

وارتفعت معنويات المسلمين جداً.. فقد وقر في قلوب الكثيرين قبل هذه الموقعة أن التتار لا يُهزمون، ولكن ها هو اتحاد الجيوش الإسلامية في غزنة يؤتي ثماره.. لقد اتحدت في هذه الموقعة جيوش جلال الدين، مع بقايا جيوش أبيه محمد بن خوارزم شاه، مع الفرقة التركية بقيادة «سيف الدين بغراق»، مع «ملك خان» أمير هراة.. واختار المسلمون مكاناً مناسباً وأخذوا بالأسباب المتاحة.. فكان النصر.

واطمأن جلال الدين إلى جيشه، فأرسل إلى جنكيزخان في الطالقان يدعوه إلى قتال جديد، وشعر جنكيزخان بالقلق لأول مرة، فجهز جيشاً أكبر، وأرسله مع أحد أبنائه لقتال المسلمين، وتجهز الجيش المسلم، والتقى الجيشان في مدينة «كابول» الأفغانية.

ومدينة كابول مدينة إسلامية حصينة تحاط من كل جهاتها تقريباً بالجبال؛ فشمالها جبال هندوكوش الشاهقة، وغربها جبال باروبا ميزوس، وجنوبها وشرقها جبال سليمان.

ودارت موقعة كابول الكبيرة.. وكان القتال عنيفاً جداً.. أشد ضراوة من موقعة غزنة.. وثبت المسلمون، وحققوا نصراً غالياً على التتار، بل وأنقذوا عشرات الآلاف من الأسرى المسلمين من يد التتار.

وفوق ارتفاع المعنويات، وقتل عدد كبير من جنود التتار، وإنقاذ الأسرى المسلمين، فقد أخذ المسلمون غنائم كثيرة نفيسة من جيش التتار، ولكن سبحان

الله، بدلاً من أن تكون هذه نعمة على جيش المسلمين، أصبحت هذه الغنائم نقمة شديدة وهلكة محققة..!!

روى البخارى ومسلم عن عمرو بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «..فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

لقد كانت قلوب المسلمين في هذه الحقبة من الزمان مريضة بمرض الدنيا العضال، إلا من رحم الله -عز وجل-.. لقد كانت حروبهم حروبًا مادية قومية.. حروب مصالح وأهواء.. ولم تكن في سبيل الله.. لقد كان انتصارهم مرة وثانية لحب البقاء، والرغبة في الملك، والخوف من الأسر أو القتل.. فكانت لهم جولة أو جولتان.. لكن ظهرت خبايا النفوس عند كثرة الأموال والغنائم.

لقد وقع المسلمون في الفتنة..!!

اختلف المسلمون على تقسيم الغنيمة..!!

قام «سيف الدين بغراق» أمير الترك، وقام أمير آخر هو «ملك خان» أمير مدينة هراة.. قام كل منهما يطلب نصيبه في الغنائم.. فحدث الاختلاف.. وارتفعت الأصوات.. ثم بعد ذلك ارتفعت السيوف..!!

نعم.. ارتفعت السيوف ليتقاتل المسلمون على تقسيم الغنيمة.. وجيوش التتار ما زالت تملأ معظم مدن المسلمين..!!

وسقط من المسلمين قتلى على أيدي المسلمين.. وكان ممن سقط أخ لسيف الدين بغراق، فغضب سيف الدين بغراق وقرر الانسحاب من جيش جلال الدين ومعه الثلاثون ألف مقاتل الذين كانوا تحت قيادته!! وحدث ارتباك كبير في جيش المسلمين، وحاول جلال الدين أن يحل المشكلة، وأسرع إلى سيف

الدين بغراق يرجوه أن يعود إلى صف المسلمين؛ فالمسلمون في حاجة إلى كل جندي، وإلى كل طاقة، وإلى كل رأي، فوق أن هذا الانسحاب سيؤثر على معنويات المجموعة الباقية؛ لأن الفرقة التركية كانت من أمهر فرق المسلمين.. ولكن سيف الدين بغراق أصر على الانسحاب، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه وذكره بالجهاد، وخوفه من الله تعالى.. لكن سيف الدين بغراق لم يتذكر وانسحب فعلاً بجيشه!!

وانكسر جيش المسلمين انكساراً هائلاً.. لقد انكسر مادياً، وكذلك انكسر معنوياً..!!

ولم يفلح المسلمون في استثمار النصر الغالي الذي حققوه في غزنة وكابول.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**».

لم يدرك المسلمون في هذه الآونة حقيقة الدنيا، وأنها دار استخلاف واختبار وامتحان، وليست دار قرار وبقاء وخلود.. نسي المسلمون امتحان ربهم، ولم يستعدوا له.

نسي المسلمون التحذير النبوي الخطير.. «**فاتقوا الدنيا**».. فسقط المسلمون سقطة هائلة.

وبينما هم كذلك إذ جاء جنكيزخان بنفسه على رأس جيوشه ليرى هذا المسلم الذي انتصر عليه مرتين.. ودب الرعب والهلع في جيش المسلمين.. فقد قلت أعدادهم وتحطمت معنوياتهم.. ورأى جلال الدين أن جيشه قد ضعف جداً.. فماذا فعل؟!

لقد أخذ جيشه وبدأ يتجه جنوباً للهروب من جيش جنكيزخان، أو على الأقل لتجنب الحرب في هذه الظروف.

ولكن جنكيزخان كان مصراً على اللقاء فأسرع خلف جلال الدين..!!

وبدأ جلال الدين يفعل مثلما فعل أبوه من قبل..!! لقد بدأ ينتقل من مدينة إلى مدينة متوجهاً إلى الجنوب، حتى وصل إلى حدود باكستان الآن فاخترقها، ثم تعمق أكثر حتى اخترق كل باكستان ووصل إلى نهر السند، الذي يفصل في ذلك الوقت بين باكستان وبين الهند.. فأراد جلال الدين أن يعبر بجيشه نهر السند ليفر إلى الهند، مع أن علاقاته مع ملوك الهند المسلمين لم تكن على ما يرام.. ولكنه وجد ذلك أفضل من لقاء جنكيزخان..!!

وعند نهر السند فوجئ جلال الدين وجيشه بعدم وجود السفن لنقلهم عبر النهر الواسع إلى الناحية الأخرى، فطلبوا سفناً من مكان بعيد، وبينما هم ينتظرون السفن إذ طلع عليهم جيش جنكيزخان..!!

ولم يكن هناك بد من القتال، فنهر السند من خلفهم، وجنكيزخان من أمامهم، ودارت موقعة رهيبة بكل معاني الكلمة.. حتى إن المشاهدين لها قالوا: إن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال.. واستمر اللقاء الدامي ثلاثة أيام متصلة.. واستحر القتل في الفريقين، وكان ممن قتل في صفوف المسلمين الأمير ملك خان، والذي كان قد تصارع من قبل مع سيف الدين بغراق على الغنائم.. وها هو لم يظفر من الدنيا بشيء، بل ها هي الدنيا قد قتلته، ولم يتجاوز لحظة موته بدقيقة واحدة.. ولكن شتان بين من يموت وهو ناصر للمسلمين بكل طاقته، ومن يموت وقد تسبب بصراعه في فتنة أدت إلى هزيمةٍ مُرة.

وفي اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل، وبدأ كل طرف يعيد حساباته، ويرتب أوراقه، ويضمد جراحه، ويعد عدته.. وبينما هم في هذه الهدنة

المؤقتة جداً جاءت السفن إلى نهر السند، ولم يضيع جلال الدين الوقت في تفكير طويل، بل أخذ القرار السريع الحاسم وهو: «الهروب..!!» وقفز الزعيم المسلم إلى السفينة، ومعه خاصته ومقربوه، وعبروا نهر السند إلى بلاد الهند، وتركوا التتار على الناحية الغربية من نهر السند.

ولكن.. هل ترك المسلمون التتار وحدهم في هذه الأرض؟

كلا..!! إنما تركوهم مع بلاد المسلمين، ومدن المسلمين، وقرى المسلمين.. تركوهم مع المدنيين دون حماية عسكرية.. وجيوش التتار لا تفرق بين مدني وعسكري.. بالإضافة إلى الحقد الشديد في قلب جنكيزخان نتيجة كثرة القتلى في التتار في الأيام الأخيرة.. فانقلب جنكيزخان على بلاد المسلمين يصب عليها جام غضبه.. ويفعل بها ما اعتاد التتار أن يفعلوه وأكثر.

وكانت أشد المدن معاناة هي مدينة غزنة، والتي انتصر عندها المسلمون منذ أيام أو شهور عندما كانوا متحدين.. دخل جنكيزخان المدينة الكبيرة.. عاصمة جلال الدين بن خوارزم، فقتل كل رجالها بلا استثناء، وسبى كل الحريم بلا استثناء، وأحرق كل الديار بلا استثناء..!! وتركها ـ كما يقول ابن الأثير ـ خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس..!!

ويجدر بالذكر أن نشير إلى أنه في جملة الذين أمسك بهم جنكيزخان من أهل المدن كان أطفال جلال الدين ابن خوارزم.. وقد أمر جنكيزخان بذبحهم جميعاً.. وهكذا ذاق جلال الدين من نفس المرارة التي ذاقها الملايين من شعبه.

روى البيهقي بسند صحيح، رواته ثقات إلا أنه من مراسيل أبي قلابة – رحمه الله – أن رسول الله ﷺ قال: «**كن كما شئت، كما تدين تدان**».

وبذلك حقق جنكيزخان حلماً غالياً ما كان يتوقع أن يكون بهذه السهولة، وهذا الحلم هو احتلال «أفغانستان»..!!

ولكن.. لماذا يكون احتلال أفغانستان بالتحديد حلماً لجنكيزخان أو لغيره من الغزاة؟ لماذا يكون احتلال أفغانستان بالذات خطوة مؤثرة جداً في طريق سقوط الأمة الإسلامية؟ ولماذا يجب أن يكون سقوط أفغانستان في يد محتل -أياً كان- نذير خطر شديد للأمة بأسرها؟

الواقع أن سقوط أفغانستان يحمل بين طياته كوارث عدة:

أولاً: الطبيعة الجبلية للدولة تجعل غزوها شبه مستحيل، وبذلك فهي تمثل حاجزاً طبيعياً قوياً في وجه الغزاة، وهذا الحاجز يخفف الوطأة على البلاد المجاورة لأفغانستان، فإن سقطت أفغانستان كان سقوط هذه البلاد المجاورة محتملاً جداً، وسيكون غزو أو مساومة باكستان وإيران ثم العراق بعد ذلك أسهل جداً.

ثانياً: الموقع الاستراتيجي الهائل لأفغانستان يعطيها أهمية قصوى، فهي في موقع متوسط تماماً في آسيا، والذي يحتلها سيملك رؤية باتساع ٣٦٠ درجة على المنطقة بأسرها.. فهو على بعد خطوات من دول في غاية الأهمية.. إنه لا يراقب باكستان وإيران فقط، ولكنه يراقب أيضاً دولاً خطيرة مثل روسيا والهند، وفوق ذلك فهو قريب نسبياً من الصين.. وبذلك تصبح السيطرة على كامل آسيا -بعد احتلال أفغانستان- أمراً ممكناً.

ثالثاً: الطبيعة الجبلية لأفغانستان أكسبت شعبها صلابة وقوة قد لا تتوافر في غيرها من البلاد، فإن سقط هؤلاء فسقوط غيرهم سيكون أسهل.

رابعاً: يتمتع سكان هذا البلد بنزعة إسلامية عالية جداً، وبروح جهادية بارزة، وليس من السهل أن يقبلوا الاحتلال، وظهر ذلك واضحاً في انتصارهم مرتين على التتار، بينما فشلت كل الجيوش الإسلامية في تحقيق مثل هذا النصر، ولا شك أن سقوط هؤلاء يُعد نجاحاً هائلاً للقوى المعادية للمسلمين.

خامساً: فوق كل ما سبق، فإن الأثر المعنوي السلبي على الأمة الإسلامية، والإيجابي على التتار، سوف يكون عاملاً شديد التأثير في الأحداث، فأنّى لأمة محبطة أن تفكر في القيام، وأنى لأمة ذاقت طعم النصر الصعب أن تفرط في الانتصارات السهلة..!! هذا عادة لا يكون..!!

وبذلك يكون التتار قد وصلوا من الصين إلى كازاخستان ثم أوزبكستان ثم تركمنستان ثم أفغانستان ثم إيران ثم أذربيجان ثم أرمينيا ثم جورجيا، وقد اقتربوا جداً من العراق (انظر الخريطة رقم ٦).

كل هذا في سنة واحدة..!! في سنة ٦١٧ هجرية.. حتى إن ابن الأثير يعلق على هذا فيقول:

«وقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه، فهذه طائفة تخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينيا، ويجاورون العراق من ناحية همدان، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا - إذا بَعُدَ العهد - ويرى هذه الحادثة مسطورة فإنه سينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أنا سطّرنا نحن، وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه، في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، فقد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها».

ثم دخلت سنة ٦١٨ هجرية.

عودة التتار إلى أذربيجان:

عاد التتار إلى إقليم أذربيجان المسلم من جديد، ودخلوا مدينة «مراغة» المسلمة.. ومن عجيب الأمور أن امرأة كانت ترأس هذه المدينة، ولا أدري لماذا أعطى المسلمون زمامهم لامرأة، وخاصةً في هذا التوقيت الحساس؟! إلا إذا كانت البلاد قد عدمت الرجال الذين يصلحون للقيادة..!!

حاصر التتار مراغة ونصبوا حولها المجانيق، وأخذوا يضربون المدينة من كل مكان.. فخرج أهلها للقتال، فإذا بالتتار يدفعون بالأسارى المسلمين الذين أتوا بهم من بلاد متعددة ليقاتلوا عنهم، والتتار يحتمون بهم، ومن تأخر من الأسارى عن القتال قُتل.. فبدأ الأسارى المسلمون يقاتلون إخوانهم المسلمين في مراغة طمعاً في قليل من الحياة.. وسبحان الله!.. إن كان الموت لا محالة آتٍ؛ فلماذا تقتل إخوانك قبل أن تُقتل؟! ولو انقلب الأسارى على التتار حمية لإخوانهم في مراغة، لكان في ذلك فرصة النجاة لبعض المسلمين.. ولكن ضاعت المفاهيم، وعميت الأبصار، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دخل التتار مدينة مراغة المسلمة في ٤ صفر سنة ٦١٨ هجرية، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما صلح لهم وكل ما استطاعوا حمله، أما ما كانوا يعجزون عن حمله فكانوا يحرقونه كله.. ولقد كانوا يأتون بالحرير الثمين كأمثال التلال فيضرمون فيه النار..!!

ويذكر ابن الأثير - رحمه الله - أن المرأة من التتار كانت تدخل الدار فتقتل جماعة من أهلها !!وذكر أيضاً أنه قد سمع بنفسه من بعض أهل مراغة أن رجلاً من التتر دخل درباً فيه مائة رجل مسلم، فما زال يقاتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم يمد أحد يده إليه بالسوء..!! ضربت الذلة على الناس، فلا يدفعون عن أنفسهم قليلاً ولا كثيراً، ونعوذ بالله من الخذلان..!!

التهديد بغزو شمال العراق:

وبدأ التتار يفكرون في غزو مدينة «أربيل» في شمال العراق، ودب الرعب في مدينة أربيل، وكذلك في مدينة الموصل في غرب أربيل، وفكر بعض أهلها في الجلاء عنها للهروب من طريق التتار، وخشي الخليفة العباسي الناصر لدين الله أن يعدل التتار عن مدينة أربيل لطبيعتها الجبلية، فيتجهون إلى بغداد بدلاً منها،

فبدأ يفيق من السبات العميق الذي أصابه في السنوات السابقة، وبدأ يستنفر الناس لملاقاة التتار في أربيل إذا وصلوا إليها.. وأعلنت حالة الاستنفار العام في كل المدن العراقية، وبدأ جيش الخلافة العباسية في التجهز.

تُرى.. كم من الرجال استطاع الخليفة أن يجمع؟

لقد جمع الخليفة العباسي «الناصر لدين الله» ثمانمائة رجل فقط!!

ولا أدري كيف سينصر الخليفة دين الله ـ كما يوحي بذلك اسمه ـ بثمانمائة رجل؟!

أين الجيش القوي؟! وأين الحماية للخلافة؟! وأين التربية العسكرية؟! وأين الروح الجهادية؟! لم يكن الناصر لدين الله خليفة، وإنما كان «صورة» خليفة.. أو «شبح» خليفة.

ولم يستطع قائد الجيش «مظفر الدين» طبعاً أن يلتقي بالتتار بهذا العدد الهزيل.. ولكن انسحب بالجيش، ومع ذلك -سبحان الله- فقد شعر التتار أن هذه خدعة، وأن هذه هي مقدمة العسكر، فليس من المعقول أن جيش الخلافة العباسية المرهوبة لا يزيد عن ثمانمائة جندي فقط!.. ولذلك قرروا تجنب المعركة وانسحبوا بجيوشهم.

وانسحاب جيوش التتار يحتاج منا إلى وقفة وتحليل.. فقد كان الرعب يملأ التتار من إمكانيات الخلافة العباسية التي كانت ملء سمع وبصر الدنيا، وكانت تزهو على غيرها من الأمم بتاريخ طويل، وأمجاد عظيمة، ولا شك أن دولة لقيطة مثل دولة التتار ليس لها على وجه الأرض إلا بضع سنوات ستحسب ألف حساب لدولة هائلة يمتد تاريخها إلى أكثر من خمسمائة سنة؛ ولذا فالتتار كانوا يقدرون إمكانيات العراق بأكثر من الحقيقة بكثير، ومن ثم فقد آثروا ألا يدخلوا مع الخلافة في صدام مباشر، واستبدلوا بذلك ما يُعرف «بحرب

الاستنزاف»، وذلك عن طريق توجيه ضربات خاطفة موجعة للعراق، وعن طريق الحصار الطويل المستمر، وأيضاً عن طريق عقد الأحلاف والاتفاقيات مع الدول والإمارات المجاورة لتسهيل الحرب ضد العراق في الوقت المناسب.

لذلك فقد انسحب التتار بإرادتهم ليطول بذلك عمر العراق عدة سنوات أخرى.

اجتياح همدان وأردويل:

وهما من مدن إيران حالياً، وقد حاصر التتار همدان، ثم دار القتال بعد ذلك مع أهلها بعد أن انقطع عنهم الطعام، ووقعت مقتلة عظيمة في الطرفين، لكن في النهاية انتصر التتار، واجتاحوا البلد، وسفكوا دماء أهلها وأحرقوا ديارها، ثم تجاوزوها إلى أردويل فملكوها وقتلوا من فيها وخربوا وأحرقوا.

على أبواب تبريز:

واتجه التتار إلى تبريز.. المدينة الإيرانية الكبيرة.. وكان التتار قد رضوا سابقاً بالمال والثياب والدواب من صاحبها المخمور «أوزبك بن البهلوان»، ولم يدخلوها لأنهم جاءوا إليها في الشتاء القارس.. أما الآن وقد تحسن الجو وصفت السماء، فلا مانع من خيانة العهود ونقض المواثيق.

ولكنهم - في طريقهم إلى تبريز - علموا بأمر قد جد على هذه البلدة.. لقد رحل عنها صاحبها المخمور أوزبك بن البهلوان، وتولى قيادة البلاد رجل جديد هو «شمس الدين الطغرائي»، وكان رجلاً مجاهداً يفقه دينه ودنياه، فقام -رحمه الله- يحمس الناس على الجهاد وعلى إعداد القوة.. وقوّى قلوبهم على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني.. وعلمهم ما عرفوه نظرياً ولم يطبقوه عملياً في حياتهم على الإطلاق: علمهم أن الإنسان لا يموت قبل ميعاده أبداً.. وأن رزقه وأجله قد كُتبا له قبل أن يولد، وأن المسلمين مهما تنازلوا للتتار

فلن يتركوهم، إلا إذا احتمى المسلمون وراء سيوفهم ودروعهم.. أما بغير قوة فلن يُحمى حق على وجه الأرض.

وتحركت الحمية في قلوب أهل تبريز، وقاموا مع قائدهم البار يحصنون بلدهم، ويصلحون الأسوار، ويوسعون في الخندق، ويجهزون السلاح، ويضعون المتاريس، ويرتبون الصفوف.. لقد تجهز القوم -وللمرة الأولى منذ زمن- للجهاد..!!

وسمع التتار بأمر المدينة، وبحالة العصيان المدني فيها، وبحالة النفير العام.. سمعوا بدعوة الجهاد، والتجهز للقتال... سمع التتار بكل ذلك، فماذا فعلوا؟

قد يعتقد بعض القراء أن التتار قد غضبوا وأرعدوا وأزبدوا، وغلت الدماء في عروقهم، وعلت أصواتهم، وجمعوا جيوشهم، وعزموا على استئصال المدينة المتهورة.

أبداً - إخواني في الله - إن كل ذلك لم يحدث..!!

لقد أخذ التتار قراراً عجيباً..!!

لقد قرروا عدم التعرض لتبريز، وعدم الدخول في قتال مع قوم قد رفعوا راية الجهاد في سبيل الله..!! لقد ألقى الله الرعب في قلوب التتار -على كثرتهم -من أهل تبريز -على قلتهم-.

لقد نُصر رسول الله ﷺ بالرعب مسيرة شهر، وكذلك يُنصر بالرعب كل من سار على طريقه ﷺ.

لقد فعل الجهاد فعله المتوقع.. بل إن القوم لم يجاهدوا، ولكنهم فقط عقدوا النية الصادقة، وأعدوا الإعداد المستطاع، فتحقق الوعد الرباني ـ الذي لا خلف له ـ وهو وقوع الرهبة في قلوب أعداء الأمة.. وهذا درس لا يُنسى.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠]

فكانت هذه صورة مشرقة في وسط هذا الركام المظلم.

ورحم الله شمس الدين الطغرائي الذي جدد الدين في هذه المدينة المسلمة.. تبريز.

اجتياح بيلقان:

وهي من مدن إيران حالياً، وللأسف فإنها لم تفعل مثل فعل تبريز، ودخل التتار البلدة في رمضان ٦١٨ هجرية، ووضعوا فيها السيف، فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة، حتى إنهم ـ كما يقول ابن الأثير ـ كانوا يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة، وكانوا يرتكبون الفاحشة مع النساء ثم يقتلونهن، ولما فرغوا من البشر في المدينة نهبوا وخربوا وأحرقوا كعادتهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

على أبواب كنجة:

وسار التتار إلى مدينة كنجة المسلمة، وفعل أهلها مثلما فعل أهل تبريز، وفعل التتار معهم مثلما فعلوا مع أهل تبريز.

لقد أعلن أهل كنجة الجهاد وأعدوا العدة المستطاعة، فما دخل تتري واحد مدينتهم، بل تركوها إلى غيرها.

وليس من قبيل المصادفة أن البلاد التي رفعت راية الجهاد وأعدت له هي البلاد التي لم يجرؤ التتار على غزوها.. ليس هذا من قبيل المصادفة أبداً.. إنها سنة من سنن الله -عز وجل-.. ولو فعلت ذلك كل مدن المسلمين ما استطاع التتار ولا غيرهم أن يطأوا بأقدامهم النجسة أرض المسلمين.. لقد حافظ

المسلمون على هذه البلاد سنوات وسنوات.. لا بكثرة الأعداد، ولا بالاتفاقيات والمعاهـدات.. إنما حـافظوا عليهـا بجهـاد صـادق، ودمـاء زكيـة، وقلـوب طاهرة مخلصة.

وسنة الله لا خلف لها.. إنما الذين يخالفون هم العباد.

والله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

اجتياح داغستان والشيشان:

وتقعان في شمال أذربيجان على ساحل بحر قزوين من ناحية البحر الغربية، وهما من البلاد المسلمة الواقعة تحت الاحتلال الروسي الآن، ونسـأل الله لهمـا التحرير الكامل، وقد قام التتار كعادتهم بتدمير كل شيء في هذه الـبلاد، وقتـل معظم من وجدوه في طريقهم، وكانت أشد المدن معانـاة مـن التتـار هـي مدينـة شماخي المسلمة (في داغستان الآن).

اجتياح الجنوب الغربي من روسيا:

استمر التتار في صعودهم في اتجاه الشـمال، وبعـد الانتهـاء مـن الشيشـان وصلوا إلى حوض نهر الفولجا الروسي، واستمروا في قتال أهـل هـذه المنـاطق، وكانوا جميعاً من النصارى، وأثخنوا فيهم القتل، وارتكبوا معهم من الفظائع مـا كانوا يرتكبونه مع المسلمين.

وبـذلك انتهـت سـنة ٦١٨ هجريـة وقـد وصـل التتـار إلى أرض الـروس، وأصبحت كل البلاد ما بين شرق الصين وجنوب غرب روسيا ملكاً لهم.

تقييم الموقف في سنة ٦١٩ هجرية:

في هذه السنة استمرت العمليـات التتريـة في منطقـة أرض الـروس، وأكـد

التتار سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

١ـ كازاخستان.

٢ـ قيرغيزستان

٣ـ طاجيكستان.

٤ـ أوزبكستان.

٥ـ تركمنستان.

٦ـ باكستان.. (باستثناء المناطق الجنوبية فيها، والمعروفة بإقليم: كرمان).

٧ـ أفغانستان.

٨ـ معظم إيران (باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق والتي يسكنها الإسماعيلية).

٩ـ أذربيجان.

١٠ـ أرمينيا.

١١ـ جورجيا.

١٢ـ الجنوب الغربي لروسيا.

تقييم الموقف في سنة ٦٢٠ هجرية:

بينما كان جنكيزخان يبسط سطوته على الدولة الخوارزمية استمرت الحملات التترية على منطقة روسيا.

ولي تعليق على أربع حوادث وقعت في هذه السنة، وهي توضح الحال التي كان عليها المسلمون في هذه الفترة، وتفسر كذلك لماذا امتلك التتار هذه البلاد الشاسعة بهذه السرعة الرهيبة، وتضع أيدينا على بعض الأمراض التي تسببت في تلك الكوارث الشنيعة:

الحادثة الأولى:

أن التتار توغلوا في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، ولكنهم في نهاية المطاف التقوا بطائفة من الروس تدعي طائفة البلغار (وهي في روسيا وليست في بلغاريا)، وحدثت بينهم موقعة عظيمة هُزم فيها التتار للمرة الأولى في هذه المناطق، وقُتل منهم خلق كثير، وتوقف الزحف التتري في أرض روسيا، بل وقلت أعدادهم للدرجة التي فقدوا فيها السيطرة على كل المناطق الواقعة في غرب بحر قزوين (روسيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان وشمال إيران).. وكانت هذه فرصة للمسلمين لكي يعيدوا ترتيب صفوفهم، وتجهيز عدتهم ليقابلوا التتار وهم في حال الاضطراب بعد الهزيمة من البلغار.

كان هذا متوقعاً، ولكنه لم يحدث..!!

أما الذي حدث فهو أن أحد أمراء المسلمين في هذه المنطقة - وتحديداً في منطقة أرمينيا - قد جمع عدته وهجم على قبائل الكرج في جورجيا!.. وهذا الأمير كان تحت قيادة الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة (وهو من الأكراد وكان يحكم شمال العراق).

والحدث عجيب؛ لأنه وإن كان بين الكرج والمسلمين حروب مستمرة إلا أنهم في شبه هدنة غير رسمية الآن، وليس من الحكمة فتح جبهات جديدة على المسلمين في وجود العدو الأكبر لهم وهو التتار، وبالذات أن الكرج أيضاً كانوا

يكرهون التتار، ويعانون منهم كما يعاني المسلمون.. فكان المتوقع من المسلمين في ذلك الوقت إما أن يتحالفوا بحذر مع الكرج ضد التتار، أو على الأقل أن يحيّدوا صفهم في هذا الوقت لكي لا يستنزفوا قوة المسلمين في حروب جانبية، خاصة أن الكرج يعرفون خبايا هذه المناطق، ولو استمالهم التتار في حربهم ضد المسلمين لكان هذا وبالاً على المسلمين.

لقد ابْتُلي المسلمون في هذه الآونة بما يمكن أن نسميه: (الحَوَل السياسي!!)، وافتقدوا الرؤية الصحيحة، والحكمة العسكرية، والهدف الواحد، والاتحاد بين الصفوف، فكانت مثل هذه الأعمال غير المتوازنة وغير المنضبطة وغير المدروسة!!

دارت الحرب بين المسلمين والكرج، وفقد كل منهما عددا كبيراً من القتلى، كما فقدوا الثقة في إمكانية التحالف ضد التتار.. وهكذا لم يستغل المسلمون موازين القوى في هذا الوقت لصالحهم، وكان هذا من أسباب ضعفهم.. ثم سكنت الحرب، وأقيم الصلح من جديد، ولكن بعد فقد طاقة كبيرة جداً من الطرفين.

الحادثة الثانية:

نتيجة انهزام التتار في هذه المنطقة ظهر أحد أولاد «محمد بن خوارزم» في منطقة شمال إيران، وهو «غياث الدين بن محمد بن خوارزم شاه» وهو أخو «جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه» الهارب في الهند.

جمع غياث الدين الرجال، واستغل الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه المنطقة فتملكها، وسيطر على مدن الري وأصبهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان (في جنوب إيران)، وهي منطقة لم يكن التتار قد وصلوا إليها.

إذن أصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزم شاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران، أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران (وهي إقليم خراسان بكامله) فكانت تحت السيطرة التترية.. وبذلك يصبح «غياث الدين» بمثابة حائط صدٍّ بين التتار والخلافة العباسية.

وكان المتوقع من الناصر لدين الله الخليفة العباسي في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المتوقع منه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم.. وذلك لأنهم الآن يواجهون عدواً مشتركاً ضخماً وهو التتار.

كان ذلك المتوقع منه.. إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الاستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة.. ذلك لأن غياث الدين هو الذي يقف مباشرة في مواجهة التتار.. ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد.. وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المحطة الثانية هي الخلافة العباسية.

لكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله لم يكن يدرك كل هذه الأبعاد.. لقد كان يعاني هو الآخر من الحول السياسي.. لقد كان -كما وصفه المؤرخون- رجلاً ظالماً مستبداً، فرض المكوس والضرائب على كل شعبه؛ في كل أزمة اقتصادية يفرض ضريبة جديدة، ويعتمد في الخروج من الأزمة على قوت الشعب وكدِّه وكدحه.

كما اهتم بالحفلات والملذات والصيد واللعب.. وعم الفساد في زمانه، وارتفعت الأسعار، وقلت المواد والمؤن.. وكان رجلاً يفتقر إلى النظرة العميقة والفهم الثاقب للأحداث، فلم يكن أبداً على مستوى الأحداث الضخمة التي حدثت في زمانه.

ماذا فعل الخليفة الناصر لدين الله؟.. إنه لم ينس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية.. فأراد أن يقوض أركان السلطان هناك؛ ناسيًا أنهم بينه وبين التتار.. وراسل خال غياث الدين وكان اسمه «إيغان طائسي»، وكان رجلاً كبيراً وصاحب رأي في الحرب يعمل أميراً في جيش غياث الدين، وكان غياث الدين لا يقطع أمراً دون مشورته.. فراسله الخليفة الناصر لدين الله، ورغّبه في الانقلاب على غياث الدين، وعظم له الاستيلاء على الملك، وبذلك يضمن الخليفة ولاء إيغان طائسي له، ويبعد غياث الدين عن المنطقة.. ولم يهمه تلك الفتنة التي ستدور في الأرض المجاورة له، والتي تعتبر العمق الاستراتيجي الهام له.

وأعجبت الفكرة إيغان طائسي، وكانت تدور في رأسه من قبل ولكن لم تكن له طاقة، فلما راسله الخليفة ووعده بالمساعدة قويت نفسه على ذلك، فذهب إلى بعض العسكر والقواد فاستمالهم له، ولما قويت شوكته وكثُر أتباعه، أعلن العصيان والانقلاب على غياث الدين، وأخذ من معه، ومضى في البلاد يفسد ويقطع الطريق، وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها.. والناس لا تدري من أين تأتي الهلكة؟! أتأتي من جنود التتار أم تأتي من جنود المسلمين؟!.. وانضم إلى إيغان طائسي جمع كبير من أهل الفساد والعنف!.

كل هذا والتتار على بُعد خطوات، والخليفة الناصر لدين الله - في غباء شديد- سعيد بالفتنة الدائرة على مقربة منه!.. ثم قرر إيغان طائسي أن يقاتل ابن أخته غياث الدين في معركة فاصلة..!!

والتقى الفريقان المسلمان، ودارت مجزرة بين المسلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف المسلمين.. وانهزم إيغان طائسي خال غياث الدين، وقُتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقى معه

مقبوحين إلى أذربيجان.. ولا حول لا قوة إلا بالله.

روى مسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان قد أيس** (فَقَد الأمل) **أن يعبده المصلون** (وزاد في رواية مسلم: في جزيرة العرب) **ولكن في التحريش بينهم**».

وإن كنا نعجب من هذه الصراعات الداخلية في ذلك الزمن الذي يشهد أزمة حقيقية تمر بها الأمة، فإننا نشاهد الآن نفس الصراعات والخلافات بين المسلمين، وذلك مع الأزمات الطاحنة التي تمر بها الأمة، ومع ذلك فالقليل من المسلمين الذي يهتم بهذه الصراعات أو حتى يلحظها.. وإلا فكم من المسلمين يتابع الخلافات بين مصر والسودان على حلايب؟ أو بين ليبيا وتشاد على شريط أوزو؟ أو بين المغرب والجزائر على الصحراء الغربية؟ أو بين السنغال وموريتانيا على نهر السنغال؟ أو بين السعودية واليمن على إقليم عسير؟.. أو بين الإمارات وإيران على جزيرة أبي موسى؟ أو بين سوريا وتركيا حول لواء الإسكندرونة؟... أو غير هذه الاختلافات هنا وهناك.. وبالطبع كلنا يعلم مدى خسارة الأمة في حرب العراق وإيران، ثم في حرب العراق والكويت.. كل هذه الخلافات والأمة منكوبة بأزمات طاحنة في معظم مناطقها تقريباً.. ويكفي أن تتصفح الجرائد اليومية عشوائياً في أي يوم لتسمع عن الكوارث في فلسطين والعراق والشيشان وكشمير والسودان والجزائر ونيجيريا والصومال وغيرها وغيرها.. وكما يقرأ الكثير منا هذه الأخبار بدم بارد، وبلا اكتراث أو ألم، فكذلك كان المسلمون أيام التتار يتلقون أخبار الصراعات الداخلية والخارجية بدم بارد، وبلا اكتراث أو ألم..!! وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد.. وهذه - والله - كارثة مروعة.. كارثة أن يعيش المسلم لنفسه فقط! كارثة ألا يهتم إلا بحياته وحياة أسرته القريبة فقط! كارثة ألا يتألم لحال مسلم سُفك دمه، أو هُدمت داره، أو جُرفت أرضه، أو اغتصبت زوجته.. كارثة بكل المقاييس..

بمقاييس الإسلام، وبمقاييس الأخوة، وحتى بمقاييس الإنسانية.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..!!

الحادثة الثالثة:

هذه الحادثة ذكرها ابن الأثير في الكامل في التاريخ وقدم لها بعبارة: «حادثة غريبة لم يوجد مثلها!!!».

والحادثة فعلاً غريبة، ومأساوية إلى أبعد درجة.

والحادثة تذكر أن مملكة الكُرج النصرانية بعد أن أتمت صلحها مع المسلمين، وصل إلى قمة الحكم فيها امرأة.. فطلب منها الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة أن تتزوج رجلاً يدير عنها شئون البلاد، ويكون في الصورة أمام الأعداء وفي المفاوضات وغير ذلك.. فأرادت أن تتزوج من بيت مُلك وشرف.. ولكنها لم تر في مملكة الكرج من يصلح لهذا الزواج، وسمع بهذا أحد ملوك المسلمين وهو «مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان» وهو من ملوك السلاجقة، وكان يحكم منطقة الأناضول (تركيا الآن)، وكان له ولد كبير، فأرسل إلى الملكة يطلبها للزواج من ابنه، فرفضت الملكة وقالت: لا يمكن أن يملك أمرنا مسلم.

فماذا فعل الملك مغيث الدين بن قلج أرسلان؟

لقد قال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها..!!

فوافقوا على ذلك، وبالفعل تنصر الولد، وتزوج من ملكة الكرج، وانتقل إلى مملكتهم ليكون حاكماً عليهم، وبقي على نصرانيته، ولا حول ولا قوة إلا بالله..!!

لقد وصل المسلمون في هذه الآونة إلى درجة من التردي يستحيل معها النصر، فكيف تأتي فكرة التنصر في ذهن الملك وابنه أصلاً، فضلاً عن تطبيقها،

ولو كان سيحكم الأرض كلها بعد التنصر؟!! ثم أيأتي ذلك من ملك عظيم يملك الأناضول؟! لو أتى ذلك من ضعيف مستعبد لقلنا: لعله استُكره على ذلك، أما أن يأتي العرض من الملوك، وهم الذين يُطلبون، فهذا ما لا يتخيله عقل..!!

ولا أدري من الذي أطلق على الملك لقب «مغيث الدين»؟ ولا أدري أي إغاثة قدمها للدين؟ ولا أدري أيضاً أي دين يغيثه؟ أهو يغيث الدين الإسلامي أم يغيث النصرانية؟!

﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

ولاستكمال الصورة يجدر بنا أن نذكر مصيره.. لنرى كيف يكون حال من باع دينه بدنياه.

لقد تنصر الأمير المسلم وتزوج الملكة الكرجية، ومرت الأيام، ثم علم الأمير الزوج أن زوجته الملكة تهوى مملوكاً لها، وكان يسمع عنها القبائح الشنيعة ولا يتكلم، فهو وحيد في مملكة واسعة، ثم إنه دخل عليها يوماً فرآها مع مملوكها في فراشه، فأنكر ذلك، وأراد أن يمنعها من استمرار العلاقة، فقالت له الملكة بكل جبروت: «إما أن ترضى بهذا وإلا فلا تبق»..، فقال: أنا لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، ثم تزوجت غيره..!!

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاه.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**».

الحادثة الرابعة:

حدث في هذا العام (٦٢٠ هجرية) أمر قد يعتقد البعض أنه مصادفة، وأن توقيته غريب؛ فالمصائب كانت كثيرة على الأمة في هذه السنين، والحالة الاقتصادية متردية، وكذلك الحالة السياسية والعسكرية والأخلاقية.. وفوق كل المصائب التي ذكرناها فقد هجم الجراد بكميات هائلة على أكثر أقاليم المسلمين، وأهلك الكثير من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر والشام وفارس وغيرها.

أكان هذا على سبيل المصادفة؟!

أبداً والله.. إنه لفي كتاب الله -عز وجل-..!! ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

هذه حقائق ثابتة في كتاب الله -عز وجل-.

إذا ترسخت التقوى في الأمة فتحت عليها البركات من السماء والأرض.

وإذا رفعت التقوى ـ كما رأينا من حال المسلمين في تلك الحقبة من الزمان ـ رأينا الأزمات والشدائد والمصائب.

بل إن الله -عز وجل- ذكر الجراد بالذات كوسيلة من وسائل إثبات قدرته على من لم يتبع نهجه وشرعه.. قال الله -عز وجل- عن قوم فرعون: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

وسبحان الله.. كلنا رأى الجراد الذي هجم على العالم الإسلامي منذ عام أو يزيد.. وأنا أرى أن هذا ليس مصادفة، ولكنه لفت نظر للمسلمين.. وتذكير

لهم بالتاريخ.. ودعوة لهم للعودة إلى الله -عز وجل-.. وإلا فرحلة الجراد القادم لن تكون رحلة عابرة.. بل ستكون إقامة واستيطانًا! ونعوذ بالله من غضبه.. ونسأله أن يبصرنا بسننه، وأن يرزقنا التقوى والإخلاص والعمل.

أحداث سنة ٦٢١ هجرية:

في هذه السنة حاول غياث الدين أن يثبت ملكه في منطقة فارس (جنوب وغرب إيران) ولكن حدثت فتنة بينه وبين أحد الأمراء في هذه المنطقة يدعى «سعد الدين بن دكلا»، ودار بينهما قتال طويل استغرق هذا العام حتى رضي الطرفان أن تقسم عليهما البلاد! ولا حول لا قوة إلا بالله!.

وبينما كان غياث الدين مشغولاً في جنوب إيران بالقتال مع سعد الدين هجم التتار بفرقة تترية صغيرة لا تتجاوز ثلاثة آلاف فارس على مدينة «الري»، ووضعوا فيهم السيف، وقتلوا كيف شاءوا، ونهبوا البلد وخربوه، ثم ساروا إلى مدينة «ساوة» ففعلوا بها كذلك، ثم اتجهوا إلى مدينة «قم» (جنوب طهران الآن)، وإلى مدينة «قاشان» فدمروا المدينتين، وقتلوا أهلهما وخربوا ديارهما، ثم قصدوا «همدان» فأبادوا أهلها قتلاً وأسراً ونهباً، وخربوا البلد كما خربوا غيره، ثم عادوا بعد ذلك سالمين إلى جنكيزخان..!!

ثلاثة آلاف تتري فقط فعلوا ما ذكرناه منذ قليل..!!

لقد كثر الله -عز وجل- التتار في عيون المسلمين، وقلل المسلمين في عيون التتار.. وعظمت هيبة التتار وضاعت هيبة المسلمين.

لماذا؟! لأن المسلمين قد انشغلوا بأنفسهم، وما عادوا يدركون مَن العدو ومَن الصّديق، وبينما كان ينبغي للأزمات أن تجمع الصف المسلم إذا بها تفرقه، وما ذلك إلا لقلة الإيمان في القلوب، ولعظم الدنيا في العيون، ولسوء التربية أو انعدامها في فترات طويلة متراكمة.

وكنتيجة طبيعية جداً لهذه الأدواء الأخلاقية والأمراض القلبية حدث ما ذكره ابن الأثير في معرض كلامه عن أحداث عام ٦٢١ هجرية.. قال ابن الأثير:

«وفي هذه السنة قلت الأمطار في البلاد، ثم إنها كانت (أي الأمطار) تجيء في الأوقات المتفرقة مجيئاً قريباً لا يحصل منه الري للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها، وكان (أي الجراد) كثيراً عن الحد، فغلت الأسعار في العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر وغيرها، وقلت الأقوات».

ما حدث في هذه الفترة من مصائب عن طريق الجراد والسنين ونقص الثمرات هو أمر طبيعي جداً، وهو أمر موافق للسنن الإلهية.. وليس من قبيل المصادفة.

وإذا مر على المسلمين زمان شعروا فيه أن الأسعار قد ارتفعت، وأن الغلات قد قلت، وأن الاقتصاد قد تأثر، وأن الحياة قد صعبت، فليراجعوا أنفسهم، وليقفوا مع أنفسهم وقفة للمحاسبة، وليعرضوا أنفسهم على كتاب الله -عز وجل-.

وحتماً - إن كانوا صادقين - سيجدون المرض، وسيعرفون العلاج.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

أحداث سنة ٦٢٢ هجرية:

في هاتين السنتين خفت القبضة التترية على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران) واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد ملكهم وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهري سيحون وجيحون،

وفي شمال أفغانستان وشرق إيران.

ولكن حدث أمر جديد في هاتين السنتين، إذ ظهر على مسرح الأحداث فجأة الأمير «جلال الدين بن محمد بن خوارزم»، والذي كان قد فرّ قبل ذلك إلى الهند منذ خمس سنوات (في سنة ٦١٧ هجرية)، وذلك أنه لم يستطع إكمال حياته في الهند، فقد كانت العلاقات أصلاً سيئة مع ملوك الهند، ثم إنه وجد أن التتار قد تركوا منطقة فارس نسبياً، وأن جنكيزخان قد عاد إلى بلاده لمعالجة بعض الأمور هناك، وترك زعيماً غيره على جيوش التتار، وأن أخاه غياث الدين قد سيطر على معظم أجزاء فارس بعد أن تقاتل مع سعد الدين بن دكلا، واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما، وكان النصيب الأكبر لغياث الدين، وتم ذلك في سنة٦٢١ هجرية كما أشرنا من قبل.

وجد جلال الدين أن الظروف الآن مواتية للعودة إلى مملكة خوارزم للبحث عن الملك الضائع، ولكنه للأسف لم يدقق النظر، ولم يشخص المرض الذي أصاب الأمة الإسلامية في ذلك الوقت.. ولم يدرك أن الفرقة والتشتت والاستهانة بدماء المخالفين من المسلمين كانت من الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المخزية التي وصلت إليها أمة الإسلام.

لم يدرك جلال الدين هذه الأمور، ومن ثم فإنه بدلاً من أن يبذل مجهوداً لتجميع الأطراف المتناحرة والأقاليم المتصارعة، دخل إلى مملكة خوارزم وهو يجهز نفسه ليكون طرفاً جديداً في الصراع الإسلامي - الإسلامي..!!

ماذا فعل جلال الدين؟!

لقد عبر نهر السند ودخل إقليم كرمان (جنوب باكستان) ثم تجاوزه إلى جنوب فارس (جنوب إيران) ثم بدأ يجمع حوله الأنصار له، وذهب إلى «سعد الدين بن دكلا» وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين..!!

وبدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس من جنوبه إلى الشمال محارباً أخاه غياث الدين، حتى وصل إلى غرب إيران، وأصبح قريباً من الخلافة العباسية، وكانت العلاقات القديمة بين مملكة خوارزم والخلافة العباسية متوترة جداً، ووجد جلال الدين في نفسه قوة، ووجد في الخلافة ضعفاً، فأعلن الحرب على الخلافة العباسية.. (هذا وجيوش التتار قابعة في شرق إيران!!!) ولا عجب؛ فقد كان جل الزعماء في تلك الآونة مصابين بالحول السياسي الذي أشرنا إليه من قبل، ودخل جلال الدين بجيشه إلى البصرة، وحاصرها لمدة شهرين، ثم تركها واتجه شمالاً ليمر قريباً من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وخاف الناصر لدين الله الخليفة العباسي على نفسه؛ فحصن المدينة وجهز الجيوش لدفع جلال الدين، ولكن لم يكتف بذلك بل ارتكب فعلاً شنيعاً مقززاً، إذ إنه أرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين..!!

سبحان الله..!!

أيأتي بالتتار وهو يعلم تاريخهم وحروبهم مع المسلمين ليحاربوا جلال الدين؟! حتى لو كان الظلم كل الظلم في جانب جلال الدين، والحق كل الحق في جانب الخليفة.. أيأتي بالتتار لنجدته؟! أما علم أن التتار إذا قضوا على جلال الدين فإن الخطوة التالية مباشرة هي القضاء على الخلافة العباسية؟!

ماذا أردت يا خليفة المسلمين؟!

أردت أن تطيل فترة ملكك أعواماً قليلة؟!

أردت أن تموت عبداً للتتار بدلاً من أن تكون عبداً لجلال الدين؟!

ليس هذا - بالطبع - دفاعاً عن جلال الدين.. بل نلومه أشد اللوم على تفريق طاقة المسلمين وجعل بأسهم بينهم، وما أشبهه بصدام حسين!! فكما ترك

جلال الدين نيران التتار تبتلع ديار المسلمين، وانصرف لحرب الدولة العباسية.. كذلك فعل صدّام يوم كانت أطماع الغرب والشرق تحدق بالأمة في فلسطين وأفغانستان وفي الشيشان وكشمير... فأعرض عن كل ذلك وغزا الكويت!!!

وبرغم كل هذا التدني في الأخلاق وفي السياسة.. إلا أن الحل لا يكون أبدًا أن نأتي بقوة كافرة مهولة مروعة لنزرعها داخل بلاد المسلمين تحل لهم مشاكلهم، وتعالج لهم أمراضهم.

لقد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله كالمستجير من الرمضاء بالنار... كان كمن بغته لص صغير في بيته، فأسرع بالاستنجاد بأكبر لصوص المنطقة، فجاء اللص الكبير وأزاح اللص الصغير، ثم سرق هو البيت، بل ولم يكتف بذلك بل سرق البيوت المجاورة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..!!

ومع استعانة الخليفة بالتتار، إلا أن التتار كانوا مشغولين ببسط سيطرتهم في المناطق الشاسعة التي احتلوها، فلم يحدث بينهم وبين جلال الدين قتال إلا في أواخر سنة ٦٢٢ هجرية.. واستثمر جلال الدين هذه الفترة في بسط سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ثم شمال العراق ثم منطقة شمال فارس، وبدأ يدخل في أذربيجان وما حولها من أقاليم إسلامية (انظر الخريطة رقم ٧).

وكانت حروبه -هو والخوارزمية الذين معه- حروبًا شرسة مفسدة، مع أن البلاد المغنومة كلها بلاد إسلامية..! فكان يفعل بهم الأفاعيل من قتل وسبي ونهب وتخريب.. وكأنه تعلم من حروبه مع التتار كيف يقسو قلبه بدلاً من أن يتعلم كيف يرحم الذين عُذبوا منذ شهور وسنوات على أيدي التتار.

ثم بسط جلال الدين سيطرته على مملكة الكرج النصرانية بعد أن أوقع بهم هزيمة فادحة، واصطلح مع أخيه غياث الدين صلحاً مؤقتاً، وأدخله في جيشه، ولكن كان كل واحد منهما على حذر من الآخر.

وبذلك بلغ سلطان جلال الدين من جنوب فارس إلى الشمال الغربي لبحر قزوين، وهي وإن كانت منطقة كبيرة إلا أنها مليئة بالقلاقل والاضطرابات، بالإضافة إلى العداءات التي أورثها جلال الدين قلوب كل الأمراء في الأقاليم المحيطة بسلطانه بمن فيهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله.. وسياسة العداوات والمكائد والاضطرابات هي السياسة التي ورثها جلال الدين عن أبيه محمد بن خوارزم وتحدثنا عنها من قبل.. ولم تأت إلا بالويلات على الأمة.. وليت المسلمون يفقهون..

وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفى الخليفة الظالم الفاسد الناصر لدين الله، بعد أن حكم البلاد سبعة وأربعين عاماً متتالية، وكان قبيح السيرة في رعيته، فقد خرب العراق، وظلم أهله، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وطفف لهم في المكاييل، وفرض عليهم الرسوم الجائرة، والأحكام الظالمة.. وفوق كل ذلك ارتكب الذنب العظيم الذي تصغر بجواره كل ذنوبه وهو مراسلة التتار، ومحاولة التعاون معهم ضد المسلمين.

أحداث سنتيْ ٦٢٣ و٦٢٤ هجرية:

تولى الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله الخلافة العباسية، وكان على النقيض من أبيه تماماً؛ فقد كان رجلاً صالحاً تقيًا، أظهر من العدل والإحسان ما لم يُسبق إلا عند القليل، لدرجة أن ابن الأثير قال: «إنه لو قيل: إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً»، فرفع الضرائب الباهظة، وأعاد للناس حقوقهم، وأخرج المظلومين من السجون، وتصدق على الفقراء، حتى قيل في حقه: إنه كان غريباً في هذا الزمان الفاسد.

ولقد قال فيه ابن الأثير- وكان معاصراً له- كلمة عجيبة، لقد قال: «إني أخاف أن تقصر مدة خلافته؛ لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته!!».. إلى

هذا الحد كان المجتمع فاسدًا؟!

وسبحان الله.. لقد صدق حدس ابن الأثير، وتوفي الخليفة الظاهر بأمر الله سريعاً! ولم يحكم المسلمين إلا تسعة شهور وبضعة أيام فقط، ومع ذلك فكما يذكر الرواة: رخصت الأسعار جداً في فترة حكمه، وتحسن الاقتصاد في العراق.. وهي إشارات لا تخفى على عاقل.. والحمد لله الذي وضع في الأرض سنناً لا تتبدل ولا تتغير... فهل من مدّكر؟!!

وتولى الحكم بعد الظاهر بأمر الله المستنصر بالله، والذي ظل في كرسي الحكم حتى (سنة ٦٤٠ هـ) أي حوالي: سبعة عشر عامًا.

وفي هذه الأثناء كان جلال الدين يستمر في حروبه في هذه المنطقة ليس مع التتار، ولكن مع المسلمين!! واستولى على بعض المدن والأقاليم، وكان من أبشع ما فعل هو حصاره لأهل «خلاط» أو «أخلاط» وهي مدينة مسلمة (في شرق تركيا الآن)؛ فقد قتل منهم خلقاً كثيراً، وامتدت أيدي الجنود الخوارزميين إلى كل شيء في البلد بالسلب والنهب حتى سبوا الحريم المسلمات..!!

والحق أني لا أجد تفسيراً منطقياً لهذا التردي في الأخلاق، والتردي في الفهم، والتردي في السياسة، والتردي في الحكمة... ولولا أن هذا مسجل في أكثر من مرجع ما قبله عقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..!!

ثم حدث أمر مهم جداً ومحوريٌّ في سنة ٦٢٤ هجرية وهو وفاة القائد التتري المجرم السفاح جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة، ملأها بالقتل والذبح وسفك الدماء والسلب والنهب، وبنى خلال فترة حكمه مملكة واسعة من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب.. بُنيت هذه المملكة على جماجم البشر، وعلى أشلائهم ودمائهم.. (ومعظمهم من المسلمين!) ولكن اللوم كل اللوم على من وصل إلى حالة من الضعف مكنت مثل هذا الفاسد من

أن يفعل في بلاد المسلمين ما يشاء.

وبموت جنكيزخان هدأت الأمور نسبياً في هذه المنطقة، واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين إلى وسط إيران تقريباً، بينما كان جلال الدين يبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران والمناطق الغربية من بحر قزوين.. وكأن كل طرف قد رضي بما يملك، وآثر الاحتفاظ بما يعتقد أنه حق له.

الفترة من ٦٢٤ هجرية إلى ٦٢٧ هجرية:

هذه هي فترة الهدوء النسبي الذي أعقب وفاة جنكيزخان.

أين كان المسلمون في هذه الفترة؟!

لقد كانوا على عهدهم من الخلاف والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.. لم يستغل المسلمون مصيبة التتار في زعيمهم الكبير جنكيزخان ليجمعوا صفهم ويحرروا بلادهم، بل شغلوا أنفسهم بحرب بعضهم لبعض، وبظلم بعضهم لبعض..

فقد تجددت الخلافات بين جلال الدين وأخيه غياث الدين وتفاقمت، حتى تعاون غياث الدين مع أعداء جلال الدين في حروبه.

ليس هذا فقط، بل كانت المنطقة بأسرها تموج بالاضطرابات والفتن، ليس في منطقة العراق وفارس فقط، بل في كل ديار المسلمين؛ فالحروب بين أمراء المسلمين في الشام ومصر كانت مستمرة، ولم تتحد كلمتهم أبداً، مع أن معظمهم من نفس العائلة الأيوبية، بل وأحياناً من الإخوة الأشقاء، ونتج عن ذلك أمر مريع في سنة ٦٢٦ هجرية، وهو تسليم بيت المقدس (الذي حرره صلاح الدين الأيوبي قبل ذلك) إلى الصليبيين صلحاً!..!! أي أن المسلمين في الشام اتفقوا على إعطاء بيت المقدس للصليبيين في مقابل أن يترك الصليبيون بعض

الإمارات في الشام للمسلمين..!!

ونعوذ بالله من الضعف بعد القوة، ومن الذلة بعد العزة، ومن الخذلان بعد النصر.

ثم إن جلال الدين استمر في حروبه البشعة في المنطقة، وكان مما فعل أن حاصر مدينة «خلاط» مرة ثانية بعد أن تمردت عليه، وأطال عليها الحصار حتى اضطر أهل البلد إلى أكل لحوم الخيل والحمير، ثم أكلوا الكلاب والقطط.. بل والفئران..!! ثم سقطت المدينة في يد جلال الدين، فخربها وأكثر فيها القتل وسبي الحريم، واسترق الأولاد ثم باع الجميع..!! وكما يقول ابن الأثير: «إن هذا ما لم يسمع بمثله، لا جرم أن الله -عز وجل- لن يمهله!!».

وعند رؤية مثل هذه الأحداث في كل بلاد المسلمين، ندرك لماذا فعل التتار ذلك بهذه البلاد مع ضخامتها وأعدادها وثرواتها.. ولا جرم أن هذه سنة مطردة في الكون.. فإنه من كانت هذه حاله فلابد أن يُسلط عليه طواغيت الأرض؛ فالله -عز وجل- لا ينصر إلا من ينصره.. ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

* * *

الاجتياح التتري الثاني

أتت سنة ٦٢٨هجرية تحمل هجمة تترية بشعة جديدة على الأمة الإسلامية.. وقد تضافرت عوامل شتى جعلت هذا الاجتياح الجديد على مستوى الاجتياح الأول نفسه الذي حدث سنة ٦١٧هجرية إلى سنة ٦٢٠ هجرية، أو لعله أبشع وأسرع.

من هذه العوامل:

١- استقرار ملك التتار في منغوليا بعد وفاة جنكيزخان؛ فقد تولى قيادة التتار الزعيم الجديد «أوكيتاي»، وأخذ ينظم أمور مملكته في معقلها بمنغوليا والصين، وذلك سنة ٦٢٤ إلى سنة ٦٢٧هجرية.

وبعد أن تم له ذلك بدأ يفكر من جديد في اجتياح العالم الإسلامي، واستكمال الحروب بعد ذلك في منطقة روسيا - التي هُزمت فيها قبل ذلك الجيوش التترية -، ومحاولة استكمال الفتوح في داخل أوروبا.. ويبدو أن اجتياح الخلافة العباسية ذاتها وإسقاط بغداد لم يكن من أهداف هذه الحملة؛ لأنها تجاوزتها إلى أوروبا دون الوقوف أمامها كثيراً، وذلك إما لشدة حصانتها وكثافة سكانها، وإما لتجنب إثارة كل المسلمين في العراق والشام ومصر إذا أسقطت الخلافة العباسية، والتي كانت تمثل رمزاً مهمًا للمسلمين على ضعفها.. فأراد التتار أن يجعلوها الخطوة الأخيرة في فتوحاتهم.. وهذا هو عين الذكاء.

كلف الخاقان الكبير«أوكيتاي» أحد أبرز قادته بالقيام بمهمة الاجتياح التتري الثاني، وهو القائد «شورماجان» والذي جمع جيشاً هائلاً من التتر، وتقدم

صوب العالم الإسلامي من جديد.

٢- شهد هذا العام أيضًا (٦٢٨هـ) استمرار حالة الفرقة البشعة التي كانت في الأمة الإسلامية، واهتمام كل زعيم بحدود مملكته، وإن صغرت، حتى إن بعض الممالك الإسلامية لم تكن إلا مدينة واحدة وما حولها من القرى، ولم يكتف الزعماء المسلمون بالفرقة بل كانوا يتصارعون فيما بينهم، ويكيد بعضهم لبعض، ولم يكن أحدهم يأمن أخاه مطلقاً.. ولم تكن فكرة الوحدة مطروحة أصلاً.

٣- حملت هذه السنة - أيضًا - النهاية المأساوية الفاضحة لجلال الدين بن خوارزم شاه!.

فإنه لما جاءت جيوش التتار بقيادة شورماجان اجتاحت البلاد الإسلامية اجتياحاً بشعاً، وقد وصل إلى علمها أن جلال الدين قد ضعف جداً في هذه السنة لحدوث هزيمتين له من الأشرف بن العادل حاكم ديار الجزيرة في شمال العراق وجنوب تركيا، وكانت طائفة الإسماعيلية - وهي من طوائف الشيعة في غرب إقليم فارس - قد راسلت التتار وأخبرتهم بضعف جلال الدين؛ وذلك لأنه كانت بينهم وبين جلال الدين حروب، فأرادوا الانتقام منه بإخبار التتار بوقت ضعفه.

وجاءت جحافل التتار ودمرت في طريقها كل ما يمكن تدميره، وأكلت الأخضر واليابس، وكان لها هدف رئيسي هو الإمساك بجلال الدين بن خوارزم.. والتقى بهم جلال الدين في موقعة انهزم فيها شر هزيمة، وأسرع بالفرار من أمام التتار وقد تمزق جيشه، وإذا به يلقى المصير نفسه الذي لقيه أبوه منذ أحد عشر عاماً.. فهو يفر من قطر إلى قطر، ومن مدينة إلى مدينة، والتتار خلفه يقتلون ويسبون وينهبون، حتى وصل جلال الدين إلى أرض الجزيرة

بشمال العراق حيث تفرق عنه جنوده أجمعون، وبقي وحيداً شريداً طريداً كما حدث مع أبيه تماماً، وأخذ يتنقل بمفرده بين القرى فراراً من التتار، واختفى ذكره من البلاد شهوراً متصلة؛ فلا يعرف أحد إن كان قُتل أو اختفى أو هرب إلى بلد آخر.. ثم وصل إلى إحدى القرى حيث استقبله فلاح من الأكراد وسأله من أنت؟ وقد تعجب الفلاح من كثرة الجواهر والذهب الذي عليه، فقال له جلال الدين: أنا ملك الخوارزمية..! يقول ذلك ليلقي الرهبة في قلب الفلاح، ولكن -سبحان الله- كان ذلك الإعلان ليقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ فقد كانت جنود الخوارزمية قتلت أخاً لهذا الفلاح!! فلما علم الفلاح بأن هذا هو جلال الدين استقبله وأكرمه وقدم له الطعام، حتى اطمأن له جلال الدين فنام، وهنا قام الفلاح وقتل جلال الدين بالفأس، وأخذ ما عليه من الجواهر وسلمها إلى شهاب الدين غازي صاحب هذه المنطقة، والذي طالما ذاق من ويلات جلال الدين.

هكذا كانت نهاية الظالمين.. ونهاية المفرِّطين.. ونهاية الذين تملكوا رقاب العباد فما رعوا لله حقاً، وما رعوا للرعية حقاً، وما رعوا للرحم حقاً، وعاشوا لأنفسهم فقط، وصدق القائل: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط».

روى البخارى ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم.. حتى إذا أخذه لم يفلته.. ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** [هود:١٠٢]».

٤- نتيجة العوامل السابقة، ونتيجة سوء التربية، وغياب الفهم الصحيح للإسلام، والتمسك بالدنيا إلى أقصى درجة، وعدم وضوح الرؤية عند الناس.. فلا يعلمون العدو من الصديق، ونتيجة الحروب التترية السابقة، والتاريخ الأسود في كل مدينة وقرية مر عليها التتار.. نتيجة

كل هذه العوامل فقد دبت الهزيمة النفسية الرهيبة في داخل قلوب المسلمين، فما استطاعوا أن يحملوا سيفاً، ولا أن يركبوا خيلاً، بل ذهب عن أذهانهم أصلاً التفكير في المقاومة.. وهذا ولا شك سهّل جداً من مهمة التتار الذين وجدوا أبواباً مفتوحة، ورقاباً جاهزة للقطع..!!

يروي ابن الأثير في الكامل في أحداث السنة الثامنة والعشرين بعد الستمائة بعض الصور التي استمع إليها بأذنه من بعض الذين كُتبت لهم نجاة أثناء حملات التتار على المدن الإسلامية فيقول:

• كان التتري يدخل القرية بمفرده، وبها الجمع الكثير من الناس فيبدأ بقتلهم واحداً تلو الآخر، ولا يتجاسر أحد المسلمين أن يرفع يده نحو الفارس بهجوم أو بدفاع..!!

• أخذ تتري رجلاً من المسلمين، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتري فأحضر سيفاً ثم قتله..!!

• ويحكي رجل من المسلمين لابن الأثير فيقول: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس واحد من التتر، وأمرنا أن يقيد بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟!! فقالوا: نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل ذلك، فأخذت سكيناً وقتلته، وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير..!!

• دخل التتار بلدة اسمها «بدليس» (في جنوب تركيا الآن)، وهي بلدة حصينة جداً ليس لها إلا طريق ضيق جداً بين الجبال.. يقول أحد سكانها: لو كان عندنا خمسمائة فارس ما سلم من جيش التتار واحد؛ لأن الطريق ضيق،

والقليل يستطيع أن يهزم الكثير.. ولكن -سبحان الله- هرب أهلها إلى الجبال وتركوا المدينة للتتار فقاموا بحرقها..!!

• كان كل مسلم قبل أن يقتل يستحلف التتري بالله ألا يقتله.. يقول له: «لا بالله لا تقتلني»، فمن كثرة ما سمعها التتار، أخذوا يتغنون بكلمة «لا بالله».. يقول رجل من المسلمين اختبأ في دار مهجورة ولم يظفر به التتار: إني كنت أرى التتر من نافذة البيت بعد أن يقتلوا الرجال ويسبوا النساء، يركبون على خيولهم وهم يلعبون ويضحكون يغنون قائلين: «لا بالله.. لا بالله»، وهذه - كما يقول ابن كثير -: «طامة عظمى وداهية كبرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون..»

كان هذا هو وضع المسلمين في ذلك الوقت.. هزيمة نفسية مرة.. واجتياح تتري رهيب.

ماذا فعل شورماجان بعد موت جلال الدين؟

لقد ضم «شورماجان» شمال إقليم فارس (شمال إيران حالياً) إلى الإمبراطورية التترية، وذلك في سنة ٦٢٩ هجرية، ثم زحف بعد ذلك على إقليم أذربيجان فضمه إلى أملاكه.. (انظر الخريطة رقم ٨).

وبتلك الانتصارات التترية - إلى جانب موت جلال الدين على النحو الذي مرّ بنا - اكتمل سقوط إقليم فارس كله في يد التتار باستثناء الشريط الغربي الضيق الذي تسيطر عليه طائفة الإسماعيلية الشيعية. (انظر الخريطة رقم٩).

ثم بدا لشورماجان أن يستقر في هذه المناطق ولا يكمل زحفه إلا بعد ترسيخ قدمه، وتثبيت جيشه، ودراسة المناطق المحيطة... وما إلى ذلك من أمور تدعم السلطان التتري في هذه المنطقة.

ظل «شورماجان» يرسخ حكم التتر في هذه المناطق لمدة خمس سنوات كاملة.. من سنة ٦٢٩ هجرية إلى سنة ٦٣٤ هجرية، وأثناء هذه السنوات الخمس لم تخرج عليه ثورة مسلمة!! ولم يتحرك لقتاله جيش مسلم!! مع أن جيوش المسلمين تملأ المناطق المجاورة لفارس وأذربيجان، وذلك في العراق والموصل ومصر والحجاز وغيرها.. لكن الكل كان يشعر أن هذا أمر يهم أهل فارس وأهل أذربيجان، وليس مصيبة عامة على عموم المسلمين..!! لم يشعر المسلمون في الأقطار التي لم تُصَب بعد بوَيْلات التتار أن عليهم واجباً تجاه هذه البلاد المنكوبة.. وفي ذات الوقت لم يشعروا أن الدائرة حتماً ستدور عليهم في يوم من الأيام.. أضف إلى ذلك أن المسلمين في مناطق العراق والشام ومصر والحجاز كان غالبيتهم من العرب، بينما كان غالب المسلمين في إقليم فارس وأذربيجان وشرق الدولة الخوارزمية من غير العرب.. ومع غياب الفهم الإسلامي الصحيح.. وغياب الاستيعاب الكامل للأسس الحقيقية التي يُبنى عليها هذا الدين، ما عاد العربي يشعر بأخيه غير العربي، ولا العكس... كأنهم غرباء بعضهم عن بعض.. بينما هم في الحقيقة.. إخوة!

«إنما المؤمنون إخوة».

أمر شنيع حقاً ألا يشعر المسلم العربي بأخيه المسلم التركي أو الأفغاني أو الشيشاني أو الهندي أو الفارسي... هذا أمر شنيع.. وقاصمة لظهر الأمة الإسلامية؛ لأن الإسلام دين لا يرتبط بعرق ولا عنصر ولا لون ولا جنس.. إنما الرابط الوحيد هو الإيمان بالله ورسوله وبهذا الدين.. رباط العقيدة.. ولا شيء غير العقيدة.

روى الإمام أحمد بسند مرسل عن أبي نضرة - رحمه الله - قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود،ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»**.

هكذا جاءت القاعدة واضحة.. لا مكان لعرق أو لون في الإسلام.. إنما المكانة والاعتبار للتقوى.

بل إن الرسول ﷺ قسم المسلمين إلى طائفتين رئيسيتين لا ثالث لهما.. واعتمد في تقسيمه هذا على مسألة التقوى.. جاء ذلك في الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود وأحمد، وكذلك ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وكذلك رواه ابن مردويه في تفسيره بسندٍ رجاله ثقات.. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

« أما بعد، يا أيها الناس، فإن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها، يا أيها الناس، الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾[الحجرات:١٣] » والعبية هي الكبر والفخر.

فالمسلم الصادق هو الذي يتحمس لمن اشترك معه في عقيدة واحدة ولو اختلف أصله أو لونه أو نسبه.

وهكذا فالاعتبار الوحيد المقبول في الإسلام هو اعتبار العقيدة والتقوى.

الاجتياح التتري في الفترة من سنة ٦٣٤ هجرية إلى سنة ٦٤٩ هجرية :

بعد هذه السنوات الخمس في إقليمي فارس وأذربيجان بدأ «شورماجان» في سنة ٦٣٤ هجرية في الالتفاف حول بحر قزوين من ناحية الغرب لينطلق شمالاً لاستكمال فتوحاته.. وبسرعة استطاع أن يسيطر على أقاليم أرمينيا وجورجيا (مملكة الكرج النصرانية) والشيشان وداغستان.

ثم بدأ جيش آخر من جيوش التتار بزعامة «باتو بن جاجي» في قيادة الحملات التترية شمال بحر قزوين، وذلك في السنة نفسها (٦٣٤ هجرية)، وأخذ في قمع القبائل التركية النازلة في حوض نهر الفولجا، ثم زحف بعد ذلك

على البلاد الروسية الواسعة، وذلك في سنة ٦٣٥ هجرية.

وبدأ هذا الجيش التتري الرهيب يقوم بالمذابح الشنيعة في روسيا النصرانية.. فاستولى على العديد من المدن الروسية، وذلك في سنتي ٦٣٥ و٦٣٦ هجرية.. سقطت تحت أقدام هذا الجيش مدن «ريدان»، ثم «كولومونا» بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة «فلاديمير» الكبيرة بعد صمود ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت «سوذال»، ثم توجهت الجيوش التترية إلى أعظم مدن روسيا «موسكو» فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن «يورييف» و«جاليش» و«بريسلاف» و«روستوف» و«ياروسلاف»، ثم سقطت مدينة «تورزوك»، وبذلك احتل التتار دولة روسيا بكاملها..!! (ومع أن مساحة روسيا سبعة عشر مليون كيلومتر مربع.. إلى جانب أعداد سكانها الهائلة وأحوالها المناخية القاسية إلا أن التتار احتلوها بالكامل في عامين فقط!!)

وفي سنة ٦٣٨ هجرية تحركت جيوش التتار غرباً بقيادة «باتو بن جاجي» فاحتلوا دولة أوكرانيا بكاملها (ومساحتها ستمائة ألف كيلومتر مربع)، واجتاحوا العاصمة «كييف»، ودمروا كنوزها العظيمة، ولقى أكثر سكانها مصرعهم.

وفي سنة ٦٣٩ هجرية زحفت فرقة من قوات التتار بقيادة «بايدر» إلى الشمال الغربي من دولة أوكرانيا فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من المدن البولندية، فلم يجد الملك البولندي إلا أن يستعين بالفرسان الألمان القريبين منه. (ألمانيا تقع في غرب بولندا مباشرة)، فجاء الأمير هنري دوق «سيليزيا الألمانية» واشترك مع ملك بولندا في تكوين جيش واحد لملاقاة التتار، غير أن هذا الجيش لقي هزيمة ساحقة على أيدي الجيوش التترية بقيادة «بايدر».. وبذلك سقطت بولندا أيضاً تحت حكم التتار!.

وفي هذه الأثناء وفي السنة نفسها - سنة٦٣٩ هجرية - ترك «باتو» قائد التتار المتمركز في أوكرانيا فرقة تترية في هذه المنطقة، واتجه بجيشه الرئيسي غرباً إلى مملكة المجر حيث التقى مع ملك المجر في موقعة رهيبة دمر على أثرها الجيش المجري بكامله، وبذلك احتُلت المجر أيضاً!

ثم نزل «بايدر» من بولندا في اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش التتار بقيادة باتو في المجر، وفي طريقه للنزول اجتاح دولة «سلوفاكيا» وضمها بكاملها إلى دولة التتار..!!

ثم تدفقت الجيوش التترية إلى دولة «كرواتيا» فاجتاحتها !!

وبذلك وصلت الجيوش التترية إلى سواحل البحر الأدرياتي (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا)، وبذلك يكون التتار قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوروبا تقريباً..!! (انظر الخريطة رقم ١٠)

وكان من الممكن أن تستمر الفتوحات التترية في أوروبا - وقد وصلت حدود دولة التتار إلى دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا -لولا أن الخاقان الكبير ملك التتار «أوكيتاي» مات في هذا العام (٦٣٩ هجرية) فاضطر الأمير «باتو بن جاجي» أن يوقف الحملات، ويستخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة، ويعود إلى «قراقورم» عاصمة التتار في منغوليا للمشاركة في اختيار الخاقان التتري الجديد.

وقفة للتحليل (سنة٦٣٩ هجرية وما بعدها) :

أولاً: وصلت حدود دولة التتار في هذه السنة من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً.. وهو اتساع رهيب في وقت محدود.. وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.. (انظر الخريطة رقم ١١)

ثانياً: تولى قيادة التتار بعد «أوكيتاي» ابنه «كيوك بن أوكيتاي»، وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها، والسيطرة على شعوبها وجيوشها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التترية في عهد هذا الخاقان، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

ثالثاً: ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم، وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تماماً على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

رابعاً: ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي - والذي يبدأ من العراق إلى مصر- مفرقاً مشتتاً، لا يكتفي فقط بمشاهدة الجيوش التترية وهي تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم، وازداد تفككهم بصورة كبيرة.

كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغرب إفريقيا.. كان هذا القسم مفككًا تمامًا بعد سقوط دولة الموحدين.

خامساً: ذاق الأوربيون النصارى من ويلات التتار كما ذاق المسلمون من قبل، وذبح منهم مئات الآلاف أو الملايين، ودمرت كنائسهم، وأحرقت مدنهم، بل هُددوا تهديداً حقيقياً أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثولكية النصرانية في روما.

سادساً: ومع أن النصارى رأوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوروبا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف

تقف عند فترة من الفترات، أما حروب النصارى الصليبيين ضد المسلمين فهي حروب دائمة لا تنتهي.. ومن ثم فقد كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع التتار رغم كل الأعداد الهائلة التي قتلت منهم بدلاً من التعاون مع المسلمين..!!

أما لماذا يعتقد الصليبيون أن حرب المسلمين دائمة وحرب التتار مؤقتة؟ فإن ذلك يرجع إلى أن حروب الصليبيين مع المسلمين هي حروب عقيدة، والعداء بين المسلمين والصليبيين يقوم على أساس ديني، والصراع بينهما أبدي.. والنصارى لن ينهوا القتال إلا بدخول إحدى الطائفتين في دين الأخرى، كما يقول الله -عز وجل- في كتابه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠].

أما حروب التتار مع الصليبيين فلم تكن حروب عقيدة؛ فعقيدة التتار كانت عقيدة مشوهة باهتة.. مجموعة من أديان شتى.. لم يسع قائد تتري واحد لنشر هذه العقيدة في البلاد المغنومة، إنما كان هدف التتار فقط هو الإبادة والتشريد، وجمع المال وسبي النساء والأطفال.. ومن كانت هذه صفته فلا يُتوقع له الاستمرار.

لذلك فإنه على الرغم من الصدمات التي تلقتها أوروبا على يد التتار، إلا أن أوروبا استمرت في تجهيز حملاتها لغزو بلاد المسلمين من ناحية مصر والشام بدلاً من تكثيف الجهود لصد التتار، وفي ذات الوقت فإن حكام أوروبا الغربية الصليبيين ما يئسوا من إمكانية التعاون مع خاقان التتار لسحق الأمة الإسلامية.

سابعاً: أخذت عقائد الجيش التتري في التغيّر بعد الحملات التي وجهوها إلى أوروبا.. فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على

إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.

ثامناً: استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى: بين التتار من ناحية، والصليبيين من ناحية أخرى.

تاسعاً: في سنة ٦٤٠ هجرية توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه «المستعصم بالله»، وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن، وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيراً - ولا قليلاً!! - في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال؛ فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه... وسنأتي إلى ذكره بعد ذلك؛ فهو آخر الخلفاء العباسيين، وهو الذي ستسقط بغداد في عهده بعد ذلك.

عاشراً: لم يبق فاصل بين التتار والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس، (غرب إيران الآن).. وهو على قدر من الأهمية - وإن كان ضيقاً -؛ إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية.. وكانوا على خلاف دائم مع الخلافة العباسية.. وكراهية شديدة للمذهب السني، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً.. فمرة يراسلون التتار، ومرة يراسلون الصليبيين.. وكان التتار يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم؛ فالتتار ما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض.

وخلاصة القول بعد هذا التحليل فإن «كيوك بن أوكيتاي» خاقان التتار الجديد تسلم مملكة واسعة تعد هي القوة الأولى في العالم، وأن الصليبيين بالرغم

مما ذاقوه من التتار فإنهم ما زالوا يطمعون في التعاون معهم ضد المسلمين، أما المسلمون فكانوا في خلافات مستمرة، وتحت ضغوط تترية من ناحية، وصليبية من ناحية أخرى، وليس لأي قائد مسلم في ذلك الوقت أي طموح - كبير أو صغير- في تحرير البلاد واستنقاذ العباد، إنما كانت رغبتهم فقط في تثبيت السلطان على البقعة التي يعيشون عليها، مهما صغرت أو ضعفت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بين ٦٣٩ هجرية و٦٤٩ هجرية:

بعد تولية «كيوك بن أوكيتاي» خاقان التتار الجديد قرر أن يوقف الحملات التوسعية، ويتفرغ لتثبيت الأقدام في أجزاء مملكته المختلفة.. وقد ظل «كيوك» يحكم من سنة ٦٣٩ هجرية إلى سنة ٦٤٦ هجرية، وفي هذه السنوات السبع لم يدخل التتار بلاداً جديدة إلا فيما ندر.. وكانت فترة هدوء نسبي في المناطق المجاورة لمملكة التتار، وإن كانت المناطق المنكوبة بالتتار ما زالت تعاني من ظلم وبشاعة الاحتلال التتري.

وعندما رأى الصليبيون في غرب أوروبا النهج غير التوسعي عند «كيوك» تجددت آمالهم في التعاون مع التتار ضد المسلمين، فأرسل البابا «إنوسنت الرابع» سفارة إلى منغوليا في سنة ٦٤٣ هجرية، وكان غرض السفارة هو التوحد مع التتار لحرب المسلمين في مصر والشام، (لم يكن همّها - مثلاً - أن ترفع الاحتلال والظلم عن نصارى أوروبا وروسيا)، واستقبل «كيوك» السفارة الصليبية بجفاوة لكثرة النصارى في البلاط المغولي، ولكن عندما قرأ كيوك رسالة البابا وجده - بالإضافة إلى طلبه توحيد العمل العسكري ضد المسلمين - يدعوه إلى اعتناق النصرانية، واعتبر خاقان التتار هذا تعدياً من البابا؛ إذ كيف يطلب من خاقان التتار أن يغير من ديانته؟! فأعاد الخاقان «كيوك» السفارة

الصليبية بعد أن حملها برسالة إلى البابا يطلب منه أن يجمع أمراء الغرب الأوروبي جميعاً ليأتوا إلى منغوليا لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان التتري، وبعد ذلك يبدأ التعاون.. وبالطبع رفض ملوك أوروبا الغربية هذا الطلب، وبذلك فشلت السفارة الصليبية في تحقيق أهدافها.

لكن البابا الكاثوليكي «إنوسنت الرابع» لم ييأس من فشل هذه السفارة، بل أرسل سفارة صليبية أخرى، ولكنه هذه المرة أرسلها إلى قائد القواد التترية في مدينة «تبريز» بمنطقة فارس الملاصقة للخلافة الإسلامية، وكان اسمه «بيجو» وذلك في سنة ٦٤٥ هجرية، وقد لمس فيه البابا حباً للعدوان والهجوم، وعلم أنه من أنصار التوسع من جديد في أراضي المسلمين، وقد لاقت السفارة ترحيباً كبيراً من «بيجو» الذي توقع أن هجوم الصليبيين على مصر والشام سوف يشغل المسلمين في هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية في العراق، وبذلك تسهل مهمته في اقتحامها.. ولكن لا يخفى على أحد أن صلاحيات «بيجو» لم تكن تؤهله لاتخاذ مثل هذا القرار الاستراتيجي الخطير بالتعاون مع الصليبيين، وكان «كيوك» ما زال على رأيه في عدم التوسع، وعدم التعاون مع الصليبيين إلا بعد خضوعهم له، ومن ثم فشلت أيضاً هذه السفارة الثانية.

في هذه الأوقات كان «لويس التاسع» ملك فرنسا يجهز لحملته الصليبية على مصر، والتي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة، وكان يجمع جيوشه في جزيرة قبرص، وذلك في سنة ٦٤٦ هجرية، وقد رأى «لويس التاسع» أن الأمل لم ينقطع في إمكانية التحالف مع التتار ضد المسلمين، فأرسل سفارة صليبية ثالثة من قبرص إلى منغوليا لطلب التعاون من «كيوك» في هذه الحملة، وزود السفارة بالهدايا الثمينة، والذخائر النفيسة.. لكن عندما وصلت هذه السفارة إلى «قراقورم» العاصمة التترية في منغوليا فوجئت بوفاة خاقان التتار «كيوك»، ولم يكن «كيوك» قد ترك إلا أولاداً ثلاثة صغاراً لا يصلحون

للحكم في هذه السن الصغيرة، فتولت أرملة «كيوك»، وكانت تدعى «أوغول قيميش» الوصاية عليهم، ومن ثم تولت حكم التتار وذلك ابتداءً من سنة ٦٤٦ هجرية، ولمدة ثلاث سنوات.

توجهت إلى ملكة التتار الجديدة سفارة لويس التاسع فاستقبلتها بجفاوة، لكنها اعتذرت عن إمكانية المساعدة في الحملة الصليبية الآن لأنها مشغولة بالمشاكل الضخمة التي طرأت في مملكة التتار نتيجة موت «كيوك»، بالإضافة إلى أن عامة قواد التتار لم يكونوا موافقين ببساطة على حكم امرأة لدولة التتار العظيمة، والتي تعتمد في الأساس الأول على البطش والإجرام والقوة، فكانت الأوضاع غير مستقرة تماماً في منغوليا.

لكن لويس التاسع أصر على القيام بحملته حتى مع عدم اشتراك التتار، فتوجه فعلاً من قبرص إلى مصر، ونزل بدمياط في سنة ٦٤٧ هجرية، واحتل دمياط، ثم تجاوزها إلى داخل مصر - عبر نهر النيل - في اتجاه القاهرة، ولكن الجيش المصري قابله في المنصورة، وكان معه سلطان مصر «الصالح أيوب» الذي مات بعد ثلاثة أيام من بداية المعركة في المنصورة، وتولت أمر مصر السلطانة «شجرة الدر» زوجة الصالح أيوب التي أخفت خبر وفاة زوجها، وراسلت توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يحكم إحدى المناطق في تركيا، وقامت شجرة الدر -بالاشتراك مع قواد الجيش فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس- بإدارة موقعة المنصورة المشهورة ضد الصليبيين، وانتصر المسلمون في هذه الموقعة، ثم وصل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى مصر، وتولى حكم البلاد، وانتصر مرة أخرى على الصليبيين في موقعة فارسكور، وأسر لويس التاسع وذلك في سنة ٦٤٨ هجرية، ثم حدثت بعض الفتن في مصر، وقتل توران شاه، وتولت شجرة الدر ملك مصر علانية، ولكن الجو العام في مصر لم يكن يقبل بولاية امرأة، فتزوجت من أحد قادة

المماليك وهو «عز الدين أيبك»، ثم أصبح سلطاناً على مصر، وبذلك وصل المماليك إلى حكم مصر خلفاً للأيوبيين، وسيأتي تفصيل عن نشأة المماليك وطبيعتهم بعد ذلك.

لكن المهم في تلك الأحداث أن نشير إلى ظهور قوة المماليك، وفشل الحملة الصليبية السابعة، وهذا ولا شك قد زاد من حقد الصليبيين، وأكد على ضرورة التعاون مع التتار لحرب المسلمين.

أما الوضع في منغوليا فلم يكن مستقراً؛ فالتتار لم يستطيعوا قبول أرملة «كيوك» كملكة عليهم، ومن ثم اجتمع المجلس الوطني للتتار والمسمى «بالقوريلتاي»، وذلك في سنة ٦٤٩ هجرية، وقرروا اختيار خاقان جديد للتتار، وبالفعل اختاروا «منكوخان» ليكون زعيماً جديداً للتتار.

وكان اختيار «منكوخان» زعيماً لمملكة التتار بداية تحول كبير في سياسة التتار، وبداية تغيير جذري في المناطق المحيطة بالتتار، فقد كانت لديه سياسة توسعية شبيهة بسياسة جنكيزخان المؤسس الأول لدولة التتار، وشبيهة أيضًا بسياسة أوكيتاي الذي فُتحت أوروبا في عهده... ومن ثم بدأ «منكوخان» يفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين.

وللأسف الشديد فإن أمراء المسلمين وقت تولية «منكوخان» لم يكونوا على مستوى الحدث الكبير، والمسلمون -وإن كانوا قد انتصروا في موقعة المنصورة في مصر سنة ٦٤٨ هجرية- كانوا مشغولين جداً بأنفسهم، ففضلاً عن الفتن الداخلية في كل إمارة، والتصارع على الحكم، فقد كانت تقوم حروب مريرة بين الإمارات الإسلامية، والضحايا جميعاً من المسلمين.

ومن ذلك الحرب الكبيرة التي دارت بين الجيش المصري بقيادة عز الدين أيبك والجيش الشامي الذي أرسله الناصر يوسف أمير حلب ودمشق، ودارت

رحاها في منطقة تسمى «العباسية» (١٨ كيلومترًا شرق مدينة الزقازيق المصرية حالياً) وانتصر فيها الجيش المصري، ولا أدري كيف كانت تطيب نفوسهم بهذه الحروب، والحملات الصليبية لا تتوقف، والتتار يقفون على أبواب الخلافة العباسية!.

والغريب جداً في هذه الفترة أن الحكام والشعوب - بل والعلماء - كانوا قد نسوا تماماً أن نصف الأمة الإسلامية يقع تحت الاحتلال التتري، ونسوا أن التتار أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الخلافة العباسية، ومن الحجاز ومصر والشام، لدرجة أن المؤرخين الذين يؤرخون لهذه الفترة لا يذكرون ألبتة أي شيء عن التتار..!!

فعلى سبيل المثال تجد ذكر التتار يختفي في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير -رحمه الله- عند تأريخه للفترة من سنة ٦٣٩ هجرية إلى ٦٤٩ هجرية (فترة حكم «كيوك» ثم أرملته) والتي لم يحدث فيها توسع تتري، وكأن القضية التترية قد حلت، وما ترك ابن كثير -رحمه الله- الكلام عن التتار إلا لقلة المصادر التي تتحدث عن هذه الفترة، ولقلة الأخبار التي كان أهل العراق والشام ومصر يتناقلونها عن جيوش التتار أو عن المسلمين الذين يعيشون تحت الظلم التتري المستمر.

بل وتجد ابن كثير - رحمه الله - عند وصفه للحياة في العراق والشام ومصر في هذه السنوات العشر يصف حياة طبيعية جداً، فالخليفة يعالج بعض المشاكل الاقتصادية، ويتصدق على بعض الفقراء، وقد يحدث وباء فيعالج، أو غلاء فيشق ذلك على الناس إلى أن يمنح الخليفة بعضاً من المال لمقاومة الغلاء، وهذا يفتح مدرسة، وذاك يفتح داراً للضيافة، وغيره يفتح داراً للطب، ومن أحوال هذه السنوات أن مات فلان من الشعراء وفلان من الأدباء وفلان من الكرماء

وفلان من الوزراء!.. لكن أين العلماء الذي يخطبون على المنابر وفي حلقات العلم يشرحون للناس خطر التتار، ومصيبة المسلمين في البلاد المنكوبة بالتتار؟ وأين الحكام الذين يجهزون شعوبهم ليوم لا محالة هو آت؟ لم يكن هذا مشتهراً في ذلك الوقت.. ومن ثم اختفى ذكره من كتب التاريخ!.

وهكذا فأحداث ذلك الزمان كانت تشير جميعاً إلى أن اجتياحاً تترياً جديداً سوف يحدث قريباً، وذلك على غرار الاجتياح التتري الأول الذي حدث في زمان جنكيزخان، أو على غرار الاجتياح التتري الثاني الذي حدث في زمان أوكيتاي.. ولعله يكون أشد وأنكى؛ لأنه كلما ازداد خنوع المسلمين ازداد طمع التتار وغيرهم فيهم، وكلما فرط المسلمون في شيء طمع أعداء الأمة في الشيء الذي يليه، وهذه سنة ثابتة لأهل الباطل، وراجعوا التاريخ والواقع!!

❊ ❊ ❊

الاجتياح التتري الثالث

منذ تولى «منكوخان» زعامة دولة التتار وهو يفكر في إسقاط الخلافة العباسية، واجتياح العراق، ثم بعد ذلك اجتياح الشام ومصر.. وكان منكوخان قائداً قوياً حازماً، لكن ساعده بصورة أكبر إخوته الثلاثة الذين كانوا عوناً له في تحقيق أحلامه.. فأحد إخوته وهو «أريق بوقا» ظل معه في «قراقورم» العاصمة؛ ليدير معه الإمبراطورية الواسعة.. وأما الأخ الثاني «قبيلاي» فقد أوكل إليه إدارة الأقاليم الشرقية، والتي تضم الصين وكوريا وما حولها من أقاليم.. وأما الأخ الثالث «هولاكو» فقد أصبح مسئولاً عن إدارة إقليم فارس وما حوله، مما يجعله في مواجهة الخلافة الإسلامية مباشرة.. ولا شك أن الجميع قد سمع عن اسم «هولاكو» قبل ذلك..!!

هولاكو هو الزعيم التتري السفاح.. الذي لا يمتلك أية نزعة إنسانية.. الرجل الذي كان لا يرتوي إلا بدماء البشر.. تماماً كسلفه جنكيزخان، لعنهما الله.

هولاكو.. شخصية من أبشع الشخصيات في تاريخ الأرض..!!

ولأنه كان موكلاً بقيادة إقليم فارس، فإن مجال عمله الرئيسي كان البلاد الإسلامية.. وكانت معظم الدماء التي أراقها دماءً إسلامية.. ومعظم الآلام التي زرعها في قلوب البشر كانت في قلوب المسلمين.. وسبحان الله!.. كأن الحقد الذي كان في قلب هولاكو لم يكن كافياً لتدمير الأرض، فقد تزوج امرأة لا تقل عنه حقداً وبطشاً وظلماً.. لقد تزوج من الأميرة المغولية «طقزخاتون»، وكانت

امرأة قوية ذات نفوذ في البلاط المغولي، وكانت فوق ذلك قد انتقلت إلى النصرانية، وكانت شديدة التعصب لديانتها، وشديدة الكراهية للإسلام.

وهكذا اجتمع هولاكو مع زوجته «طقزخاتون» ليصبا جام غضبهما على الأمة الإسلامية.. وكان الهدف واضحاً في ذهن هولاكو.. إنه كان يريد بوضوح أن يُسقط «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية، ثم يتجاوزها إلى ما بعدها.

ومنذ تسلم هولاكو قيادة قطاع فارس وهو يعد العدة لإسقاط الخلافة العباسية.. والحق أن إعداده كان مبهراً عظيماً.. بقدر ما كان رد فعل المسلمين لهذا الإعداد تافهاً حقيراً.. وإذا كان الوضع كذلك فلابد أن ينتصر هولاكو على مناوئيه، وإن كانوا مسلمين؛ ذلك لأن لله -عز وجل- سننًا لا تتبدل ولا تتغير، والذي يأخذ بأسباب النصر من أهل الدنيا يعطيه الله -عز وجل- وإن كان كافراً، والذي لا يُعد نفسه ليوم اللقاء لابد أن ينهزم، وإن كان مسلماً.. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

وهكذا أراد هولاكو حياته الدنيا، وأعد لها إعداداً جيداً، فأخذ نصيبه من الدنيا ولم يُبخس منه شيئاً.

ماذا فعل هولاكو ليسقط الخلافة العباسية؟

لقد بدأ هولاكو عمله في سنة ٦٤٩ هجرية بحمية شديدة وسرعة فائقة، ومع ذلك فإنه كان يتحلى بالصبر والأناة والإتقان في كل خطوة.. فمع حقده الشديد ورغبته الملحة في تدمير الخلافة الإسلامية، واشتياقه الكامل لكنوز العباسيين، ومع كثرة جنوده وتفوقه العسكري الظاهر، إلا أنه ـ برغم كل هذا ـ لم يتسرع في اتخاذ قرار الحرب ضد الخلافة العباسية.. بل ظل يعد العدة في صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة من سنة ٦٤٩ هجرية إلى سنة ٦٥٤ هجرية، وهو يعمل في نشاط لكي يكون جاهزاً تماماً.

وتعالوا نتابع - كما كان المسلمون آنذاك يتابعون! - خطوات هولاكو في إعداده: لقد عمل هولاكو في أربعة محاور رئيسية، وبصورة متناسقة.. هذه المحاور الأربعة تزيد جداً من فرصة انتصاره على الخلافة العباسية، وكل هذا العمل يتم قبل حركة الجيوش، وقبل النزول الفعلي إلى ساحة المعركة في بغداد.. والجدير بالذكر أن هذا الإعداد - في معظمه - كان يتم علناً على مرأى ومسمع من المسلمين وغير المسلمين..!! والتاريخ يتكرر..!!.

المحور الأول: الاهتمام بالبنية التحتية، وتجهيز مسرح العمليات، وضمان استمرارية وسيولة الإمداد والتموين:

١- بدأ هولاكو في إصلاح جميع الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، وهي مسافات رهيبة، لكنه عمل على تهيئتها لاستيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش التترية، مع الأخذ في الاعتبار الطبيعة الجبلية لمنطقة طاجيكستان وأفغانستان وفارس، والموانع الطبيعية الصعبة.

٢- أقام هولاكو الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار التي تعترض طريق الجيوش، وبالذات نهرا سيحون وجيحون، ووضع قوات كافية تحمي هذه الجسور، وبذلك ضمن استمرار عمليات التموين، وفي ذات الوقت تفتح هذه الجسور الطريق لخط رجعة لجيوش التتار في حال الهزيمة.

٣- جهز هولاكو مجموعة ضخمة من الناقلات العملاقة صنعت خصيصاً لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد، وبذلك لا يأخذ وقتاً طويلاً في نقل المعدات الثقيلة عبر هذه المسافة الطويلة.

٤- بدأ هولاكو في السيطرة على كل المدن والمراكز التي تتحكم في محاور الطرق، وبذلك تجنب حدوث أي مباغتة أو قطع لطرق جيشه أثناء سيرها.

٥- قام هولاكو بشيء عجيب فيه ذكاء شديد، وهو إخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد من قطعان الماشية سواء البرية أو المملوكة للسكان، وذلك لترك الحشائش والأعشاب لتكفي لطعام الأعداد الهائلة جداً من الخيول الخاصة بالفرسان، والدواب المكلفة بحمل العتاد الحربي والغذاء والخيام وغير ذلك.. وبذلك لا يحتاج أن يحمل معه طعاماً للحيوانات.. ولا يتعرض لمفاجأة غياب الطعام، وهو كفقد البنزين بالنسبة للسيارات، بل أشد؛ فالسيارة تظل بحالتها إذا غاب البنزين حتى يؤتى به، أما الحيوانات فلا تصبر على غياب الطعام.

المحور الثاني: الاستعداد السياسي والدبلوماسي:

بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية مع بعض الأطراف وموازين القوى المختلفة، وذلك لضمان نجاح المهمة الكبيرة، وهو تغير كبير في السياسة التترية التي ما عرفت قبل ذلك تحالفاً ولا دبلوماسية.

ولما كانت هذه نقطة تحول في السياسة التترية، وفي ذات الوقت كانت هذه الأحلاف في منتهى الخطورة، فقد تكفل بالقيام بهذه المعاهدات الخاقان الكبير «منكوخان» شخصياً، ولم يترك فيها حرية التصرف «لهولاكو»، وإن كان هولاكو من أكثر الناس الذين يعتبر برأيهم في هذا المجال.

١- استقبل «منكوخان» زعيم التتار سفارة صليبية أرسلت في سنة ٦٥١ هجرية من قبل «لويس التاسع» ملك فرنسا.. الذي ما يئس من إمكانية التعاون مع التتار، وكان بالطبع يُكِنّ حقداً كبيراً على المسلمين لهزيمته في موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هجرية، (منذ ثلاث سنوات فقط)، وكان يتزعم السفارة راهب دومينيكاني اسمه «وليم روبروك»، ومَثُل فعلاً بين يدي «منكوخان»، وبدأت المفاوضات للتعاون، ولكن سرعان ما فشلت هذه المفاوضات، والسبب أن

«منكوخان» كان رجلاً صريحاً للغاية؛ فلم يكن دبلوماسيًّا بما يكفي لإبرام معاهدات أو عقد أحلاف، ولم يكن يعرف السياسة من وجهة نظر الغرب، ولم يكن يعرف الطرق الغربية الملتوية، وتنميق الألفاظ، واختيار العبارات، والحصول على ما تريد دون أن يشعر الطرف الآخر أنه يفرط، ولم يكن يعرف شيئاً عن النفاق الأوروبي، أو عن الابتسامة الأوروبية التي تخفي وراءها كل الحقد... لم يكن يعرف كل ذلك.. إنما كان رجلاً بسيطاً واضحاً، مباشراً في كلامه، محدداً في رغباته.

لقد قال «منكوخان» في بداية مفاوضاته: إنه لا يقبل أن يكون في العالم سيد سواه!! وإنه لا يعرف كلمة «صديق» إنما يعرف كلمة «تابع»..!! فأصدقاؤه هم من يتبعونه.. ويعلنون الولاء له والطاعة، وأعداؤه هم الذين يحاربونه، أو الذين لا يقبلون طاعته، وهؤلاء ليست بينه وبينهم مفاوضات، إنما لهم السيف والإبادة.

سياسة بسيطة جداً..!! سياسة «القطب الواحد» في العالم..!!

يقسم العالم إلى دولة «صديقة» أي: تابعة.. ودولة «مارقة» أي: معادية!.

وبالطبع رفض ملك فرنسا أن يتحالف على أساس هذا الشرط، ومن ثم فشلت المفاوضات الأولى بين التتار وبين نصارى غرب أوروبا.

٢- وإذا كان نصارى غرب أوروبا وملوكها القدماء يرفضون التعاون مع «منكوخان» على أساس التبعية، فهناك من الملوك الآخرين من يقبل بذلك، ويعتبره نوعاً من الواقعية.

لقد فكر «هيثوم» ملك أرمينيا النصرانية في التحالف مع التتار على أساس التبعية كما يريد «منكوخان»؛ فملك أرمينيا يعلم قوة التتار؛ فبلاده قد دُمِّرت من قبل على أيديهم في عهد جنكيزخان ثم في عهد أوكيتاي.. كما يعلم أن

دولته ضعيفة هزيلة لا تقارن بأي حال من الأحوال مع دولة التتار؛ فمساحة أرمينيا أقل من ٣٠ ألف كيلومتر مربع.. ويعلم ملك أرمينيا - أخيرًا - أنه محصور بين قوات التتار من جهة، وقوات المسلمين من جهة أخرى، والعداء قديم جداً بينه وبين المسلمين، وهو يتحرق شوقاً لغزو بلاد المسلمين وإسقاط الخلافة العباسية، وإن لم يقبل الآن بالتبعية للتتار فسيرغم عليها غداً، وساعتها سيفقد ملكه بلا ثمن.

كل هذا دفع «هيثوم» ملك أرمينيا أن يذهب بنفسه لمقابلة «منكوخان» في قراقورم عاصمة المغول.. ويبدو أن منكوخان قد بدأ يتعلم طرق السياسة، وبدأ يتعلم الاعتماد على المظاهر والكلمات المنمقة المختارة، فقد أقام «منكوخان» احتفالاً كبيراً، واستقبالاً رسمياً مهيباً «لهيثوم» ملك أرمينيا، وعامله كملك لا كتابع، وإن كانت كل بنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد وتابع، لا ملك وملك.

فبعد الاستقبال الحافل لملك أرمينيا (الذي قدم نفسه على أنه من رعايا «منكوخان»).. بدأ منكوخان يعطي وعوداً كبيرة وهدايا عظيمة إلى هذا الملك، وهو يشتري بذلك ولاءه وتبعيته.. فماذا أعطاه «منكوخان»؟.

لقد أعطاه ما يلي:

١- ضمان سلامة الممتلكات الشخصية للملك «هيثوم» .

٢- إعفاء كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب.

٣- مساعدة الأرمن في استرداد المدن التي أخذها السلاجقة المسلمون منهم خلال الحروب التي دارت بينهم.

٤- اعتبار ملك أرمينيا هو كبير مستشاري الخاقان الكبير «منكوخان» فيما يختص بشئون غرب آسيا.

وهكذا سعد ملك أرمينيا «هيثوم» بقربه من ملك التتار.

ولكن يجب أن نتساءل: في مقابل ماذا كان هذا العطف التتري على ملك أرمينيا النصراني؟! إن الناظر للقوى العسكرية في ذلك الوقت يجد أن القوة العسكرية لأرمينيا لا تقارن بالمرة بقوة التتار، وقد لا تضيف إليها عدداً مؤثراً، فلماذا يتواضع ملك التتار ويعقد معاهدة مع ملك أرمينيا؟

الناظر والمحلل لهذا الحدث يجد ما يلي:

أولاً: ملك التتار سيستفيد من خبرة ملك أرمينيا في حرب المسلمين.. فالعلاقة بين الأرمن والمسلمين قديمة، وقد خبر الأرمن بلاد المسلمين وطبائعهم، ولا شك أن المعلومات الصادقة التي سيحملها ملك أرمينيا إلى ملك التتار سيكون لها أبلغ الأثر في حرب المسلمين.. (تمامًا كما تحالفت أمريكا القوية مع إنجلترا الضعيفة فقط لأن عندها الخبرة في أرض المسلمين والخبرة في أرض العراق بالتحديد..)

ثانياً: سيحتاج ملك التتار إلى أعوان لإدارة هذه الأملاك الواسعة، فإذا كان المدير من أهل البلد، وله ولاء ووفاء له فهو أفضل من الإدارة الخارجية، وأقدر على التحكم في الموقف، وأقوى على تهدئة غضب الشعوب.

ثالثاً: بهذه الخطوة يفتح ملك التتار «منكوخان» باب المعاملات مع النصارى من جديد، الذين قد يحتاجهم بعد ذلك عند استكمال فتوحاته في داخل الشام ومصر، وقد يحتاج إلى ملك أرمينيا في استئناف المفاوضات مع ملوك أوروبا، هذا بالإضافة إلى أنه يعلم أن في قلوب النصارى كراهية شديدة للتتار، وذلك بسبب المذابح البشعة التي قام بها التتار في روسيا وشرق أوروبا.. وقد تكون فرصة المعاهدة

مع ملك أرمينيا داعية إلى شيء من التعاون لرعاية المصالح المشتركة.

رابعاً: الاتحاد مع مملكة أرمينيا سيكون له عامل نفسي عند المسلمين؛ فالحرب مع التتار شيء، والحرب مع قوات «التحالف» شيء آخر!.. نعم القوات المتحالفة مع التتار لا تمثل شيئاً يذكر في الجيش التتري.. ولكن كلمة «التحالف» لها وقع خاص في نفوس الناس.

خامساً: قد توكل إلى القوات الأرمينية المتحالفة مع التتار بعض المهام الخطرة، والتي قد يرغب ملك التتار في تجنبها، وبذلك تكون الخسارة البشرية في جانب الأرمن بدلاً من التتار.

وهكذا فالناظر إلى هذه المفاوضات بين التتار والأرمن يجد أن التتار لم يخسروا شيئاً مطلقاً، وأن المفاوضات بين سيد يملك كل شيء، وتابع لا يملك أي شيء، وهكذا يفعل الزعماء الكبار في العالم، فإنهم يعقدون معاهدات مع ملوك صغار لا يحملون من صفات الملك إلا الاسم فقط، ويوكلون إليهم القيام بمهام كثيرة، ولا يكون المقابل أكثر من السماح لهم بمجرد العيش إلى جوارهم في الأرض، مع إمكانية منحهم بعض الألقاب الفخرية مثل: «كبير مستشاري ملك التتار لشئون غرب آسيا» أو لقب: «الملك الصديق» أو «الدولة الصديقة» أو «العلاقات الحميمة بين البلدين» أو «فخامة الرئيس» أو «جلالة الملك»...

مجرد ألقاب لا تسمن ولا تغني من جوع، والواقع الحقيقي أن القوة التي بيد التتار هي التي فرضت بنود المعاهدة، وهذا يحدث ويتكرر في كل الأزمان والأمكنة.. فالحقوق لا تُحمى إلا بالقوة.

وهكذا عاد ملك أرمينيا «هيثوم» منتشياً بمعاهدته، فخوراً بعلاقته مع ملك التتار، معظماً في شعبه؛ لأنه استطاع بسياسته التي يسمونها «حكيمة» أن يجنب مملكته ويلات الحروب..!!

٣- كان من رغبات «منكوخان» أيضاً أن يعقد تحالفات مع أمراء الممالك الصليبية في الشام، وكان لهم أكثر من مملكة في أنطاكية وطرابلس وصيدا وحيفا وعكا، وذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام فلا يدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت.

ولتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم ملك التتار طلب التحالف مع «صديقه» الجديد ملك أرمينيا، والذي بدأ يقوم بدور السفير التتري في هذه المنطقة.. ولزيادة التشجيع فإن ملك التتار وعد الأمراء الصليبيين في الشام بأن يعطيهم بيت المقدس «هدية» لهم في حال اتفاقهم معه.. (وكان بيت المقدس قد حُرِّر مرة ثانية على يد الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٣ هجرية بعد أن أهداه أمراء الشام الأيوبيون إلى الصليبيين سنة ٦٢٦ هـ).. وكأن منكوخان يملك بيت المقدس، وله الحق في إهدائه!! وهكذا وعد من لا يملك بإعطاء من لا يستحق.. والتاريخ يتكرر بحذافيره..!!

ومع كل هذا التشجيع إلا أن أمراء الممالك الصليبية بالشام ترددوا كثيراً في قبول هذه الاتفاقيات، باستثناء أمير أنطاكية «بوهمند» الذي استحسن هذا الأمر، وانضم فعلاً إلى ملك التتار.

أما لماذا لم يستحسن بقية الأمراء الصليبيين في الشام هذه الفكرة؟ فذلك لأنهم:

أولاً: يعلمون أن التتار لا عهد لهم، وقد يبيعونهم دون ثمن، أو يضحون بهم في مقابل أي شيء.. أو ربما دون مقابل.

وثانياً: لأنهم في قلب العالم الإسلامي، وخطورة المسلمين عليهم كخطورة التتار، بل لعلها خطورة أقرب.. ومن ثم لم يتحمس هؤلاء الأمراء للتحالف المعلن مع التتار، وإن كانوا لم يرفضوا الأمر صراحة، وتعاملوا مع الطلب

بالطريقة السياسية النفاقية المعروفة، مع شيء من الابتسامة وبعض كلمات التبجيل، واختاروا أن يقفوا على الحياد بصورة مؤقتة إلى أن ترجح إحدى الكفتين: التتارية أو الإسلامية، وهنا سوف يسارعون في الفئة المنتصرة: يصافحون ويباركون ويهنئون ويؤيدون.. ويعتذرون أنه لولا «الظروف القاسية» التي كانت تمر بها بلادهم لهان عليهم كل شيء في سبيل راحة المنتصر.. وهذا ما يسميه البعض «السياسة»..!!

٤- سعى «منكوخان» أيضاً إلى عقد بعض الاتفاقات مع نصارى الشام والعراق، وهؤلاء ليسوا من الأمراء أو الملوك، ولكنهم من النصارى الذين يعيشون في كنف الإمارات الإسلامية في الشام، أو في الخلافة العباسية في العراق.. وهذه بالطبع لم تكن اتفاقات رسمية ولا معلنة، وإنما كانت اتفاقات سرية مع بعض رؤوس النصارى، ومع بعض القساوسة، وذلك لتسهيل مهمة دخول التتار إلى هذه البلاد، ولنقل الأخبار من وإلى التتار.. وقد نجح «منكوخان» فعلاً في الوصول إلى عدد كبير من هؤلاء النصارى، وعلى رأسهم بطريرك بغداد شخصياً، وكان اسمه «ماكيكا»، وكان عاملاً مساعداً مهماً في دخول بغداد.

٥- عقد «منكوخان» أيضاً معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية (في جورجيا الآن).. ومع أن تاريخ التتار مع مملكة الكرج كان تاريخاً أسود، إلا أن تاريخ الكرج مع المسلمين لم يكن أقل سواداً؛ ومن ثم فضل نصارى الكرج التعاون مع عدوهم الجديد التتار ضد عدوهم القديم المسلمين؛ وذلك لأمرين: الأول: هو أن التتار لهم القوة الأعلى، ويغلب على الظن جداً أن ينتصروا، وثانياً: لأن الحرب بين النصارى والمسلمين حرب عقائدية أبدية، كما ذكرنا من قبل، والكراهية أصيلة بين الطرفين، ولا تغير في العقيدة، ولذلك لا تغير في الكراهية.. وغياب الكراهية لن يكون إلا بغياب العقيدة.. قال تعالى: ﴿وَلَا

يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

أما الحرب مع التتار فهي حرب مصالح.. فإذا تعارضت المصالح حدثت الحرب، وإذا اتفقت المصالح حدث الوئام والألفة والصداقة.. وقد اتفقت مصالح مملكة الكرج النصرانية مع مصالح التتار الوثنية، فلا مانع من السير معاً في طريق واحد.. وهذا أيضاً مما يسمونه: «سياسة»..!!

٦- وإذا كانت كل هذه المفاوضات والمعاهدات في كفة، فالمفاوضات التي سأذكرها الآن في كفة أخرى.. ليس لأهميتها فقط ولكن لغرابتها.. أو قل: لبشاعتها..!!

فهذه المعاهدات عقدت مع بعض «أمراء المسلمين» لتسهيل ضرب «بلاد المسلمين»..!!

ولم يعقد «منكوخان» هذه المعاهدات بنفسه؛ لأنه استهان جداً بهؤلاء الأمراء؛ فقد كان كل واحد منهم لا يملك سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك يسمي نفسه أميراً، بل ويلقب نفسه بالألقاب الفاخرة مثل المعظم والأشرف والعزيز والسعيد وغير ذلك.

ووكّل «منكوخان» أخاه هولاكو في عقد هذه الاتفاقيات المخزية.. فجاء أمراء المسلمين الضعفاء يسارعون في التتار الأقوياء.. ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]

ـ فجاء إلى هولاكو «بدر الدين لؤلؤ» أمير الموصل ليتحالف معه.

- وجاء سلطانا السلاجقة وهما «كيكاوس الثاني»، و«قلج أرسلان الرابع» ليتحالفا أيضاً مع هولاكو، وكانا في مكان حساس جداً، فهما في شمال العراق

(تركيا الآن)، وتحالفهما يؤدي إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان أسلوب «كيكاوس الثاني» في التزلف إلى التتار مخزياً جداً إلى الدرجة التي صدمت التتار أنفسهم!.

- ورضخ أيضاً «الناصر يوسف» أمير حلب ودمشق، ومع كونه حفيد «الناصر صلاح الدين الأيوبي» رحمه الله، بل شبيهه في الاسم واللقب.. إلا أنه لم يكن يشبهه في شيء من الأخلاق أو الروح، بل كان مهيناً إلى الدرجة التي أرسل ابنه «العزيز» لا ليقدم إلى هولاكو فروض الطاعة فقط، بل ليبقى معه في جيشه كأحد أمرائه..!!

- وكذلك جاء «الأشرف الأيوبي» أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم التتار.

لقد كانت هذه التحالفات في منتهى الخطورة.. فهي - بالإضافة إلى مهانتها وحقارتها - قد زادت جداً من قوة التتار الذين أصبحوا يحاصرون العراق من كل مكان، ويعرفون أخبار البلاد من داخلها، وفوق ذلك فإن هذه التحالفات أدت إلى إحباط شديد عند الشعوب التي رأت حكامها على هذه الصورة المخزية؛ فضعفت الهمم، وفترت العزائم، وانعدمت الثقة في القادة، ومن ثم لم يعد لهم طاقة بالوقوف في وجه التتار.

لقد كانت هذه الاتفاقيات جريمة بكل المقاييس..!!

٧- ووصل هولاكو أيضاً في مجهوده السياسي والدبلوماسي إلى شخصية خطيرة في البلاط العباسي نفسه.. فقد وصل إلى كبير الوزراء في الخلافة العباسية، وهو الشخصية الثانية في الدولة بعد الخليفة.. وهو الوزير «مؤيد الدين العلقمي الشيعي»..!!

كان مؤيد الدين رجلاً فاسداً خبيثاً رافضياً (يرفض خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما)، وكان شديد التشيع، كارهاً للسنة ولأهل

السنة، ومن العجب أنه يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة، وفي دولة سنية تحمل اسم الخلافة، ولا شك أن هذا كان قلة رأي، وضحالة فكر، وسوء تخطيط من الخليفة المستعصم بالله الذي ترك هذا الوزير المفسد في هذا المكان الخطير.

وهذا الوزير ممن ينطبق عليهم وصف «بطانة السوء».. ولا يخفى على عاقل كيف يكون دور بطانة السوء في فساد البلاد، وهلاك العباد.

روى البخارى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله**».

والأسوأ من ذلك أن هذا الوزير لم يبق في مكانه شهراً أو شهرين أو عاماً أو عامين، وإنما بقي في مكانه أربعة عشر سنة كاملة، من سنة **٦٤٢** هجرية إلى سنة **٦٥٦** هجرية عندما سقطت بغداد.. وإذا مرت كل هذه الفترة دون أن يدرك الخليفة خطورته، فلاشك أن هذا دليل واضح على خفة عقل الخليفة.

لقد اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، مستغلاً فساده وتشيعه وكراهيته للسنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التي يقدمها للخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك في مقابل أن يكون له شأن في «مجلس الحكم» الذي سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة، والتخلص من الخليفة.. وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل ما يكون.. وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة، وعلى الأحداث التي مرت بالمنطقة في تلك الأوقات.

بالاطلاع على هذه الجهود الدبلوماسية التي قام بها «منكوخان» و«هولاكو» يتبين أنهما بذلا جهداً كبيراً ضخماً للإعداد لهذه الحملة الرهيبة، والتي تهدف

إلى أمر خطير لم يحدث قبل ذلك في الدنيا.. ولو مرة واحدة، وهو إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية.

وخلاصة الجهود الدبلوماسية التترية أنهم تعاونوا تعاوناً قوياً مهماً مع ملوك أرمينيا والكرج وأنطاكية النصارى، وحيّدوا إلى حد كبير جانب حكام الإمارات الصليبية بالشام، وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام والعراق، وكذلك تحالفوا مع بعض أمراء المسلمين، ومع الوزير الفاسد مؤيد الدين العلقمي الشيعي.

ولا شك أن هذه الجهود الدبلوماسية كان لها دور ملموس في إنجاح الخطة التترية لإسقاط الخلافة الإسلامية.

ويجدر القول هنا: إن المسلمين بصفة عامة -إلا من ندر- كانوا يراقبون الموقف عن بعد وكأنه لا يعنيهم.. أو وهم يشعرون بإحباط قاتل يمنع أي متحمس من القيام أو الحركة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المحور الثالث: الحرب النفسية على المسلمين:

بالإضافة إلى إعداد الطرق، وتهيئة الوسائل اللازمة لضمان الإمداد والتموين للحملة التترية، وبالإضافة إلى الجهود الدبلوماسية الهائلة التي قام بها التتار لإنجاح خطتهم في إسقاط الخلافة الإسلامية، فإن هولاكو لجأ أيضاً إلى سلاح رهيب، وهو الحرب النفسية على المسلمين.

وقد كانت لهولاكو أكثر من وسيلة لشن هذه الحرب المهولة على المسلمين.

من هذه الوسائل مثلاً:

١ـ القيام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق، والتي لم يكن لها غرض إلا بث الرعب، وإحياء ذكرى الحملات التترية الرهيبة التي تمت

في السابق في عهود «جنكيزخان» و«أوكيتاي».. فالحملة التترية الأولى -والتي كانت في عهد جنكيزخان- مر عليها أكثر من ثلاثين سنة، وهناك أجيال من المسلمين لم تر هذه الأحداث أصلاً، وإنما سمعت بها فقط من آبائها وأجدادها.. وليس من سمع كمن شاهد.. والحملة التترية الثانية في عهد أوكيتاي لم يكن من همها التدمير والإبادة في بلاد المسلمين، وإنما كانت موجهة في الأساس لروسيا وشرق أوروبا، ومن ثم لم يتأثر بها المسلمون بصورة كبيرة.

ولذلك أراد هولاكو أن يقوم ببعض النشاط العسكري التدميري والإرهابي بغرض إعلام المسلمين أن حروب التتار ما زالت لا تقاوم.. وأن جيوش التتار ما زالت قوية ومنتشرة.

من ذلك مثلاً ما حدث في سنة ٦٥٠ هجرية عندما قامت فرقة تترية بمهاجمة مناطق الجزيرة وسروج وسنجار، وهي مناطق في شمال العراق، فقتلوا ونهبوا وسبوا، ومما فعلوه في هذه الهجمة أنهم استولوا على أموال ضخمة كانت في قافلة تجارية، وقد بلغت هذه الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار، (وما أشبه هذا بما يحدث اليوم تحت مسميات مثل: تجميد الأموال..)

ولا شك أنها كانت خسارة كبيرة للخلافة العباسية، وفي ذات الوقت كانت نوعاً من تجهيز الجيش التتري بالمال والعتاد، وفوق ذلك كانت هذه الحملات تقوم بدور الاستطلاع والمراقبة والدراسة لطرق العراق وجغرافيتها.. هذا كله إلى جانب بث الرعب في قلوب المسلمين.. فكانت هذه الحروب بمثابة حروب الاستنزاف، فأضعفت من قوة الخلافة والمسلمين كثيراً، وهيأت المناخ للحرب الكبيرة القادمة.. وأمثال هذه الحروب تتكرر في التاريخ كثيراً.. وما مذبحة دير ياسين- وما أحدثته من آثار- منا ببعيد.

٢- ومن وسائل التتار الخطيرة في حربهم النفسية ضد المسلمين الحرب

الإعلامية القذرة التي كان يقودها بعض من أتباع التتار في بلاد المسلمين يتحدثون فيها عن قدرات التتار الهائلة، واستعداداتهم الخرافية، ويوسعون الفجوة جداً بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين.. وتسربت هذه الأفكار إلى وسائل الإعلام في زمانهم.. ووسائل الإعلام في ذلك الوقت هم الشعراء والأدباء والقصاصون والمؤرخون.. وقد ظهر في كتاباتهم ما يجعل المسلمين يحبطون تماماً من قتال التتار وذلك مثل:

- التتار تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم.. (كناية عن قوة وبأس المخابرات التترية، وحسن التمويه والتخفي عندهم، بالإضافة إلى ضعف المخابرات الإسلامية وهوانها).

- التتار إذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه.

- التتار نساؤهم يقاتلن كرجالهم.. (فأصبح رجال المسلمين يخافون من نساء التتار)..!!

- التتار خيولهم تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، ولا تحتاج إلى الشعير!.

- التتار لا يحتاجون إلى الإمداد والتموين والمؤن؛ فإنهم يتحركون بالأغنام والبقر والخيول ولا يحتاجون مدداً.

- التتار يأكلون جميع اللحوم.. ويأكلون بني آدم..!!

ولا شك أن مثل هذه الكتابات كانت ترعب العوام.. وأحياناً تؤثر في نفوس الخواص.. وهذا من البلاء الذي جنته الأمة على نفسها.. وما جناه عليها أحد.

٣- وكان أيضاً من وسائل التتار المشهورة لشن حرب نفسية على المسلمين كتابة الرسائل التهديدية الخطيرة، وإرسالها إلى ملوك وأمراء المسلمين، وكان من حماقة هؤلاء الأمراء أنهم يكشفون مثل هذه الرسائل على الناس، فتحدث الرهبة من التتار، وكان التتار من الذكاء بحيث إنهم كانوا يستخدمون بعض الوصوليين والمنافقين من الأدباء المسلمين ليكتبوا لهم هذه الرسائل، وليصوغوها بالطريقة التي يفهمها المسلمون في ذلك الزمان، وبأسلوب السجع المشهور آنذاك، وهذا ولا شك يصل إلى قلوب الناس أكثر من الكلام المترجم الذي قد يفهم بأكثر من صورة، كما أن التتار حاولوا في رسائلهم أن يخدعوا الناس بأنهم من المسلمين، وليسوا من الكفار، وأنهم يؤمنون بكتاب الله «القرآن»، وأن جذورهم إسلامية، وأنهم ما جاءوا إلى هذه البلاد إلا ليرفعوا ظلم ولاة المسلمين عن كاهل الشعوب البسيطة المسكينة (ما جاءوا إلا لتحرير العراق!!)، ومع أن بطش التتار وظلمهم قد انتشر واشتهر، إلا أن هذا الكلام كان يدخل في القلوب المريضة الخائفة المرتعبة، فيعطي لها المبرر لقبول اجتياح التتار، ويعطي لها المبرر لإلقاء السيف، ولاستقبال التتار استقبال الفاتحين المحررين بدلاً من استقبالهم كغزاة محتلين.

لقد كانت هذه الرسائل التترية تخالف الواقع كثيراً، ولكنها عندما تقع في يد من أحبط نفسياً، وهزم داخلياً، فإنها يكون لها أثر ما بعده أثر.

وكمثال على هذه الرسائل أذكر هنا الرسالة التي أرسلها هولاكو إلى أحد أمراء المسلمين وقال فيها:

«نحن جنود الله.

بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر.

نحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد.

فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون.

ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تساقون.

مقصدنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام.

وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر؟

دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب.

وجعلنا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً.

تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون، وعن قليل تعلمون على ما تقدمون وقد أعذر من أنذر».

ولا شك أن مثل هذه الرسالة إذا وقعت في يد خائف أو جبان، فإنه لن يقوى على الحراك أبداً بعد قراءتها، وكان هذا هو عين المرجو من وراء مثل هذه الرسائل..!!

٤- ومن وسائل التتار أيضاً لشن الحرب النفسية على المسلمين إعلان التحالفات بين التتار وبين الأرمن والكرج وغيرهم، وإبراز رغبة الملوك الصليبيين في أوروبا في التعاون مع ملك التتار، وتضخيم هذه التحالفات جداً، حتى يعتقد المسلمون أنهم يقاتلون أهل الأرض جميعاً، وأنهم لا طاقة لهم بحربهم، مع أن الأيام السابقة في تاريخ المسلمين حملت الكثير من الانتصارات على هؤلاء أنفسهم، وعلى أضعافهم، ولكن نسي المسلمون تاريخهم، وانبهروا بقوة عدوهم وحلفائه.

٥- ومن وسائل التتار أيضاً في حربهم النفسية التعاون مع أمراء المسلمين كما ذكرنا عند الحديث عن الجهود الدبلوماسية للتتار، فلا شك أن الشعب المسلم إذا وجد قائده الذي من المفروض أن يتولى أموره، ويدافع عنه، ويبذل روحه في سبيل تأمين بلده، هو الذي يتمنى أن يصالح هؤلاء التتار ويتعاون معهم، بل ويعد ذلك إنجازاً من إنجازاته..!! لا شك أن الشعب المسلم إذا وجد

ذلك فإنه يحبط إحباطاً شديداً، ويفقد كل حماسة للدفاع عن أرضه وعن وطنه.

بهذه الوسائل وبغيرها استطاع التتار أن يبثوا الرعب والهلع في قلوب المسلمين، وبذلك أصبح المناخ مناسباً جداً لدخول القوات التترية الغازية.

المحور الرابع: إضعاف جيوش الخلافة العباسية:

وقد عمد هولاكو إلى أن يطلب من الوزير الفاسد «مؤيد الدين العلقمي» أن يقنع الخليفة العباسي «المستعصم بالله» أن يخفض من ميزانية الجيش، وأن يقلل من أعداد الجنود، وأن لا يصرف أذهان الدولة إلى قضايا التسليح والحرب.. بل يُحول الجيش إلى الأعمال المدنية من زراعة وصناعة وغيرهما.. والجميع يرى اليوم اشتغال الجند في بعض بلاد المسلمين بزراعة الخضراوات وبناء الجسور.. وأعمال المخابز والنوادي...!! دون كبير اهتمام بالتدريب والقتال والسلاح والجهاد..! وقد قام بذلك فعلاً الوزير العميل مؤيد الدين العلقمي، وهذا لا يستغرب من مثله، ولكن الذي يستغرب فعلاً أن الخليفة قبل هذه الأفكار المخجلة، وذلك كما أشار عليه الوزير الفاسد حتى لا يثير حفيظة التتار، وليثبت لهم أنه رجل سلام ولا يريد الحروب!.. لقد قام الخليفة فعلاً بخفض ميزانية التسليح، وقام أيضاً بتقليل عدد الجنود، حتى أصبح الجيش العباسي المسلم الذي كان يبلغ عدده مائة ألف فارس في آخر أيام المستنصر بالله والد المستعصم بالله، وذلك في سنة ٦٤٠ هجرية، أصبح هذا الجيش لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط في سنة ٦٥٤ هجرية..!! وهذا يعني هبوطًا مروعًا في الإمكانيات العسكرية للخلافة.. ليس هذا فقط بل أصبح الجنود في حالة مزرية من الفقر والضياع، حتى إنهم كانوا يسألون الناس في الأسواق!.. وأهملت التدريبات العسكرية، وفقد قواد الجيش أي مكانة لهم، ولم يعد يذكر من بينهم من له القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة، ونسي المسلمون فنون

القتال والنزال، وغابت عن أذهانهم معاني الجهاد..!!

وهذه والله الخيانة الكبرى.. والجريمة العظمى..!!

ويلقي ابن كثير ـ رحمه الله ـ باللوم الكامل على مؤيد الدين العلقمي في نصائحه للخليفة المستعصم بالله، ولكني ألقي باللوم الأكبر على الخليفة ذاته، الذي قبل بهذا الهوان، ورضي بهذا الذل، وغاب عن ذهنه أن من أهم واجباته كحاكم أن يضمن لشعبه الأمن والأمان، وأن يدافع عن ترابه وأرضه ضد أي غزو أو احتلال، وأن يبذل قصارى جهده لتقوية جيشه، وتسليح جنده، وأن يربي الشعب بكامله ـ لا الجيش فقط ـ على حب الجهاد والموت في سبيل الله.

لم يفعل الخليفة المستعصم بالله كل ذلك، ولا عذر له عندي؛ فقد كان يملك من السلطان ما يجعله قادراً على اتخاذ القرار.. لكن النفوس الضعيفة لا تقوى على اتخاذ القرارات الحاسمة.

ولابد أن نقف الآن وقفة مع هولاكو في سنة ٦٥٤ هجرية بعد خمس سنوات كاملة من الإعداد والتجهيز للحرب الكبيرة القادمة:

أولاً: أصبحت كل الطرق الواصلة بين الصين والعراق قادرة على استيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش التترية، وصُنعت العربات اللازمة لنقل المعدات الثقيلة، وفرغت السهول والطرق من المواشي لترك الأعشاب لخيول التتار.

ثانياً: سيطر التتار على كل المحاور المهمة في المساحات الشاسعة التي تقع بين الصين والعراق، وبذلك تحققت مهمة تأمين الجيوش التترية أثناء سيرها واختراقها لهذه الأراضي.

ثالثاً: توافرت لدى هولاكو المعلومات الكافية عن أرض العراق،

وتحصينات بغداد، وأعداد الجنود العباسيين وحالتهم العسكرية، واطلع اطلاعاً كاملاً على خبايا الاقتصاد الإسلامي، وتوافرت له أيضاً المعلومات عن عناصر القوة والضعف في الخلافة العباسية، وعن الأسماء التي لها دور في تغيير مسار الأحداث، وكذلك جمع المعلومات عن حالة الناس النفسية، وعن طموحاتهم ورغباتهم.

كل هذه المعلومات توافرت له عن طريق عيونه الكثيرة، ومخابراته الماهرة، واتصالاته مع بعض الرموز الهامة في البلاد الإسلامية، والتي وصلت أحياناً إلى الاتصالات مع الأمراء والوزراء كما وضحنا.

رابعاً: عقد التتار معاهدات وتحالفات مع نصارى الأرمن والكرج وأنطاكية، وأخذوا الوعود منهم بالمساعدة العسكرية والمخابراتية في المعركة القادمة.

خامساً: تم تحييد ملوك أوروبا الغربية، ولم يكن هذا التحييد سياسياً في المقام الأول، إنما كان عن طريق السلطان، وفرض الكلمة بقوة الرأي والسلاح.

سادساً: تم الاتفاق مع معظم أمراء الممالك الإسلامية المحيطة بشمال وغرب العراق (تركيا وسوريا) على أن يعطوا الولاء الكامل، والمساعدة غير المشروطة لهولاكو، وذلك في حال حربه مع الخلافة العباسية، وللأسف فمعظم هؤلاء الأمراء كانوا من الأكراد من أحفاد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله!.

سابعاً: تأكد هولاكو من انهيار الروح المعنوية عند المسلمين في العراق وما حولها، واستوى في ذلك الحكام والمحكومون.

ثامناً: أقام هولاكو علاقات وثيقة مع وزير الدولة الأول مؤيد الدين العلقمي الشيعي، وضمن ولاءه التام له.

تاسعاً: تيقن هولاكو من ضعف جيش الخلافة العباسية وقلة حيلته، وأدرك أنه لا يستطيع بأي حال أن يدافع عن نفسه فضلاً عن بغداد!.

عاشراً: أدرك هولاكو كل شيء عن الخليفة «المستعصم بالله» خليفة المسلمين، وعرف إمكانياته، وقدّر طاقته، وعلم نقاط ضعفه.

تمت كل هذه الأمور واكتملت لهولاكو في سنة **٦٥٤** هجرية.

وهنا - وبعد خمس سنوات من الإعداد - أدرك هولاكو أن المناخ العام أصبح ملائماً للهجوم المباشر على الخلافة العباسية، وإسقاط بغداد.. فبدأ عملية حشد هائلة للجنود التتار؛ ليجمع بذلك أكبر جيوش التتار على الإطلاق منذ قامت دولة جنكيزخان.. بحيث كان الجنود المكلفون بحصار بغداد فقط أكثر من مائتي ألف جندي، هذا بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرة في شمال العراق وشرقه، والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين، هذا غير الفرق المساعدة للجيش سواء فرق الإمداد والتموين، أو فرق الاستطلاع والمراقبة.

ونستطيع أن نتبين تركيبة الجيش التتري كما يلي:

أولاً: الجيش التتري الأصلي، والذي كان يتمركز منذ سنوات في منطقة فارس وأذربيجان شرق العراق.

ثانياً: استدعى هولاكو فرقة من جيش التتار المتمركزة في حوض نهر الفولجا الروسي، والتي كانت تحت زعامة القائد التتري الشهير «باتو» (فاتح أوروبا)، ولكن باتو لم يأت بنفسه وإنما أرسل ثلاثة من أبناء

أخيه، وكان «باتو» وعائلته قد كونوا دولة مستقرة في منطقة حوض نهر الفولجا، وأطلقوا على أنفسهم اسم «القبيلة الذهبية»، ومع استقلالهم النسبي في إدارة أمورهم إلا إنهم كانوا في النهاية يتبعون زعيم التتار «منكوخان».

ثالثاً: أرسل هولاكو في طلب فرقة من جيش التتار المكلف بفتح أوروبا، والذي كان يتمركز على أطراف الأناضول (شمال تركيا)، فجاءت الفرقة وعلى رأسها القائد المغولي الكبير «بيجو»، وقد جاءت هذه الفرقة مخترقة الأناضول وشمال العراق ومتجهة إلى بغداد، ولم تلق أي نوع من المقاومة أثناء هذا الطريق الطويل؛ لأن حكام هذه المناطق المسلمة كانوا قد أفرغوا المجال الأرضي لقوات التتار، فسارت في أمان وسط إمارات الأناضول والموصل وحلب وحمص!.

رابعاً: أرسل هولاكو إلى «صديقه» ملك أرمينيا يطلب المساعدة، فجاءه «هيثوم» ملك أرمينيا بنفسه على رأس فرقة من جيشه.

خامساً: طلب هولاكو أيضاً من ملك الكرج أن يرسل فرقة للمساعدة في حصار العراق فاستجاب فوراً.

سادساً: استدعى هولاكو ألفاً من الرماة الصينيين المهرة الذين اشتهروا بتسديد السهام المحملة بالنيران.

سابعاً: وضع هولاكو على رأس جيوشه أفضل قواده، وكان اسمه «كتبغا نوين»، وفوق إمكانياته القيادية والمهارية فإنه كان نصرانياً، وبذلك يستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة في الجيش.. وبذلك ضم الجيش التتري بين صفوفه ثلاثة من أمهر القادة العسكريين في تاريخ التتار، وهم هولاكو وكتبغا وبيجو.

ثامناً: راسل هولاكو أمير أنطاكية «بوهمند»، ولكن تعذر عليه أن يخترق الشام كله للذهاب إلى العراق، ولكنه كان على استعداد تام للحرب، فإذا سقطت العراق شارك في إسقاط الشام.

تاسعاً: أرسل الناصر يوسف أمير دمشق ابنه العزيز ليكون في جيش هولاكو.

عاشراً: أرسل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فرقة مساعدة لجيش التتار.. وهاتان الفرقتان وإن كانتا هزيلتين إلا إنهما كانتا تحملان معاني كثيرة.. فهناك في جيش التتار مسلمون يشتركون مع التتار في حرب المسلمين!! بل قد يشارك في عملية «تحرير العراق» عراقيون متحالفون مع التتار..!! عراقيون باعوا كل شيء في مقابل كرسي صغير، أو إمارة تافهة، أو دارهم معدودات.. أو مجرد حياة.. أي حياة.

وبهذا الإعداد رفيع المستوى اكتمل الجيش التتري، وبدأ في الزحف من فارس في اتجاه الغرب إلى العراق، وبدأ هولاكو يضع خطة المعركة.

وبدراسة مسرح العمليات وجد هولاكو أن طائفة الإسماعيلية الشيعية التي تتمركز في الجبال في غرب فارس وشرق العراق سوف تمثل خطورة على الجيش التتري.. فطائفة الإسماعيلية مشهورة بقوة القتال، وبالحصون المنيعة، وهي طائفة لا عهد لها ولا أمان.. ومع أن التتار يعلمون أن الإسماعيلية كانوا على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، ومع أنهم راسلوا قبل ذلك التتار ليدلوهم على ضعف جلال الدين بن خوارزم قبل مقتله في سنة ٦٢٩ هجرية، ومع أنهم من المنافقين الذين يتزلفون لأصحاب القوة.. مع كل هذه الاعتبارات إلا أن التتار لم يكونوا يأمنون أن تتحرك الجيوش التترية إلى العراق، ويتركون في ظهرهم قوات عسكرية للإسماعيلية.. هذا بالإضافة إلى ثأر قديم كان بين التتار

والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابناً من أبناء جنكيزخان اسمه «جغتاي»، وذلك أيام حملة جنكيزخان على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة..! ولم ينس التتار هذا الثأر لأنه يخص ابن الزعيم الأكبر لهم، والذي جعل منهم مملكة لها شأن في الدنيا، كما أن حكام التتار من نفس عائلة جنكيزخان، ويعتبرون الثأر من الإسماعيلية مسألة شخصية بحتة، حتى إن الجيوش التترية كانوا يصحبون معهم في حربهم ابنة «جغتاي» القتيل القديم، وذلك لزيادة حماستهم في القتال، ولكي تقوم بنفسها بالثأر لأبيها.

كل هذا دفع التتار إلى العزم على التخلص من الإسماعيلية نهائياً.. وصدرت الأوامر من قراقورم بمنغوليا بإبادة هذه الطائفة من على الوجود.

وتحركت الجيوش الهائلة صوب معاقل الإسماعيلية، واقتربت من أقوى حصونهم على الإطلاق وهو حصن «آلموت» في غرب فارس، وما هي إلا أيام حتى تم تطويق الحصن المنيع، ولما شاهد زعيم الإسماعيلية «ركن الدين خورشاه» هذه الأعداد التي لا تحصى طلب أن يقابل هولاكو، وقبل هولاكو ليختصر الوقت؛ فالإسماعيلية ليست إلا محطة صغيرة قبل الوصول إلى بغداد.. والتقى هولاكو بركن الدين خورشاه الذي أعلن خضوعه الكامل لهولاكو، وتسليمه للقلعة الحصينة، ولكن قائد القلعة رفض التسليم، وصمم على القتال عاصياً بذلك أمر قائده ركن الدين خورشاه، ففتح التتار القلعة عنوة بعد ذلك بأيام، وذبحوا كل من فيها، وطلب ركن الدين خورشاه من هولاكو أن يرسله إلى «منكوخان» ليتفاوض معه شخصياً في تسليم كل قلاع الإسماعيلية في مقابل بعض الوعود، وقد أرسله فعلاً هولاكو إلى منكوخان محاطاً بفرقة تترية، ولكن منكوخان رفض أن يقابله واستحقره جداً وقال: «إن هولاكو قد أخطأ بإرهاق الخيول التترية الجيدة في هذه الرحلة الطويلة من أجل هذه السفارة التافهة..» ثم أمر جنوده بإعادة ركن الدين خورشاه إلى فارس، وفي الطريق قتل ركن الدين

خورشاه كما يقولون «في ظروف غامضة»، وإن كانت الظروف ليست بغامضة فمن الواضح أن «منكوخان» قد أوصى بقتله، ولكن خارج البلاط المغولي لئلا يتهم البلاط بالغدر!.

وبعد قتل ركن الدين خورشاه قام «هولاكو» بخدعة خبيثة قذرة في مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم، والتعاون معًا لدخول بغداد، وطلب من قواد الإسماعيلية أن يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم التتار بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، فإن هولاكو - كما يزعم - يخشى أن يضخم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر، وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية في جمع كل أعوانهم حتى جاء رجال من العراق ومن الشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير قام هولاكو بمذبحة بشعة فيهم، وقتل كل من أمسكه في يده، ولم ينس أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى «سالقان خاتون» ابنة «جغتاي» وحفيدة جنكيزخان لتقتلهم بيدها لتأخذ بثأر أبيها «جغتاي» المقتول على يد الإسماعيلية قبل ذلك.

وهكذا تم في خلال سنة ٦٥٥ هجرية إستئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريباً، ولم ينج منهم إلا الشريد الذي كان يعيش في الشام أو العراق، ولم يأت في عملية الإحصاء المزعومة.

وبذلك أصبح الطريق آمناً مفتوحاً إلى بغداد.. وبدأت الجيوش المغولية الرابضة في فارس تزحف ببطء - ولكن بنظام - في اتجاه عاصمة الخلافة، ووضح للجميع أن اللحظات المتبقية في عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة.. بل قليلة جداً..!!

وقبل التحدث عن حصار بغداد وسقوطها، فإنني أود أن أشير إلى أن هذا

الإسهاب النسبي في شرح إعداد هولاكو للحرب مع الخلافة لم يُقصد منه إبراز الانبهار بـ «هولاكو»، أو إبراز الاحتقار للمسلمين، إنما هو محاولة للبحث عن مبرر واضح للنتائج الرهيبة التي حدثت عند سقوط بغداد، فالناظر إلى الأحداث دون تعمق، والدارس للأمر دراسة سطحية قد يتساءل: لماذا يسمح الله -عز وجل- للتتار وهم من أخس أهل الأرض، ومن الوثنيين الظالمين السفاكين للدماء المستبيحين للحرمات بأن يفعلوا كل هذا الذي فعلوه بالمسلمين.. والمسلمون مهما كانوا فهم من الموحدين لله، المقيمين للصلاة، والقارئين لكتاب الله؟!

فأحببت أن أتجول معكم في هذا الإعداد الطويل المرتب الذي لم يقابل بأقل درجات الاهتمام من جانب المسلمين لتحدث المأساة الكبرى.. والبلية العظمى.

إن الذي يعتمد فقط على كونه من الموحدين المسلمين، ولا يعد العدة ولا يأخذ بالأسباب واهم في إمكانية تحقيق النصر.. إن التتار لم ينتصروا على المسلمين لكرامة لهم عند الله -عز وجل-، فهم من أقبح شعوب الأرض فعلاً، ومن أسوئهم أخلاقاً، ولكنهم أعدوا العدة.. وأخذوا بالأسباب فتحققت على أيديهم النتائج التي خططوا لها.

وهذه سنة مطردة.. وكثيراً ما رأينا اليهود أو النصارى أو البوذيين أو الهندوس ينتصرون على المسلمين، ويكثرون من إهانتهم، إذا أخذ هؤلاء بالأسباب المادية، وتركها المسلمون.

وليس المقصود من وراء ذلك أن يعتمد المسلمون على الأسباب المادية فقط ويتركوا مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.. إنما المقصود هو العمل الجاد الدءوب المتواصل مع رفع الأيدي إلى الله طلبًا للتوفيق والنصر.. وإذا تم النصر علمنا أنه من عند الله، ولم نتكبر أو نتجبر أو نعتقد في خروجنا عن دائرة حكم الله -عز وجل-.

والتاريخ ـ يا إخواني ـ يتكرر.

وما فعله التتار من إعداد ضد المسلمين فعله غيرهم بعد ذلك.

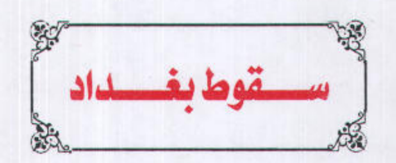
وما فعله المسلمون من تهاون وإهمال فعله المسلمون بعد ذلك أيضاً.

وإذا كانت النتائج التي حدثت في أيام التتار قد جاءت على تلك الصورة، فلا شك أن النتائج في عصرنا ستأتي على نفس الصورة إذا لم يفقه المسلمون الأمر فيعيدوا ترتيب أوراقهم وفقاً للفهم الصحيح.

ولذلك نقص التاريخ.

فهل من مدكر..!!

* * *



سقوط بغداد

اجتمع هولاكو مع كبار مستشاريه في مجلس حرب يعد من أهم مجالس الحرب في تاريخ التتار، لقد أخذ القرار بغزو العاصمة «بغداد»، وكان هولاكو قلقاً من أي مفاجآت، وبالذات من الأمراء المسلمين الذين انضموا إلى جيشه، ولذلك وضع على الفرق الإسلامية التي معه مراقبة شديدة، ولكن مخاوفه لم تمنعه من التقدم، كما أنها لم تكن حقيقية؛ لأن الأمراء المسلمين الذين انضموا إليه لم يكن في نيتهم أبداً الغدر «بهولاكو»، إنما كان العزم - كل العزم - أن يغدروا «ببغداد»..!!

كان مجلس الحرب معقوداً في مدينة «همدان» الفارسية (في إيران حالياً) وهي تقع على مسافة حوالي ٤٥٠ كيلو مترًا من بغداد إلى الشمال الشرقي.. وقرر هولاكو في هذا المجلس أن يقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

- **الجيش الأول:** هو القلب، وهو القسم الرئيسي من الجيش، وسيقوده هولاكو بنفسه، وستلحق به الإمدادات التي سيرسلها «باتو» زعيم القبيلة الذهبية التترية، وكذلك ستلحق به الفرق المساعدة من مملكتي أرمينيا والكرج، وهذا القسم من الجيش سيخترق الجبال الواقعة في غرب فارس صوب بغداد مباشرة مروراً بمدينة كرمان شاه، وستكون مهمة هذا الجيش حصار بغداد من الجهة الشرقية.

- **الجيش الثاني:** هو الجناح الأيسر لجيش التتار، وهذا سيقوده «كتبغا» أفضل قواد هولاكو، وسيتحرك هذا الجيش بمفرده في اتجاه بغداد أيضاً، ولكن إلى الجنوب من الجيش الأول، وقد تم فصل الجيشين حتى لا تستطيع المخابرات

الإسلامية ـ إن وجدت ـ أن تقدر العدد الصحيح للجيش التتري، بالإضافة إلى أن الطرق لا تستوعب هذه الأعداد الهائلة من الجنود، فضلاً عن أن هذا الجيش ستكون له مهمة اختراق سهول العراق، والتوجه إلى بغداد من جهة الجنوب، وحصارها من جهتها الجنوبية الشرقية.

ومع أن المسافة تبلغ ٤٥٠ كيلومترًا إلا أن هولاكو كان من الحذر الكافي بحيث استطاع أن يخفي هذا الجيش عن عيون العباسيين ـ إن كانت هناك عيون ـ فلم يكتشف العباسيون الجيش إلا وهو على بعد كيلومترات معدودة من بغداد..!!

- **أما الجيش الثالث:** فكان هو الجيش التتري الرابض على أطراف الأناضول (في شمال تركيا الآن)، والذي كانْ مكلفاً بفتح أوروبا قبل ذلك، وعلى رأس هذا الجيش الزعيم التتري الكبير «بيجو»، وكان على هذا الجيش أن يأتي من هذه المناطق الشمالية في اتجاه الجنوب حتى يصل بغداد من شمالها، ثم يلتف حولها ليحاصرها من جهة الغرب، وبذلك تحصر بغداد بين هولاكو شرقاً وكتبغا من الجنوب الشرقي وبيجو من الغرب.

لكنَّ هناك مشكلتين كبيرتين أمام هذا الجيش الثالث:

أما المشكلة الأولى: فإن عليه أن يضبط توقيته حتى يأتي بغداد في نفس الوقت الذي يأتي فيه جيش هولاكو، وإلا وجد نفسه وحيداً أمام العباسيين إن جاء مبكراً، أو ترك هولاكو وحيداً إن كان متأخراً.. فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه التحركات تدور في زمان ليست فيه وسائل انتقال معلومة السرعة بدقة.. وليست فيه وسائل الاتصال إلا عن طريق الخيول، وليست هناك طرق ممهدة علمنا صعوبة هذه النقطة.. ومع ذلك فقد وصل بيجو في التوقيت المناسب إلى بغداد، دلالة على دقة حساباته، ومهارته في التحرك بهذا الجيش الكبير.

المشكلة الثانية: من المفروض أنها أكبر بكثير من المشكلة الأولى.. وهي أن هذا الجيش الثالث -لكي يصل إلى بغداد - عليه أن يخترق مسافة خمسمائة كيلومتر في الأراضي التركية، ثم خمسمائة كيلومتر أخرى في الأراضي العراقية.. وهذه كلها أراضٍ إسلامية..!! أي أنه يجب أن يسير مسافة ألف كيلومتر في أعماق العالم الإسلامي حتى يصل إلى بغداد.. وتذكر أننا نتحدث عن زمن ليس فيه طائرات.. أي أنه ليس هناك غطاء جوي يكفل له الحركة في أمان، أو يضمن له تدمير ما يقابله من معوقات.. لقد كانت أقل المخاطر التي تواجه هذا الجيش أن يُكتشف أمره، فيفقد - على الأقل- عنصر المباغتة، ويستعد له الجيش العباسي قبل وصوله، أما المخاطر الأكبر التي كانت في انتظاره فهي أن يجد مقاومة شرسة في طريقه المليء بالتجمعات السكنية الهائلة.. وكلها تجمعات إسلامية، أو أن تُنصب له الكمائن، وتوضع له الشراك.. وتذكر أنه يخوض في أرض يدخلها للمرة الأولى في حياته، لكن ـ سبحان الله! ـ كل هذا لم يحدث.. لقد قطع «بيجو» بجيشه ٩٥٪ من الطريق (أي حوالي ٩٥٠ كيلومترًا) دون أن تدري الخلافة العباسية عنه شيئاً..!! لقد باغت «بيجو» الخلافة العباسية على بعد خمسين كيلومترًا فقط شمال غرب بغداد!! لقد اكتشف العباسيون جيش «بيجو» تماماً كما اكتشفوا جيش هولاكو، عندما كان كلا الجيشين على مسيرة يوم واحد من بغداد..!!

وإن كنا نقول: إن جيش هولاكو كان يتخفى بالجبال، ويسير في أراضٍ غالبها تحت سيطرة التتار، فكيف نفسر مباغتة بيجو لبغداد بهذه الصورة؟!!

إن تبرير اختراق «بيجو» للأراضي الإسلامية يحمل معه مصيبتين عظيمتين:

أما المصيبة الأولى: فهي غياب المخابرات الإسلامية عن الساحة تماماً، وواضح أن الجيش العباسي كان لا علم له ولا دراية بإدارة الحروب أو فنونها.

أما المصيبة الثانية والأعظم: فهي أن هناك خيانة كبرى من أمراء الأناضول والموصل المسلمين... هذه الخيانة فتحت الأبواب لجيش التتار، ولم يحدث أي نوع من المقاومة، وسار الجيش التتري في هدوء وكأنه في نزهة، وبالطبع لم يرتكب في طريقه مذابح لكي لا يلفت أنظار الخلافة في بغداد، ورضي الناس منه بتجنب شره، وخافوا أن يدلوا عليه لكي لا ينتقم منهم بعد ذلك.

خيانة عظمى من كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع أمراء الأناضول.

وخيانة أعظم من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل.

فبدر الدين لؤلؤ لم يكتف بتسهيل مهمة التتار، وبالسماح لهم باستخدام أراضيه للانتقال والعبور، بل أرسل مع التتار فرقة مساعدة تعينهم على عملية «تحرير العراق» من حكم الخلافة العباسية..!!

ومن الجدير بالذكر أن بدر الدين لؤلؤ قام بهذه الخيانة- وهو يبلغ من العمر ثمانين عامًا! وقيل: مائة..!!! وجدير بالذكر أيضاً أنه مات بعد هذه الخيانة بشهور معدودات..!!

ونسأل الله حسن الخاتمة.

كانت هذه هي تحركات الجيش التتري.

كيف كان الوضع في بغداد؟

كانت بغداد في ذلك الوقت من أشد مدن الأرض حصانة.. وكانت أسوارها من أقوى الأسوار.. فهي عاصمة الخلافة الإسلامية لأكثر من خمسة قرون، وأنفق على تحصينها مبالغ طائلة وجهود هائلة.. لكن واأسفاه على المدينة الحصينة..!!

لقد كانت الحصون تحتاج إلى رجال.. ولكن ندر الرجال في ذلك الزمن!.

من على رأس الدولة في الخلافة العباسية؟

إنه الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بني العباس في بغداد.

إنه «المستعصم بالله»..

اسم كبير «المستعصم بالله».. ولقب كبير أيضاً: «خليفة المسلمين».

ولكن أين مقومات الخلافة في «المستعصم بالله»؟.

عندما تقرأ عن صفات الخليفة الذاتية في كتب السير مثل تاريخ الخلفاء للسيوطي، أو البداية والنهاية لابن كثير أو غيرها من الكتب تجد أمراً عجباً.

تجد أنهم يصفون رجلاً فاضلاً في حياته الشخصية وفي معاملاته مع الناس.. (رجل يتميز بالطيبة.. مثلما يقولون).

يقول ابن كثير مثلاً: (كان حسن الصورة، جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه «المستنصر بالله» في العدل، وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد.. وكان سنياً على مذهب السلف..)

ولا أدري في الحقيقة ماذا يقصد بأنه كان على مذهب السلف؟!

ألم يكن في مذهب السلف جهاد؟!

ألم يكن في مذهب السلف إعداد للقتال؟!

ألم يكن في مذهب السلف دراسة لأحوال الأرض ولموازين القوى؟!

ألم يكن في مذهب السلف حمية ونخوة لدماء المسلمين التي سالت على مقربة من العراق في فارس وأذربيجان وغيرها؟!

ألم يكن في مذهب السلف وحدة وألفة وترابط؟!

لقد كان الخليفة المستعصم صالحًا في ذاته.. كان رجلاً طيباً.. لكنه افتقر إلى أمور لا يصح أن يفتقر إليها حاكم مسلم.

- لقد افتقر إلى القدرة على إدارة الأمور والأزمات.
- افتقر إلى كفاءة القيادة.
- افتقر إلى علو الهمة، والأمل في سيادة الأرض، والنصر على الأعداء، ونشر دين الله.
- افتقر إلى الشجاعة التي تمكنه من أخذ قرار الحرب في الوقت المناسب.
- افتقر إلى القدرة على تجميع الصفوف، وتوحيد القلوب، ونبذ الفرقة، ورفع راية الوحدة الإسلامية.
- افتقر إلى حسن اختيار أعوانه، فتجمعت من حوله بطانة السوء؛ الوزراء يسرقون، والشرطة يظلمون، وقواد الجيش متخاذلون..!!
- افتقر إلى محاربة الفساد، فعم الفساد وطغى.. وكثرت الاختلاسات من أموال الدولة، وعمت الرشاوى، وطغت الوساطة.. وانتشرت أماكن اللهو والفساد والإباحية والمجون.. بل وأعلن عنها صراحة!! ودعي إليها على رءوس الأشهاد!! الراقصات الخليعات ما كنَّ يختفين في هذا البلد الإسلامي بل يعلنَّ عن أنفسهن صراحة..!!

نعم كان الخليفة محسنًا في أداء شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة.. نعم كان لسانه نظيفاً.. وكان محباً للفقراء والعلماء.. وكل ذلك جميل في مسؤوليته أمام نفسه، لكن أين مسؤوليته أمام مجتمعه وأمته؟

لقد ضعف الخليفة تماماً عن حمل مسؤولية الشعب.

لقد كان باستطاعة الخليفة أن يدبر من داخل العراق مائة وعشرين ألف

فارس فضلاً عن المشاة والمتطوعين.. وكان الجيش التتري المحاصر لبغداد مائتي ألف مقاتل، وكان هناك أمل كبير في رد الغزاة، لكن الخليفة كان مهزوماً من داخله.. وكان فاقداً للروح التي تمكنه من المقاومة، كما أنه لم يربِّ شعبه على الجهاد، ولم يعلمهم فنون القتال.

وإلا.. فأين معسكرات التدريب التي تعد شباب الأمة ليوم كيوم التتار؟!

أين الاهتمام بالسباحة والرماية وركوب الخيل؟!

أين التجهيز المعنوي للأمة لتعيش حياة الجد والنضال؟!

أنا لست متحاملاً على الخليفة..!!

لقد حكم هذا الخليفة بلاده ما يقرب من ستة عشر عاماً.

إنه لم يفاجأ بالحكم.. ولم يأته الأمر على عجل.

لقد رُبِّي ليكون خليفة، وتولى الحكم وهو في سن الحادية والثلاثين.. وكان شاباً ناضجاً واعياً.. وأعطي الفرصة كاملة لإدارة البلاد.. وظل في كرسي حكمه ستة عشر عاماً كاملة.. فإن كان كفئاً فكان عليه أن يعد العدة، ويقوي من شأن البلاد، ويرفع من هيبتها، ويعلي من شأنها، ويجهز جيشها، ويعز رأيها.. وإن كان غير ذلك فكان عليه ـ إن كان صادقًا ـ أن يتنحى عن الحكم.. ويترك الأمر لمن يستطيع.. فهذه ليست مسؤولية أسرة أو قبيلة.. إنما هي مسؤولية أمة.. وأمة عظيمة كبيرة جليلة.. أمة هي خير أمة أخرجت للناس.

لكن الخليفة لم يفعل أياً من الأمرين.. لا هو قام بالإعداد، ولا هو قام بالتنحي.. فكان لابد أن يدفع الثمن، وكان لابد لشعبه الذي رضي به أن يدفع الثمن معه.

وعلى قدر عظم الأمانة التي ضاعت، سيكون الثمن الذي يدفعه الخليفة

ومعه الشعب.. وسترون كيف كان ثمنًا باهظاً..!!

والبلاد لم يكن ينقصها المال اللازم لشراء السلاح أو تصنيعه، بل كانت خزائن الدولة ملأى بالسلاح، لكنه إما سلاح قديم بالٍ أكل عليه الدهر وشرب، وإما سلاح جديد عظيم لم يستخدم من قبل.. ولكنْ - للأسف الشديد - لم يتدرب عليه أحد.

والنتيجة: جيش الخلافة العباسية جيش هزيل ضعيف، لا يصلح أن يكون جيشاً لإمارة صغيرة، فضلاً عن خلافة عظيمة.

كان هذا شأن الخليفة في بغداد!!

أما حكومة بغداد.. فكيف كان حالها؟!... لقد كانت البطانة كالحاكم، وكان الحاكم كالبطانة.. كانت الحكومة - كالجيش - هزيلة ضعيفة مريضة.. مكونة من «أشباح» وزراء! ليس من همهم إلا جمع المال والثروات، وتوسيع نطاق السلطة، والتحكم في رقاب العباد، والتنافس الشريف وغير الشريف فيما بينهم، والتصارع المرير من أجل دار أو منصب أو حتى جارية...! وكان على رأس هذه الوزارة الساقطة رئيس وزراء خائن باع البلاد والعباد، ووالى أعداء الأمة، وعادى أبناءها..!! لقد كانت تلك الوزارة سيفًا مسلطًا على رقاب وأموال المسلمين.. ولم تكن علاقاتهم بالمسلمين -الذين يحمونهم- علاقة الإخوة بإخوانهم.. وإنما كانت علاقة السادة بعبيدهم.

وماذا عن الشعب في بغداد؟

كيف كانت طبيعته؟ وكيف كانت طموحاته؟!

لا تتوقعوا أنه شعب قد ظُلم بخليفة ضعيف أو هزيل.. فالحكام إفراز طبيعي جداً جداً للشعوب.

«كما تكونوا يُوَلَّ عليكم».

الشعب في بغداد آنذاك كان شعباً كبيراً ضخماً.. كان يبلغ ثلاثة ملايين نسمة على الأقل، وبذلك تعد بغداد أكثر مدن العالم ازدحاماً في ذلك الوقت، هذا إلى جانب السكان في المدن والقرى المحيطة.. فلم تكن تنقصهم الطاقة البشرية، ولكنهم كانوا شعباً مترفاً.. أَلِف حياة الدعة والهدوء والراحة.. الملتزم فيهم بدينه اكتفى بتحصيل العلم النظري، وحضور الصلوات في المساجد، وقراءة القرآن، ونسي الفريضة التي جعلها رسول الله ﷺ ذروة سنام الإسلام وهي فريضة الجهاد، وغير الملتزم منهم بدينه ـ وهم كثير ـ عاشوا لشهواتهم وملذاتهم، وتنافسوا في ألوان الطعام والثياب، وفي أعداد الجواري والغلمان، وفي أنواع الديار والحدائق والبساتين والدواب، ومنهم من التهى بسماع الأغاني والألحان عن سماع القرآن والحديث، ومنهم من شرب الخمر، ومنهم من سرق المال، ومنهم من ظلم العباد.. وفوق ذلك فإنهم ظلوا قرابة الأربعين سنة يسمعون عن المذابح البشعة التي تتم ضد إخوانهم المسلمين في أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وفارس وأذربيجان والشيشان.. سمعوا عن كل هذه المذابح ولم يتحركوا.. وسمعوا عن سبي النساء المسلمات ولم يتحركوا.. وسمعوا عن خطف الأطفال المسلمين ولم يتحركوا.. وسمعوا عن اغتصاب بنات المسلمين ولم يتحركوا.. وسمعوا عن سرقة الأموال، وتدمير الديار، وحرق المساجد، ولم يتحركوا.. بل سمعوا أن خليفتهم «الناصر لدين الله» جد «المستعصم بالله» كان يساعد التتار ضد المسلمين الخوارزمية ولم يتحركوا..!!

سمعوا بكل ذلك وأضعافه ولم يتحركوا.

فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل..!!

«كما تدين تدان»

سيأتي يوم يذوق فيه هذا الشعب كل ما كان يُفعل في الشعوب المسلمة الأخرى، ولن يتحرك له أحد من المسلمين، بل سيساعدون التتار عليهم كما ساعدوهم على إخوانهم من قبل.. وهكذا تدور الدوائر.

ولا يقولن قائل: إن الشعب مغلوب على أمره.. فالشعوب التي تقبل بكل هذا الانحراف عن نهج الشريعة شعوب لا تستحق الحياة.. الشعوب التي لا تثور إلا من أجل لقمة عيشها شعوب ليس لها أن ترفع رأسها.

ثم أين العلماء؟ وأين الرجال؟ وأين الشباب؟ وأين المجاهدون؟

أين الآمرون بالمعروف؟ وأين الناهون عن المنكر؟

أين الحركات الإصلاحية في هذا المجتمع الفاسد؟

أين الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة، ولأصول الدين؟

أليس في بغداد رجل رشيد؟!

لقد كان هذا هو الوضع في بغداد.

أما خارج بغداد فالوضع كما تعلمون.. فهناك جيوش التتار تتحرق شوقاً لتعذيب المسلمين، والمسلمون في استكانة ينتظرون التعذيب!.

وبدأ الحصار!!

وبينما المسلمون على هذه الحالة إذ ظهر فجأة جيش هولاكو قبالة الأسوار الشرقية للمدينة العظيمة «بغداد»، وكان ذلك في يوم ١٢ محرم من سنة ٦٥٦ هجرية.. وبدأ هولاكو في نصب معدات الحصار الثقيلة حول المدينة، وجاء كذلك

«كتبغا» بالجناح الأيسر من الجيش ليحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية الشرقية.

وارتاع خليفة المسلمين.. وعقد اجتماعاً عاجلاً طارئاً، جمع فيه كبار مستشاريه، وعلى رأسهم بالطبع الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمي!.

ماذا نفعل في هذه المصيبة؟ كيف النجاة؟ أين المهرب؟

﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وبطبيعة الحال فإن مؤيد الدين العلقمي وبطانته كانوا يؤيدون مهادنة التتار وإقامة «مباحثات سلام» معهم، ولا مانع من بعض التنازلات، أو كثير من التنازلات، وكان مؤيد الدين يوسع الفجوة جداً بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين، كي لا يبقى هناك أمل في المقاومة.

كان هذا هو الرأي السائد في الاجتماع.. السلام غير المشروط!

لكن الخير لا ينعدم في هذه الأمة.

لقد قام رجلان من الوزراء وأشارا على الخليفة بحتمية الجهاد.. والجهاد كلمة جديدة على هذا الجيل من أجيال الدولة العباسية.. لكن لا مانع من طرح كل الأفكار وإن كانت «غريبة»!.. قام «مجاهد الدين أيبك» و«سليمان شاه» يحضان على المقاومة.. نعم جاءت الإشارة متأخرة.. بل متأخرة جداً.. لأن زمن الإعداد انتهى منذ فترة، وحان وقت الاختبار، ولكن لعلهما كانا يشيران منذ زمن بأمر الجهاد ولا يسمع لهما أحد.. ومع العلم أن العلاقات كانت متوترة جداً بين مؤيد الدين العلقمي ومجاهد الدين أيبك، وذلك منذ زمن طويل.. ولابد للعلاقات بين رجل خائن ورجل أمين أن تتوتر.. لكن - للأسف - لطالما استمع الخليفة لكلام الخائنين!.

واحتار الخليفة..!!

هواه مع كلام مؤيد الدين العلقمي.. فقلبه لا يقوى على الحروب.

وعقله مع كلام مجاهد الدين أيبك؛ لأن تاريخ التتار لا يشير بأي فرصة للسلام، كما أنه كان يسمع أن الحقوق لا «توهب» وإنما «تؤخذ».

احتار الخليفة، ثم استقر أخيراً.

لقد استمع - والحمد لله- لكلام العقل.. لقد قرر أن يجاهد.. لكنه متردد.. ضعيف.. لين.. هين.

والجهاد لا ينفع مع هذه الصفات.

الجهاد ليس قراراً عشوائياً.

لا يوجد مجاهد «بالصدفة»..!!

الجهاد إعداد.. وتربية.. وتضحية... ومشوار طويل في طريق الإيمان.

الجهاد ارتقاء إلى أعلى.. إلى أعلى.. إلى أعلى.. إلى أن تصل إلى ذروة سنام الإسلام.. ولكن على كل حال «فلنجاهد..» (على سبيل التجربة..!) وسمح الخليفة - للمرة الأولى تقريباً في حياته - باستخدام الجيش!.

وخرجت فرقة هزيلة من الجيش العباسي يقودها «مجاهد الدين أيبك» لتلاقي جيش هولاكو المهول.. وبمجرد خروج الجيش العباسي واستعداده لملاقاة هولاكو جاءت الأخبار إلى «مجاهد الدين أيبك» أن هناك جيشاً تترياً آخر يأتي من جهة الشمال، وهو جيش «بيجو» القادم من أوروبا عبر أراضي تركيا وشمال العراق، وكان ذلك الجيش قد عبر الأراضي العراقية شرق نهر دجلة، حتى إذا وصل إلى الموصل عبر نهر دجلة إلى الناحية الغربية منه، وسار في الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات حتى اقترب من بغداد، وأصبح على بعد خمسين كيلومترًا فقط منها، وعند هذه المنطقة في شمال بغداد وصلت

الأخبار إلى «مجاهد الدين أيبك».

أدرك «مجاهد الدين أيبك» أن هذا الجيش لو وصل إلى بغداد فسوف يطوقها من الناحية الشمالية والغربية، وبذلك سيطبق الحصار تماماً على العاصمة الإسلامية، ومن هنا فكر «مجاهد الدين أيبك» بسرعة أن يتجه بجيشه شمالاً بين نهري دجلة والفرات لمقابلة جيش «بيجو»، والتقى فعلاً بجيش التتار عند منطقة «الأنبار»، وهي المنطقة التي شهدت انتصاراً خالداً قبل ذلك بأكثر من ستمائة سنة على يد البطل الخالد «خالد بن الوليد ﷺ» ، ولكن في هذه المرة - للأسف- لم يكن الانتصار حليف المسلمين.. لقد بدا «بيجو» وكأنه أعرف بالمنطقة من أهلها، فبدأ يُظهر الانسحاب، ويستدرج خلفه جيش المسلمين، حتى أتى به إلى منطقة مستنقعات قريبة من نهر الفرات، ثم أرسل المهندسين التتر لقطع السدود المقامة على نهر الفرات في هذه المنطقة، وذلك ليقطع خط الهروب على الجيش العباسي، ثم حاصر «بيجو» الجيش العراقي، وبدأ في عملية إبادة واسعة النطاق، واستطاع «مجاهد الدين أيبك» بفرقة صغيرة جداً من الجيش العباسي أن ينسحب بحذاء النهر جنوباً حتى عاد إلى بغداد، ولكن -للأسف- هلك معظم الجيش العباسي في منطقة الأنبار!.

تمت هذه الموقعة الأليمة غير المتكافئة في التاسع عشر من المحرم، أي بعد أسبوع من ظهور هولاكو أمام الأسوار الشرقية لبغداد، وتقدم «بيجو» مباشرة ولم يضيع وقتاً حتى وصل إلى بغداد من ناحيتها الشمالية في اليوم التالي مباشرة، ثم التف حول بغداد ليضرب عليها الحصار من جهتها الغربية، وبذلك وضعت بغداد بين فكي كماشة: «هولاكو» من الشرق، و«بيجو» من الغرب.. وازداد حرج الموقف جداً، واستحكم الحصار حول عاصمة الخلافة!.

والخليفة -ابن الخلفاء والسلاطين- ما تخيل أنه يحصر هذا الحصار أبداً..

وشل عقله تماماً عن التفكير..!!

وجاء مؤيد الدين العلقمي ليستغل الفرصة.

أيها الخليفة.. لابد أن نجلس مع التتار على «طاولة المفاوضات».

ولكن الخليفة يدرك أنه إذا جلس قوي شديد القوة مع ضعيف شديد الضعف فإن هذا لا يعني «مفاوضات» أبداً، وإنما يعني «استسلامًا».. وفي الاستسلام عادة يقبل المهزوم بشروط المنتصر دون تعديل أو اعتراض.

ومع ذلك وافق الخليفة المسكين - وهو مطأطئ الرأس - على الاستسلام.. أقصد على «المفاوضات!».

وقرر أن يرسل رجلين ليقوما عنه بالمفاوضات.. فمن أرسل؟!

لقد أرسل «مؤيد الدين العلقمي الشيعي» والذي يُكن في قلبه كل الحقد للخلافة العباسية..!!

وأرسل معه «ماكيكا..» البطريرك النصراني في بغداد..!!

وهكذا، فالوفد الرسمي الممثل للخلافة «الإسلامية» العباسية العريقة في المفاوضات مع التتار لا يضم إلا رجلين فقط:

أحدهما شيعي والآخر نصراني..!!

ولا تعليق..!!

ودارت المفاوضات السرية جداً بين هولاكو وبين ممثلي الخلافة العباسية.

وأعطيت الوعود الفخمة من هولاكو لكليهما إن ساعداه على إسقاط بغداد، وأهم هذه الوعود أنهما سيكونان أعضاء في «مجلس الحكم» الجديد، والذي سيحكم العراق بعد احتلالها من التتار.. أقصد بعد «تحريرها» من الخليفة!!!

وبالطبع كان رد فعل ممثلي الخلافة العباسية معروفاً.

إن كليهما يتحرق شوقاً لإسقاط الخلافة العباسية الإسلامية، ولو بدون ثمن، فما بالك لو كانت هناك وعود فخمة بمناصب وسيطرة وأموال.. ومن الذي يعد؟ إنه «هولاكو» سيد الموقف في كل المنطقة.

وعاد المبعوثان الساميان من عند هولاكو إلى الخليفة يحملان له طلباً عجيباً من الزعيم التتري.. لقد سمع هولاكو بأمر المسلمين المتشددين «المتطرفين» في داخل بغداد، والذين ينادون بشيء خطير.. ينادون «بالجهاد».. هذه الدعوة إلى الجهاد ستنسف كل مباحثات «السلام».. فعلى خليفة المسلمين أن يسلم إلى هولاكو رؤوس الحركة الإسلامية في بغداد.. وعليه أن يسلم - على وجه التحديد - «مجاهد الدين أيبك» و «سليمان شاه» اللذين كانا يتزعمان فكرة الجهاد والمقاومة.

وهنا تتضارب الروايات.. ولا ندري إن كان سلمهما فعلاً أم لم يسلمهما.. لكن وضح للجميع الغرض التتري.. ووضحت رغبة أعداء الإسلام دائماً في قمع أي دعوة للمقاومة باسم الدين.

الموقف يزداد صعوبة.. والأزمة تزداد شدة.

والرسل لا تنقطع بين هولاكو والخليفة.

والرسل طبعاً هم أهل الثقة عند الخليفة: «مؤيد الدين العلقمي الشيعي»، والبطريرك النصراني «ماكيكا»..!!!

وجاءت نتائج المفاوضات «مرضية جداً» كما صور ابن العلقمي للخليفة.. فلقد جاء ابن العلقمي ببعض الوعود من هولاكو، واعتبر هذه الوعود نصراً سياسياً كبيراً، وفي نفس الوقت كانت هناك بعض الشروط «البسيطة» التي على الخليفة أن ينفذها.

أما الوعود فكانت:

١ - إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإقامة علاقة سلام دائم.

٢ - يتم الزواج بين ابنة هولاكو الزعيم التتري الذي سفك دماء مئات الآلاف من المسلمين بابن الخليفة المسلم «المستعصم بالله».

٣ - يبقى «المستعصم بالله» على كرسي الحكم.

٤ - يعطي الأمان لأهل بغداد جميعاً.

هذه هي الوعود، على أن تكون هذه الوعود في مقابل الشروط الآتية:

١ - تدمير الحصون العراقية.

٢ - ردم الخنادق.

٣ - تسليم الأسلحة.

٤ - الموافقة على أن يكون حكم بغداد تحت رعاية أو مراقبة تترية.

وختم هولاكو مباحثاته مع المبعوثين الساميين بأنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا لإرساء قواعد العدل والحرية والأمان.. وبمجرد أن تستقر هذه الأمور ـ وفق الرؤية التترية ـ فإنه سيعود إلى بلاده، ويترك العراقيين يضعون دستورهم، ويديرون شئون بلادهم بأنفسهم!.

وتجددت الآمال في نفس الخليفة..!!

هل يصدق هولاكو في وعوده؟!

إن هناك شكاً كبيراً في قلبه.

ثم إن الشروط قاسية جداً، فهو سيتخلص تقريباً من كل إمكانية للمقاومة.. ولكنه - على الجانب الآخر - قد يظل حاكماً للبلاد.. نعم تحت

رعاية تترية.. أو تحت قهر تتري.. لكنه - في النهاية - سيظل جالساً على كرسي الحكم، هذا طبعاً إن صدق هولاكو السفاح!.

ولكن هذا احتلال!.. أيقبل به؟

ولماذا لا يقبل بـه؟! إن مقربيـه يقولـون لـه: إن هـذا في السياسـة يسـمونه: «واقعية»..!! وهو لو رفض التسليم، وفتحت أبـواب بغـداد بـالقوة فإنـه حتمـاً سيموت.. أما إذا سلم نفسه إلى هولاكو السفاح فهناك احتمـال ـ ولـو بسـيط ـ للنجاة بالروح..!!

نعم سيعيش ذليلاً.. ولكنه في النهاية قد يعيش.

نعم سيعيش وضيعاً.. لكنه في النهاية قد يعيش.

نعم سيبيع كل شيء بثمن بخس.. لكنه في النهاية قد يعيش.

الخليفة ما زال متردداً.

والشعب الضخم من ورائه يعيش نفس التردد.

نداء الجهاد لا ينبعث إلا من بعض الأفواه القليلة جداً.. أمـا عامـة النـاس فقد انخلعت قلوبهم لحصار التتار.

لقد عظمت الدنيا جداً في عيونهم؛ فاستحال في تقديرهم أن يضحوا بها.

لقد كثر الخبث فعلاً في بغداد.. وإذا كثر الخبث فالهلكة قريبة جداً..!!

واحتاج الخليفة لبعض الوقت للتفكير.. فالقرار صـعب جـداً.. ويحتـاج إلى الاستشارة وقد يستخير!! لكن - على الناحية الأخـرى - فـإن هولاكـو لـيس عنده وقت يضيعه.. لأن الجيوش التترية الرابضة حول بغداد تتكلـف كـل يـوم آلاف الدنانير.. والحصار في شهر محرم سنة ٦٥٦ هجرية، وهذا يوافق شهر يناير

من سنة ١٢٥٨ ميلادية.. والجو شديد البرودة.. هذا فوق أنه يتشوق لرؤية بغداد الجميلة من الداخل!.

مصرع «عرفة»!!

لم ينتظر هولاكو وقتاً طويلاً.. ولم يعط «لصديقه» الخليفة ما يريده من الوقت للتفكير المتعمق، ولكنه قرر أن يجبره على سرعة التفكير، وذلك عن طريق بدء إطلاق القذائف النارية والحجرية على بغداد، مستخدماً في ذلك أحدث التقنيات العسكرية في ذلك الزمان.. وبدأ القصف التتري المروع لأسوار وحصون وقصور وديار بغداد، وبدأت المدينة الآمنة تُروع للمرة الأولى تقريبًا في تاريخها.

بدأ القصف التتري في الأول من صفر سنة ٦٥٦ هجرية، واستمر أربعة أيام متصلة.. ولم تكن هناك مقاومة تذكر.

ويذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في البداية والنهاية موقفاً «بسيطاً» لا يعلق عليه، ولكنه حمل بالنسبة لي معاني كثيرة.

يقول ابن كثير: «وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى أصيبت جارية كانت «تلعب» بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت تسمى «عرفة»، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي «ترقص» بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه، فإذا عليه مكتوب: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم»، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة!!».

وعجيب أن يذكر ابن كثير هذا الخبر دون تعليق..!!

والحدث - وإن كان ظاهره بسيطاً عابراً ـ إلا أنه يحمل معاني هائلة.

لقد تمكنت الدنيا تماماً من قلوب الناس في بغداد، وأولهم الخليفة.. فها هو الخليفة الموكل إليه حماية هذه الأمة في هذا الموقف الخطير يسهر هذه السهرة اللاهية.. نعم قد تكون الجارية ملك يمينه.. وقد تكون حلالاً له.. وإذا لم يكن هناك من يشاهدها غيره فلا حرج من أن يشاهدها الخليفة وهي ترقص.. لكن أين العقل في رأس الخليفة؟! العاصمة الإسلامية للخلافة محاصرة، والموت على بعد خطوات، والمدفعية المغولية تقصف، والسهام النارية تحرق، والناس في ضنك شديد، والخليفة يستمتع برقص الجواري..!!

أين العقل؟! وأين الحكمة؟!

لقد أصبح رقص الجواري في الدماء، فصار كالطعام والشراب.. لابد منه حتى في وقت الحروب.. ولا أدري حقيقة كيف كانت نفسه تقبل أن ينشغل بمثل هذه الأمور، والبلاد والشعب وهو شخصياً في مثل هذه الضائقة.

وما أبلغ العبارة التي كتبها التتار على السهم الذي أطلق على دار الخلافة وقتل الراقصة المسكينة إذ قالوا: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم»، فالله -عز وجل- قد قضى على بغداد بالهلكة في ذلك الوقت، وأذهب فعلاً عقول الخليفة وأعوانه وشعبه، ولا شك أن هذه العبارات المنتقاة بدقة كانت نوعاً من الحرب النفسية المدروسة التي كان يمارسها التتار بمهارة على أهل بغداد.

ويكفي كدليل على قلة عقل الخليفة أنه بعد هذه «الكارثة» (كارثة قتل الراقصة) لم يأمر الشعب بالتجهز للقتال، فقد وصل الخطر إلى داخل دار الخلافة، وإنما أمر فقط بزيادة الاحتراز، ولذلك كثرت الستائر حول دار الخلافة لحجب الرؤية ولزيادة الوقاية وستر الراقصات!.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مفاوضات النهاية..

وظل التتار على قصفهم مدة أربعة أيام من أول صفر إلى الرابع منه سنة ٦٥٦ هجرية، وفي يوم الرابع من صفر بدأت الأسوار الشرقية تنهار.. ومع انهيار الأسوار الشرقية انهار الخليفة تماماً.

لقد بقيت لحظات قليلة جداً في العمر.

هنا لجأ الخليفة إلى صديقه الخائن مؤيد الدين العلقمي، وسأله ماذا يفعل؟ وأشار عليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يجري معه المفاوضات.

وذهبت الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة، ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه، وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعاً المفاوضات، وبذلك تصبح المفاوضات ـ كما يزعم هولاكو ـ ملزمة للجميع.

ولم يكن أمام الخليفة الضعيف أي رأي آخر.

وجمع الخليفة كبار قومه، وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد.. خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه.

لقد خرج الخليفة ذليلاً مهيناً، وهو الذي كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن.

وكان الوفد كبيراً يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيه بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتري، ولم يسمحوا

لكل الوفد بالدخول على هولاكو، بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقون فسيخضعون - كما يقول الحرس - للتفتيش الدقيق.. ودخل الخليفة ومعه رجاله، وحجب عنه بقية الوفد.. ولكنهم لم يخضعوا لتفتيش أو غيره.. بل أخذوا جميعاً... للقتل..!!

قُتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه.. قُتل كبراء القوم، ووزراء الخلافة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية.

ولم يُقتل الخليفة؛ لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى.

وبدأ هلاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر.

واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله.

اكتشف الخليفة ما كان واضحاً لكل الخلق.. ولكنه لم يره إلا الآن.. لقد اكتشف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠].

واكتشف أيضاً أن الحق لابد له من قوة تحميه.. فإن تركت حقك دون حماية فلا تلومن إلا نفسك.. لكن - وللأسف - جاء هذا الاكتشاف متأخراً جداً.

وبدأت الأوامر الصارمة تخرج من السفاح هولاكو:

١- على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة.. وقد كان ذلك أمراً سهلاً؛ لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً.

٢- يقيد الخليفة المسلم، ويساق إلى المدينة يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة،

وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال.

٣- يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينه!! فقُتل الولد الأكبر «أحمد أبو العباس»، وكذلك قُتل الولد الأوسط «عبد الرحمن أبو الفضائل».. ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم.

٤- أن يستدعى من بغداد بعض الرجال بعينهم، وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعاً، فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيُذبح العالم كما تُذبح الشياه، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل..!! لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس!!

ذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي (العالم الإسلامي المعروف)، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وذبح المجاهد مجاهد الدين أيبك وزميله سليمان شاه، اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه «صدر الدين علي بن النيار»، ثم ذبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن..!!

كل هذا والخليفة حي يشاهد، وأنا لا أتخيل كمّ الألم والندم والخزي والرعب الذي كان يشعر به الخليفة، ولا شك أن أداء الخليفة في إدارته للبلاد كان سيختلف جذرياً لو أنه تخيل - ولو للحظات - أن العاقبة ستكون بهذه الصورة، ولكن ليس من سنة الله -عز وجل- أن تعود الأيام، ثم إن الخليفة رأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً ودياً مع ابن العلقمي الوزير

الخائن، وأدرك بوضوح العلاقة بينهما، وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن كل هذه الاكتشافات كانت متأخرة جداً.

«استباحة بغداد»

وبعد أن ألقى أهل المدينة السلاح، وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة.. أصدر السفاح هولاكو أمره الشنيع «باستباحة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية».. والأمر بالاستباحة يعني أن الجيش التتري يفعل فيها ما يشاء.. يقتل.. يأسر.. يسبي.. يرتكب الفواحش.. يسرق.. يدمر.. يحرق.. كل ما بدا لهؤلاء الهمج أن يفعلوه فليفعلوه..!!

وانطلقت وحوش التتار الهمجية تنهش في أجساد المسلمين.

واستبيحت مدينة بغداد العظيمة.

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك.

كم من الجيوش خرجت لتجاهد في سبيل الله من هذه المدينة..!!

كم من العلماء جلسوا يفقهون الناس في دينهم في هذه المدينة..!!

كم من طلاب العلم شدوا الرحال إلى هذه المدينة..!!

أواه يا بغداد!.. لم يبق لك أحد!.

أين خالد بن الوليد؟

أين المثنى بن حارثة؟

أين القعقاع بن عمرو؟

أين النعمان بن مقرن؟

أين سعد بن أبي وقاص؟

أين الحمية في صدور الرجال؟!

أين النخوة في أبناء المسلمين؟!

أين العزة والكرامة؟!

أين الذين يطلبون الجنة؟

أين الذين يقاتلون في سبيل الله؟

بل أين الذين يدافعون عن أعراضهم ونسائهم وأولادهم وديارهم وأموالهم؟

أين؟!!!

لا أحد..!!

لقد فتحت بغداد أبوابها على مصاريعها.

لا مقاومة.. لا حراك.

لم يبق في بغداد رجال.. ولكن فقط أشباه رجال..!!

استبيحت المدينة العظيمة بغداد.

استبيحت مدينة الإمام أبي حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل.

استبيحت مدينة الرشيد.. الذي كان يحج عاماً ويجاهد عاماً.

استبيحت مدينة المعتصم.. فاتح عمورية ببلاد الروم.

استبيحت عاصمة الإسلام على مدار أكثر من خمسة قرون..!!

وفعل التتار في المدينة ما لا يتخيله عقل..!!

لقد بدأ التتار يتعقبون المسلمين في كل شارع أو ميدان.. في كل بيت أو حديقة.. في كل مسجد أو مكتبة.. واستحر القتل في المسلمين.. والمسلمون لا حول لهم ولا قوة، فكان المسلمون يهربون ويغلقون على أنفسهم الأبواب،

فيحرق التتار الأبواب أو يقتلعونها، ويدخلون عليهم، فيهرب المسلمون إلى أسطح الديار، فيصعد وراءهم التتار، ثم يقتلونهم على الأسطح، حتى سالت الدماء بكثرة من ميازيب المدينة (والميازيب هي قنوات تجعل في سقف المنازل لينزل منها ماء المطر، ولا يتجمع فوق الأسطح).

ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط.. إنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن؛ فإنهم كانوا يأخذونها سبياً.. بل وكانوا يقتلون الأطفال.. بل كانوا يقتلون الرضع..!!

وجد جندي من التتار أربعين طفلاً حديثي الولادة في شارع جانبي، وقد قُتلت أمهاتهم، فقتلهم جميعاً.!!

قلوب كالحجارة.. أو أشد قسوة..!!

وتزايد عدد القتلى في المدينة بشكل بشع.

ومر اليوم الأول والثاني والثالث والعاشر.. والقتل لا يتوقف.. والإبادة لا تنتهي.

ولا دفاع.. ولا مقاومة.. فقد دخل في روع الناس أن التتار لا يهزمون.. ولا يجرحون.. بل إنهم لا يموتون..!!

كل هذا والخليفة حي يشاهد.. وهذا هو العذاب بعينه.

هل تتخيلون الخليفة وهو يشاهد هذه الأحداث؟!

هل تتخيلون الخليفة ابن الخلفاء.. العظيم ابن العظماء.. وهو يقف مقيداً يشاهد كل هذه المآسي؟!

١ - قُتل ولدان من أولاده.

٢- أُسر ابنه الثالث.

٣- أُسرت أخواته الثلاث.

٤- قُتل معظم وزرائه.

٥- قُتل كل علماء بلده وخطباء مساجده وحملة القرآن في مدينته.

٦- اكتشف خيانة أقرب المقربين إليه «مؤيد الدين العلقمي الشيعي..».

٧- دمر جيشه بكامله.

٨- نهبت أمواله وثرواته وكنوزه ومدخراته.

٩- استبيحت مدينته وقتل من شعبه مئات الآلاف أمام عينيه.

١٠- أُحرقت العاصمة العظيمة لدولته، ودمرت مبانيها الجميلة.

١١- انتشر التتار بوجوههم القبيحة الكافرة الكالحة في كل بقعة من بقاع بغداد.. فكانوا كالجراد الذي غطى الأرض الخضراء، فتركها قاعاً صفصفاً.

١٢- وُضعت الأغلال في عنقه وفي يده وفي قدمه.. وسيق كما يساق البعير.

لقد شاهد الخليفة كل ذلك بعينيه.

وتخيل مدى الحسرة والألم في قلبه.

لا شك أنه قال مراراً: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣].

لا شك أنه نادم ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨،٢٩].

ومر على ذهنه شريط حياته في لحظات.

ولا شك أنه أخذ يراجع نفسه ولسان حاله يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩،١٠٠]

يا ليتني جهزت الجيوش وأعددتها وقويتها..!!

يا ليتني حفزت الأمة على الجهاد في وقت أحيطت فيه بأعداء الدين من كل مكان.

يا ليتني رفعت قيمة الإسلام في عيون الناس وفي قلوبهم، حتى يصبح الإسلام عندهم أغلى من أموالهم وحياتهم.

يا ليتني تركت اللهو واللعب والحفلات والتفاهات.

ليتني ما عشت لجمع المال.

ليتني ما استكثرت من الجواري.. وليتني ما سمعت المعازف.

ليتني اخترت بطانة الخير.

ليتني عظمت من العلماء وتركت الأدعياء.

ليتني.. ليتني.. ليتني...

لكن القيود الثقيلة المسلسلة في عنقه ويديه وساقيه ردته إلى أرض الواقع.. ليعلم أن الزمان لا يعود أبداً إلى الوراء.

روى أبو داود وأحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **إذا تبايعتم بالعينة** (نوع من الربا)، **وأخذتم أذناب البقر** (العمل في رعي المواشي)، **ورضيتم بالزرع،** (أي رضيتم بالاشتغال بالزراعة، والمقصود عملتم في أعمال الدنيا أياً كانت في وقت الجهاد المتعين)، **وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**».

لقد عمل أهل بغداد في الزراعة والتجارة والكتابة والصناعة.. بل وفي العلم والتعلم.. وتركوا الجهاد في سبيل الله.. فكانت النتيجة هذا الذل الذي رأيناه.

وهذه دروس قيمة جداً إلى كل مسلم.. حاكم أو محكوم.. عالم أو متعلم.. كبير أو صغير.. رجل أو امرأة..

- لابد للحق من قوة تحميه.

- الحقوق لا تُستجدى ولكن تؤخذ.. ويُبذل في سبيلها الغالي والثمين.

- ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا.

- أعداء الأمة لا عهد لهم.

وسيق الخليفة «المستعصم بالله» إلى خاتمته الشنيعة.. بعد أن رأى كل ذلك في عاصمته، وفي عقر دار خلافته، بل وفي عقر بيته.

أصدر السفاح هولاكو الأمر بالإجهاز على الخليفة المسكين.. ولكن أشار على هولاكو بعض أعوانه بشيء عجيب..! لقد قالوا: لو سالت دماء الخليفة المسلم على الأرض، فإن المسلمين سيطلبون ثأره بعد ذلك، ولو تقادم الزمان، ولذلك يجب قتل الخليفة بوسيلة لا تسيل فيها الدماء.. ولا داعي لاستعمال السيف.

وهذا بالطبع نوع من الدجل.. لأنه من المفترض أن يطلب المسلمون دم خليفتهم، بل ودماء المسلمين جميعاً الذين قتلهم هولاكو وجنوده بصرف النظر عن طريقة قتلهم.

لكن هولاكو استمع لهم.. وسبحان الله..!! كأن الله -عز وجل- قد أراد ذلك، حتى يموت الخليفة بصورة مخزية ما حدثت مع خليفة قبله، وما سمعنا بها مع أي من ملوك أو أمراء الأرض.. مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

لقد أمر هولاكو أن يقتل الخليفة «رفساً بالأقدام»..!!

وبالفعل وضع الخليفة العباسي على الأرض، وبدأ التتار يرفسونه بأقدامهم.

وتخيل الرفس والركل بالأقدام إلى الموت..!!

أي ألم.. وأي إهانة.. وأي ذل..!!

لقد ظلوا يرفسونه إلى أن فارقت روحه الجسد.

وإنا لله.. وإنا إليه راجعون.

إن بغداد لم تسقط فقط!!

إنما سقط آخر خلفاء بني العباس في بغداد.

وسقط معه شعبه بكامله!.

وكان ذلك في اليوم العاشر من فتح بغداد لأبوابها.. في يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هجرية.

ولم تنته المأساة بقتل الخليفة.. وإنما أمر هولاكو - لعنه الله - باستمرار عملية القتل في بغداد.. فهذه أضخم مدينة على وجه الأرض في ذلك الزمان.. ولابد أن يجعلها التتار عبرة لمن بعدها.

واستمر القتل في المدينة أربعين يوماً كاملة منذ سقوطها.

وتخيلوا كم قُتل في بغداد من المسلمين؟!

لقد قتل هناك ألف ألف مسلم (مليون مسلم..!!) ما بين رجال ونساء وأطفال!!

ألف ألف مسلم قتلوا في أربعين يوماً فقط..!!

وتخيل أمة فقدت من أهلها مليوناً في غضون أربعين يوماً فقط.

كارثة رهيبة!.

نذكر ذلك لنعلم أن المصائب التي يلقاها المسلمون الآن ـ مهما اشتدت ـ

فهي أهون من مصائب رهيبة سابقة.. وسنرى أن المسلمين سيقومون بفضل الله من هذه المصيبة.. لنعلم أننا - بإذن الله - على القيام من مصائبنا أقدر.

وللعلم فإنه لم ينج من القتل في بغداد إلا الجالية النصرانية فقط..!!

وبينما كان فريق من التتار يعمل على قتل المسلمين وسفك الدماء اتجه فريق آخر من التتار لعمل إجرامي آخر.. عمل ليس له مبرر إلا أن التتار قد أكل الحقد قلوبهم على كل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق.. عشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في جميع فروع العلم.. الديني منها والدنيوي.. لقد أثرى هؤلاء العلماء الحضارة الإسلامية بملايين المصنفات.. بينما التتار لا حضارة لهم.. ولا أصل لهم.. إنهم أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين، واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. لقد قاتلت هذه الأمة كما تقاتل الحيوانات.. بل عاشت كما تعيش الحيوانات.. ولم ترغب مطلقاً في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير والإبادة.. شتان بين هذه الأمة وبين أمة الإسلام، بل شتان بين أي أمة من أمم الأرض وأمة الإسلام.. وهذا الانهيار الذي رأيناه في تاريخ بغداد من المستحيل أن يمحو التاريخ العظيم لهذه الأمة العظيمة.

ماذا فعل مجرمو التتار؟!

لقد اتجه فريق من أشقياء التتار لعمل إجرامي بشع، وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة.. وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن.. وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون.. من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه

والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك.. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.. فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان.

لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس.. وسبحان الله..!! لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد..!!

عندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هجرية (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه «كمبيس»، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بُذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأُنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد. لكن هذه سنتهم!.

حروبهم هي حروب على الحضارة.. وحروب على المدنية.. وحروب على الإسلام.. بل هي حروب على الإنسانية كلها.

ولكن قبل أن نتحدث عما فعل التتار بمكتبة بغداد تعالوا نتحدث - ولو قليلاً - عن مكتبة بغداد.

مكتبة بغداد:

هي أعظم دور العلم في الأرض - بلا أدنى مبالغة - قرابة خمسة قرون متتالية.

أسسها الخليفة العباسي المسلم هارون الرشيد - رحمه الله - والذي حكم الدولة الإسلامية من سنة ١٧٠ هجرية إلى سنة ١٩٣ هجرية، ثم ازدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة ١٩٨ هجرية إلى سنة ٢١٨ هجرية.. وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم لا يُتخيل كمّ العلم بداخلها..!!

نحن نتحدث عن دار للعلم حوت ملايين المجلدات في هذا الزمن السحيق..!!

ملايين الكتب في مكتبة واحدة في زمان ليس فيه طباعة..!!

وكان هذا هو الأمر المتكرر والطبيعي في معظم حواضر الإسلام.. ولا ندري بالتحديد كم عدد الكتب في هذه المكتبة الهائلة.. وإن كانت تقدر حقاً بالملايين.. ويكفي أن مكتبة طرابلس بلبنان - والتي لم تكن تقارن أبداً بمكتبة بغداد- قد أحرق الصليبيون الأوروبيون فيها «ثلاثة ملايين» مجلد عندما وقعت في أيديهم..!! فتخيل كم كان عدد المجلدات في مكتبة بغداد!!

كانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات معينة لكتب الفقه، وحجرات أخرى لكتب الطب، وهناك حجرات ثالثة لكتب الكيمياء، ورابعة للبحوث السياسية وهكذا.

وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها، ويواظبون على استمرار تجديدها.. وكان هناك «النساخون» الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وكان هناك «المناولون» الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك «المترجمون» الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك «الباحثون» الذين يبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة!.

وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وغرف خاصة للمدارسة وحلقات النقاش والندوات العلمية، وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، بل وكانت هناك غرف للإقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة!.

نحن إذن نتحدث عن جامعة هائلة.. وليست مجرد مكتبة من المكتبات.

لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني في الدنيا بأسرها.

لقد كان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية.. وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم، وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل.

لقد ترجمت في مكتبة بغداد الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والسريانية والهندية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية وغيرها.

هذه هي مكتبة بغداد!!

المكتبة التي جمعت كل علوم الأرض في زمانها.

ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟

لقد حمل التتار الكتب الثمينة.. ملايين الكتب الثمينة... وفي بساطة شديدة -لا تخلو من حماقة وغباء- ألقوا بها جميعاً في نهر دجلة..!!

لقد كان الظن أن يحمل التتار هذه الكتب القيمة إلى «قراقورم» عاصمة المغول ليستفيدوا -وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية- من هذا العلم النفيس.. لكن التتار أمة همجية.. لا تقرأ ولا تريد أن تتعلم.. يعيشون للشهوات والملذات فقط.

لقد كان هدفهم في الدنيا هو تخريب الدنيا..!!

ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة.. حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب.. وحتى قيل إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى..!!

هذه جريمة ليست في حق المسلمين فقط.. بل في حق الإنسانية كلها..!!

وهي جريمة متكررة في التاريخ.

لقد فعلها الصليبيون النصارى في الأندلس - كما ذكرنا - في مكتبة قرطبة الهائلة.

وفعلها الصليبيون النصارى في الأندلس مرة أخرى في مكتبة غرناطة عند سقوطها، فأحرقوا مليون كتاب في أحد الميادين العامة..!!

وفعلها الصليبيون النصارى في الأندلس مرة ثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة في مكتبات طليطلة وأشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها.

وفعلها الصليبيون النصارى في الشام في مكتبة طرابلس اللبنانية فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب.

وفعلها الصليبيون النصارى في فلسطين في مكتبات غزة والقدس وعسقلان.

ثم فعلها بعد ذلك المستعمرون الأوروبيون الجدد الذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاء؛ فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها، ولكن أخذوها إلى أوروبا، وما زالت المكتبات الكبرى في أوروبا تحوي مجموعة من أعظم كتب العلم في الأرض.. ألّفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية.. ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية

في مكتبات أوروبا تفوق كثيراً أعداد هذه المراجع الهامة في بلاد المسلمين أنفسهم..!!

لقد كان من هم الغزاة على طول العصور أن يحرموا هذه الأمة من اتصالها بأي نوع من أنواع العلوم.. إما بحرق الكتب أو بإغراقها في الأنهار أو بسرقتها.. أو بتغيير مناهج التعليم - حالياً - حتى تفرغ من كل ما هو قيّم وثمين.. كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيداً قيمة العلم في دين الإسلام.. ويعرفون كذلك قوة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم.

ونعود إلى التتار.. وإلى بغداد.

فبعد أن فرغ التتار من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق.. وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه..!! وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان.

واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يوماً كاملة.. وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة، واكتست الشوارع باللون الأحمر، وعم السكون البلدة، فلا يسمع أحد إلا أصوات ضحكات التتار الماجنة.. أو أصوات بكاء النساء والأطفال بعد أن فقدوا كل شيء.

وهنا ـ وبعد الأربعين يوماً ـ خاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة نتيجة الجثث المتعفنة (مليون جثة لم تدفن بعد)، فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

١- يخرج الجيش التتري بكامله من بغداد، وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة، وتترك حامية تترية صغيرة

حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة.

٢- يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين يوماً.. وقد سمح التتار بهذا الأمان حتى يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم.. وهذا عمل شاق جداً يحتاج إلى فترات طويلة (مليون قتيل)، وإذا لم يتم هذا العمل فقد يتغير الجو - ليس في بغداد فقط - ولكن في كل بلاد العراق والشام، وستنتشر الأمراض القاتلة في كل مكان، ولن تفرق بين مسلم وتتري، ولذلك أراد هولاكو أن يتخلص من هذه الجثث بواسطة المسلمين.

وفعلاً خرج المسلمون الذين كانوا يختفون في الخنادق أو في المقابر أو في الآبار المهجورة.. خرجوا وقد تغيرت هيئتهم، ونحلت أجسادهم، وتبدلت ألوانهم، حتى أنكر بعضهم بعضاً..!!

لقد خرج كل واحد منهم ليفتش في الجثث، وليستخرج من بين التلال المتعفنة ابناً له أو أخاً أو أباً أو أماً..!!

مصيبة كبيرة فعلاً.

وبدأ المسلمون في دفن موتاهم.. ولكن كما توقع هولاكو انتشرت الأوبئة في بغداد بشكل مريع، حتى مات من المسلمين عدد هائل من الأمراض القاتلة!.. وكما يقول ابن كثير رحمه الله: «ومن نجا من الطعن، لم ينج من الطاعون!!».

فكانت كارثة جديدة في بغداد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣- كما أصدر هولاكو قراراً بأن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل التتار على بغداد، على أن توضع عليه بالطبع وصاية تترية.

ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للتتار بكل تأكيد، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك، ووصل إلى الإهانة المباشرة للرئيس الجديد مؤيد الدين العلقمي، ولم تكن الإهانة تأتي من قبل هولاكو، بل كانت تأتي من صغار الجند في جيش التتار، وذلك لتحطيم نفسيته، ولا يشعر بقوته، ويظل تابعاً للتتر!.

وقد رأته امرأة مسلمة وهو يركب على دابته، والجنود التتر ينتهرونه ليسرع بدابته، ويضربون دابته بالعصا.. وهذا بالطبع وضع مهين جداً لحاكم بغداد الجديد.. فقالت له المرأة المسلمة الذكية: «أهكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!»

لقد لفتت المرأة المسلمة نظر الوزير الخائن إلى ما فعله في نفسه، وفي شعبه.. لقد كان الوزير معظماً في حكومة بني العباس.. وكان مقدماً على غيره.. وكان مسموع الكلمة عند كل إنسان في بغداد، حتى عند الخليفة نفسه.

أما الآن، فما أفدح المأساة!.. إنه يهان من جندي تتري بسيط لا يعرف أحد اسمه.. بل لعل هولاكو نفسه لا يعرفه..! وهكذا - يا إخواني - من باع دينه ووطنه ونفسه، فإنه يصبح بلا ثمن حتى عند الأعداء، فالعميل عند الأعداء لا يساوي عندهم أي قيمة إلا وقت الاحتياج، فإن تم لهم ما يريدون زالت قيمته بالكلية.

وقد وقعت كلمات المرأة المسلمة الفطنة في نفس مؤيد الدين العلقمي، فانطلق إلى بيته مهموماً مفضوحاً، واعتكف فيه، وركبه الهم والغم والضيق.. لقد كان هو من أوائل الذين خسروا بدخول التتار.. نعم هو الآن حاكم بغداد.. لكنه حاكم بلا سلطة.. إنه حاكم على مدينة مدمرة.. إنه حاكم على الأموات والمرضى..!!

ولم يستطع الوزير الخائن أن يتحمل الوضع الجديد.. فبعد أيام من الضيق

والكمد.. مات ابن العلقمي في بيته..!!

مات بعد شهور قليلة جداً من نفس السنة التي دخل فيها التتار بغداد.. سنة ٦٥٦هجرية.. ولم يستمتع بحكم ولا ملك ولا خيانة!.. وليكون عبرة بعد ذلك لكل خائن.. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]

وولى التتار ابن مؤيد الدين العلقمي على بغداد، فالابن قد ورث الخيانة من أبيه.. لكن ـ سبحان الله ـ وكأن هذا المنصب أصبح شؤماً على من يتولاه.. فقد مات الابن الخائن هو الآخر بعد ذلك بقليل.. مات في نفس السنة التي سقطت فيها بغداد سنة ٦٥٦ هجرية..!!

ولا عجب!!

فإنه ما تمسك أحد بالدنيا إلا وأهلكته.

تمسك بها الخليفة فهلك.

وتمسك بها الوزير الخائن فهلك.

وتمسك بها ابن الوزير فهلك.

وتمسك بها شعب بغداد فهلك.

وصدق رسولنا الكريم ﷺ الذي قال فيما رواه الترمذي- وقال: صحيح- عن عمرو بن عوف رضي الله عنه: «..فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

ووصلت أخبار سقوط بغداد إلى العالم بأسره.

أما العالم الإسلامي فكان سقوط بغداد بالنسبة له صدمة رهيبة لا يمكن استيعابها مطلقاً.. فبغداد لم تكن مدينة عادية.. ففوق أنها أكبر مدينة على وجه الأرض في ذلك الحين، وفوق أن بها أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وفوق أنها من أعظم دور العلم والحضارة والمدنية في الأرض، وفوق أنها من ثغور الإسلام القديمة.. فوق كل ذلك فهي عاصمة الخلافة الإسلامية..!!

ماذا يعني سقوط بغداد؟!

تساءل الناس هذا السؤال الخطير؟!

ماذا يعني سقوط بغداد؟!

وماذا يعني قتل الخليفة، وعدم تعيين خليفة آخر؟

سؤال آخر خطير.

الدنيا لم تكن تعني للمسلمين شيئاً بدون خلافة وخليفة.. حتى مع مظاهر الضعف الواضحة في سنوات الخلافة العباسية الأخيرة، وحتى مع كونها لم تكن تسيطر حقيقة إلا على بغداد وأجزاء بسيطة من العراق، فإن الخلافة كانت تعتبر رمزاً مهماً للمسلمين.

إذا كانت هناك خلافة ـ ولو ضعيفة ـ فقد يأتي زمان تتقوى فيه، أو يجتمع المسلمون تحت رايتها.. أما إذا غابت الخلافة.. فالتجمع صعب.. بل صعب جداً.

مصيبة هائلة أن تختفي الخلافة.. مصيبة هائلة أن يختفي الخليفة.

«الدنيا» بلا خليفة..!!

نسأل الله -عز وجل- أن يجمع المسلمين تحت خلافة واحدة على منهاج النبوة.

وظهر عند المسلمين بعد سقوط بغداد اعتقاد غريب، سيطر على كثير منهم حتى ما عادوا يتكلمون إلا فيه، وانتشر بين الناس بسرعة عجيبة، والناس من عادتها أنها تحب دائماً أن تستمع إلى الغريب.

لقد ظهر اعتقاد أن خروج التتار وهزيمة المسلمين وسقوط بغداد ما هي إلا علامات للساعة، وأن «المهدي» سيخرج قريباً جداً ليقود جيوش المسلمين للانتصار على التتار..!!

وأنا أقول: نعم سيظهر المهدي في يوم ما، ونعم سينزل المسيح عليه السلام، ونعم ستكون الساعة.. نعم كل هذه أمور نعلم أنها ستحدث.. يقيناً ستحدث.. ولكن متى بالضبط؟ لا يدري أحد..!! ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[الأحزاب:٦٣]

فلماذا تظهر مثل هذه الدعوات في أوقات الهزائم والانتكاسات؟.

إن هذا ليس له إلا مبرر واحد، وهو أن الناس قد أحبطوا تماماً فأصبحوا يشكون في إمكانية النصر على أعداء الله -عز وجل- بمفردهم.. لقد أيقن الناس أنهم لا طاقة لهم بهولاكو وجنوده، ولذلك بحثوا عن حل آخر أسهل.. وليكن هذا الحل هو: «المهدي»، فلننتظر إلى أن يخرج المهدي، وعندها نقاتل معه.. أما قبل ذلك فلا نستطيع!.

دعنا نراقب الموقف عن بعد..!!

دعنا ننتظر معجزة!!

إحباط.. ويأس.. وقنوط.

وهذه كلها ليست من صفات المؤمنين.. ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧]

ثم من أدراك أنك ستعيش إلى زمان خروج المهدي، بل عليك أن تعلم أنك لو مت قبل ظهوره فسوف يحاسبك الله -عز وجل- على عملك، لا على حياتك في زمانه، ثم من أدراك أنه إذا خرج المهدي فإنك ستكون من جنوده.. إن جنوده سوف يختارهم الله -عز وجل-.. ولن يكون الاختيار عشوائياً.. حاشا لله.. إنما سيكون بحسب الإيمان والعمل.

ونسأل الله أن يستعملنا لدينه.

كان هذا هو الوضع الإسلامي بعد سقوط بغداد.

فكيف كان الوضع في العالم النصراني؟

لقد عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصراني كله.. وهذا شيء متوقع جداً.. فكما ذكرت في أول الكتاب فإن قوى العالم الرئيسية في هذا القرن السابع الهجري كانت ثلاثة: العالم الإسلامي، والعالم النصراني، والتتار.. والحروب بين المسلمين والنصارى كانت على أشدها، وكانت هذه الضربة التترية ضربة موجعة جداً للعالم الإسلامي.. وتجددت - ولا شك - الأطماع الصليبية في مصر والشام.

وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة.. ودخل ملك أرمينيا وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار.. وزاد من فرحتهم أن التتار - وللمرة الأولى في حياتهم - صدقوا في عهودهم.. فإنهم قد وعدوا النصارى ألا يمسوهم بسوء في بغداد، وتم لهم ذلك، بل إن هولاكو أغدق بالهدايا الثمينة على «ماكيكا» البطريرك النصراني، وأعطاه قصراً عظيماً من قصور الخلافة العباسية على نهر دجلة، وجعله من مستشاريه، ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد، ومن أصحاب الرأي المقربين في بغداد.

كل هذا دعا النصارى إلى أن يقولوا: إن التتار هم أدوات الله للانتقام من

أعداء المسيح عليه السلام، وهم بالطبع يقصدون المسلمين، مع أن التتـار كـانوا منذ سنوات قليلة يقتلون النصارى أنفسهم في أوروبـا.. ولكـن يبـدو أن ذاكـرة النصارى لا تتسع للكثير.. لقد تناسى الصليبيون ما فعلـه التتـار معهـم مـا دام التتار يقتلون المسلمين، تماماً كما يتناسى النصارى اليوم ما فعله اليهود معهم ما دام اليهود يقتلون المسلمين.. والتاريخ يعيد نفسه دائماً.

وهذه الكلمات التي قالها النصارى عن التتار، وهذه الشـماتة الواضـحة في المسلمين، كانت هي نفس الكلمات ونفس الشـماتة الـتي حـدثت بعـد سـقوط غرناطة في الأندلس، وسبحان الله..!! فالذي يراجع سقوط غرناطة يجد تشـابهاً عجيباً بين سقوطها وسقوط بغداد.. مما يعطي أهمية قصـوى لدراسـة التـاريخ؛ لأنه يتكرر بصورة قد لا يتخيلها البشر..!!

* * *



اجتيــاح الشــام

انتهت قصة بغداد، وخرج التتار منها بعد أربعين يوماً من القتل والتدمير، وبدأ الجميع: التتار والمسلمون والنصارى يرتبون أوراقهم من جديد على ضوء النتائج التي تمت في بغداد.

أما هولاكو فقد انسحب من بغداد إلى همدان بفارس، ثم توجه إلى قلعة «شها» على شاطئ بحيرة «أورمية»، (في الشمال الغربي لإيران الآن)، وفي هذه القلعة وضع الكنوز الهائلة التي نهبها من قصور العباسيين، ومن بيت مال المسلمين، ومن بيوت التجار وأصحاب رءوس الأموال..

وبالطبع ترك هولاكو حامية تترية حول بغداد، وبدأ يفكر بجدية في الخطوة التالية.. والخطوة التالية بعد العراق- لا شك- أنها ستكون سوريا (الشام..) فبدأ هولاكو في دراسة الموقف في هذه المنطقة.

وبينما هو يقوم بهذه الدراسة، ويحدد نقاط الضعف والقوة في هذه المناطق الإسلامية، بدأ بعض الأمراء المسلمين يؤكدون على ولائهم للتتار.. وبدأت الوفود الإسلامية الرسمية تتوالى على زعيم التتار تطلب عقد الأحلاف والمعاهدات مع «الصديق» الجديد، رجل الحرب والسلام: هولاكو..!!

ومع أن دماء المليون مسلم الذين قتلوا في بغداد لم تجف بعد، إلا أن هؤلاء الأمراء لم يجدوا أي غضاضة في أن يتحالفوا مع هولاكو؛ فالفجوة - كما يقولون - هائلة بينهم وبين هولاكو، والأفضل - في اعتباراتهم- أن يفوزوا بأي شيء أفضل من لا شيء، أو على الأقل يحيدون جانبه، ويأمنون شره.. ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ

لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾[النساء: ٧٢]

لا شك أن هؤلاء الأمراء كانوا سعداء جداً بأنهم لم يشتركوا مع العباسيين في الدفاع عن بغداد، ولا شك أنهم كانوا يظهرون أمام شعوبهم بمظهر الحكماء الذين جنبوا شعوبهم ويلات الحروب.. ولا شك أن خطبهم كانت قوية ونارية وحماسية..!! ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[المنافقون:٤].

ولا شك أنه كان هناك أيضاً من العلماء الوصوليين من يؤيدون خطواتهم، ويباركون تحركاتهم، ويحضون شعوبهم على اتباعهم، والرضا بأفعالهم.

ولا شك أن هؤلاء العلماء كانوا يضربون لهم الأمثال من السنة النبوية المطهرة.. فيقولون لهم مثلاً: لقد عاهد الرسول ﷺ المشركين في صلح الحديبية، فلماذا لا نعاهد نحن التتار الآن؟!! ولقد عاهد الرسول ﷺ اليهود في المدينة المنورة، فلماذا لا نعاهد نحن التتار في بغداد؟..!! وهكذا..!!

ثم إن التتار يريدون «السلام» معنا.. والله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١].

والتتار جنحوا للسلم معنا!.

أتريدون مخالفة شرعية؟!

أتريدون سفك الدماء؟!

أتريدون تخريب الديار؟!

أتريدون تدمير الاقتصاد؟!

إن الحكمة - كل الحكمة ـ ما فعله أميرنا بالتصالح والتعاهد والتحالف مع التتار.

لنبدأ صفحة جديدة من الحب لكل البشرية!!

سبحان الله..!! ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨]

جاء هؤلاء الأمراء وقلوبهم تدق، وأنفاسهم تتسارع.

هل سيقبل سيدهم هولاكو أن يتحالف معهم؟!

وجاء الزعماء الأشاوس يجددون العهد مع «الصديق» هولاكو.

- الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل.

- الأمير كيكاوس الثاني والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول (وسط وغرب تركيا).

- الأمير الأشرف الأيوبي أمير حمص.

- الأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبي) أمير حلب ودمشق.

وهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا.. إذن لقد حلت المشاكل أمام هولاكو.. لقد فتحت بلاد المسلمين أبوابها له دون أن يتكلف قتالاً.

لكن ظهرت مشكلتان أمام هولاكو:

أما المشكلة الأولى: فكانت في أحد الأمراء الأيوبيين الذي رفض أن يخضع له، ورفض أن يعقد معاهدات سلام مع التتار، وقرر أن يجاهد التتار إلى النهاية، بالطبع اعتبره هولاكو رجلاً «إرهابياً» يريد زعزعة الاستقرار في المنطقة، ولا شك أن هولاكو قال: إنه يعلم أن هذا الرجل لا يمثل دين الإسلام؛ لأن الإسلام دين السماحة والرحمة والحب والسلام..!!

هذا الأمير المسلم الذي ظل محتفظاً بمروءته وكرامته ودينه هو الأمير «الكامل محمد الأيوبي» - رحمه الله - أمير منطقة «ميافارقين».

و«ميافارقين» مدينة تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة «وان».. وكانت جيوش الكامل محمد - رحمه الله - تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق، وعلى الشمال الشرقي من سوريا.

فإذا وضعنا في حساباتنا أن هولاكو يريد أن يحتل سوريا، فإنه ليس أمامه إلا أن يجتاز منطقة الجزيرة الواقعة تحت سيطرة الكامل محمد رحمه الله، وعلى ذلك فرغم خنوع وخضوع معظم أمراء المنطقة، إلا أن إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أصبح لازماً.

كانت هذه هي المشكلة الأولى التي واجهت هولاكو، وقد كانت هذه مشكلة حقيقية فعلاً، خاصةً أن مدينة ميافارقين مدينة حصينة، وتقع بين سلسلة جبال البحر الأسود.. كما أن الشعوب المسلمة قد تتعاطف مع «المتمرد» الكامل الأيوبي.

أما المشكلة الثانية: فهي مشكلة تافهة نسبياً، وهي أن أولئك الأمراء المسلمين الذي رغبوا في التحالف مع هولاكو كانوا يبتغون البقاء في أماكنهم، يحكمون بلادهم حكماً ذاتياً، ولو تحت المظلة التترية، بينما كان هولاكو يرغب في السيطرة الكاملة على البلاد بطبيعة الحال، يعين من يشاء، ويعزل من يشاء، فهولاكو لا يرى أحداً من سادة العالم إلى جواره، فما بالكم بهؤلاء الأمراء الأقزام؟!

لكن هولاكو بما عرف عنه من ذكاء كان يحسن ترتيب الأولويات، فأدرك

أنه من المهم أن يقضي أولاً على حركة الكامل محمد الأيوبي - رحمه الله -، ثم يستكمل طريقه بعد ذلك إلى الشام، وهناك إذا اعترض واحد من هؤلاء الأقزام على ما يريده هولاكو، فإن التعامل معه سيكون يسيراً.. بل في منتهى اليسر.

ماذا فعل هولاكو للخروج من هذا المأزق؟

حصار «ميافارقين»:

لقد بدأ هولاكو بالطرق السهلة وغير المكلفة، وحاول إرهاب «الكامل» وإقناعه بالتخلي عن فكرة الجهاد «الطائشة»، فأرسل إليه رسولاً يدعوه فيه إلى التسليم غير المشروط، وإلى الدخول في زمرة غيره من الأمراء المسلمين.. وكان هولاكو ذكياً جداً في اختيار الرسول، فهو لم يرسل رسولاً تترياً، إنما أرسل رسولاً عربياً نصرانياً اسمه «قسيس يعقوبي»؛ فهذا الرسول من ناحية يستطيع التفاهم مع الكامل محمد بلغته، وينقل له أخبار هولاكو وقوته وبأسه، وهو من ناحية أخرى نصراني، وذلك حتى يلفت نظر الكامل محمد إلى أن النصارى يتعاونون مع التتار، وهذا له بعد استراتيجي مهم؛ لأنك لو نظرت إلى الموقع الجغرافي لإمارة ميافارقين في شرق تركيا لرأيت أن حدودها الشرقية مع مملكة أرمينيا النصرانية والمتحالفة مع التتار، وحدودها الشمالية الشرقية مع مملكة الكرج (جورجيا) النصرانية والمتحالفة أيضاً مع التتار.

وهكذا أصبح الكامل محمد الأيوبي كالجزيرة الصغيرة المؤمنة في وسط خضم هائل من المنافقين والمشركين والعملاء.

- من الشرق.. أرمينيا النصرانية.
- من الشمال الشرقي.. الكرج النصرانية.
- من الجنوب الشرقي.. إمارة الموصل العميلة للتتار.

ـ من الغرب.. إمارات السلاجقة العميلة للتتار.

ـ من الجنوب.. الغربي إمارة حلب العميلة للتتار.

وأصبح الموقف في غاية الخطورة!.

ماذا فعل الكامل محمد - رحمه الله - مع الرسول النصراني من قبل هولاكو؟

لقد أمسك به، وقتله!.

ومع أن الأعراف تقتضي أن لا يُقتل الرسل إلا أن الكامل قام بذلك ليكون بمثابة الإعلان الرسمي للحرب على هولاكو، وكنوع من شفاء الصدور للمسلمين انتقاماً من ذبح مليون مسلم في بغداد؛ ولأن التتار ما احترموا أعرافاً في حياتهم.

وكان قتل «قسيس يعقوبي» رسول التتار رسالة واضحة من الكامل محمد إلى هولاكو، وأدرك هولاكو أنه لن يدخل الشام إلا بعد القضاء على الكامل محمد.. (وسيأتي التعليق على قضية قتل الرسل لاحقًا في هذا الكتاب).

واهتم هولاكو بالموضوع جداً؛ فهذه أول صحوة في المنطقة، ولم يضيع هولاكو وقتاً، بل جهز بسرعة جيشاً كبيراً، ووضع على رأسه ابنه «أشموط بن هولاكو»، وتوجه الجيش إلى ميافارقين مباشرة بعد أن فتح له أمير الموصل العميل أرضه للمرور.

وتوجه «أشموط بن هولاكو» بجيشه الجرار إلى أهم معاقل إمارة ميافارقين، وهو الحصن المنيع الواقع في مدينة ميافارقين نفسها، وبه «الكامل محمد» نفسه، وكان الكامل محمد - رحمه الله - قد جمع جيشه كله في هذه القلعة؛ وذلك لأنه لو فرقه في أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) فإنه لن تكون له طاقة بجيوش التتار الهائلة.

وجاء جيش التتار، وحاصر ميافارقين حصاراً شديداً، وكما هو متوقع جاءت جيوش مملكتي أرمينيا والكرج لتحاصر ميافارقين من الناحية الشرقية، وكان هذا الحصار الشرس في شهر رجب سنة ٦٥٦ هجرية - بعد الانتهاء من تدمير بغداد بحوالي أربعة شهور - (انظر الخريطة رقم ١٣).

وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد.

لقد كان كريماً في زمان اللئام!!

شجاعاً في زمان الجبناء!!

فاهماً جداً في زمان لا يعيش فيه إلا الأغبياء!.. بل أغبي الأغبياء!!

كان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها.. لكن هذا لم يحدث.. لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمة ولا أدوية.. لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم - التتار- على إخوانهم وأخواتهم وأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين.

والواقع أنني أتعجب من رد فعل الشعوب..!!

أين كانت الشعوب؟!

إذا كان الحكام على هذه الصورة الوضيعة من الأخلاق، فلماذا سكتت الشعوب؟! ولماذا لم تتحرك الشعوب لنجدة إخوانهم في الدين والعقيدة، بل وإخوانهم في الدم والنسب، فمجتمعاتهم كانت شديدة التلاصق؟!

لقد سكتت الشعوب، وسكوتها مرده إلى أمور خطيرة.

أولاً: لم تكن الشعوب تختلف كثيراً عن حكامها.. إنما كانت تريد الحياة..

والحياة بأي صورة.

ثانيًا: كانت هناك عمليات «غسيل مخ» مستمرة لكل شعوب المنطقة.. فلا شك أن الحكام ووزراءهم وعلماءهم كانوا يقنعون الناس بحسن سياستهم، وبحكمة إدارتهم، ولا شك أيضاً أنهم كانوا يلومون الكامل محمدًا الذي «تهور» ودافع عن كرامته، وكرامة شعبه، بل وكرامة المسلمين.

لا شك أنه كان يظهر خطباء يقولون مثلاً:

«أما آن للكامل محمد أن يتنحى، ليجنب شعبه دمار الحروب؟!..»

أو من يقول: «لو سلم الكامل محمد أسلحته لانتهت المشكلة، ولكنه يخفي أسلحته عن عيون الدولة الأولى في الأرض: التتار، وهذا خطأ يستحق إبادة الشعب الميافارقيني بكامله!».

ولا شك أن هولاكو كان يرسل بالرسائل يقول فيها: إنه ما جاء إلى هذه المدينة المسالمة إلا لإزاحة الكامل محمد عن الحكم، أما شعب ميافارقين فليس بيننا وبينه عداء.. إنما نريد أن نتعايش سلمياً بعضنا إلى جوار بعض!.

كانت هذه عمليات غسيل مخ تهدّئ من حماسة الشعوب، وتقتل من مروءتها ونخوتها.

ثالثاً: من لم تقنعه الكلمات والخطب والحجج، فإقناعه يكون بالسيف!!

تعودت الشعوب على القهر والبطش والظلم من الولاة.

وعاش الناس و«تأقلموا» على الكراهية المتبادلة بين الحكام والمحكومين.

في ظل هذه الملابسات المخزية، والأوضاع المقلوبة، نستطيع أن نفهم لماذا يتم حصار إمارة ميافارقين، ويتعرض شعبها المسلم للموت أحياء، ولا يتحرك له حاكم ولا شعب من الإمارات الإسلامية المجاورة.

وإذا كنا نفهم الخزي والعار الذي كان عليه أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ، وأمراء السلاجقة (غرب تركيا) كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، فإن الخزي والعار الذي وصل إليه «الناصر يوسف الأيوبي» حاكم حلب ودمشق قد وصل إلى درجة يصعب فهمها..!!

فالرجل تربطه بالكامل محمد الأيوبي علاقات مهمة جداً.. ففوق علاقات الدين والعقيدة، وعلاقات الجوار، وعلاقات البعد الاستراتيجي المهم لإمارة حلب؛ إذ إن ميافارقين تقع شمال شرق حلب، ولو سقطت فسوف يكون الدور القادم على حلب مباشرة... فوق كل هذه الأمور فهناك علاقات الدم والرحم.. فكلا الأميرين من الأيوبيين، والعهد قريب بجدهما البطل الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، والذي لم يمر على وفاته سبعون سنة (توفى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في سنة٥٨٩ هجرية)، ووقفاته ضد أعداء الأمة لا تُنسى، فكيف يكون الحفيد الناصر يوسف على هذه الصورة المخزية؟

هذا سؤال صعب.. فليس هناك للناصر يوسف أية مبررات.. لا من ناحية الشرع، ولا من ناحية العقل.

لقد طلب الأمير الكامل محمد - رحمه الله - النجدة من الناصر يوسف الأيوبي، فرفض رفضاً قاطعاً.. لم يتردد.. ولم يفكر.. إنه قد باع كل شيء، واشترى ود التتار.. وما علم عندما فعل ذلك أن التتار لا عهد لهم ولا أمان.. وحتى لو صدق التتار في عهودهم أيبيع المسلمين للتتار ولو بكنوز الدنيا؟!

ثم إن الناصر يوسف لم يكتف بمنع المساعدة عن الكامل محمد، ولم يكتف بالمشاركة في حصار ميافارقين، بل أرسل رسالة إلى هولاكو مع ابنه العزيز، يطلب منه أن يساعده في الهجوم على «مصر»، والاستيلاء عليها من المماليك..!!

تخيلوا.. أنه في هذه الظروف يطلب الناصر يوسف من التتار الهجوم على مصر..!!

ولم ينس الناصر يوسف طبعاً أن يحمل ابنه العزيز بالهدايا الثمينة، والتحف النفيسة، إلى «صديقه» الجديد هولاكو.

ولكن سبحان الله!.. على نفسها جنت براقش..!!

فقد استكبر هولاكو أن يرسل له الناصر يوسف ابنه العزيز ولا يأتي بنفسه، فقد أتى الأمراء الآخرون بأنفسهم، واستكبر هولاكو أيضاً أن يطلب منه الناصر يوسف أن يعينه في الاستيلاء على مصر لضمها لحكم الناصر يوسف؛ وذلك لأن هولاكو بطبيعة الحال يريد للشام ومصر معًا أن يدخلا في حكمه هو، لا في حكم الناصر يوسف.. ومن هنا غضب هولاكو، وأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى الناصر يوسف.. كل هذا مع أن العزيز بن الناصر يوسف آثر أن يبقى في عسكر هولاكو ليهاجم معه المسلمين..!!

وطبعاً ليس هذا مستغرباً.. فهذا الشبل من ذاك الأسد..!!

ولنقرأ معًا رسالة هولاكو إلى الناصر يوسف حاكم حلب ودمشق.. وواضح - بالطبع - أن هناك بعض الأدباء المسلمين المحترفين كانوا في جيش هولاكو يصوغون له ما أراد من أمور في لغة عربية سليمة، وبأسلوب يناسب العصر الذي كتبت فيه.

قال هولاكو: «الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل:٣٤]، واستحضرنا خليفتها، وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم، واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت

نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره، وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال.

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وكم من فتى بات في نعمة فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين (أي ملك الملوك على وجه الأرض) تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[النجم:٣٩-٤١]، ولا تعوِّق رسلنا عندك كما عوَّقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى مصر (وقد حدث هذا بالفعل؛ إذ فر كثير من التجار من الشام عندما علموا بقرب قدوم التتار)، فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب ولي البسيطان الندى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء»

وانتهت الرسالة التترية المرعبة..!!

وسقط قلب الناصر يوسف في قدمه..!!

ماذا يفعل؟!

الناصر يوسف يعلن الجهاد!!

لقد وضحت نوايا هولاكو، فهو يطلب منه صراحة التسليم الكامل، ويخبره أنه سيتتبع من فر من تجاره وشعبه.. وذكره هولاكو بمصير الخليفة العباسي

البائس.. فهل يُسلم كل شيء لهولاكو؟ ماذا يبقى له بعد ذلك؟ إن حب الملك والسلطان يجري في دمه، ولو رفعه هولاكو من على كرسي الحكم فماذا يبقى له؟!

لذلك قرر الناصر يوسف أن يتخذ قراراً ما فكر فيه طيلة حياته.. لقد اضطر اضطراراً أن يتخذ قرار «الجهاد» ضد التتار..!!

ومع أن الجميع يعلم أن الناصر يوسف ليس من أهل الجهاد.. وليس عنده أي حمية للدين ولا للعقيدة ولا للمروءة، إلا أنه أعلن أنه سيجاهد التتار في سبيل الله..!!

كانت دعوة مضحكة جداً من رجل اعتاد أن يبيع كل شيء، وأي شيء، ليشتري ساعة أو ساعتين على كرسي الحكم!.

هذا ما حدث!!

ورفع الناصر يوسف راية بلاده، وكتب عليها «الله اكبر»، وبدأ يحمس شعبه على الجهاد في سبيل الكرسي..! أقصد: في سبيل الله!!

الناصر يوسف يعلن الجهاد!!

الناصر يوسف - الذي راسل لويس التاسع ملك فرنسا قبل ذلك ليساعده في حرب مصر على أن يعطيه بيت المقدس- يعلن الجهاد..!!

الناصر يوسف -الذي أيد دخول التتار إلى بغداد، وهنأ هولاكو على نصره العظيم- يعلن الجهاد..!!

الناصر يوسف - الذي تخلى عن الكامل محمد الأيوبي أمير ميافارقين ولم يمده حتى بالطعام- يعلن الجهاد !!

الناصر يوسف - الذي كان يطلب منذ أيام قلائل من هولاكو أن يساعده على غزو مصر- يعلن الجهاد..!!

الناصر يوسف - بكل هذا التاريخ الفاضح - يعلن الجهاد..!!

ياللمهزلة!!

يا إخواني: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

لقد كان الناصر يوسف يتاجر بعواطف شعبه.. لقد ظهر سوء خلقه، وفساد عقيدته، وانعدام رؤيته للناس أجمعين، فكان من الحماقة أن يعتقد بعض المسلمين أن الله -عز وجل- سينصر الإسلام على يده.

لقد استجاب بعض المتحمسين للناصر يوسف وجاءوا يقاتلون تحت رايته الجديدة، ولكن استقراء التاريخ والواقع يشير إلى أنه حتماً سيفر إذا جاء اللقاء.. لن يمكث الناصر يوسف في أرض المعركة إلا قليلاً.. بل قد يهرب قبل بدء القتال أصلاً.. وساعتها قد يصدم بعض المتحمسين للدين، ويشعرون بالإحباط الشديد، ولكن على هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم، فخطؤهم الأكبر لم يكن الإحباط بعد فرار الزعيم، إنما الخطأ الأكبر فعلاً هو اعتقاد أن الناصر يوسف أو أمثاله يستطيعون حمل راية الجهاد الثقيلة جداً!!

إذا سمعتم - يا إخواني - دعوة الجهاد فانظروا من ينادي بها.. فهذه العبادة هي ذروة سنام الإسلام.. ولا ينادي بها حقاً إلا أعاظم الرجال.

المهم أن الناصر يوسف أعلن دعوة الجهاد، وضرب معسكراً لجيشه في شمال دمشق عند قرية برزة، مع أنه كان من المفروض أن يتقدم بجيشه إلى حلب لحمايتها، فهي من أهم المدن في مملكته، ولاستقبال جيش هولاكو عند أولى محطات الشام، أو كان عليه أن يذهب بجيشه إلى ميافارقين ليضم قوته إلى قوة الكامل محمد فتزيد؛ فرص النصر، لكن هذا كله لم يكن في حساب الناصر يوسف، إنما ضرب معسكره في دمشق في عمق بلاد الشام حتى إذا جاءه هولاكو وجد لنفسه فرصة للهرب، فهو لا يريد تعريض حياته الغالية لأدنى خطر!.

ثم بدأ الناصر يوسف يراسل الأمراء من حوله لينضموا إليه لقتال التتار، فراسل أمير إمارة الكرك شرق البحر الميت (في الأردن حالياً) وكان اسمه «المغيث فتح الدين عمر»، ولم يكن مغيثاً إلا لنفسه، ولم يكن فتحاً للدين، ولم يكن شبيهاً بعمر.. إنما كان رجلاً على شاكلة الناصر يوسف، يحارب التتار تارة، ويطلب عونهم تارة أخرى بحسب الظروف والأحوال..!!

كما راسل الناصر يوسف أميراً آخر ما توقع أحد أن يراسله أبداً.. فلقد راسل أمير مصر يطلب معونته في حرب التتار..!!

سبحان الله!.. لقد كان منذ أيام عدواً لأمير مصر، وكان يطلب من التتار أن يعاونوه في حربه، وهو الآن عدو التتار، ويطلب من أمير مصر أن يساعده في حرب التتار!.

ليس هناك مبدأ.. ولا قاعدة.. ولا أصل.. إنما المصلحة الشخصية.. فقط.

ولنترك الناصر يوسف ومعسكره الجهادي، ولنذهب إلى هولاكو وقد عاد من قلعة «شها» إلى مدينة همدان حيث القيادة المركزية لإدارة شئون الحروب في منطقة الشرق الأوسط.

وبدأ هولاكو يعيد ترتيب أوراقه نتيجة التطورات الجديدة.. التي تتسارع في هذه المنطقة الملتهبة (منطقة الشرق الأوسط!):

أولاً: علاقة التتار بالنصارى تزداد قوة، وخاصةً بعد ظهور بعض النماذج الإسلامية المعارضة لوجود التتار، فهنا سيظهر احتياج التتار لقوة النصارى للمساعدة في إخماد الثورات من ناحية، ولنقل الخبرة من ناحية أخرى، ولإدارة الأمور في الشام بعد إسقاطها من ناحية ثالثة.. ومن هنا أغدق هولاكو الهدايا والمكافآت على هيثوم ملك أرمينيا، وكذلك على ملك الكرج، وعلى «بوهمند» أمير أنطاكية .

ثانياً: الحصار ما زال مضروباً حول ميافارقين، ويقود الحصار ابن هولاكو «أشموط»، ومع بسالة المقاومة وشجاعة الكامل محمد إلا أن الحصار شديد الإحكام، خاصة أن قوات الأرمن والكرج تشتركان فيه، ولا يحاول أي أمير مسلم أن يساعد في فكه.

ثالثاً: ظهر الموقف العدائي من الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق، وضرب معسكره شمال دمشق، وبدأ في إعداد الجيش لمقابلة التتار، لكن هذا الإعداد لم يقابَل بأي اهتمام من هولاكو، فهو يعرف إمكانيات الناصر ونفسيته، ولذلك كانت هذه مسألة تافهة نسبياً في نظر هولاكو.

رابعاً: منطقة العراق الأوسط ـ وأهم مدنها بغداد ـ قد أعلنت استسلامها بالكامل للتتار، وأصبحت آمنة تماماً، كذلك ظهر ولاء أمير الموصل التام للتتار، وبالتالي أصبح الشمال الشرقي من العراق أيضاً آمناً تماماً.

خامساً: أقوى المدن في الشام هما مدينتا حلب ودمشق.. ولو سقطت هاتان المدينتان فإن ذلك يعني سقوط الشام كلية، ومدينة حلب تقع في شمال دمشق على بعد ما يقرب من ثلاثمائة كيلومتر.

بعد استعراض هذه النقاط فإن هولاكو قرر أنه من المناسب أن يتوجه مباشرة لإسقاط إحدى هاتين المدينتين: حلب أو دمشق.. فبأي المدينتين بدأ هولاكو؟

لقد وجد هولاكو أنه لو أراد التوجه إلى حلب فإنه سوف يخترق الشمال العراقي أولاً، ثم يدخل سوريا من شمالها الشرقي مخترقاً بذلك شمال سوريا، موازيًا حدود تركيا.. حتى يصل إلى حلب في شمال سوريا الغربي.. وهذه المناطق وإن كانت كثيرة الأنهار ـ والأنهار تعتبر من العوائق الطبيعية الصعبة،

وخاصة في مناورات الجيوش الضخمة ـ إلا أن هـذه المنـاطق خضـراء، ووفـيرة الزرع، ووفيرة المياه، بالإضافة إلى أنها قريبة من ميافـارقين، فلـو احتـاج جـيش أشموط بن هولاكو لمدد من جيش التتار الرئيسي فإنه سيكون قريباً منه.

أما إذا أراد هولاكو أن يتوجه إلى دمشق أولاً فهذا ـ وإن كان سيمثل عنصر مفاجأة رهيبة للمسلمين في دمشق لأن هولاكو سيأتي من حيـث لا يتوقعـون ـ إلا أنه يتحتم على هولاكو لكي يفعل ذلـك أن يجتـاز صـحراء باديـة الشـام أو صحراء السماوة بكاملها ليصل إلى دمشق، وهذه صحراء قاحلة جـداً، والسـير فيها بجيش كبير يعتبر مخاطرة مروعة، ولا يستطيع هولاكـو أن يقـدم علـى هـذه الخطوة.. مع أنه لو فعلها لفاجأ جيش الناصر يوسف من حيث لا يتوقع، وقابل القوة الرئيسية للمسلمين في المنطقة.

وسبحان الله!.. قبل ذلك بأكثر من ستة قرون، وبإمكانيات أقل مـن ذلـك بكثير اجتاز خالد بن الوليد ﷺ هـذه الصـحراء الشاسـعة بجيشـه مـن العـراق، ليفاجئ جيوش الرومان بالقرب من دمشق، ونجح في ذلك نجاحـاً مبهـراً، لكـن شتان بين خالد الصحابي ﷺ، وهولاكو السفاح لعنه الله.

المهم.. باستقراء هذه الأمور جميعاً قرر هولاكو أن يتوجـه بجيشـه إلى حلـب أولاً، على أن يبقى ابنه أشموط محاصراً لميافارقين.

الطريق إلى «حلب»

وبدأ جيش التتار الجرّار في التحرك من قواعده في همدان في اتجـاه الغـرب، حيث اجتاز الجبال في غرب إيران، ثم دخل حدود العراق من شمالها الشـرقي، ثم اجتاز مدينة أربيل، ووصل إلى مدينة الموصل الموالـية لـه، فعـبر عنـدها نهـر دجلة، وهو العائق المائي الأول في هذه المنطقة، وهو عـائق خطـير فعـلاً، وكـان لابد من عبور هذا النهر في منطقة آمنة تماماً، وذلك لخطورة عبور الجيش الكبير،

ولم يكن هناك أفضل من هذه المنطقة الموالية تماماً له..!! ثم سار جيش التتار بحذاء نهر دجلة على شاطئه الغربي في أرض الجزيرة ليصل إلى مدينة «نصيبين» (في جنوب تركيا الآن)، وهي مدينة تقع جنوب ميافارقين بحوالي ١٧٠ كيلو مترًا فقط، وبذلك اقترب من جيش ابنه أشموط، إلا أنه لم يذهب إليه لاطمئنانه لقوته.

احتل هولاكو مدينة «نصيبين» دون مقاومة تذكر، ثم اتجه غرباً ليحتل مدن «حران»، ثم مدينة «الرها» ثم مدينة «إلبيرة»، وكل هذه المدن في جنوب تركيا، فكان على هولاكو أن يخترق كل هذه المدن التركية لينزل على مدينة «حلب» من شمالها، وبذلك يطمئن لعدم وجود أي جيوب إسلامية في ظهره.

وعند مدينة «إلبيرة» (انظر الخريطة رقم ١٤) عبر هولاكو نهر الفرات الكبير من شرقه إلى غربه، وبذلك عبر العائق المائي الثاني في المنطقة دون مشاكل تذكر، ثم اتجه جنوباً غرب نهر الفرات ليخترق بذلك الحدود التركية السورية متوجهاً إلى مدينة حلب الحصينة، والقريبة جداً من الحدود التركية (حوالي خمسين كيلو مترًا فقط).

استمرت هذه الاختراقات التترية للأراضي الفارسية ثم العراقية ثم التركية ثم السورية عامًا كاملاً.. وهو عام٦٥٧ هجرية.. ووصل هولاكو إلى حلب في المحرم من سنة ٦٥٨ هجرية، وأطبقت الجيوش التترية على المدينة المسلمة من كل الجهات، ولكن حلب رفضت التسليم لهولاكو، وتزعم المقاومة فيها توران شاه عم الناصر يوسف الأيوبي، ولكنه كان مجاهداً بحق وليس كابن أخيه، ونصبت المجانيق التترية حول مدينة حلب.. وبدأ القصف المتوالي من التتار على المدينة.. وبالطبع كان الناصر يوسف يربض بجيشه بعيداً على مسافة ثلاثمائة كيلومتر إلى الجنوب في دمشق..!!

سقوط «ميافارقين»!!

وفي هذه الأثناء حدث حادث أليم ومفجع، إذ سقطت مدينة ميافارقين تحت أقدام التتار بعد الحصار البشع الذي استمر عاماً ونصف عام!.

ثمانية عشر شهراً متصلة من النضال والكفاح والجهاد.. وذلك دون أن تتحرك نخوة قلب أمير من الأمراء، أو ملك من الملوك!.. ثمانية عشر شهراً والناصر والأشرف والمغيث وغيرهم من الأسماء الضخمة يراقبون الموقف ولا يتحركون!.

سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت حرماتها تماماً.. فقد جعلها أشموط بن هولاكو عبرة لكل بلد يقاوم في هذه المنطقة.. فقتل السفاح كل سكانها، وحرَّق ديارها، ودمرها تدميراً.. ولكنه احتفظ بالأمير الكامل محمد - رحمه الله- حياً ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب.

واستجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبي رحمه الله، فأمسك به وقيده، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه..!! وظل به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله - عز وجل- للروح المجاهدة أن تصعد إلى بارئها.

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يموت** ـ له عند الله خير ـ **يسره أن يرجع إلى الدنيا** ـ وأن له الدنيا وما فيها

ـإلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى ».

وقد يقول قائل: لقد قتل الكامل محمد الذي قاوم، كما قتل الخليفة المستعصم بالله الذي سلم ولم يقاوم!.. ولكن أقول لكم يا إخواني: شتان..!!

شتان بين من مات رافعاً رأسه، ومن يموت ذليلاً منكسراً مطأطئ الرأس.

شتان بين من مات وهو ممسك بسيفه، ومن مات وهو رافع يده بالتسليم.

شتان بين من مات بسهم في صدره وهو مقبل، ومن مات بسهم في ظهره وهو مدبر.

والكامل محمد - رحمه الله- مات في الميعاد الذي حدده رب العالمين.. إنه لم يتقدم لحظة، ولم يتأخر لحظة.. وكذلك مات المستعصم بالله في الميعاد الذي حدده رب العالمين.. لم يتقدم لحظة، ولم يتأخر لحظة.

والله يا إخواني:

لن يُطيل الجبن عمراً، ولن تُقصره الشجاعة.

احفظوا هذه الجملة جيداً!!

حقاً.. لن يُطيل الجبن عمراً، ولن تُقصره الشجاعة.

لكن أين اليقين؟!

استشهد البطل الأمير الكامل محمد الأيوبي، والذي كان بمثابة شمعة مضيئة في عالم من الظلام، وقطع السفاح هولاكو رأسه، وأمر أن يطاف برأسه في كل بلاد الشام، وذلك ليكون عبرة لكل المسلمين، وانتهى المطاف بالرأس بعد ذلك إلى دمشق، حيث عُلِّقَ فترةً على أحد أبواب دمشق، وهو باب الفراديس، ثم

انتهى به المقام أن دفن في أحد المساجد، والذي عُرِفَ بعد ذلك بمسجد الرأس.

ونسأل الله أن يكون من أهل الجنة.

سقوط «حلب»:

اشتد القصف التتري على حلب، وقد زادت حماسة التتار بقتل الكامل محمد وسقوط ميافارقين، وفي ذات الوقت خارت قوى المسلمين نتيجة الضرب المكثف، وهبوط المعنويات لمقتل الأمير البطل الكامل محمد.

واستمر الحصار التتري لمدينة حلب سبعة أيام فقط، ثم أعطى التتار الأمان لأهلها إذا فتحوا الأبواب دون مقاومة، ولكن زعيمهم توران شاه قال لهم: إن هذه خدعة، وإن التتار لا أمان لهم ولا عهد، ولكنهم كانوا قد أحبطوا من سقوط ميافارقين، وعدم مساعدة أميرهم الناصر يوسف لهم، وبقائه في دمشق، وتركه إياهم تحت حصار التتار لهم.. وهذا الإحباط قاد الشعب إلى الرغبة في التسليم.. واتجه عامتهم إلى فتح الأبواب أمام هولاكو، ولكن قائدهم توران شاه وبعض المجاهدين رفضوا، واعتصموا بالقلعة داخل المدينة.

وفتح الشعب الحلبي الأبواب للتتار بعد أن أخذوا الأمان، وانهمرت جيوش التتار داخل مدينة حلب، وما إن سيطروا على محاور المدينة حتى ظهرت النوايا الخبيثة، ووضح لشعب حلب ما كان واضحاً من قبل لمجاهدهم البطل توران شاه، ولكن للأسف كان هذا الإدراك متأخراً جداً!.. لقد أصدر هولاكو أمراً واضحاً بقتل المسلمين في حلب وترك النصارى..!! وهذه ولاشك خيانة متوقعة، والخطأ هو خطأ الشعب الذي بنى قصوراً من الرمال..! وهكذا بدأت المذابح البشعة في رجال ونساء وأطفال حلب، وتم تدمير المدينة تماماً، ثم خرب التتار أسوار المدينة لئلا تستطيع المقاومة بعد ذلك، ثم اتجه هولاكو لحصار القلعة التي في داخل حلب، وكان بها توران شاه وبعض المجاهدين، واشتد

القصف على القلعة، وانهمرت السهام من كل مكان، ولكنها صمدت وقاومت، واستمر الحال على ذلك أربعة أسابيع متصلة، إلى أن سقطت القلعة في النهاية في يد هولاكو، وكسرت الأبواب، وقتل هولاكو - كما هو متوقع ـ كل من في القلعة، ولكنه أبقى على حياة توران شاه ولم يقتله!.. وهنا يذكر بعض المؤرخين أن هولاكو قد فعل ذلك إعجاباً بشجاعة الشيخ الكبير توران شاه، وأن هذه فروسية ونبل من الفاتح هولاكو، ولكن هذه صفات لا تتناسق أبداً مع وصف هولاكو، وليس هولاكو بالذي يُعجب بمن يقاومه، وليس هو بالذي يتصف بنبل أو فروسية.. إنما الذي يتراءى لي أنه أبقى على حياته لأغراض أخرى خبيثة، فهذا العفو من ناحية هو عمل سياسي ماكر يريد به ألا يثير حفيظة الأيوبيين المنتشرين في كل بلاد الشام، وخاصة أنه قتل الكامل محمد الأيوبي منذ أيام، فإذا تتبع قوادهم بالقتل فهذا قد يؤدي إلى إثارتهم، ولا ننسى أيضاً أن كثيراً من الأيوبيين يحالفونه، ومنهم الأشرف الأيوبي أمير حمص، وهو لا يريد أن يقلب عليه الأوضاع في الشام.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يريد أن يفتح الباب للأمراء المسلمين أن يسلموا أنفسهم إليه دون مقاومة، فهولاكو - كما هو واضح - رجل وديع جداً، ولطيف جداً، ومسالم ونبيل جداً جداً، ويحافظ على القواد الذين يقاومونه، فما بالكم بمن دخل في حلفه..!! ثم من ناحية ثالثة فإننا لا ننسى أن توران شاه هو عم الناصر يوسف حاكم دمشق الخائن، والإمساك بتوران شاه دون قتله قد يكون وسيلة من وسائل المساومة المستقبلية مع الناصر يوسف، أو فتح الطريق أمامه للاعتذار، وبذلك قد يوفر هولاكو على نفسه حرباً من المحتمل أن يفقد فيها عدداً من جنوده.

أنا أعتقد أن أمثال هذه الدوافع ـ أو ما كان على شاكلتها ـ قد يناسب طبيعة هولاكو الدموية، أما أن يقال إن هولاكو تأثر بأخلاق وفروسية توران شاه فأصبح هو الآخر أخلاقياً وفارساً، فهذا ما لا يُتوقع من مثله أبداً!.

وهكذا استقر الوضع لهولاكو في حلب، وخمدت كل مقاومة، وهدمت كل الأسوار والقلاع.. ثم أراد هولاكو أن ينتقل إلى مكان آخر في الشام، فاستقدم الأشرف الأيوبي أمير حمص، وهو أحد الأمراء الخونة الذين تحالفوا مع التتار، وأظهر هولاكو للأشرف الأيوبي كرماً غير عادي..! فقد أعطاه إمارة مدينة حلب إلى جوار مدينة حمص، وذلك ليضمن ولاءه التام له، ولكي يتيقن الأشرف أن من مصلحته الشخصية أن يبقى السيد هولاكو محتلاً للبلاد، ولكنه بالطبع وضع عليه إشرافاً تترياً دقيقاً من بعض قادة الجند التتر، فأصبح الأمير الأشرف الأيوبي وكأنه الحاكم الإداري للمدينة، أي أصبح الأمير الأشرف الأيوبي «صورة» حاكم أمام الشعب، بينما كان هناك الحاكم العسكري التتري لحلب، والذي كان يعتبر في الواقع الحاكم الفعلي للبلد، وبيده بالطبع كل مقاليد السلطة والحكم والقوة!

ثم اتجه هولاكو غربًا بعد إسقاط حلب، إلى حصن «حارم» المسلم (على بعد حوالي خمسين كيلو مترًا من حلب)، وكانت به حامية مسلمة رفضت التسليم لهولاكو، فاقتحم عليها الحصن بعد عدة أيام من المقاومة، وذبح كل من فيها.

ثم أكمل طريقه غرباً بعد ذلك حتى وصل إلى إمارة أنطاكية، وهي إمارة حليفه النصراني الأمير «بوهمند»، فضرب هولاكو معسكره خارج المدينة، ثم دعا إلى عقد مؤتمر لبحث الأوضاع الراهنة في الشرق الأوسط الجديد (وذلك حسب الرؤية التترية)؛ فبدأ حلفاؤه في هذه المنطقة يتوافدون عليه ليقدموا له فروض الولاء والطاعة.. فجاء الملك الأرمني هيثوم، وجاء إليه أمير أنطاكية بوهمند، وجاء إليه كذلك أمراء السلاجقة المسلمون: كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، وكانت إمارتهما على مقربة من أنطاكية.

ثم بدأ هولاكو يصدر مجموعة من الأوامر والقرارات:

أولاً: يكافأ ملك أرمينيا هيثوم بمكافأة كبيرة من غنائم حلب، وذلك تقديراً لمساعدات الجيش الأرمني في إسقاط بغداد ثم ميافارقين ثم حلب.

ثانياً: على سلطانيْ السلاجقة: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع أن يعيدا بعض المدن والقلاع التي كان المسلمون قد فتحوها قبل ذلك إلى ملك أرمينيا، وذلك لتوسيع ملك الزعيم الأرمني، وتثبيت أقدامه في المنطقة كحليف استراتيجي أساسي لهولاكو.. ولم تكن - بالطبع - فرصة الاعتراض واردة عند السلطانين المسلمين!

ثالثاً: يكافأ «بوهمند» أمير أنطاكية على تأييده لهولاكو، وذلك بإعطاء مدينة اللاذقية المسلمة له، ليضمها بذلك إلى أملاك إمارة أنطاكية، وكانت اللاذقية قد حررت من الصليبيين أيام صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ثم ظلت مسلمة إلى هذه اللحظة، ولكنها أهديت بكلمة واحدة إلى النصارى..!! والقراران الثاني والثالث هما تطبيق للقاعدة الاستعمارية المجحفة وهي أن المحتل يعطي ما لا يملك لمن لا يستحق!!

رابعاً: وهذا القرار الرابع كان قراراً غريباً، وهو ليس في مصلحة أمير أنطاكية ولا في مصلحة الملك الأرمني، ولكن هذا القرار لإثبات أن كل شيء الآن أصبح بيد السيد الجديد هولاكو، وما هؤلاء الملوك إلا «صورة» حلفاء فقط.

وهذا القرار الغريب كان يقضي بأن يعين بطريرك جديد للكنيسة في أنطاكية المحكومة أصلاً بالنصارى!.. وليس في حلب مثلاً أو بغداد.. ولكن في أنطاكية ذاتها، ومن المعلوم أن هولاكو لم يكن نصرانياً، فالقرار يأتي من قِبل من لا يفقه

في النصرانية شيئاً، وفوق ذلك فالبطريرك الجديد ليس من أنطاكية..! بل أنكى من ذلك فالبطريرك الجديد ليس من نفس المذهب النصراني الذي عليه بوهمند وهيثوم..!! وهذه سابقة خطيرة في تاريخ النصارى.

صفعة على خد الكنيسة!!

لقد عين هولاكو البطريرك اليوناني «يومنيميوس» مكان البطريرك اللاتيني (الإيطالي)الذي قدم قبل ذلك من جنوة، ولا ننسى أن الإمارات الصليبية في الشام هي إمارات مملوكة لنصارى غرب أوروبا، وهم جميعاً على المذهب الكاثوليكي، بينما البطريرك اليوناني الجديد على المذهب الأرثوذكسي، وهو مذهب أوروبا الشرقية، وبالطبع فهناك فارق هائل بين المذهبين، بل هناك أيضًا صراع هائل بين المذهبين، فكانت هذه الخطوة من هولاكو خطوة محسوبة لها مراميها الخطيرة جداً، فهو أولاً يريد إذلال أمير أنطاكية وملك أرمينيا ليعلما أنهما مجرد تابعين له لا رأي لهما، ولا يرقى إلى أذهانهما أن يتعاملا مع هولاكو «كحلفاء» على نفس المستوى، وثانياً: هو لا يريد أن يكون هناك استقرار في هذه المناطق لكي لا يتوسع ملك أو أمير في المنطقة على غير رغبته، بل سيجعل كل فريق من حلفائه رقيباً على الآخر، وثالثاً: كان هولاكو يريد إقامة علاقات صداقة وجوار مع الإمبراطور اليوناني، وذلك ليضمن استقرار سلطانه على أرض الشام والأناضول، وهي الأرض المجاورة تماماً للإمبراطور اليوناني، فإذا انتهى من أمر الأناضول كله، فقد يفكر في إعادة ترتيب أوراقه من جديد.

وبالطبع كان في هذه الخطوة إهانة كبيرة لأمير أنطاكية، ولكنه كان واقعياً، وأدرك حجمه الطبيعي، وموقفه المهين، فلم يعترض، ولكن كبراء قومه ووزرائه اعترضوا عليه، لكن بوهمند أصر على الخضوع لهولاكو، ووضح لهم قدرهم الحقيقي، فهم يحكمون إمارة لا تُرى على خريطة الدنيا، بينما التتار دولة تصل

في ذلك الوقت من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، وقد اكتسحت في طريقها كل أملاك المسلمين، علماً بأن كل الحروب الصليبية السابقة ـ والتي قامت بها أوروبا ضد المسلمين على مدار عشرات السنين ـ لم تفلح إلا في احتلال بعض الإمارات الصغيرة المتفرقة في تركيا وسوريا وفلسطين ولبنان، ولم تكن الإمارة في الغالب سوى مدينة واحدة تحيط بها بعض القرى.

وهكذا استقر الوضع لهولاكو في شمال سوريا وجنوب تركيا، وبدأ يفكر في التوجه جنوباً لاحتلال مدينة «حماة» أولاً، ثم المرور بعد ذلك على مدينة «حمص»، وهي بلد الأمير الخائن الأشرف الأيوبي والموالي له، وذلك ليصل في النهاية إلى «المجاهد» الناصر يوسف الأيوبي وجيشه الرابض في شمال دمشق!.

تسليم «حماة»!

وبينما كان جيش التتار يستعد للتوجه إلى حماة، جاء إلى هولاكو وفد من أعيان حماة وكبرائها يقدمون له مفاتيح المدينة، ويسلمونها له دون قتال.. وذلك برغبتهم وإرادتهم الذاتية، ودون طلب من هولاكو..!! وقبل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان في هذه المرة أماناً حقيقياً، وذلك ليشجع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.

وتحرك هولاكو بجيشه الجرار في اتجاه الجنوب، ومر على حماة دون أن يدخلها، وكذلك مر على حمص بلد «صديقه» الأشرف الأيوبي ولم يدخلها كذلك، واتجه مباشرة إلى دمشق، وبينها وبين حمص ١٢٠ كيلومترًا فقط.

ولنترك هولاكو قليلاً، ونذهب لمتابعة الموقف في دمشق.

الناصر يوسف يعسكر الآن في جيشه خارج دمشق، والأخبار السيئة جاءت بسقوط حصون ميافارقين، وقتل الكامل محمد الأيوبي بالطريقة البشعة التي أشرنا إليها، ثم جاءت الأخبار أيضاً بسقوط مدينة حلب واستباحتها، ثم سقوط

حصن حارم، ثم تسليم حماة وحمص دون قتال.. والخطوة القادمة للتتار هي - ولا شك - دمشق..!!

ماذا يفعل الناصر يوسف الملك الجبان، وقد أعلن حرباً ليست له بها طاقة.. ليس لقوة التتار فقط، بل لضعفه هو في الأساس؟

لقد عقد الناصر يوسف مجلساً استشارياً مهماً يضم قادة جنده.

ماذا نفعل؟

بطل في مستنقع الأذلاء!!

كان المجلس يضم معظم أمراء الجيش، وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي، وكان يضم أيضاً الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وهو من أمراء المماليك البحرية الذين فروا قبل ذلك من مصر أثناء فتنة دارت بين المماليك هناك، واستقبله الناصر يوسف، وضمه إلى قواده لما له من الكفاءة العسكرية العالية جداً، والقدرات القيادية الهائلة.

بدأ الاجتماع، ولم يكن يخفى على الحضور مظاهر الرعب والهلع التي يعاني منها الناصر يوسف، والتي انتقلت منه بعد ذلك إلى معظم أمرائه.

وبدا واضحاً أيضاً أن الناصر يوسف لا يميل مطلقاً إلى الحرب، ولا يقوى على اللقاء، وكذلك أمراؤه، فبدأ معظم الحضور يتخاذلون، ويتحدثون عن الفجوة الهائلة بينهم وبين التتار، ثم انتقل الحديث إلى أمير الجيش الأمير زين الدين الحافظي فقام يعظم من شأن التتار، ويهون من شأن المسلمين، ويشير على الناصر يوسف ألا يقاتل.

هنا انتفض الأمير ركن الدين بيبرس، وكانت فيه حمية كبيرة للدين، وحماسة عالية للقضاء على التتار، ورغبة جارفة في المواجهة.. لكنه وجد نفسه في مجموعة من المتخاذلين والخونة.

صرخ الأمير ركن الدين بيبرس في وجه زين الدين الحافظي، ثم سبّه سبًّا عنيفاً، بل إنه لم يتمالك نفسه فقام وضربه، وقال له: أنت سبب هلاك المسلمين.

وطبعاً كلام «بيبرس» وإن كان موجهاً إلى زين الدين الحافظي إلا أن المقصود الأول من الكلام هو الناصر يوسف نفسه.. فهو من أهم أسباب هلاك المسلمين.. لكن بيبرس كان يخاطب مجموعة من الأموات.. والموتى لا يسمعون..! فما وقعت كلماته في قلب أحد.

﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

وهؤلاء موتى!.. وصُمٌّ!.. ومُدْبرون!. ومن ثَمَّ اتخذوا القرار المناسب في رأيهم. والقرار...... هو الفرار!!!..!!

الأمير الناصر يوسف سيفر، والأمراء سيفرون، والجيش سيفر، وستبقى مدينة دمشق وشعبها الكبير دون حماية ولا دفاع..!!

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يجد ركن الدين بيبرس حلاً مع هؤلاء فتوجه إلى غزة بفلسطين، وهناك راسل سلطان مصر ليذهب عنده على أمل التوحد في لقاء التتار.. وبالفعل استقبله سلطان مصر بحفاوة، وسنأتي لتفصيل ذلك مستقبلاً إن شاء الله.

وخلت دمشق من الأمراء والحراس.

ومدينة دمشق مدينة كبيرة وحصينة، وكان يتوقع لها الثبات فترة طويلة قبل أن تسقط، ولكن الأمراء من أمثال الناصر يوسف يأمرون بالمقاومة ويحضون عليها ما دامت بعيدة عن أرضهم، فإذا اقتربت جيوش العدو من مدينتهم كانت الخطة البديلة دائماً هي.. الفرار.

حدث ذلك في دمشق، ويحدث كثيراً إذا وجد أمثال هؤلاء الأمراء الأقزام.

تسليم «دمشق»!!

ووقع أهل دمشق في حيرة كبيرة.. ماذا يفعلون؟! جيوش التتار ستأتي إليهم في غضون أيام قليلة جداً.. والتتار لا يبقون على أخضر ولا يابس، وشعب دمشق لم يتدرب قبل ذلك على جهاد، وليست له دراية بفنون القتال، والجند المحترفون والأمراء القواد هربوا وتركوا مواقعهم.

لقد كان الموقف في غاية التردي.

وهنا اجتمع أعيان دمشق وكبراؤها، واتفقوا على أن يفعلوا مثلما فعل أهل «حماة»، فيأخذوا مفاتيح المدينة، ويسلموها إلى هولاكو، ثم يطلبوا الأمان منه، ولم يخالف هذا الرأي إلا قلة من المجاهدين قرروا التحصن في قلعة دمشق، والدفاع حتى النهاية.

وصدق ظن هولاكو عندما أعطى الأمان الحقيقي لأهل حماة، فإن ذلك دفع غيرهم من أهل المدن الكبرى أن يفعلوا مثلهم.

وخرج وفد من أعيان دمشق يستقبل جيش هولاكو، ويسلمه مفاتيح المدينة ومقاليد الحكم في دمشق.

موت «منكوخان»:

في هذه الأثناء حدث أمر لم يكن في حسبان هولاكو في هذا التوقيت.. لقد مات «منكوخان» زعيم دولة التتار، وجاءت الأخبار بذلك إلى هولاكو قبل أن يصل إلى دمشق، وبالطبع كانت هذه أزمة خطيرة، فمنكوخان يحكم دولة مهولة اتسعت في وقت قياسي، وحدوث أي اضطراب في الحكم قد يهدد هذه الدولة العظيمة بالتفكك، كما أن هولاكو - بلا شك- هو أحد المرشحين لحكم دولة التتار، فهو أخو منكوخان، وهو حفيد جنكيزخان، وله الانتصارات العظيمة الكثيرة، وله الفتوحات المبهرة.. ويكفيه فخرًا أنه أوَّل مَن أسقط الخلافة

الإسلامية في التاريخ.. فكانت كل هذه المؤهلات تجعل هولاكو من أوائل المرشحين لحكم دولة التتار بكاملها، بدلاً من حكم منطقة الشرق الأوسط فقط.

لذلك لما وصل خبر وفاة منكوخان، لم يتردد هولاكو في أن يترك جيشه، ويسرع بالعودة إلى قراقورم عاصمة التتار للمشاركة في عملية اختيار خليفة منكوخان، وترك هولاكو على رأس جيشه أكبر قواده وأعظمهم «كتبغا نوين»، وهو كما ذكرنا قبل ذلك من التتار النصارى.

وأسرع هولاكو بالعودة، حتى إذا وصل إلى إقليم فارس جاءته الرسل من قراقورم بأنه قد تم اختيار أخيه «قوبيلاي» خاقاناً جديداً للتتار، ومع أن الأمر كان صدمة كبيرة لأحلام هولاكو، وكان على خلاف توقعاته، بل وعلى خلاف قواعد الحكم التي وضعها جنكيزخان قبل ذلك، إلا أنه تقبل الأمر بهدوء، وآثر أن يمكث في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما وقد رأى الخيرات العظيمة في هذه المناطق، لكنه لم يرجع مرة أخرى إلى الشام، بل ذهب إلى تبريز (في إيران حالياً)، وجعلها مركزاً رئيسياً لإدارة كل هذه الأملاك الواسعة، وتبريز بالإضافة إلى حصانتها وجوها المعتدل، فإنها تتوسط المساحات الهائلة التي دخلت تحت حكم هولاكو حتى الآن، فهو يحكم بداية من أقاليم خوارزم والتي تضم كازاخستان وتركمنستان وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان، ومروراً بإقليم فارس وأذربيجان، وانتهاء بأرض العراق وتركيا والشام.. والذي شجعه أكثر على عدم الرجوع إلى الشام هو أن ما تبقى في بلاد الشام يعتبر جزءاً بسيطاً ضعيفاً ليس فيه مدن كبيرة، لاسيما أنه قد سمع قبل رجوعه بفرار جيش الناصر يوسف الأيوبي في اتجاه الجنوب إلى فلسطين تاركاً وراءه دمشق دون حماية.. غير أن هولاكو لم ينس أن يرسل رسالة هامة إلى «كتبغا» يؤكد له فيها على ضرورة الإمساك بهذا المتمرد الصعلوك «الناصر يوسف الأيوبي».

«دمشق» بعد السقوط..

ونعود إلى دمشق..

لقد وصل أعيان المدينة وهم يحملون مفاتيحها إلى جيش التتار، فاستقبلهم القائد الجديد كتبغا، وقبل منهم التسليم، وأعطاهم الأمان، وتقدم بجيشه لدخول المدينة العظيمة دمشق!.

ها هي «دمشق» عاصمة الخلافة الأموية تسقط كما سقطت من قبل «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية..!!

سقطت دمشق..! واحدة من أعظم مدن الإسلام قاطبة.. ومن أهم ثغور الجهاد.. ومن أرقى دور العلم.

ها هي الجيوش التترية تزحف على دمشق، وتنساب من أبوابها إلى داخلها دون أدنى مقاومة!!

أواه يا دمشق..!!

يا درّة الشام.. ويا قلب العالم الإسلامي..!!

أين أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم أجمعين، الذين فتحوا هذه المدينة الحصينة منذ أكثر من ستة قرون؟

أين معاوية بن أبي سفيان ﷺ الذي حكم الدنيا من هذا المكان؟

أين عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- الذي نشر العدل في الأرض من هذه المدينة؟

أين خلفاء بني أمية رحمهم الله الذين فتحوا البلاد الواسعة التي يسقطها التتار الآن؟

أين عماد الدين زنكي ونور الدين محمود - رحمهما الله- واللذان سطّرا

بجهادهما آيات من المجد والعزة والفخار؟

أين صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- الذي يرقد الآن في مدينة دمشق؟

ها قد مرت الأيام وشاهد المسلمون في دمشق أموراً ما خطر على الذهن أصلاً أن تحدث.

لقد شاهد المسلمون ثلاثة أمراء من النصارى يتبخترون بخيولهم في مقدمة جيوشهم، وهم يخترقون أبواب دمشق، ويسيحون في شوارع المدينة الإسلامية العظيمة.. لقد كان يتقدم جيوش التتار كتبغا نوين، قائد الجيش التتري، وبصحبته الملك هيثوم النصراني ملك أرمينيا، والأمير بوهمند النصراني أمير أنطاكية.. ودخلوا جميعاً المدينة المسلمة المجيدة.. وهذه أول مرة يدخل أمراء النصارى مدينة دمشق منذ أن تركها أمراء الجيوش الرومانية أيام هرقل قيصر الروم، وذلك عند الفتح الإسلامي لها في سنة ١٤هجرية.

ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

وأعطى التتار الأمان فعلاً لأهل دمشق فلم يقتلوا منهم أحداً، اللهم إلا أولئك الذين تحصنوا في قلعة دمشق، فقد حاصرهم التتار حتى أسقطوا القلعة بعد عدة أسابيع وقتلوا كل من فيها.

لقد سقطت دمشق في أواخر صفر سنة **٦٥٨** هجرية، وذلك بعد سنتين تماماً من سقوط بغداد.. وهذا زمن قياسي حققه التتار، إذ إنهم اجتاحوا مساحات كبيرة في هذه المناطق، وأسقطوا مدناً كثيرة في العراق وتركيا وسوريا (انظر الخريطة رقم ١٥).. نعم المدن الرئيسية الثلاث هي بغداد وحلب ودمشق، لكن المدن الأخرى أيضاً ليست بالمدن البسيطة.. كما أن الكثافة السكانية في هذه المناطق كانت عالية جداً، لخصوبتها من ناحية، ولقدمها وتاريخها من ناحية ثانية، ولارتفاع مستوى المعيشة والحضارة فيها من ناحية ثالثة.

وبالطبع هبطت معنويات العالم الإسلامي كله إلى الحضيض.. وأصبح معظم المسلمين يوقن باستحالة هزيمة التتار، كما أصبح معظمهم أيضاً يدرك أن اللحظات المتبقية في عمر الأمة الإسلامية أصبحت قليلة جداً.

وبدأ التتار في إدارة مدينة دمشق بواسطة النصارى.. وذلك بعد أن خربوا أسوارها وقلاعها.. ووضعوا على إدارة المدينة رجلاً تترياً اسمه «إبل سيان»، وهو - وإن لم يكن نصرانيًا -.إلا إنه كان معظماً جداً للنصارى، ومحابياً جداً لهم، وبدأت المدينة تعيش فترة عجيبة في تاريخها!.

وأنقل هنا نص كلام ابن كثير -رحمه الله- وهو يصف حال دمشق وقت أن تولى حكمها «إبل سيان» التتري.

يقول ابن كثير رحمه الله: «اجتمع إبل سيان -لعنه الله- بأساقفة النصارى وقساوستهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو (في تبريز) وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده ومعهم أمان من جهته، ودخلوا من باب توما (أحد أبواب دمشق) ومعهم صليب منصوب.. يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم ويقولون: «ظهر الدين الصحيح دين المسيح»، ويذمون دين الإسلام وأهله، ومعهم أوانٍ فيها خمر، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمراً، وقماقم ملآنة خمراً يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم، ووقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى، وذم دين الإسلام وأهله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم إنهم دخلوا الجامع بخمر، فلما وقع ذلك اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء، فدخلوا القلعة يشكون هذه الحال إلى إبل سيان زعيم التتار، فأهينوا وطردوا، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وهكذا كان الوضع ينذر بكارثة حقيقيـة.. فقـد وقـع المسـلمون بـين شـقي الرحى في دمشق.. بين التتار والنصارى.. وبات واضحاً للجميع أن التعاون بين الطائفتين التترية والنصرانية سيكون كبيراً، وخاصة أن رئيس المعسكر التتري في الشام نصراني وهو كتبغـا، والنصـارى الـذين يعيشـون في الشـام يعرفـون كـل خباياها، ويدركون كل إمكانياتهـا.. ولا شـك أن تعـاونهم مـع التتـار سـيكون ضربة موجعة للمسلمين.

احتلال فلسطين

ثم قرر كتبغا أن يحتل فلسطين، فأرسل فرقة من جيشه، فاحتلت نابلس، ثم احتلت غـزة، ولم تقـترب الجيـوش التتريـة مـن الإمـارات الصـليبية الأوروبيـة المنتشرة في فلسطين، كما لم يقتربوا مـن إمـارات الصـليبيين في سـوريا ولبنـان.. وبذلك قسمت فلسطين بين التتار والصليبيين.

ومع كون التعاون بين التتار والصـليبيين كـان واضـحاً إلا أن كتبغـا زعـيم التتار كان يسير علىٰ نهج هولاكـو، فهـو ـ وإن كـان نصـرانياً ـ إلا أنـه لم يكـن يسمح للنصارى ـ سواء من أهل الشام أو من أوروبا ـ أن يخرجوا عـن سـلطانه وعن حكمه وعن خططه.

فمن ذلك مثلاً ما حدث مـن «جوليـان» أمـير صـيدا ، والـتي كـان يحتلـها الصليبيون الأوروبيون، فإنه عندما شاهد الصراع بين التتار والمسـلمين، ظـن أن هذه فرصة لتوسيع أملاكه، فأغار على سهل البقاع الخصب واحتله، فأرسل لـه كتبغا من ينهاه عن ذلك، ولكنه لم يستجب، فرد كتبغا على ذلك بإرسال جـيش كثيف إليه لضرب صيدا وتدميرها، ودُمرت صيدا بالفعل، ولكن أفلت جوليـان عبر البحر، ثم كرر كتبغا نفس الأمر مع «يوحنـا الثـاني» أمـير بـيروت، وذلـك عندما أغار على منطقة الجليل.

وبذلك يتضح أن التتار كانوا يريدون الإمساك بكل خيوط اللعبة في أيديهم، وعلى من أراد التعاون أن يأتي تابعاً، لا صديقاً أو محالفاً.. وهو نظام القطب الواحد في الأرض، والذي لا يقبل بنشوء أي قوة إلى جواره.

ولا شك أن هذا التصرف من كتبغا، ومن قبله التصرف الذي كان ينتهجه هولاكو بفرض الهيمنة المغولية على النصارى حتى في اختيار البطريرك الديني لهم.. لا شك أن هذه الأعمال أوغرت صدور أمراء الممالك الصليبية في الشام، وخاصة أن أوضاعهم كانت مستقرة قبل قدوم التتار، لأنهم كانوا يطمئنون إلى ضعف المسلمين، كما أنهم كانوا يطمئنون إلى عهد المسلمين، فهم عادة لا يغدرون، بعكس التتار، وما ظهر من التتار من إذلال لأمير أنطاكية، ثم أمير صيدا، ثم أمير بيروت جعل أمراء الممالك الصليبية الأخرى على وجل من التتار، وبات معلوماً لهم على وجه اليقين أنه بمجرد أن تستقر الأوضاع للتتار في المنطقة، وترسخ أقدامهم فإنهم سيفعلون في نصارى الشام والممالك الصليبية مثلما فعلوا قبل ذلك في نصارى أوروبا الشرقية عند الاجتياح السابق لها في فترة ولاية أوكيتاي بن جنكيزخان.

لكن على كل حال ـ فبرغم هذا التوجس الشديد والقلق العميق ـ إلا أن أمراء الممالك الصليبية ظلوا يراقبون الموقف دون محاولة التدخل فيه.. ولم يكن أحد منهم يدري بأي شيء ستأتي الأيام القادمة.

وبهذا الاحتلال الأخير لفلسطين يكون التتار قد أسقطوا العراق بكامله، وأجزاء كبيرة من تركيا، وأسقطوا أيضاً سوريا بكاملها، وكذلك أسقطوا لبنان، ثم فلسطين..!! وقد حدث كل ذلك في عامين فقط..!!

ووصل التتار في فلسطين ـ كما ذكرنا ـ إلى غزة، وأصبحوا على مسافة تقل عن خمسة وثلاثين كيلومترًا فقط من سيناء، وبات معلوماً للجميع أن الخطوة

التالية المباشرة للتتار هي... احتلال مصر..!!

وهذا أمر لا يحتاج إلى كبير ذكاء..!! فالمتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين أن مصر ستكون هدفاً رئيسياً لهم، وذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: سياسة التتار التوسعية واضحة، وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

ثانياً: لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر، فقد سقطت كل الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً، وبقيت هذه المحطة الأخيرة.

ثالثاً: مصر ذات موقع استراتيجي في غاية الأهمية، فهي تتوسط العالم القديم، وخطوط التجارة عبر مصر لا تخفي على أحد.

رابعاً: مصر بوابة أفريقيا، ولو سقطت مصر لفتح التتار شمال أفريقيا بكامله، و شمال أفريقيا لم يكن يمثل أي قوة في ذلك الوقت، لأن وصول التتار إلى الشام كان متزامناً مع سقوط دولة الموحدين بالمغرب سقوطاً كاملاً، وتفكك الشمال الأفريقي المسلم إلى ممالك متعددة صغيرة، ولو سقطت مصر فلا شك أن كل هذه الممالك ستسقط بأقل مجهود.

خامساً: الكثافة السكانية الكبيرة في مصر، فقد كان سكانها يبلغون أضعاف سكان المناطق الإسلامية الأخرى.

سادساً: الحمية الدينية والصحوة الإسلامية عند أهل مصر عالية.. بل عالية جداً.. ويخشى التتار أنه لو تولى أحد الصالحين المجاهدين قيادة هذا البلد كثيف العدد، شديد الحمية، المحب للإسلام، والغيور على حرمات الدين، أن تتغير الأوضاع، وتتبدل الأحوال، ويهتز وضع

التتار في المنطقة بأسرها.

لهذه الأسباب ـ وقد يكون لغيرها أيضاً ـ كان التتار يعدون العدة للانتقال من فلسطين إلى مصر، ومع متابعة سرعة انتقال التتار من بلد إلى بلد، فإن المراقبين للأحداث لابد أن يدركوا أن تحرك التتار إلى مصر سيكون قريباً، بل قريباً جداً، حتى لا يعطي التتار الفرصة لمصر للتجهز للحرب الحتمية القادمة.

ولكن كيف كان الوضع في مصر عند احتلال التتار للشام وفلسطين؟

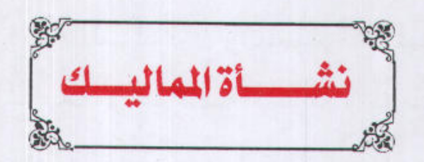
لقد كانت مصر في ذلك الوقت تعيش أزمات شديدة متلاحقة، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العسكرية أو من الناحية الاقتصادية، وذلك لعوامل عدة سنعرض لها مستقبلاً إن شاء الله.

لكن المهم هنا أن نذكر أن المماليك كانوا قد بدءوا فترة حكمهم لمصر، وكان السلطان المظفر قطز -رحمه الله- هو الذي يعتلي عرش مصر في هذه اللحظات.

وقبل الحديث عن تخطيط التتار للهجوم على مصر، ورد فعل الدولة المصرية، وقبل الحديث عن الحالة السياسية والعسكرية والاقتصادية لمصر، أود أن أشرح مقدمة ـ ولو بسيطة ـ عن نشأة المماليك، وكيف وصلوا إلى حكم مصر، وكيف تمكن قطز -رحمه الله- من قيادة هذا البلد الأمين، وكيف كانت كل الملابسات تشير بوضوح إلى أن صداماً حتميًا بين جيش التتار والجيش المصري بقيادة المماليك سوف يحدث.

كل هذا سيعطينا عمقاً تاريخياً نستطيع به أن نحلل الأحداث، ونستخرج الدروس والعبر، ونستنبط الأسباب التي أدت إلى النتائج التي سنراها.

ولننتقل معًا إلى المماليك!!



نشأة المماليك

تعتبر فترة حكم المماليك من الفترات التاريخية المجهولة عند كثير من المسلمين، بل عند كثير من مثقفي المسلمين، وذلك قد يكون راجعاً لعدة عوامل.. ولعل من أهم هذه العوامل أن الأمة الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد تفرقت تفرقاً كبيراً، حتى كثرت جداً الإمارات والدويلات، وصغر حجمها إلى الدرجة التي كانت فيها بعض الإمارات لا تتعدى مدينة واحدة فقط..!! وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية.

ومن العوامل التي أدت إلى جهل المسلمين بهذه الفترة أيضاً: كثرة الولاة والسلاطين في دولة المماليك ذاتها، ويكفي أن نشير إلى أن دولة المماليك الأولى ـ والمعروفة باسم دولة المماليك البحرية (وسنأتي إلى تعريف ذلك الاسم لاحقاً إن شاء الله) ـ حكمت حوالي ١٤٤ سنة، وفي خلال هذه الفترة حكم ٢٩ سلطانًا..! وذلك يعني أن متوسط حكم السلطان لم يكن يتعدى خمس سنوات.. وإن كان بعضهم قد حكم فترات طويلة، فإن الكثير منهم قد حكم عاماً أو عامين فقط..! أضف إلى ذلك كثرة الانقلابات والاضطرابات العسكرية في فترة حكم المماليك، فقد قتل من السلاطين التسعة والعشرين عشرة، وخُلع اثنا عشر..!! وهكذا كانت القوة والسلاح هي وسيلة التغيير الرئيسية للسلاطين، وسارت البلاد على القاعدة التي وضعها أحد سلاطين الدولة الأيوبية (قبل المماليك) وهو السلطان «العادل الأيوبي»، والتي تقول: «الحكم لمن غلب»..!!

ولعل من أهم أسباب عدم معرفة كثيرين بدولة المماليك هو تزوير التاريخ

الإسلامي، والذي تولى كبره المستشرقون وأتباعهم من المسلمين المفتونين بهم، والذين شوهوا تاريخ المماليك لإنجازاتهم المشرقة والمهمة؛ والتي كان منها: وقوفهم سداً منيعاً لصد قوتين عاتيتين من قوى الشر التي حاولت هدم صرح الإسلام، وهما التتار والصليبيون، وكان للمماليك جهاد مستمر ضد هاتين القوتين، وعلى مراحل مختلفة، وظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام في الأرض قرابة ثلاثة قرون، إلى أن تسلمت الخلافة العثمانية القوية راية المسلمين.

وأنا لست في هذا الكتاب بصدد الشرح والتفصيل لأخبار دولة المماليك، فإن هذا يطول البحث فيه، ولكني سأفرد -إن شاء الله- كتابين كاملين سأشرح فيهما بالتفصيل نشأة المماليك، وقصة دولتهم وجهادهم.

أما الكتاب الأول فسيكون عن الحروب الصليبية، وسأتحدث فيه - إن شاء الله- عن تاريخ الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، ودور آل زنكي، ثم الدولة الأيوبية، ثم نشأة المماليك، ودورهم في صد هذه الحملات الصليبية.

وأما الكتاب الثاني فسيكون عن دولة المماليك ذاتها من البداية إلى النهاية.

لكني في هذا الفصل سأحاول أن أمر باختصار شديد على الأحداث التي أدت إلى ظهور دولة المماليك، والتي كانت تحكم مصر في الوقت الذي وصل فيه التتار إلى الشام، وذلك خلال اجتياحهم للعالم الإسلامي.

الدولة الأيوبية

ولكي نفهم هذه الفترة بوضوح لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لمتابعة الأحداث من بدايتها.

لقد أسَّسَ البطل الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي دولة الأيوبيين في سنة ٥٦٩ هجرية، وظل يحكم هذه الدولة عشرين سنة إلى سنة ٥٨٩ هجرية،

ووحد في هذه الفترة مصر والشام، وتزعم الجهاد ضد الممالك الصليبية باقتدار، وحقق عليهم انتصارات هائلة، والتي من أشهرها موقعة حطين الخالدة في ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هجرية، وفتح بيت المقدس بعد حطين بثلاثة شهور فقط في رجب من السنة نفسها، وترك صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله- دولة قوية عظيمة تبسط سيطرتها على مصر والشام والحجاز واليمن وأعالي العراق وأجزاء من تركيا وأجزاء من ليبيا والنوبة.. وحُصر الصليبيون في ساحل ضيق على البحر الأبيض المتوسط في الشام (انظر الخريطة رقم ١٦).

لكن ـ سبحان الله ـ بوفاة صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- تقلص دور الجهاد ضد الصليبيين، وفُتن المسلمون بالدولة الكبيرة، وكثرت الأموال، وانفتحت الدنيا، واتسعت البلاد، وكان من جراء هذه العوامل وغيرها أن حدثت انقسامات شديدة في الدولة الأيوبية، وتفككت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

ولسنا بصدد التفصيل في هذه الخلافات والصراعات والاستقلالات، فسنفصل فيها -إن شاء الله- عند الحديث عن الحملات الصليبية في كتاب الحروب الصليبية، ولكن نذكر هنا أن الصراع بين أمراء الأيوبيين استمر نحو ستين سنة متصلة منذ موت صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هجرية، وإلى انتهاء الدولة الأيوبية في سنة ٦٤٨ هجرية، ولم يكن هذا الصراعُ صراعَ كلام وسباب وشقاق فقط.. بل كان يصل إلى حد التقاتل بالسيوف، وإراقة الدماء المسلمة، وأدى ذلك بالطبع إلى الفُرقة الشديدة، والتشرذم المقيت.. بل كان يصل أحياناً الخلاف وانعدام الرؤية إلى درجة التعاون مع الصليبيين ضد المسلمين!! أو التعاون مع التتار ضد المسلمين!! وكل هذا من جراء الوقوع تحت فتنة الدنيا الرهيبة التي طالما حذر منها رسول الله ﷺ.

روى ابن ماجة والطبراني وابن حبان بإسناد صحيح عن زيد بن ثابت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**. صدقت ـ والله ـ يا رسول الله.

لقد جعل صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- الجهاد نصب عينيه، وجعل له هدفاً واحداً هو قتال الصليبيين، وإعلاء كلمة الدين، فجمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا ـ فعلاً ـ وهي راغمة.

أما معظم السلاطين الذين جاءوا من بعده فقد جعلوا الدنيا أكبر همهم، فتفرق عليهم الأمر تماماً، فما عادوا يدركون الصواب من الخطأ، ولا الحق من الباطل، فتارة مع المسلمين، وتارة مع الصليبيين، وتارة مع التتار، فجعل الله - عز وجل- فقرهم بين أعينهم، فمنهم من مات ذليلاً، ومنهم من مات فقيراً، ومنهم من مات طريداً، ومنهم من مات حبيساً.

كان هذا هو واقع المسلمين في معظم الفترة التي تلت حكم البطل الكبير صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

الملك الصالح «نجم الدين أيوب»:

في هذه الصفحات سأقفز بكم خمسين سنة من الصراع، وأصل بكم إلى السنوات العشر الأخيرة من الدولة الأيوبية، وبالتحديد إلى سنة ٦٣٧ هجرية، وذلك حين تولى عرش مصر السلطان الأيوبي «الصالح نجم الدين أيوب» أو «الملك الصالح»، والذي يعد من أفضل السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين، وللأسف فإن كثيراً من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن هذا السلطان العظيم حتى في مصر، والتي كانت مقر حكمه الرئيسي.

تولى الملك الصالح أيوب حكم مصر سنة ٦٣٧ هجرية، وكالعادة الجارية

في تلك الأيام استعدّ الأمراء الأيوبيون في الشام للتقاتل معه على خلافة مصر.. وحدثت بينهم مناوشات وحروب، ووصل الأمر إلى مداه في سنة ٦٤١ هجرية عندما توحدت قوى الأيوبيين المتناثرة في الشام، وتحالفت مع الصليبيين لحرب الملك الصالح أيوب..!! وذلك في مقابل أن يتنازل أمراء الشام الأيوبيون عن بيت المقدس للصليبيين..!!

والحق أن المرء لا يستطيع أن يتخيل كيف قبل أولئك الأمراء أن يتنازلوا عن بيت المقدس للنصارى، والمسلم الصادق لا يتخيل التفريط في أي بقعة إسلامية مهما صغرت، فكيف ببيت المقدس خاصة، والذي به ـ كما يعرف الجميع ـ المسجد الأقصى، والذي حرَّرَهُ جدهم البطل صلاح الدين -رحمه الله- من أيدي الصليبيين، وأريقت في سبيل تحريره دماء كثيرة، ومرت على المسلمين فترات عصيبة، وحروب مريرة.. لكن - سبحان الله - هذا ما حدث بالفعل!.

وتوحدت قوى أمراء الشام الأيوبيين مع الصليبيين في جيش كبير، وبدأ الزحف في اتجاه مصر.. وهنا أعد الملك الصالح جيشه، ووضع على قيادته أكفأ قادته وهو ركن الدين بيبرس، واستعد للمواجهة.. وكان الجيش المصري قليلاً وضعيفاً إذا قورن بالأعداد الكبيرة لجيوش الشام والصليبيين، ولذلك استعان الملك الصالح بالجنود الخوارزمية الذين كانوا قد فروا من قبل من منطقة خوارزم بعد الاجتياح التتري لها، والذي فصلنا فيه في الصفحات السابقة.

وكان هؤلاء الجنود الخوارزمية جنوداً مرتزقة بمعنى الكلمة.. بمعنى أنهم يتعاونون مع من يدفع أكثر، ويعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال، فاستعان بهم الملك الصالح أيوب بالأجرة، ودارت موقعة كبيرة بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وعرفت هذه الموقعة باسم موقعة غزة، وكانت في سنة ٦٤٢ هجرية، وكانت هذه الموقعة قد وقعت بالقرب من مدينة غزة الفلسطينية ـ نسأل الله -عز وجل- أن يحررها، وأن يحرر

فلسطين كلها إن شاء الله ـ وانتصر فيها الملك الصالح انتصاراً باهراً، وقُتل من الصليبيين أعداد كبيرة وصلت إلى ثلاثين ألف مقاتل، وأسرت مجموعة كبيرة من أمرائهم وملوكهم، وكذلك أسرت مجموعة من أمراء الأيوبيين، واستغل الصالح أيوب الفرصة واتجه إلى بيت المقدس الذي كان الأيوبيون في الشام قد تنازلوا عنه للصليبيين، فاقتحم حصون الصليبيين، وحرّر المدينة المباركة بجيشه المدعم بالخوارزمية في سنة ٦٤٣ هجرية، وبذلك حُرّر بيت المقدس نهائياً، ولم يستطع جيش نصراني أن يدخله أبداً لمدة سبعة قرون كاملة، إلى أن دخلته الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٧ ميلادية، وذلك بالخيانة المعروفة لمصطفي كمال أتاتورك.. نسأل الله أن يعيد الأقصى من جديد إلى الإسلام والمسلمين.

ثم إن الملك الصالح أيوب أكمل طريقه في اتجاه الشمال، ودخل دمشق، ووحّد مصر والشام من جديد، بل اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر بالفعل طبرية وعسقلان وغيرهما.

غير أنه حدث تطور خطير جداً في جيش الصالح أيوب رحمه الله، حيث انشقت عن جيشه فرقة الخوارزمية المأجورة..! وذلك بعد أن استمالها أحد الأمراء الأيوبيين بالشام مقابل دفع مال أكثر من المال الذي يدفعه لهم الصالح أيوب، ولم تكتف هذه الفرقة بالخروج، بل حاربت الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه في هذه الحرب إلا جيشه الأساسي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه قائده المحنك ركن الدين بيبرس.

وخرج الصالح أيوب من هذه الحرب المؤسفة وقد أدرك أنه لابد أن يعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء لشخصه لا لماله.. فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية.. وكانت هذه الطائفة هي: «المماليك».

من هم المماليك؟

المماليك في اللغة العربية هم العبيد أو الرقيق، وبخاصة هم الذين سُبُوا ولم يُسب آباؤهم ولا أمهاتهم.. ومفرد المماليك مملوك، وهو العبد الذي يباع ويشترى.. (العبد الذي سُبِي أبواه يعرف بالعبد القن وليس المملوك).

ومع أن لفظ المماليك بهذا التعريف يعتبر عاماً على معظم الرقيق، إلا أنه اتخذ مدلولاً اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، وذلك منذ أيام الخليفة العباسي المشهور «المأمون»، والذي حكم من سنة ١٩٨ هجرية إلى ٢١٨ هجرية، وأخيه «المعتصم» الذي حكم من سنة ٢١٨ هجرية إلى ٢٢٧ هجرية.. ففي فترة حكم هذين الخليفتين استجلبا أعداداً ضخمة من الرقيق عن طريق الشراء من أسواق النخاسة، واستخدموهم كفرق عسكرية بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهما.

وبذلك ـ ومع مرور الوقت ـ أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسية ـ وأحياناً الوحيدة ـ في كثير من البلاد الإسلامية.. وكان أمراء الدولة الأيوبية بوجه خاص يعتمدون على المماليك الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في حروبهم، لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حد ما، إلى أن جاء الملك الصالح أيوب، وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه، فاضطر - رحمه الله- إلى الإكثار من المماليك، حتى يقوي جيشه ويعتمد عليهم، وبذلك تزايدت أعداد المماليك جداً، وخاصة في مصر.

مصادر المماليك

كان المصدر الرئيسي للمماليك إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق النخاسة.. ومن أكثر المناطق التي كان يجلب منها المماليك بلاد ما وراء النهر، (النهر المقصود هو نهر جيحون، وهو الذي يجري شمال تركمنستان

وأفغانستان، ويفصل بينهما وبين أوزبكستان وطاجكستان)، وكانت الأعراق التي تعيش خلف هذا النهر أعراق تركية في الأغلب، وكانت هذه المناطق مسرحاً دائماً للقتال وعدم الاستقرار، ولذلك كثر الأسرى القادمون من هذه المناطق، وكثرت أسواق الرقيق هناك، ومن أشهر مدن الرقيق في ذلك الوقت كانت «سمرقند» و«فرغانة» و«خوارزم» وغيرها.. لذلك كان الأصل التركي هو الغالب على المماليك، وإن كان لا يمنع أن هناك مماليك من أصول أرمينية، ومن أصول مغولية، كما كان هناك مماليك من أصول أوروبية، وكان هؤلاء الأوربيون يعرفون بالصقالبة، وكانوا يستقدمون من شرق أوروبا بوجه خاص.

كل هذا كان يحدث على مدار عشرات أو مئات السنين، ولكن الأمر الذي استحدثه الملك الصالح أيوب ـ وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك ـ أنه كان لا يأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان غالبهم من بلاد غير مسلمة، وإن كان يحدث أحياناً أن يؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يُعرفون، ولا يُعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون معاملة الرقيق.

تربية المماليك:

وكان الصالح أيوب ـ ومن تبعه من الأمراء ـ لا يتعاملون مع المماليك كرقيق.. بل على العكس من ذلك تماماً.. فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم.. ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته.. وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو المادة.. حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب «الأستاذ» وليس لقب «السيد».

ويشرح لنا المقريزي -رحمه الله- كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يُشترى وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: «إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلي من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويُهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب».

لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشأون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جدًا، وتتكون لديهم خلفية واسعة جداً عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جداً جداً عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي.. ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي رحمهم الله جميعاً، وظهرت أيضاً غيرهم أعداد هائلة من العلماء يصعب جداً حصرهم.

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جداً في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب.

ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة،

وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله - بلا شك - كان يثبت أقدام المماليك تماماً في أرض القتال.

وكل ما سبق يشير إلى دور من أعظم أدوار المربين والآباء والدعاة، وهو الاهتمام الدقيق بالنشء الصغير، فهو عادة ما يكون سهل التشكيل، ليس في عقله أفكار منحرفة، ولا عقائد فاسدة، كما أنه يتمتع بالحمية والقوة والنشاط، وكل ذلك يؤهله لتأدية الواجبات الصعبة والمهام الضخمة على أفضل ما يكون الأداء.

وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحياناً كان السلطان الصالح أيوب - رحمه الله - يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيراً ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حباً كبيراً حقيقياً، ويدينون له بالولاء التام.

وهكذا دائماً.. إذا كان القائد يخالط شعبه، ويشعر بهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم لألمهم، فإنهم - ولاشك - يحبونه ويعظمونه، ولا شك أيضاً أنهم يثقون به، وإذا أمرهم بجهاد استجابوا سريعاً، وإذا كلفهم أمراً تسابقوا لتنفيذه، وبذلوا أرواحهم لتحقيقه.. أما إذا كان القائد في حالة انفصال عن شعبه، وكان يعيش حياته المترفة بعيداً عن رعيته.. يتمتع بكل ملذات الحياة وهم في كدحهم يعانون ويتألمون، فإنهم لا يشعرون ناحيته بأي انتماء.. بل إنهم قد يفقدون الانتماء إلى أوطانهم نفسها.. ويصبح الإصلاح والبناء في هذه الحالة ضرباً من المستحيل.

وكان المملوك إذا أظهر نبوغاً عسكرياً ودينياً فإنه يترقى في المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح هو قائداً لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أعطي بعض

الإقطاعات في الدولة فيمتلكها، فتدر عليه أرباحاً وفيرة، وقد يُعطى إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة أمير، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق في الجيش وهكذا.

وكان المماليك في الاسم ينتسبون عادة إلى السيد الذي اشتراهم.. فالمماليك الذين اشتراهم الملك الصالح يعرفون بالصالحية، والذين اشتراهم الملك الكامل يعرفون بالكاملية وهكذا.

وقد زاد عدد المماليك الصالحية، وقوي نفوذهم وشأنهم في عهد الملك الصالح أيوب، حتى بنى لنفسه قصراً على النيل، وبنى للمماليك قلعة إلى جواره تماماً.. وكان القصر والقلعة في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، ولذلك اشتهرت تسمية المماليك الصالحية «بالمماليك البحرية» (لأنهم يسكنون بجوار البحر).

وهكذا وطد الملك الصالح أيوب ملكه بالاستعانة بالمماليك الذين وصلوا إلى أرقى المناصب في جيشه وفي دولته، وتولى قيادة الجيش في عهده أحد المماليك البارزين اسمه «فارس الدين أقطاي»، وكان الذي يليه في الدرجة هو «ركن الدين بيبرس»، فهما بذلك من المماليك البحرية.

حملة «لويس التاسع»:

وأقفز بكم بعض السنوات لأصل إلى سنة ٦٤٧ هجرية.. وفي هذه السنة كان الصالح أيوب قد مرض مرضاً شديداً، وكان مصاباً بمرض السل، وبالإضافة إلى كبر سنه فإن هذا جعله طريح الفراش في القاهرة، وفي هذه الأثناء وقبلها كان ملك فرنسا (لويس التاسع) يريد أن يستغل فرصة الاجتياح التتري لشرق العالم الإسلامي، فيقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام، وذكرنا من قبل أنه - أي: لويس - حاول الاستعانة بخاقان التتار آنذاك

وهو كيوك بن أوكيتاي، ولكن فشلت هذه المحاولة.. ومع ذلك فقد أصر لـويس على المضي في حملته.

ووقع اختياره على مدينة دمياط المصرية ليبدأ بها حملتـه لأنهـا كانـت أهـم ميناء في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في ذلك الزمن، وبذلك بـدأت الحملة التي تعرف في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة (انظر الخريطة رقم ١٧).

لن نـدخل في تفصـيلات هـذه الحملـة، وإن كـان بهـا تفصـيلات في غايـة الأهمية، ومواقع من أهم المواقع في تـاريخ المسـلمين، ولكـن لـيس المجـال هنـا لذكرها، إنما ستذكر بالتفصيل إن شاء الله في كتاب الحروب الصليبية.

نزل الملك لويس التاسع بجيشه إلى دمياط في يـوم ٢٠ صـفر سـنة **٦٤٧** هجريـة، وللأسف الشـديد ظنـت الحاميـة المدافعـة عـن المدينـة أن سـلطانهم المـريض الملـك الصالح أيوب قد مـات، فانسـحبوا انسـحاباً غـير مـبرر، ووقعـت دميـاط في أيـدي الصليبيين بسهولة، وهي المدينة التي دوخت قبل ذلك الحملة الصليبية الخامسة.

علم بذلك الملك الصالح - رحمه الله- فاشتد حزنه، وعاقب المسئولين عـن جريمة سقوط دمياط، وتوقَّع أن النصارى الصليبيين سيتجهون إلى القـاهرة عـبر النيل لغزو العاصمة المصرية نفسها، وبذلك يُسقطون الدولـة بكاملـها.. لـذلك فقد قرر بحكمته أن يرتب اللقاء في الطريق بين القاهرة ودمياط.. واختار لـذلك مدينة المنصورة لأنها تقع على النيل، وحتمًا سيستغل الصليبيون النيـل للإبحـار فيه بسفنهم الكثيرة.

وبالفعـل أمـر الملـك الصـالح - رحمـه الله- بـأن يحملـه النـاس إلى مدينـة المنصورة الواقعة على فرع النيل الذي يأتي من دميـاط، وذلـك لانتظـار جـيش الصليبيين بها، والاستعداد لمعركة فاصلة هناك.. وبالفعل حُمل الملك الصالح ـ رغم مرضه الشديد ـ إلى المنصـورة، وبـدأ فـارس الـدين أقطـاي وركـن الـدين

بيبرس يضعان الخطة المناسبة للقاء النصارى في المنصورة.

وفاة الملك الصالح:

وخرج النصارى من دمياط في ١٢ شعبان ٦٤٧ هجرية متجهين جنوباً عبر النيل صوب القاهرة، وكان من المؤكد أنهم سيمرون على المنصورة كما توقع الصالح أيوب.. ولكن سبحان الله في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هجرية توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، وهو في المنصورة يعد الخطة مع جيوشه لتحصين المدينة، فنسأل الله له المغفرة والرحمة وأجر الشهداء.. يقول «ابن تغري بردي» صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» والمتوفى سنة ٨٧٤ هجرية: «ولو لم يكن من محاسن السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد والذبّ عن المسلمين لكفاه ذلك»، ثم يقول: «ما كان أصبره وأغزر مروءته!».

وكانت مصيبة خطيرة جداً على المسلمين، لا لفقد الزعيم الصالح فقط، ولكن لفقدان البديل والخليفة له، وخاصة في ذلك التوقيت، والبلاد في أزمة شديدة، وميناء دمياط محتل، وجنود الصليبيين في الطريق.

وهنا تصرفت زوجة السلطان نجم الدين أيوب بحكمة بالغة.. وكانت زوجته هي «شجرة الدر»، وشجرة الدرّ كانت - فيما سبق- جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، ولذلك فهي في الأصل أقرب إلى المماليك.

ماذا فعلت شجرة الدرّ بعد وفاة السلطان الصالح أيوب؟

لقد كتمت شجرة الدرّ خبر وفاته، وقالت إن الأطباء منعوا زيارته، وأرسلت بسرعة إلى ابن الصالح أيوب، والذي كان يحكم مدينة تعرف «بحصن

كيفا» (في تركيا الآن)، وكان اسمه «توران شاه بن نجم الـدين أيـوب»، وأبلغتـه بخبر وفاة أبيه، وأن عليه أن يأتي بسرعة لتسلم مقاليد الحكم في مصـر والشـام، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح وكان اسمه «فخر الدين يوسـف» علـى إدارة الأمور إلى أن يأتي توران شاه، ثم كلفت فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركـة الفاصـلة في المنصـورة، وهكـذا سـارت الأمور بصورة طيبة بعد وفـاة الملـك الصـالح، ولم يحـدث الاضـطراب المتوقـع نتيجة هذه الوفاة المفاجئة، وفي هذه الظروف الصعبة.

ومع كل احتياطات شجرة الدرّ إلا أن خبر وفاة الملك الصالح أيوب تسـرب إلى الشعب، بل ووصل إلى الصليبيين، وهذا أدى إلى ارتفاع حماسة الصليبيين، وانخفـاض معنويات الجيش المصري، وإن ظل ثابتاً في منطقة المنصورة.

ووضع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس خطة بارعة لمقابلـة الجـيش الفرنسي في المنصورة، وعرضاها على شجرة الـدر، وكانـت شـجرة الـدرّ تمثـل الحاكم الفعلي لحين قدوم توران شاه ابن الصالح أيوب.. وأقرت شـجرة الـدرّ الخطة، وأخذ الجيش المصري مواقعه، واستعد للقاء.

موقعة المنصورة:

وفي اليـوم الرابـع مـن ذي القعـدة مـن سـنة ٦٤٧ هجريـة دارت موقعـة المنصورة العظيمة، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً، والموقعة فيها تفصيلات رائعة لكن ليس المجال لتفصيلها هنا.

ثم حدث هجوم آخر علـى جـيش الملـك لـويس التاسـع المعسـكر خـارج المنصورة، وذلك في اليوم السابع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هجرية، ولكن الملك لويس التاسع تمكن من صد ذلك الهجوم بعد كفاح مرير.

وصل توران شاه إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في السابع

عشر من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هجرية، وتسلم السلطان الشاب مقاليد الحكـم، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولايـة تـوران شـاه حكـم مصر والشام.. ثم بدأ توران شاه في التخطيط لهجـوم جديـد علـى الصـليبيين.. وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت، وبدأ بالانسحاب ناحيـة دميـاط، بينمـا ارتفعت معنويات الجيش المصري جداً للانتصـارات السـابقة، وخاصـة انتصـار المنصورة، ولوصول توران شاه في الوقت المناسب.

وبعد خطة بارعة وضعها توران شـاه بـن الصـالح أيـوب اسـتطاع الجـيش المصري أن يلتقي مرة أخرى مع الصليبيين، عنـد مدينـة «فارسـكور» في أوائـل المحرم سنة ٦٤٨ هجرية، بعد أقل مـن شـهرين مـن موقعـة المنصـورة الكـبيرة! ودارت هناك معركة هائلة تحطم فيها الجـيش الصـليبي تمامـاً، بـل وأسـر الملـك لويس التاسع نفسه، ووقع جيشه بكامله ما بين قتيل وأسير، وسيق الملك لويس مكـبلاً بـالأغلال إلى المنصـورة، حيـث حـبس في دار «فخـر الـدين إبـراهيم ابن لقمان».

ووضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه من الأسـر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الـذهب يـدفع نصـفها حالاً ونصفها مستقبلاً، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن يتم دفع بقية الفدية، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين، وتسـليم دميـاط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

لقد كان انتصاراً باهراً بكل المقاييس.

وتم بالفعل جمع نصف الفدية بصعوبة، وأطلق سراح الملـك لـويس التاسـع إلى عكا، وكانت إمارة صليبية في ذلك الوقت.. نسأل الله أن يحررها مـن دنـس اليهود الآن.

مقتل «توران شاه»:

ومع هذا الانتصار المبهر إلا أن توران شاه لم يكن الرجل الذي يناسب تلك الأحداث الساخنة التي تمر بالأمة.

لقد كان توران شاه شخصية عابثة..! فلقد اتصف هذا السلطان الشاب بسوء الخلق، والجهل بشئون السياسة والحكم، وأعماه الغرور الذي ركبه بعد النصر على لويس التاسع ملك فرنسا عن رؤية أفضال ومزايا من حوله، فقد بدأ من ناحية يتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر، واتهمها بإخفاء أموال أبيه، وطالبها بهذا المال، بل وهددها بشدة حتى دخلها منه خوف شديد، ولم يحفظ لها جميل حفظ الملك له بعد موت أبيه، وحفاظها على سير الأمور لحين قدومه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بدأ يتنكر لكبار أمراء المماليك، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، ولم يحفظ للمماليك جميل الانتصار الرائع الذي حققوه في موقعة المنصورة، فبدأ يقلل من شأنهم، ويقلص من مسئولياتهم، وبدأ على الجانب الآخر يعظم من شأن الرجال الذين جاءوا معه من حصن كيفا، وبدا واضحاً للجميع أنه سيقوم بعمليات تغيير واسعة النطاق في السلطة في مصر.

كل هذا في غضون الأشهر الثلاثة الأولى في مصر!.. وبعد موقعة فارسكور مباشرة.

وخافت شجرة الدرّ على نفسها، وأسرت بذلك إلى المماليك البحرية، وخاصةً فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، وكان المماليك البحرية يكنون لها كل الاحترام والولاء لكونها زوجة أستاذهم الملك الصالح رحمه الله، وكانت علاقة الأستاذية هذه من القوة بحيث تبقى آثارها حتى بعد موت الأستاذ.. ثم إن شجرة الدرّ قد وجدت الوساوس نفسها في نفوس المماليك البحرية في ذات

الوقت، ومن ثم اجتمع الرأي على سرعة التخلص من «توران شاه» قبل أن يتخلص هو منهم.. فقرروا قتله..!!

والحق أن المماليك بصفة عامة كان عندهم تساهل كبير في الدماء.. فكانوا يقتلون «بالشك!!».. فإذا شكُّوا في نوايا أحد أنه «ينوي» أن يغدر فإن ذلك يعتبر عندهم مبرراً كافياً للقتل، ولا أدري كيف كان هذا التساهل عاماً في حياة المماليك، فقد ظل هذا التساهل في الدماء في كل فترات دولة المماليك، وكم من أمرائهم، وكم من خصومهم، بل كم من عظمائهم قُتل بسبب الشك في نواياه، وقد يكون هذا راجعاً إلى التربية العسكرية الجافة التي نشأ عليها المماليك، فكانت فيهم قسوة نسبية وشدة، وعدم تمييع للأمور، فهم يحبون حسم كل أمورهم بالسيف الذي يحملونه منذ نعومة أظفارهم.. غير أن الذي لا يُفهم هو أن هؤلاء المماليك كانوا أيضاً يُنَشَّئون على التربية الدينية والفقهية.. ولا أدري أي سند فقهي يعضد قتل رجل ما، حتى ولو غلب على الظن أنه سيقوم بعزلك أو «احتمال» قتلك!

المهم أنه في هذا الزمن المليء بالمؤامرات والتدبيرات الخفية لم يكن يُستهجن جداً أمر هذا القتل، حتى لتجد أن القاتل قد يفخر أمام الناس بقتله لخصمه، بل قد يصعد وهو مرفوع الرأس إلى كرسي الحكم، ولا يشعر بأي تأنيب للضمير، وكأن الدماء التي تسيل ليس لها وزن عند الله -عز وجل-، ولا عند الناس.

وليس هذا دفاعاً عن «توران شاه» أو عن أي قتيل غيره، فقد يكون القتيل شخصية عابثة سيئة كريهة، ولكن العقوبات في الإسلام تأتي بمقاييس معينة وبمقادير خاصة.. وهذه المقاييس لم نحددها نحن، بل حددها رب السموات والأرض.. فالسارق ـ وإن كان مجرماً سيئاً كريهاً ـ إلا أنه لا يُقتل لمجرد السرقة بل تقطع يده، والزاني غير المحصن ـ وإن كان قد أتى بفعلة مشينة، وقام بعمل

شنيع ـ إلا أنه يُجلد ولا يُرجم وهكذا.

ولا أعتقد أن الوساوس التي كانت تدخل نفوس بعض المماليك من غيرهم كانت مبرراً شرعياً كافياً للقتل.. نعم قد تكون مبرراً شرعياً للعزل أو الاعتراض أو الحبس.. لكن الوصول إلى حد القتل أمر كبير جداً.

لقد رفض عمر بن الخطاب ﷺ أن يقتل عبدًا مجوسيًا غير مسلم مع عظم شكه في أن العبد سيقتله، فقد كان العبد المجوسي «أبو لؤلؤة» يعيش في المدينة، ويكره «عمر بن الخطاب» كراهية شديدة، وعمر ﷺ هو «أمير المؤمنين» آنذاك، وكان عمر يعلم منه هذه الكراهية، لكنه لم يفكر في قتله أو حبسه أو ظلمه بأي صورة من صور الظلم، لأن الأمر مجرد شك لم يرتكز على يقين.

بل روى «ابن سعد» رحمه الله في (الطبقات الكبرى) بسند صحيح أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لهذا المجوسي ذات يوم: ألم أحدث أنك تقول: «لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالرحى (وكان المجوسي صانعًا ماهرًا)، فالتفت إليه المجوسي عابسًا، وقال: «لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها»، وقد قال هذه الكلمات بلهجة جعلت عمر يُقبل على من معه، ويقول: توعدني العبد..!! أي أن «عمر» ﷺ شك شكًا كبيرًا أن هذا العبد يتوعده بالقتل، و«عمر» ﷺ ليس ككل المسلمين.. إن شكه يقترب من يقين الآخرين، فهو الملهم الذي كان القرآن ينزل موافقًا لرأيه في كثير من المسائل..

ومع ذلك فعمر ﷺ لم يعتمد شكه أبدًا في قتل ـ أو حتى حبس ـ «العبد المجوسي»، الذي ليس بمسلمٍ أصلاً، لكن تحريم الظلم، وإرساء العدل أصل من الأصول، لا فرق فيه بين المسلم وغير المسلم.

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ـ أي كراهيتهم ـ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨].

وسبحان الله..!! صدق ظن عمر ﷺ، ومرت الأيام، وقَتل العبد المجوسي

«عمر بن الخطاب ﷺ»، ولكن ذلك لم يغيّر من القاعدة الإسلامية شيئًا.. فلا يقتل أو يحبس، أو تقام عقوبة ما، ولو صغرت على رجل أو امرأة، أو حر أو عبد، أو غني أو فقير، إلا بدليل.. ودليل قوي ظاهر متفق على وضوحه.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[يونس:٣٦].

بل حدث مع «علي بن أبي طالب ﷺ» ما هو أعجب من موقف «عمر بن الخطاب ﷺ»، فعمر كان يشك في أبي لؤلؤة المجوسي، وكان هذا قبل أي محاولة للقتل.. أما «علي بن أبي طالب ﷺ» فلم يأمر بقتل الذي طعنه فعلاً ـ وهو «عبد الرحمن بن ملجم» ـ إلا حينما يتيقن المسلمون أن عليًا ﷺ قد مات، وهنا يُقتل القاتل بسبب قتله لعلي ﷺ، أما إذا لم يمت علي ﷺ فلا يقتل!...

قال «علي» بعد أن طعنه «عبد الرحمن بن ملجم»: «النفس بالنفس، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي».

ثم أوصى أولاده، وأقاربه قبل أن يموت فقال: «يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين، تقولون: «قُتل أمير المؤمنين، قُتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقتلن إلا قاتلي، انظر يا «حسن» إن أنا مت فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إياكم والمثلة، ولو أنها بالكلب العقور**».

هذا هو الإسلام، ومع كون بعض البشر تقبل نفوسهم أن يعذبوا غيرهم من الناس بجريمة أو بدون جريمة.. فإن الإسلام يحرم المثلة بالكلب العقور!!

ونعود إلى قصتنا.

اتفقت شجرة الدرّ مع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل «توران شاه»، وبالفعل تمت الجريمة في يوم ٢٧محرم سنة ٦٤٨ هجرية، أي بعد سبعين يوماً فقط من قدومه من حصن

كيفا واعتلائه عرش مصر..! وكأنه لم يقطع كل هذه المسافات لكي «يحكم» بل لكي «يُدفن»!!

وهكذا بمقتل «توران شاه» انتهى حكم الأيوبيين تماماً في مصر.. وبذلك أغلقت صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي.

دولة المماليك:

وحدث فراغ سياسي كبير جداً بقتل توران شاه، فليس هناك أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، ومن ناحية أخرى فإن الأيوبيين في الشام مازالوا يطمعون في مصر، وحتماً سيجهزون أنفسهم للقدوم إليها لضمها إلى الشام، ولا شك أنه قد داخل الأيوبيين في الشام حنق كبير على المماليك لأنهم تجرأوا وقتلوا أيوبياً.. ولا شك أيضاً أن المماليك كانوا يدركون أن الأيوبيين سيحرصون على الثأر منهم، كما أنهم كانوا يدركون أن قيمتهم في الجيش المصري كبيرة جداً، وأن القوة الفعلية في مصر ليست لأيوبي أو غيره، إنما هي لهم، وأنهم قد ظُلموا بعد موقعة المنصورة وفارسكور، لأنهم كانوا السبب في الانتصار ومع ذلك هُمّش دورهم.

كل هذا الخلفيات جعلت المماليك ـ ولأول مرة في تاريخ مصر ـ يفكرون في أن يمسكوا هم بمقاليد الأمور مباشرة..! وما دام «الحكم لمن غلب»، وهم القادرون على أن يغلبوا، فلماذا لا يكون الحكم لهم؟!.

لقد استُخدم المماليك في مصر من أيام الطولونيين، والذين حكموا من سنة ٢٥٤ هجرية إلى سنة ٢٩٢ هجرية، يعني قبل هذه الأحداث بحوالي أربعة قرون كاملة، وكذلك استُخدموا في أيام الدولة الأخشيدية من سنة ٣٢٣ هجرية إلى سنة ٣٥٨ هجرية، و استُخدموا أيضاً في أيام الفاطميين الشيعة الذين حكموا من سنة ٣٥٨ هجرية إلى زمان صلاح الدين الأيوبي، حيث انتهت خلافتهم في سنة ٥٦٧ هجرية (ما يزيد على قرنين كاملين)..

واستُخدِموا أيضًا وبكثرة في عهد الأيوبيين كما رأينا.

وفي كل هذه الفترات كان الجيش يعتمد تقريباً على المماليك، ومع ذلك لم يفكروا مطلقاً في حكم ولا سيادة، بل كانوا دائماً أعوان الملوك، وما كانت تخطر على أذهانهم فكرة الملك أبداً لكونهم من المماليك، الذين يباعون ويشترون، ولم تكن لهم عائلات معروفة ينتمون إليها، ولا شك أن هذا كان يشعرهم بالغربة في البلاد الجديدة التي يعيشون فيها، كما أن الخطر لم يكن يمسهم شخصياً؛ فهم تبع للسلطة الجديدة، ولا يُستهدفون لذواتهم، أما الآن فالمؤامرات تدبر لهم، والدائرة ستدور عليهم، والملوك ضعفاء، والقوة كلها بأيدي المماليك.. فلماذا لا يجربون حظهم في الحكم؟!

لكن صعود المماليك مباشرة إلى الحكم سيكون مستهجناً جداً في مصر، فالناس لا تنسى أن المماليك ـ في الأساس ـ عبيد، يباعون ويشترون، وشرط الحرية من الشروط الأساسية للحاكم المسلم.. وحتى لو أُعتقوا فإن تقبُّل الناس لهم (كحُكَّام) سيكون صعبًا.. وحتى لو كثرت في أيديهم الأموال، وتعددت الكفاءات، وحكموا الأقاليم والإقطاعات، فهم في النهاية مماليك.. وصعودهم إلى الحكم يحتاج إلى حجة مقنعة للشعب الذي لم يألفهم في كراسي السلاطين.

كل هذا دفع المماليك البحرية الصالحية إلى أن يرغبوا بعد مقتل توران شاه في «فترة انتقالية» تمهد الطريق لحكم المماليك الأقوياء، وفي ذات الوقت لا تقلب عليهم الدنيا في مصر أو في العالم الإسلامي.

كانت هذه هي حسابات المماليك الصالحية البحرية.

فماذا كانت حسابات شجرة الدر؟!.

شجرة الدرّ امرأة ذات طابع خاص جداً.. لا تتكرر كثيراً في التاريخ.. فهي امرأة قوية جداً.. شجاعة.. جريئة.. لها عقل مدبر، وتتمتع بحكمة شديدة.. كما

أن لها القدرة على القيادة والإدارة.. وكانت شجرة الدرّ ترى في نفسها كل هذه القدرات.. وكانت شديدة الإعجاب بإمكانياتها وبنفسها (وكان هذا من أكبر مشاكلها).. مما دفعها إلى تفكير جديد تماماً على الفكر الإسلامي، وخاصة في هذه الفترة من تاريخ الأمة.

لقد فكرت شجرة الدر في الصعود إلى كرسي الحكم في مصر..!! وهذا أمر هائل فعلاً، وهذه سباحة عنيفة جداً ضد التيار.. لكنها وجدت في نفسها الملكات التي تسمح بتطبيق هذه الفكرة الجريئة!.. فقالت لنفسها: لقد حكمت البلاد سرًا أيام معركة المنصورة، فلماذا لا أحكمها جهرًا الآن؟

في ذات الوقت وجد المماليك البحرية في شجرة الدرّ الفترة الانتقالية التي يريدون.. إنها زوجة «الأستاذ».. زوجة الملك الصالح أيوب الذي يكنّون له (ويكنُّ له الشعب كله) كامل الوفاء والاحترام والحب، وهي في الوقت نفسه تعتبر من المماليك لأن أصلها جارية وأعتقت، كما أنها في النهاية امرأة، ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، وأن يوفروا الأمان لأرواحهم.

وبذلك توافقت رغبات المماليك مع رغبة شجرة الدر.. وقرروا جميعاً إعلان شجرة الدرّ حاكمة لمصر بعد مقتل توران شاه بأيام، وذلك في أوائل صفر سنة ٦٤٨ هجرية!.

وقامت الدنيا ولم تقعد..!!

تفجرت ثورات الغضب في كل مكان.. وعمّ الرفض هذه الفكرة في أطراف العالم الإسلامي.. وحاولت شجرة الدرّ أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها، فنسبت نفسها إلى زوجها المحبوب عند الشعب الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقالت عن نفسها إنها ملكة المسلمين الصالحية.. ثم وجدت أن ذلك غير كافٍ فنسبت نفسها إلى ابنها الصغير ابن الصالح أيوب، والمعروف باسم «الخليل»،

فلقبت نفسها «ملكة المسلمين الصالحية والدة السلطان خليل أمير المؤمنين»، ثم وجدت ذلك أيضاً غير كاف فأضافت نفسها إلى الخليفة العباسي الذي كان يحكم بغداد في ذلك الوقت وهو «المستعصم بالله»، والذي سقطت في عهده بغداد في يد التتار، كما فصلنا قبل ذلك، فقالت شجرة الدرّ عن نفسها: «ملكة المسلمين المستعصمية (نسبة إلى المستعصم) الصالحية (نسبة إلى الصالح أيوب) والدة السلطان خليل أمير المؤمنين»..!!

ومع كل هذه المحاولات للتزلف إلى العامة وإلى العلماء ليقبلوا الفكرة إلا أن الغضب لم يتوقف، وظهر على جميع المستويات.. وخاصةً أن البلاد في أزمة خطيرة، والوضع حرج للغاية؛ فالحملات الصليبية الشرسة لا تتوقف، والإمارات الصليبية منتشرة في فلسطين، وهي قريبة جداً من مصر، وأمراء الشام الأيوبيون يطمعون في مصر، والصراع كان محتدماً بينهم وبين السلطان الراحل نجم الدين أيوب، كما أن التتار يجتاحون الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها، وأنهار دماء المسلمين لا تتوقف، والتتار الآن يطرقون باب الخلافة العباسية بعنف.. ومصر في هذا الوقت الحرج على فوهة بركان خطير.. ولا يدري أحد متى ينفجر البركان..!!

وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها، وشرع المتظاهرون في الخروج بمظاهراتهم إلى خارج حدود المدينة، مما اضطر السلطات الحكومية إلى غلق أبواب القاهرة لمنع انتشار المظاهرات إلى المناطق الريفية.

وقام العلماء والخطباء ينددون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم، وفي المحافل العامة والخاصة، وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل «العز بن عبد السلام» رحمه الله، أبرز العلماء في ذلك الوقت.

كما أظهر الأمراء الأيوبيون في الشام حنقهم الشديد، واعتراضهم المغلظ

على صعود النساء إلى كرسي الحكم في مصر.

وجاء رد الخليفة العباسي «المستعصم بالله» قاسياً جداً، وشديداً جداً، بل وساخراً جداً من الشعب المصري كله، فقد قال في رسالته: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا، حتى نسير إليكم رجلاً!».

وهكذا لم تتوقف الاعتراضات على الملكة الجديدة.. ولم تنعم بيوم واحد فيه راحة، وخافت الملكة الطموحة على نفسها، وخاصة في هذه الأيام التي يكون فيها التغيير عادة بالسيف والذبح لا بالخلع والإبعاد.. ومن هنا قررت الملكة شجرة الدرّ بسرعة أن تتنازل عن الحكم.... لرجل..!! أي رجل..!!

لكن لمن تتنازل؟!

إنها مازالت ترغب في الحكم، وتتشوق إليه، وما زالت تعتقد في إمكانياتها العقلية والإدارية والقيادية.. وهي إمكانيات هائلة فعلاً.. فماذا تفعل؟!

لقد قررت الملكة شجرة الدرّ أن تمسك العصا - كما يقولون - من منتصفها، فتحكم باطناً وتتنحى ظاهراً، ففكرت في لعبة سياسية خطيرة وهي أن تتزوج من أحد الرجال.. ثم تتنازل له عن الحكم ليكون هو في الصورة.. ثم تحكم هي البلاد بعد ذلك من خلاله.. أو من «خلف الستار» كما يحدث كثيراً في أوساط السياسة، فكم من الحكام ليس لهم من الحكم إلا الاسم، وكم من السلاطين ليس لهم من السلطة نصيب، وما أكثر الرجال الذين سيقبلون بهذا الوضع في نظير أن يبقى أطول فترة ممكنة في الكرسي الوثير: كرسي الحكم..!!

ولهذا فشجرة الدرّ لا تبغي الزواج لذات الزواج، ولاتريد رجلاً حقيقة، إنما تريد فقط «صورة رجل».. لأن هذا الرجل لو كان قوياً لحكم هو، ولأمسك بمقاليد الأمور في البلاد وحده.. ولذلك أيضاً يجب أن لا يكون هذا الرجل من عائلة قوية أصيلة، وذلك حتى لا تؤثر عليه عائلته، فيخرج الحكم من يد الملكة

شجرة الدر.. وحبذا لو كان هذا المختار سعيد الحظ من المماليك، وذلك حتى تضمن ولاء المماليك، وهذا أمر في غاية الأهمية، فلو كان هذا الرجل هو السند الشرعي للحكم، فالمماليك هم السند الفعلي والعسكري والواقعي للحكم.

عز الدين أيبك:

وضعت شجرة الدرّ كل هذه الأمور في ذهنها، ومن ثم اختارت رجلاً من المماليك اشتهر بينهم بالعزوف عن الصراع، والبعد عن الخلافات، والهدوء النسبي، وكلها صفات حميدة في نظر شجرة الدر، فوجدت في هذا الرجل ضالتها.. وكان هذا الرجل هو «عزّ الدين أيبك التركماني الصالحي».. وهو من المماليك الصالحية البحرية.. أي من مماليك زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب.. ولم تختر شجرة الدرّ رجلاً من المماليك الأقوياء أمثال فارس الدين أقطاي أو ركن الدين بيبرس، وذلك لتتمكن من الحكم بلا منازع.

وبالفعل تزوجت شجرة الدرّ من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم كما رسمت، وذلك بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً فقط، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها.. سنة ٦٤٨ هجرية.. وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك.. وهم الملك الصالح أيوب -رحمه الله- ثم مات، فتولى توران شاه ابنه ثم قتل، فتولت شجرة الدرّ ثم تنازلت، فتولى عزّ الدين أيبك التركماني الصالحي!.

وتلقب عزّ الدين أيبك «بالملك المعز»، وأخذت له البيعة في مصر.

وكأن الله سبحانه - بهذه الأحداث - أراد أن يمهّد عقول المصريين لقبول فكرة صعود المماليك إلى كرسي الحكم.

وقبل الشعب في مصر بالوضع الجديد.. فهو ـ وإن لم يكن مثالياً في رأيهم ـ إلا أنه أفضل حالاً من تولي امرأة، كما أن البديل من الأيوبيين في مصر غير

موجود، والبديل من الأيوبيين في الشام غير موجود أيضاً؛ فأمراء الأيوبيين في الشام كانوا في غاية الضعف والسوء والعمالة والخيانة.. وقد مرّ بنا قبل ذلك تخاذلهم وتعاونهم مع التتار، وكذلك تخاذلهم وتعاونهم مع الصليبيين.

واستقر الوضع نسبياً في مصر بزعامة عزّ الدين أيبك، والذي يعتبر أول حاكم مملوكي في مصر، وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن شجرة الدرّ هي أول المماليك في حكم مصر لأنها أصلاً مملوكة أو جارية.

وبدأت شجرة الدرّ تحكم من وراء الستار ـ كما أرادت ـ، وهي مؤيدة بالمماليك القوية، وخاصة ـ كما ذكرنا ـ فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس.

ولكن يبدو أن ذكاء شجرة الدرّ قد خانها عند اختيار ذلك الرجل؛ فالملك المعز عزّ الدين أيبك لم يكن بالضعف الذي تخيلته شجرة الدرّ، ولا المماليك البحرية، فقد أدرك الملك الجديد من أول لحظة مرامي الملكة المتنازلة عن العرش، وعرف خطورة إخوانه من المماليك البحرية في مصر وقوتهم، فبدأ يرتب أوراقه من جديد، ولكن في حذر شديد.

كان الملك المعز عزّ الدين أيبك من الذكاء بحيث إنه لم يصطدم بشجرة الدرّ، ولا بزعماء المماليك البحرية في أول أمره.. بل بدأ يقوي من شأنه، ويعد عدته تدريجياً، فبدأ يشتري المماليك الخاصة به، ويعد قوة مملوكية عسكرية تدين له هو شخصياً بالولاء، وانتقى من مماليك مصر من يصلح لهذه المهمة، وكوّن ما يعرف في التاريخ «بالمماليك المعزية» نسبة إليه (المعز عز الدين أيبك)، ووضع على رأس هذه المجموعة أبرز رجاله، وأقوى فرسانه، وأعظم أمرائه مطلقاً وهو «سيف الدين قطز» رحمه الله.

وكان هذا هو أول ظهور تاريخي للبطل الإسلامي الشهير: سيف الدين قطز، فكان يشغل مركز قائد مجموعة المماليك الخاصة بالملك المعز عز الدين

أيبك.. وسيأتي إن -شاء الله- حديث قريب عن قطز - رحمه الله- وعن أصله.

ومع أن الملك المعز عزّ الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية إلا أنه بدأ يحدث بينه وبينهم نفور شديد.. أما هو فيعلم مدى قوتهم وارتباطهم بكلمة زوجته شجرة الدرّ التي لا تريد أن تعامله كملك بل «كصورة ملك».. وأما هم فلا شك أن عوامل شتى من الغيرة والحسد كانت تغلي في قلوبهم على هذا المملوك صاحب الكفاءات المحدودة - في نظرهم- الذي يجلس الآن على عرش مصر، ويُلقب بالملك.. أما هم فيلقبون بالمماليك.. وشتان..!!

لكن الملك الذكي المعز عزّ الدين أيبك لم يُستفز مبكراً.. بل ظل هادئاً يعد عدته في رزانة، ويكثر من مماليكه في صمت.

ومرت الأيام، وحدث أن تجمعت قوى الأمراء الأيوبيين الشاميين لغزو مصر، وذلك لاسترداد حكم الأيوبيين بها.. وكانت الشام قد خرجت من حكم ملك مصر بعد وفاة توران شاه مباشرة.. والتقى معهم الملك المعز عزّ الدين أيبك بنفسه في موقعة فاصلة عند منطقة تسمى «العباسية»، وهي تقع على بعد حوالي عشرين كيلومترًا شرقي الزقازيق الآن، وذلك في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨ هجرية، أي بعد أربعة شهور فقط من حكمه، وانتصر الملك المعز عزّ الدين أيبك على خصومه انتصاراً كبيراً، ولا شك أن هذا الانتصار رفع أسهمه عند الشعب المصري، وثبت من أقدامه على العرش.

وفي سنة ٦٥١ هجرية (بعد ٣ سنوات من حكم أيبك) حدث خلاف جديد بين أمراء الشام والملك المعز عز الدين أيبك، ولكن قبل أن تحدث الحرب تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله ـ وهذه نقطة تحسب له ـ للإصلاح بين الطرفين، وكان من جراء هذا الصلح أن دخلت فلسطين بكاملها حتى الجليل شمالاً تحت حكم مصر، فكانت هذه إضافة لقوة الملك المعز عز الدين أيبك، ثم حدث

تطور خطير لصالحه، وهو اعتراف الخليفة العباسي بزعامة الملك المعز عزّ الدين أيبك على مصر، والخليفة العباسي ـ وإن كان ضعيفاً، وليست له سلطة فعلية ـ إلا أن اعترافه يعطي للملك المعز صبغة شرعية مهمة.

بين «أيبك» و «أقطاي»:

كل هذه الأحداث مكنت الملك المعز عزّ الدين أيبك من التحكم في مقاليد الأمور في مصر، ومن ثم زاد نفور زعماء المماليك البحرية منه، وبخاصةٍ فارس الدين أقطاي الذي كان يبادله كراهية معلنة، لا يخفيها بل يتعمد إبرازها.. فكما يقول «المقريزي» في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»: «لقد بالغ فارس الدين أقطاي في احتقار أيبك، والاستهانة به، بحيث كان يناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب»، وهذا يعكس اعتقاد فارس الدين أقطاي أن هذا الملك صورة لا قيمة لها، وتخيل قائد الجيش ينادي الملك هكذا: يا أيبك.. ولا يناديه هكذا صداقة بل احتقاراً.

هذه المعاملة من أقطاي، وإحساس أيبك من داخله أن المماليك البحرية ـ وقد يكون الشعب ـ ينظرون إليه على أنه مجرد «زوج» للملكة المتحكمة في الدولة.. هذا جعله يفكر جدياً في التخلص من أقطاي ليضمن الأمان لنفسه، وليثبت قوته للجميع.. وهكذا لا يحب الملوك عادة أن يبرز إلى جوارهم زعيم يعتقد الشعب في قوته أو حكمته.

انتظر أيبك الفرصة المناسبة، إلى أن علم أن أقطاي يتجهز للزواج من إحدى الأميرات الأيوبيات، فأدرك أن أقطاي يحاول أن يضفي على نفسه صورة جميلة أمام الشعب، وأن يجعل له انتماءً واضحاً للأسرة الأيوبية التي حكمت مصر قرابة ثمانين سنة، وإذا كانت شجرة الدرّ حكمت مصر لكونها زوجة الصالح أيوب، فلماذا لا يحكم أقطاي مصر لكونه زوجاً لأميرة أيوبية، فضلاً عن قوته وبأسه وتاريخه وقيادته للجيش في موقعة المنصورة الفاصلة؟!.

هنا شعر الملك المعز عزّ الدين أيبك بالخطر الشديد، وأن هذه بوادر انقلاب عليه، والانقلاب عادة يكون بالسيف، فاعتبر أن ما فعله أقطاي سابقاً من إهانة واحتقار، وما يفعله الآن من زواج بالأميرة الأيوبية ما هو إلا مؤامرة لتنحية أيبك عن الحكم، ومن ثم أصدر أيبك أوامره «بقتل» زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي.. لأنه «ينوي» الانقلاب..!!

وبالفعل تم قتل فارس الدين أقطاي بأوامر الملك المعز، وبتنفيذ المماليك المعزية، وتم ذلك في ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هجرية.

وبقتل فارس الدين أقطاي خلت الساحة لعز الدين أيبك، وبدأ يظهر قوته، ويبرز كلمته، وبدأ دور الزوجة شجرة الدرّ يقل ويضمحل؛ فقد اكتسب الملك المعز الخبرة اللازمة، وزادت قوة مماليكه المعزية، واستقرت الأوضاع في بلده، فرضي عنه شعبه، واعترف له الخليفة العباسي بالسيادة، ورضي منه أمراء الشام الأيوبيون بالصلح.

وبقتل فارس الدين أقطاي انقسم المماليك إلى حزبين كبيرين متنافرين: المماليك البحرية الذين يدينون بالولاء لشجرة الدر، والمماليك المعزية الذين يدينون بالولاء للملك المعز عزّ الدين أيبك.

وحيث إن فارس الدين أقطاي نفسه ـ وهو أكبر المماليك البحرية قدراً، وأعظمهم هيبة ـ قد قُتل، فاحتمال قتل بقية زعماء المماليك البحرية أصبح قريباً.. وبات المماليك البحرية في توجس وريبة.. وما استطاعت زعيمتهم شجرة الدرّ أن تفعل لهم شيئاً، وهنا قرر زعماء المماليك البحرية الهروب إلى الشام خوفاً من الملك المعز عز الدين أيبك، وكان على رأس الهاربين ركن الدين بيبرس، الذي ذهب إلى الناصر يوسف، هذا الخائن الذي كان يحكم حلب ثم دمشق، ودخل ركن الدين بيبرس في طاعته.

وهكذا صفا الجو في مصر تماماً للملك المعز عز الدين أيبك، وإن كان العداء بينه وبين المماليك البحرية قد خرج من مرحلة الشكوك والتوقعات وأصبح معلناً وصريحاً، ومن جديد توسط الخليفة العباسي المستعصم بالله ليضمن استقرار الأوضاع في مصر والشام، لأن انضمام المماليك البحرية إلى الأمراء الأيوبيين بالشام قد يشعل نار الفتنة من جديد بين مصر والشام، ونجحت وساطة الخليفة العباسي، واتفقوا على أن يعيش المماليك البحرية في فلسطين التي كانت تابعة للملك المعز، ويبقى الملك المعز في مصر، إلا أن ركن الدين بيبرس ـ زعيم المماليك البحرية الآن بعد قتل فارس الدين أقطاي ـ آثر أن يبقى في دمشق عند الناصر يوسف الأيوبي.

«شجرة الدر» تحترق!!

ومرت السنوات، والملك المعز عزّ الدين أيبك مستقر في عرشه، وقد أصبح قائده سيف الدين قطز قائداً بارزاً معروفاً عند الخاصة والعامة، واختفي تقريباً دور الزوجة الملكة القديمة شجرة الدر، وهذا كله -ولاشك- جعل الحقد يغلي في قلب شجرة الدر، ولا شك أن عزّ الدين أيبك كان يبادلها الشعور بالكراهية، فهو يعلم أنها ما تزوجته إلا لتحكم مصر من خلاله، ولكن أحياناً تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!.

وجاءت سنة ٦٥٥ هجرية وقد مرت ٧ سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك، وأراد الملك المعز أن يثبت أقدامه على العرش بصورة أكبر، بل وتزايدت أطماعه جداً في المناطق المجاورة له في فلسطين والشام، ولم تكن له طاقة على تنفيذ أحلامه بمفرده، فأراد أن يقيم حلفاً مع أحد الأمراء الكبار في المنطقة ليساعده في ذلك، ولما كانت الخيانة في العهود أمراً طبيعياً في تلك الآونة، فإنه أراد أن يوثق الحلف برباط غليظ وهو... الزواج..!!

واختار الملك المعز عزّ الدين أيبك بنت حاكم الموصل الأمير الخائن «بدر الدين لؤلؤ»، والذي تحدثنا عنه كثيراً، وعن تعاونه المقزز مع التتار.

وعلمت شجرة الدرّ بهذا الأمر فاشتعلت الغيرة في قلبها.. وركبها الهم والغم، وعلمت أنه لو تم هذا الزواج الجديد فستطوى صفحتها تماماً من التاريخ، وأعْمَتها الكراهية عن حسن تقدير الأمور، وهي التي اشتهرت بالحكمة، فلم تقدّر أن زعماء المماليك البحرية قد اختفوا، وأن القوة الحقيقية الآن في أيدي المماليك المعزّية الذين يدينون بالولاء والطاعة للملك المعز عز الدين أيبك.. لم تقدّر كل ذلك، وقررت بعاطفة المرأة أن تقدم على خطوة غير مدروسة، ولكنها مألوفة لديها، فقد فعلتها قبل ذلك مع توران شاه ابن زوجها السابق، وهي ستفعلها الآن مع زوجها الحالي.. وهذه الخطوة هي: قتل الزوج الملك المعز: عزّ الدين أيبك.. فليُقتل وليكن ما يكون..! هكذا فكرت شجرة الدر..!!

وبالفعل دبرت مؤامرة لئيمة لقتل زوجها الملك، وتم تنفيذ المؤامرة فعلاً في قصرها في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥ هجرية، ولينتهي بذلك حكم المعز عزّ الدين أيبك بعد سبع سنوات من الجلوس على عرش مصر، وهكذا تكون شجرة الدرّ قد قتلت اثنين من سلاطين مصر: توران شاه ثم عز الدين أيبك.

وعلم الجميع بجريمة القتل، وأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش والذراع اليمنى للمعز عز الدين أيبك، ومعه ابن عزّ الدين أيبك من زوجته الأولى، وكان اسمه نور الدين علي.. أسرعا ومعهما فرقة من المماليك المعزية، وألقيا القبض على شجرة الدرّ.

وطلبت أمّ نور الدين علي وزوجة المعز عزّ الدين أيبك الأولى أن يترك لها الأمر في التصرف مع ضرتها شجرة الدرّ، وكانت النهاية المأساوية المشهورة، أن أمرت أمّ نور الدين جواريها أن تُقتل الملكة السابقة «ضرباً بالقباقيب»..!!

ولعل هذا هو حادث القتل الوحيد في القصة الذي له خلفية شرعية مقبولة، فقد قتلت شجرة الدرّ عزّ الدين أيبك دون مبرر معقول.. فليس الزواج من امرأة أخرى جريمة، وليس الانفراد بالحكم دون الانصياع لحكم الزوجة جريمة، ولذلك فليس لديها مسوغ شرعي للقتل، فكان لابد أن تُقتل.. ولكن المؤكد أن الطريقة التي قتلت بها لم تكن طريقة شرعية.. بل كانت طريقة نسائية بحتة.. لم يقصد منها القتل فقط، بل قصد منها الإهانة والتحقير والذل، على نحو ما فُعل بالخليفة المستعصم بعد ذلك عند سقوط بغداد عندما قتل رفساً بالأقدام!.

وهذه نهايات خاصة جداً يكتبها الله -عز وجل- لبعض الملوك ممن لم يرع حق الله وحق الشعوب في الدنيا..!!

وبعد مقتل الملك المعز عزّ الدين أيبك، ثم مقتل شجرة الدرّ بويع لابن عزّ الدين أيبك وهو نور الدين علي، والذي لم يكن قد بلغ بعد الخامسة عشرة من عمره، وهذه مخالفة كبيرة جداً ولا شك، ولكن لعله قد وُضع في هذا التوقيت لكي يوقف النزاع المتوقع بين زعماء المماليك على الحكم.. وتلقب السلطان الصغير بلقب «المنصور»، وتولى الوصاية الكاملة عليه أقوى الرجال في مصر في ذلك الوقت وهو سيف الدين قطز قائد الجيش، وزعيم المماليك المعزّية، وأكثر الناس ولاءً للملك السابق المعزّ عزّ الدين أيبك.. وكانت هذه البيعة لهذا السلطان الطفل في ربيع الأول من سنة ٦٥٥هجرية.

وأصبح الحاكم الفعلي لمصر هو.. سيف الدين قطز رحمه الله.

من هو سيف الدين قطز؟

سيف الدين قطز هو واحد من أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين.. اسمه الأصلي «محمود بن ممدود»، وهو من بيت مسلم ملكي أصيل.. وسبحان

الله..!! كم هي صغيرة تلك الدنيا..!! فقطز - رحمه الله- هو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي..!! وجلال الدين هو ملك الخوارزميين المشهور، والذي تحدثنا عنه كثيراً في أوائل هذا الكتاب، والذي قاوم التتار فترة وانتصر عليهم، ثم هُزم منهم، وفرّ إلى الهند، وعند فراره إلى الهند أمسك التتار بأسرته فقتلوا معظمهم، واسترقوا بعضهم، وكان محمود بن ممدود أحد أولئك الذين استرقهم التتار، وأطلقوا عليه اسماً مغولياً هو «قطز»، وهي كلمة تعني «الكلب الشرس»، ويبدو أنه كانت تبدو عليه من صغره علامات القوة والبأس، ثم باعه التتار بعد ذلك في أسواق الرقيق في دمشق، واشتراه أحد الأيوبيين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيد إلى غيره، حتى وصل في النهاية إلى الملك المعز عزّ الدين أيبك ليصبح أكبر قواده كما رأينا.

ولعلنا نلحظ بوضوح في قصة قطز التدبير العجيب لرب العالمين سبحانه.. فالتتار مكروا بالمسلمين واسترقّوا أحد أطفالهم وباعوه بأنفسهم في دمشق.. ليباع بعد ذلك من واحد، إلى واحد ليصل إلى بلد لم يرها قبل ذلك، ولعله لم يكن يسمع بها في هذه السن الصغيرة.. ليصبح في النهاية ملكًا عليها، وتكون نهاية التتار الذين قاموا بنقله من أقاصي بلاد المسلمين إلى مصر على يديه هو بالتحديد!!! وسبحان الذي يدبر بلطف، ويمكر بحكمة، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.. «ومكروا مكرًا، ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون».

نشأ قطز - رحمه الله ـ كبقية المماليك ـ على التربية الدينية القويمة، وتشبع بالحمية الإسلامية القوية، وتدرب منذ صغره على فنون الفروسية، وأساليب القتال، وأنواع الإدارة، وطرق القيادة.. فنشأ شاباً فتياً أبياً، محباً للدين معظماً له.. وكان -رحمه الله- قوياً صبوراً جلداً.. كل هذا بالإضافة إلى أنه وُلد في بيت ملكي، فكانت طفولته طفولة الأمراء، وهذا أعطاه ثقة كبيرة في نفسه، فهو لم

يكن غريباً على أمور القيادة والإدارة والحكم، وفوق كل هذا فإن أسرته قد هلكت تحت أقدام التتار، وهذا ـ ولا شك ـ جعله يفقه جيداً مأساة التتار.. وليس من رأى كمن سمع.

كل هذه العوامل مجتمعة صنعت من قطز رجلاً ذا طراز خاص جداً.. يستهين بالشدائد، ولا يرهب أعداءه، وذلك مهما كثرت أعدادهم، أو تفوقت قوتهم.

لقد كان للتربية الإسلامية العسكرية، والتربية على الثقة بالله، والثقة بالدين، والثقة بالنفس أثر كبير في حياة قطز رحمه الله.

نعود إلى الوضع في مصر.

لقد قتل الملك المعز عز الدين أيبك، ثم قتلت بعده زوجته شجرة الدر، ثم تولى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير.

وكما أحدث صعود شجرة الدرّ إلى كرسي الحكم قبل ذلك اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي، فكذلك أحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم الاضطرابات نفسها، وكانت أكثر الاضطرابات تأتي من قبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك، وتزعم أحد هؤلاء المماليك البحرية ـ واسمه «سنجر الحلبي» ـ الثورة، وكان يرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل عز الدين أيبك، فاضطر قطز إلى القبض عليه وحبسه.. كذلك قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام، وذلك ليلحقوا بزعمائهم الذين فروا قبل ذلك إلى هناك أيام الملك المعزّ، ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء، ومنهم «مغيث الدين عمر» أمير

الكرك (بالأردن حالياً) الذي تقدم بجيشه لغزو مصر! وكان أميراً ضعيفاً جداً، ومع ذلك كان صاحب أطماع أكبر كثيراً من حجمه..! ووصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، وخرج له قطز فصدّه عن دخول مصر، وذلك في ذي القعدة من سنة ٦٥٥ هجرية، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صدّه قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة ٦٥٦ هجرية.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المرة الأخيرة التي حاول فيها المغيث عمر الأيوبي أن يغزو مصر كانت - كما أشرت ـ في شهر ربيع الآخر سنة ٦٥٦ هجرية، أي بعد سقوط «بغداد» عاصمة الخلافة الإسلامية بأقلّ من شهرين فقط..!! فبدلاً من توجيه كل الطاقة إلى قضية التتار، إذا به يتوجه لحرب المسلمين!! إنه مرض الحَوَل السياسي الذي كان منتشرًا في تلك الأيام، وفي أي زمان يبتعد المسلمون فيه عن ربهم!

سقطت بغداد ـ كما مرّ بنا ـ في صفر سنة ٦٥٦ هجرية، وبدأ هولاكو في الإعداد لغزو الشام، وحاصر ابنه أشموط ميافارقين بداية من رجب سنة ٦٥٦ هجرية، وبدأ هولاكو في التحرك من فارس إلى الشام مروراً بشمال العراق في سنة٦٥٧ هجرية، واحتل نصيبين والرها وإلبيرة، واقترب من حلب.. وأصبح واضحاً أن هولاكو لن يهدأ حتى يسقط الشام بكامله، وبعد الشام لابد أن تكون الخطوة التالية هي مصر.

وقطز - رحمه الله - وإن كان يدير الأمور فعلياً في مصر ـ لكن الذي يجلس على الكرسي سلطان طفل، ولا شك أن هذا كان يضعف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم، ويقوي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلاً.

وفي ضوء الخطر التتري الرهيب، والمشاكل الداخلية الطاحنة، واضطرابات وثورات المماليك البحرية، وأطماع الأمراء الأيوبيين الشاميين.. في ضوء كل

ذلك لم يجد قطز - رحمه الله- أي معنى لأن يبقى السلطان الطفل «نور الدين علي» على كرسي أهم دولة في المنطقة، وهي مصر، والتي لم يعد هناك أمل في صد التتار إلا فيها.

هنا اتخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، واعتلاء قطز بنفسه عرش مصر، ولم يكن القرار غريباً؛ فقطز هو الحاكم الفعلي للبلاد، والجميع - بمن فيهم السلطان الطفل نفسه - يدركون ذلك تمام الإدراك، ولكن هناك صورة هزلية مضحكة يتحرك قطز من خلفها، وهي صورة السلطان الطفل، فما كان من قطز إلا أن رفع هذه الصورة الهزلية ليظهر من ورائها الأسد الهصور الذي على يديه ستتغير معالم الأرض، وتتغير جغرافية العالم، وتتغير كثيرٌ من صفحات التاريخ.

حدث هذا الأمر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٥٧ هجرية، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام.. ومنذ أن صعد قطز - رحمه الله- إلى كرسي الحكم وهو يعدّ العدّة للقاء التتار.

وستحدث أحداث جسام على أرض مصر.

وسيُنتهج نهج جديد على ذلك الزمن.

وستُرفع رايات جديدة ما رُفِعت منذ أمد.

وستُجهز جيوش ما جُهّزت منذ أزمان طويلة.

وسيكون اليوم الذي لا يشبهه من أيام الزمان إلا قليل.

كيف سيحدث كل ذلك؟!!

هذا حديث يطول شرحه، وهو موضوع الفصل القادم.

«الإعداد لعين جالوت!».



الإعداد لعين جالوت

«مصر» وما حولها.. قبل المعركة:

كان الوضع في مصر عندما بدأ التتار في اجتياح الشام والاقتراب من الديار المصرية متأزماً جداً.. فالمسرح السياسي الداخلي كان يموج بالاضطرابات العاصفة، والأزمات الشديدة.. وكانت الفتن الناتجة عن التصارع على كرسي الحكم - وخاصة في السنوات العشر الأخيرة - عنيفة ومتكررة.. نعم استقرت الأوضاع نسبياً عندما تولى الملك المعز عز الدين أيبك، وذلك لفترة سبع سنوات متصلة، ولكنها عادت من جديد للاشتعال بمقتل الملك المعز ثم شجرة الدر، ثم ولاية الطفل نور الدين علي، ثم خلعه بواسطة قطز رحمه الله.. وإن كان قطز الآن قد استقر على كرسي الحكم لكن لا شك أن هناك الكثير من الطامعين في الكرسي، ولا شك أيضاً أن هناك الكثير من الحاقدين على قطز شخصياً، ومن المؤكد أن هؤلاء وهؤلاء سوف يتحركون ـ أو يحاولون التحرك ـ لإقصاء قطز عن العرش، أو قتله إذا لزم الأمر... كما اعتاد كثير من المماليك أن يفعلوا.

ولا ننسى أن الفتنة ما زالت دائرة بين المماليك البحرية الصالحية الذين كانوا يؤيدون شجرة الدرّ والمماليك المعزية الذين يؤيدون الآن سيف الدين قطز، وقد فرّ كثير من المماليك البحرية إلى مختلف الإمارات الإسلامية في الشام، ومن بقي منهم في مصر بقي على وجل وترقب.. وهذا الانقسام - بلاشك - أضعف القوة العسكرية المصرية؛ لأن المماليك البحرية كانوا أساس الجيش المصري في ذلك الوقت.

وإذا كان الوضع السياسي والعسكري داخل البلاد على هذه الصورة

الخطيرة فإن المسرح السياسي الخارجي كان يحمل مشكلات أخرى كبيرة.. ذلك أن العلاقات كانت ممزقة تماماً بين مصر وبين كل جيرانها بلا استثناء.. فالعلاقات الدبلوماسية مع كل إمارات الشام كانت مقطوعة تماماً، بل كانت روح العداء الشديد هي السائدة بين الطرفين، كما لم يكن لمصر أي سند من دول الشمال الأفريقي أو السودان.. ومعنى هذا أن هذه العزلة المقيتة ستسهّل جداً على الوحش التتري مهمة ابتلاع مصر كما فعل بأشياعها من قبل.

ولم يكن الوضع الاقتصادي في مصر بأحسن حالاً من الوضع السياسي أو الاجتماعي؛ فهناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة ، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي.. كما أن الناس انشغلوا بأنفسهم وبالفتن الداخلية والخارجية؛ فتردّى الاقتصاد إلى أبعد درجات التردي، وباتت البلاد على حافة هاوية سحيقة شبه مؤكدة.

كل هذا وأعداء الأمة قد اجتمعوا عليها، وبضراوة شديدة، فهناك الغرب الصليبي الحاقد جداً، والذي مُني بهزائم قاسية مخزية في مصر منذ عشر سنوات تقريباً في المنصورة وفارسكور، ولاشك أن الصليبيين يريدون الثأر والانتقام، وقد يجدون أن الاضطرابات الأخيرة في مصر فرصة سانحة لرد الاعتبار، ولتحقيق أحلام الغزو..

وهناك الإمارات الصليبية المزروعة في فلسطين منذ عشرات السنين.. وفوق كل ذلك هناك الهم الكبير القادم من الشرق.. وهو التتار.

«قطز».. وخطوات التغيير:

وهكذا تسلم سيف الدين قطز -رحمه الله- هذه التركة المثقلة بالهموم والمشاكل.

فكيف تصرف الملك المظفر قطز -رحمه الله- مع هذا الوضع شديد التأزم؟!

وما خطواته التي خطاها من أجل التغيير؟!

وما هو الإعداد الذي قام به لمواجهة الهجمة التترية الشرسة؟!

التوحد أمام الأزمة:

الخطوة الأولى التي حرص عليها قطز - رحمه الله- هي استقرار الوضع الداخلي في مصر، وقطع أطماع الآخرين في كرسي الحكم الذي يجلس عليه؛ لأن الطامع في الكرسي لن تهدأ له نفس أو تستقر له حال حتى يجلس على الكرسي الذي يريد، فكيف تصرف في هذا الموقف رحمه الله؟!

إنه لم يقطع أطماعهم عن طريق التهديد والوعيد، فهذا - على العكس - يزيد الفتن اشتعالاً، ويؤجج نيران الحقد والحسد والغل، ولم يقطعها بتزوير إرادة الشعب، وإيهام الجميع أن الشعب يريده هو بذاته، ولم يقطعها بالخداع والغش والمؤامرات والتحايل، ولكن قطز - رحمه الله- ارتفع «بأخلاق» المنافسين إلى درجة لم يتعودوا عليها في الفترة الأخيرة في مصر.

لقد جمع قطز - رحمه الله- الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وكل هؤلاء من المحركين الفعليين لطوائف الشعب المختلفة، وقال لهم في وضوح: «إني ما قصدت (أي ما قصدت من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم».

فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك.

لقد حرص قطز - رحمه الله- على إبراز خطورة العدو القادم، وعلى إظهار الغاية النبيلة التي من أجلها صعد إلى كرسي الحكم.. ومن المعروف أن الأزمات الشديدة التي تمرّ بالأمة يمكن أن تكون أزمات مجمّعة إذا أحسن القائد

استغلالها.. ومن أفضل الأمور لتجميع الناس وتوحيد الصف: «الجهاد».. ولهذا فالقائد الذي لا يجمع شعبه على قضية جهادية يفقد عادة حب شعبه، ويفقد ولاءهم له، بل وقد تكثر الفتن والقلاقل؛ لأن الناس سيعانون من حياة الدعة والركون، وسينشغلون بسفاسف الأمور.. وعلى الناحية الأخرى ما رفع قائد مسلم ـ في كل تاريخ المسلمين ـ راية الجهاد بصدق إلا استقرت بلاده، وسار خلفه شعبه بكل حب وصدق ووفاء.

وفوق ذلك فقطز يعلن بوضوح أنه سيجعل الأمر في الناس، يختارون من يشاءون دون التقيد بعائلة معينة أو مماليك بذاتهم.

ولا يستقيم هنا أن نفعل مثلما يفعل المحللون الغربيون أو بعض المحللين المسلمين الذين يعتمدون في تحليلاتهم على المدارس الغربية في التحليل والنقد ويقولون: إنما قال قطز ذلك ليقمع المناوئين له، وليثبت نفسه في كرسيه مستغلاً حب المسلمين للجهاد.. لا يستقيم أن نطعن في نية قطز - رحمه الله- من وراء هذه الكلمات، وأن نفترض أن وراء الكلمات مراميَ أخرى.. ففوق أن إحسان الظن بالمؤمنين أمر مطلوب شرعاً، فإن الكلمات والأفعال تقيّم وتحسب دائماً في ضوء سيرة الشخص وحياته، وقد رأينا بعد ذلك سيرة قطز بعد أن تولى الملك، ورأينا سيرته في أثناء تحركاته إلى عين جالوت، ورأينا سيرته خلال موقعة عين جالوت وبعدها.. رأينا في كل ذلك ما يثبت أن كلامه كان صادقاً، وأن رغبته في قتال التتار والانتصار لهذا الدين كانت أعلى بكثير من رغبته في الملك.. وقد جعل الله -عز وجل- نصر الأمة على يديه كما سنرى، وليس من سنة الله -عز وجل- أن يكتب نصر الأمة على يد المنافقين والفاسدين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وليس من الطبيعي أن يخلد تاريخ المسلمين رجلاً اختلطت في قلبه النوايا،

ولعبت به الأهواء، ولذلك فإن قطز -رحمه الله- رجل نحسبه على خير، ولا نزكي على الله أحداً، وقد أجمع علماء الأمة على عدالته وفضله وتقواه.

وإذا كان من الممكن قبول عذر المستشرقين والمحللين الغربيين في أن قطز كان يقصد الملك وليس الجهاد لأنهم في سياستهم وحياتهم لا يرون إلا هذه الأمثلة، فإن عذر المحللين المسلمين غير مقبول، لأن هذا المثال المخلص الذي لا يريد شيئاً لنفسه، وإنما يهب حياته لربه ودينه وشعبه ولقضايا أمته.. هذا المثال الراقي كثير جداً في أمتنا، ومتكرر جداً في تاريخنا.. وسبق قطز - رحمه الله- على هذا الطريق كثيرٌ من أبطالنا، ولحق به آخرون كثير.. وسيظل الخير في أمة رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة.

ومع أن قطز - رحمه الله- قد استخدم الأخلاق العالية، والأهداف النبيلة في تجميع القواد والعلماء حوله، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الإدارة، وعن أخذه بأسباب السيطرة على الأمور.. فعزل الوزير «ابن بنت الأعز» المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر، وولّى بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته، وهو «زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع»، وفي ذات الوقت فإنه أقرّ قائد الجيش في مكانه وهو «فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي» (مع أنه من المماليك البحرية الصالحية) إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية وأمانة وصدق، وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة.. (وطبعاً «فارس الدين أقطاي الصغير» هذا غير «فارس الدين أقطاي» زعيم المماليك البحرية السابق، والذي قتل في سنة ٦٥٢ هجرية قبل هذه الأحداث بست سنوات).

وبذلك فإن قطز - رحمه الله- قد حفظ الأمانة، ووسد الأمر لأهله، وبصرف النظر عن كونهم من المماليك البحرية أو المعزية.. وهذا تجرد واضح من قطز رحمه الله.. كما أنه ذكاء سياسي واضح أيضاً.. فهو بهذا يستميل قلوب

المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا، ويبث الاطمئنان في نفوسهم، وهذا - ولا شك - سيؤدي إلى استقرار الأوضاع في مصر، كما أنه سيجعل البلاد تستفيد من الخبرات العسكرية الفذة للمماليك البحرية.

كما قام قطز أيضاً بالقبض على بعض رءوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا على سلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر.

وعلم قطز - رحمه الله- أن الناس إن لم يُشغلوا بالجهاد شُغلوا بأنفسهم، ولذلك فبمجرد أن اعتلى عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يجهزا الجيش، ويعدا العدة، وينظما الصفوف.. فانشغل الناس بهذه الغاية النبيلة، والمهمة الخطيرة: «الجهاد في سبيل الله».

إذن الخطوة الأولى في سياسة قطز - رحمه الله- كانت السيطرة على الوضع الداخلي للبلاد، وشغل الناس بالقضايا المجمعة للأمة، وإبراز الهدف الحقيقي من السلطان، وهو إقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرعية، وحماية مصالح العباد، وليس مجرد جمع المال، وضمان توريث الكرسي للأبناء، بل وأبناء الأبناء.

وبذلك استقرت الأحوال المحلية في مصر، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة عظيمة جداً في بناء الأمم.

العفو الحقيقي

أما **الخطوة الثانية** لقطز - رحمه الله- في إعداده للتتار فكانت خطوة في منتهى الروعة والحكمة، وأبرزت الأخلاق الرفيعة جداً لقطز رحمه الله.

لقد أصدر قراراً بالعفو العام «الحقيقي» عن كل المماليك البحرية..!! وأقصد بكونه «حقيقياً» أنه لم يكن خدعة سياسية لأجل معين، ولم يكن هذا العفو «شهر عسل» مؤقت إلى أن تهدأ الأمور.. إنما كان أمراً يهدف فعلاً إلى

المصالحة الحقيقية، ويرمي بصدق إلى إصلاح الأوضاع، ولَمّ الشمل، ودرء المفاسد.

لقد كان قراراً في منتهى الروعة..!! على عكس ما يفعل بعض الزعماء السياسيين الذين لم يتفقهوا بعد في السياسة، ولا يدركون موازين القوى في بلادهم؛ فيتعاملون تعاملاً غبيًا مع الأحداث.. فهو إما أن يقصي القوى الفاعلة في المجتمع تمامًا عن كل شيء؛ لأنها على خلاف معه! وأحيانًا يقيد حريتهم.. وأحيانًا يخرجهم من البلاد تمامًا.. إما أن يفعل ذلك، وإما أن يتجاهلهم تمامًا وكأنهم لا وجود لهم.. يضع رأسه في الرمال.. لا يعترف بوجودهم.. يُنكر طاقاتهم.. يهمل كيانهم...

كل هذا - ولا شك- لا يصب أبدًا في مصلحة البلد أو مصلحة الشعب.

أما قطز -رحمه الله- فكان رجلاً متجردًا لله.. محبًا لوطنه وأمته.. يفعل ما فيه المصلحة ولو كان خطرًا على كرسيه وسلطته.

لقد مر بنا كيف أنه قد حدثت فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (سنة ٦٥٢ هـ) عندما قُتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عزّ الدين أيبك ثم شجرة الدرّ، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم القائد ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حد خطير.. فلما اعتلى قطز - رحمه الله- عرش مصر أصدر قراره الحكيم جداً بالعفو عن المماليك البحرية، وبدعوتهم إلى العودة إلى مصر بلدهم.

لقد أبرز هذا القرار الرائع أخلاق قطز الرفيعة، ونسيانه لكل الضغائن

السابقة، وذلك مع كون القوة في يديه، وهذا من أرفع الأخلاق: «العفو عند المقدرة»، كما أبرز هذا القرار النظرة السياسية العميقة لقطز رحمه الله، فقوات المصريين من المماليك المعزية وغيرهم قد لا تكفي لحرب التتار، ولا شك أن المماليك البحرية قوة عظيمة جداً وقوية جداً، ولها خبرات واسعة في الحروب، وقد اشترك الكثير منهم في حروب الصليبيين السابقة، ومن أشهرها موقعة «المنصورة» العظيمة، والتي كانت منذ عشر سنوات (سنة ٦٤٨ هجرية..) فإضافة قوة المماليك البحرية إلى قوة المماليك المعزية ستنشئ جيشاً قوياً أقدر على مهاجمة التتار، وهذا مما لا يشك فيه أحد، إذ إنه معلوم أن الوحدة طريق النصر، كما أن التنازع والتصارع والفرقة طريق الفشل والهزيمة.

وقطز -رحمه الله- يعلم أن أوضاع المماليك البحرية في بلاد الشام غير مستقرة، وما ذهبوا إلى هناك إلا مضطرين، وأملاكهم وحياتهم وقوتهم في مصر، وهو بهذا الإعلان النبيل الذي قام به سيستقدم عدداً لا بأس به منهم، وقد تحقق له فعلاً ما أراد، ومنذ أن أعلن هذا القرار والمماليك البحرية تتوافد على مصر من بلاد سلاجقة الروم (تركيا الآن)، ومن الكرك بالأردن، ومن دمشق، ومن غيرها، وهكذا صار المماليك قوة واحدة من جديد، واستقبلهم قطز استقبالاً لائقاً، ولم يتكبر عليهم تكبر المتمكن، بل عاملهم كواحد منهم.

وإذا كان فعل قطز النبيل مع كل المماليك البحرية في كفة، ففعله النبيل مع قائد المماليك البحرية ركن الدين بيبرس في كفة أخرى.. فبيبرس هو أخطرهم مطلقاً، ولو كان في نفس قطز غدر أو خيانة أو مصالح سياسية مجردة من الأخلاق ما استقدم بيبرس إلى مصر أبداً..

وكان بيبرس قد فرَّ من مصر إلى الناصر يوسف صاحب دمشق ـ ذلك الرجل الخائن الذي كان موالياً للتتار في فترات كثيرة، ومدعياً الجهاد ضدهم في

فترات أخرى ـ وقد أنكر عليه بيبرس خضوعه أمام التتار، وعزمه على عدم القتال، ولكن الناصر يوسف لم يسمع له، وعندما قدم التتار في اتجاه دمشق فرّ الناصر يوسف ومن معه إلى الجنوب، واضطر بيبرس ـ وقد وجد نفسه بمفرده ـ أن يهرب هو الآخر إلى الجنوب في اتجاه فلسطين، حيث واصل الناصر يوسف فراره إلى الكرك ثم إلى الصحراء.. ووجد بيبرس نفسه وحيداً في غزة ولم يدر ماذا يفعل!.

في هذا الموقف العصيب، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهو الذي كان قائداً للمماليك البحرية بأكملهم، أي بمثابة وزير الحربية في زماننا، في هذا الموقف العصيب، وهو مشتت بين قوات التتار القادمة من الشمال، والملك الناصر الذي فر إلى الصحراء، ومصر التي هرب منها.. في هذا الموقف الصعب يأتيه خطاب قطز - رحمه الله- يعرض عليه القدوم إلى مصر معززاً مكرماً مرفوع الرأس محفوظ المكانة..!! أية أخلاق عالية من قطز..! وأي فقه سياسي بارع!.

لقد كان قطز - رحمه الله- يدرك أموراً كثيرة مهمة:

يدرك - **أولاً**- الكفاءة القتالية العالية جداً، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس، والحمية الإسلامية لهذا القائد الفذ.

ويدرك - **ثانياً**- الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس، والذي سيحاول قطز أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يُوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية.

ويدرك - **ثالثاً**- ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس، وأنه إن ظل هارباً فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس لصفه، ويعظم قدره، ويستغل قدارته

وإمكانياته، وبذلك يضمن استقرار النفوس، وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من الدخول في معارك جانبية لا معنى لها.

لذلك لما قدم بيبرس إلى مصر بعد استقدام قطز له، عظّم قطز من شأنه جداً، وأنزله دار الوزارة، وعرف له قدره وقيمته، بل وأقطعه «قليوب» وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدمين، بل وسيجعله كما سنرى على مقدمة جيوشه، وهكذا نتعلم من قطز - رحمه الله- العفو عند المقدرة، وإنزال الناس منازلهم، والفقه السياسي الحكيم، والحرص على الوحدة، ونتعلم منه شيئاً في غاية الأهمية في الأصول الإسلامية: وهو أنه ليس معنى أن يكون الإنسان سياسياً حكيماً بارعاً أن يتنازل عن أخلاقه؛ فليست السياسة في الإسلام نفاقاً، وليست السياسة في الإسلام ظلماً، وليست السياسة في الإسلام كبراً، وليست السياسة في الإسلام فقداناً للضمير أو خلفاً للعهد أو نقضاً للمواثيق.. بل السياسة في الإسلام جزء لا يتجزأ من الدين.. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يفصل بينها وبين الدين، ولا أن تستخدم فيها معايير تختلف مع أصول الإسلام.. كما علمنا قطز -رحمه الله- أن القائد الذي يثق في نفسه لا يمانع من ظهور طاقات بارزة إلى جواره، وذلك على عكس ما يفعل كثير من الزعماء الضعفاء، فلا يسمحون أبداً لأي كفاءة أن تبدع إلى جوارهم، وذلك لكي لا يصبح لهذه الكفاءات رصيد من الحب والاحترام عند الشعب فتقوى مكانتهم، ويرتفع قدرهم، ومن ثم قد ينازعون الزعيم سلطانه، وما كل هذه المخاوف في قلوب هؤلاء الزعماء إلا لإحساسهم بضعفهم وصغارهم وافتقادهم للرصيد الحقيقي من الحب عند شعوبهم، ولكن قطز -رحمه الله- لم يكن من هذه الزعامات الفارغة، إنما كان زعيماً قوياً ذكياً مخلصاً واعياً محباً لدينه ووطنه وأمته.. كان يدرك من نفسه هذه الأمور، وكذلك كان الشعب يدرك عنه هذه الأمور، ومن ثم لم يكن هناك داع للتردد أو الخوف.

وهكذا انضمت قوة المماليك البحرية ـ وعلى رأسها القائد ركن الدين بيبرس ـ إلى قوة الجيش المصري المسلم، ولا شك أن هذا رفع من معنويات المصريين جداً.

لقد كانت خطوة العفو عن المماليك البحرية من أعظم الخطوات في حياة قطز -رحمه الله- وحقاً كانت كل خطواته عظيمة.

إذن كانت الخطوة الأولى لقطز - رحمه الله- هي الاهتمام بالاستقرار الداخلي للبلاد، وكانت خطوته الثانية هي استقدام الفارّين من المماليك البحرية، والاستفادة من طاقاتهم وإمكانياتهم، وتقوية الجيش بهم.

الوحدة مع الشام

أما **الخطوة الثالثة** له فكانت أيضاً خطوة رائعة..! بل في غاية الروعة..!!

فبعد الاستقرار «الداخلي» في مصر حرص قطز على الاستقرار «الخارجي» مع جيران مصر من المسلمين.

فالعلاقات ـ كما فصلنا قبل ذلك ـ كانت متوترة جداً جداً مع إمارات الشام الأيوبية، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، وهم يتربصون بمصر الدوائر في كل يوم، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر..!!

مع كل هذه الخلفيات المعقدة للعلاقة بين مصر والإمارات الأيوبية إلا أنّ قطز سعى لإذابة الخلافات التي بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، ليخلوا بينه وبين التتار دون أن

يطعنوه في ظهره كما اعتادوا أن يفعلوا.

ووجد قطز -رحمه الله- أن رأس هؤلاء والمقَدَّم عليهم هو الناصر يوسف الأيوبي صاحب إمارتي حلب ودمشق، وهو أكبرهم، ويحكم أعظم مدينتين في الشام، وكان قطز يعلم تمام العلم كراهية الناصر يوسف له، ويعلم بأنه طلب من التتار أن يساعدوه في حربه.. ومع كل هذا فقد أرسل له قطز -رحمه الله- رسالة تفيض رقة وعذوبة، وكأنه يخاطب أقرب المقربين إليه... (وأورد هذه الرسالة المقريزي في السلوك) ..

وكانت هذه الرسالة قبل قدوم التتار إلى حلب، واحتمال التعاون بين التتار والناصر يوسف قائم، فأراد قطز أن يوحد بينه وبين الناصر يوسف ـ على ما به من عيوب وخطايا ـ بدلاً من أن يضطر قطز إلى مواجهة جيش الشام من المسلمين، ولكن قطز كان يعلم أن أعظم أهداف الناصر هو البقاء على كرسي الحكم، ولن يضحي به مهما كانت الظروف، لذلك فإن قطز أرسل له رسالة عجيبة فعلاً!.

لقد أرسل له يعرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام..!! لقد عرض عليه أن يكون هو - أي قطز - تابعاً للناصر يوسف، مع أن موقف قطز العسكري الآن أفضل بكثير من موقف الناصر يوسف، ومع أن مصر كدولة أقوى بكثير من مدينتي حلب ودمشق..!!

لقد قال له قطز - رحمه الله- في رسالته أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأنه ـ أي قطز ـ نائب عن الناصر في ديار مصر، وأن الناصر متى جاء إلى مصر أجلسه فوراً على كرسي الحكم فيها..!!

هذه أمور لا يتخيلها إنسان بموازين السياسة المادية، ولا يمكن أن تُفهم إلا إذا أدخلت في حساباتك البعد الإيماني الأخلاقي ـ لا السياسي فقط ـ عند قطز.

ثم إن قطز - رحمه الله- علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة، أو في أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه أن يقوم (أي: قطز) بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتتحقق المصلحة المشتركة في هزيمة التتار، وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر والشام.

قال قطز في أدب جمّ، وخلق رفيع: «وإن اخترتَني خَدَمْتُكَ، وإن اخترتَ قَدِمْتُ وَمَنْ معي من العَسْكر نجدةً لك على القادم عليك، فإن كنت لا تَأْمَن حُضوري سَيَّرْتُ لك العساكر صُحْبَةَ من تختاره!!».

فهو يعطي الناصر يوسف صلاحيات اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام..!!

لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءاتِ النبيلة من قطز، وآثر التفرق على الوحدة، فماذا كانت النتيجة؟!

لقد مرت الأيام، وسقطت حلب، وهُدّدت دمشق، وفرّ الناصر فراره المخزي إلى فلسطين، وعند فلسطين حدث الذي كان لابد أن يحدث منذ زمن.. لقد خرج جيش الناصر عن طوعه، وآثر الانضمام إلى جيش مصر حيث القائد المحنك المسلم المخلص «قطز»، وحيث القضية الواضحة والهدف الثابت، وحيث الجهاد في سبيل الله، لا في سبيل الكرسيّ.

وعلى قدر نجاح القائد الفذ قطز فإن الناصر يوسف قد فشل في كل امتحاناته.. لقد فشل أمام التتار، وفشل أمام قطز، وفشل أمام جيشه، وفشل أمام شعبه، والآن اتجه جيشه إلى مصر، بينما فرّ هو وحيداً إلى حصن الكرك بالأردن، ثم لم يطمئن هناك فترك الحصن، واتجه إلى الصحراء عند بعض الأعراب!.

مصير «الناصر يوسف»:

عندما وصل الناصر يوسف إلى المكان الذي اختفى فيه في الصحراء -في

منطقة تسمى «الجفر» في جنوب الأردن- إذا بالمجموعة التترية التي أرسلها هولاكو للقبض عليه تلقاه في ذلك المكان، فأمسكوا به ذليلاً هو وابنه (العزيز!!)، واقتادوهما إلى هولاكو، ولكن هولاكو كان قد غادر حلب إلى تبريز في فارس كما وضحنا سابقاً، فتوجهوا به إلى هولاكو في تبريز، وهناك بعد أن استقبل هولاكو الناصر فكر في أن يبقيه على قيد الحياة ليستعمله في قيادة الشام بعد ذلك لطول خبرته، ولخسة نفسه، فلم يقتله بل رده مع جنده إلى الشام، وفي الطريق التقى الناصر يوسف ببعض التتار الفارين من الشام بعد هزيمة عين جالوت كما سيأتي فرأوا الناصر فقتلوه!.

لقد كانت هذه نهايات ذليلة جداً لأمراء كان من الممكن أن يرتفعوا فوق الأعناق، ويُخَلدوا في التاريخ، لو رفعوا راية الجهاد بصدق، ولكنهم آثروا الذل على العزة، وفضلوا الحياة التعيسة الضنك على الموت الشريف في سبيل الله.

وهكذا ازداد قطز - رحمه الله- قوة بانضمام جيش الناصر الشامي له، وبقتل الناصر الذي كان يمثل حجر عثرة في طريق المسلمين.

ولم يكتف قطز - رحمه الله- بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير «المنصور» صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر.

أما المغيث عمر صاحب الكرك بالأردن فقد آثر أن يقف على الحياد، فقد كان من الذين عاونوا الناصر في حركة الجهاد المزعومة التي قام بها الناصر، ولما فر الناصر عاد المغيث عمر إلى حصن الكرك، وهو ليس من أهل الجهاد، ويكنّ كراهية كبيرة للمماليك، ولا ننسى أنه حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصده قطز في المرتين، فآثر المغيث عمر أن يظل مراقباً للأحداث للالتحاق بعد ذلك بالمعسكر الفائز سواء كانوا من المسلمين أو من التتار.. ولا يجب أن يغيب

عنا في ذلك الموقف عظمة قطز الذي تناسى محاولات المغيث عمر لاحتلال مصر، ولم يجعل هذه الخلفية الكئيبة سبباً للفرقة بين المسلمين.

وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الاستجابة تماماً لقطز، وفضل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكمها باسم التتار!.

وأما الأخير وهو الملك السعيد (هذا لقبه!) «حسن بن عبد العزيز» صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين..!!

وهكذا خرج قطز من علاقاته الدبلوماسية الخارجية بأمور مهمة.. فقد تحالف مع أمير حماة «المنصور».. وانضم إليه أيضاً جيش الناصر، وحيّد إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك.. وهذه النتائج تعتبر نتائج مهمة جداً ومؤثرة للغاية، وحتى الانضمام السافر للأمير الأشرف الأيوبي والملك السعيد حسن ابن عبد العزيز إلى التتار كان مهماً، حيث إنه كشف أوراقهما بجلاء، وبُنيت خطة قطز على أساس وضوح الرؤية تماماً.

ونعود لنرتب الأوراق مع قطز رحمه الله:

أولاً: الوضع الداخلي مستقر، والحكومة الجديدة تدين بالولاء التام لقطز.

ثانيا: المهمة الأولى للدولة في تلك الآونة واضحة ومعلنة، وهي إعداد جيش قوي لمقابلة التتار في معركة فاصلة (وضوح الهدف).

ثالثاً: العفو عن المماليك البحرية أشاع جواً من الهدوء النفسي والراحة القلبية عند عموم شعب مصر، وليس عند المماليك البحرية فقط، فمن المؤكد أن جو المشاحنات يترك آثاره السلبية ليس على القادة والجيش فقط، وإنما على الشعب كله، ولا شك أيضاً أن الجيش

المصري قد ازداد قوة باتحاد طرفيه الكبار المماليك البحرية والمماليك المعزية.

رابعاً: انضم إلى جيش مصر الكثير من الجنود الشاميين.. وهؤلاء هم معظم جيش الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، وجيش حماة وعلى رأسه المنصور أمير حماة.

كان هذا هو الوضع السياسي والعسكري لمصر في أوائل سنة ٦٥٨ هجرية، وقد سقطت في ذات الوقت حلب ودمشق وكل فلسطين حتى غزة تحت حكم التتار، والمعروف أن غزة قريبة جداً من الحدود المصرية (أقل من خمسة وثلاثين كيلومترًا).

الشعب.. قبل المعركة:

إذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للسلطة الحاكمة وبالنسبة للجيش.. فماذا كان الوضع بالنسبة للشعب في ذلك التوقيت؟.

كيف كانت حالتهم النفسية ومعنوياتهم وتربوياتهم وأهدافهم؟

هل كان الشعب مؤهلاً لمثل هذا الصدام المروع الذي سيحدث بعد أيام أو شهور مع أكبر وأقوى قوة على وجه الأرض على الإطلاق؟ هل يستطيع شعب مصر أن يقف في مواجهة تلك القوة العاتية التي أسقطت نصف العالم تحت سيطرتها؟!

الواقع أن الشعب في تلك الآونة كان يعاني من أزمة اقتصادية طاحنة، والأزمات الاقتصادية عادة ما تؤثر كثيراً على حياة الشعوب، فيفقدون الطموح في أي شيء، ولا يرغبون إلا في الحصول على لقمة العيش، إلا إذا جاء القائد الذي يعظم عندهم الموت في سبيل الله، ويرفع عندهم قيمة الدين، فعندها تهون

المشاكل المادية والأزمات الاقتصادية إلى جانب الهدف الأعلى: «الجهاد في سبيل الله».. وعندها يصبح الموت في سبيل الله أمنية.

لكن الوضع الذي تسلم فيه قطز حكم مصر كان وضعاً صعباً للغاية؛ فالفتن الدائرة على كرسي الحكم منذ عشر سنوات جعلت الحكام لا يلتفتون كثيراً إلى شعوبهم، إنما كان همّهم تثبيت دعائم ملكهم فقط، وكانت أحلام شعوبهم تأتي في مراتب متأخرة جداً في أولوياتهم.. ولذلك لم يكن المصريون في ذلك الوقت بالشعب الأمثل الذي يشتاق إلى مثل ذلك اليوم الذي يقابل فيه التتار، ولا يحلم بذلك اليوم الذي ينتصر فيه عليهم، بل على العكس، كان الشعب ـ كغيره من شعوب المسلمين ـ يخاف من التتار، ويصيبه الذعر الشديد، والهلع الكبير، عند سماع أخبار الجيوش التترية، وكلما اقترب التتار بصورة أكبر من مصر اضطربت الأفئدة، وتزعزعت النفوس.

ولذلك كانت مهمة رفع الهمة عند هذا الشعب، ورفع روحه المعنوية، وتحميسه على المقاومة.. كانت هذه المهمة من أصعب المهام التي واجهت قطز رحمه الله.. فالجيش غير المؤيد بشعبه جيش لا يقوى أبداً على الصمود.

لابد من السند الشعبي للقائد والجيش، وإلا فالنصر مستحيل.

كان لزاماً على قطز - رحمه الله- أن يوجه اهتماماً خاصاً لتربية شعبه على معاني الجهاد والتضحية والبذل والعطاء، والفداء للدين والحمية للإسلام.

وإن كانت هذه المهمة شاقة، فقد حفظ الله -عز وجل- لشعب مصر في ذلك الوقت قيمتين عظيمتين سَهّلتا نسبياً من مهمة قطز رحمه الله.

أما القيمة الأولى التي حُفظت في مصر في ذلك الوقت فهي قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين؛ فطوال أيام الأيوبيين في مصر، ومنذ أن رسّخ صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله- المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة

الفاطمية الفاسدة.. وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس والحكام على السواء.. حتى إنه لما صعدت شجرة الدرّ إلى كرسي الحكم، وقام العلماء بإنكار ذلك وكتابة الرسائل المعادية للملكة، وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة الدرّ ولا أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء، وما قُيدت حرية عالم أبداً، ولا غُيِّب في ظلمات السجون، ولا مُنع من إعطاء الدروس والخطب..!! ثم كان من جراء أسلوب الأيوبيين في تربية المماليك على الدين أساساً، ثم على الفروسية والقتال، أن احتاج الحكام إلى العلماء باستمرار.. كما أثرت هذه التربية الدينية في المماليك أنفسهم، فأصبحوا يعظمون العلم والعلماء، وإذا قام الرجل ليقول: قال الله -عز وجل-، وقال رسوله الكريم ﷺ استمع له الناس والحكام على السواء وأنصتوا.

وشتان بين شعب ابتعد عن الدين ولكنه ما زال يقدره ويقدر العلماء، وشعب آخر تربى على اعتبار الدين من التقاليد القديمة التي قد تُعظم تعظيماً رمزياً كأي أثر تاريخي..!!

لقد كان من المستحيل في مصر أيام الأيوبيين والمماليك أن يهزأ أحد بعالم دين، أو بشيخ في مسجد، أو بمأذون شرعي، أو بأي رجل حمل صبغة إسلامية.. كما كان من المستحيل على هذا الشعب أن يرفض أي مبدأ إسلامي أو قانون شرعي.. نعم قد يخالف الشعب أحياناً لضعف في الإرادة، أو لهوى في النفس، ولكنه يخالف وهو يعلم أنه يخالف، ولم يأت له أبداً من يقول له: إن المحرمات كالربا والخمور والرقص والملاهي والإباحية والولاء للنصارى... لم يأت له من يقول إن هذه المحرمات أصبحت حلالاً.. ولم يأت من يحرم عليه أمراً حلالاً كذلك، لا في شكل ولا في مضمون.. ولم توقف الحلقات في المساجد، ولم يمنع العلماء من صعود المنابر، ولم تُصادَر الكلمة، ولم تُقتَل النصيحة.

لقد كان الشعب معظماً للدين.. وكان الشعب محباً للإسلام.

ولهذه القيمة العالية للعلم والعلماء في مصر كانت مصر ملاذاً للعلماء الذين لا يجدون في بلادهم فرصة لتعليم الناس، أو يجدون مقاومة من حكامهم لسبب من الأسباب، ولهذا فزيادة على علماء مصر وعلماء الأزهر الشريف ـ والذي أصبح سنياً تماماً بعد ذهاب الدولة الفاطمية ـ جاء إلى مصر علماء أفاضل من بلاد إسلامية أخرى، ولا شك أن هؤلاء العلماء أضافوا إضافات جليلة لحركة العلم في مصر.

وعلى رأس هؤلاء العلماء الشيخ البار، والعالم الفذ، والإمام الجليل: «العز بن عبد السلام» رحمه الله، والملقب «بسلطان العلماء».

وهنا لابد لنا من وقفة مع هذا العالم الجليل.

سلطان العلماء!

«العزّ بن عبد السلام» رحمه الله من أعظم علماء المسلمين على الإطلاق، وهو من مواليد دمشق سنة ٥٧٧ هجرية، أي إنه عند ولاية قطز كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والعزّ بن عبد السلام من العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، وكان كثيراً ما يواجه السلاطين بأخطائهم، وينصحهم في الله دون خوف ولا وجل، ولذلك لقبه تلميذه الأول وعالم الإسلام المشهور «ابن دقيق العيد» رحمه الله بلقب «سلطان العلماء»، فقد جمع العزّ بن عبد السلام - رحمه الله- بين العلم والعمل، وبين الاتباع الشديد للسنة والاجتهاد الصحيح عند الحاجة، وبين الفتوى في الأمور العبادية والعقائدية والفتوى في الأمور السياسية والاجتماعية.. فكان بحق سلطاناً للعلماء، وقدوة للدعاة، وأسوة للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وقد عاش حياته - رحمه الله- في دمشق إلى أن تولّى «الصالح إسماعيل الأيوبي» أمر دمشق، وهو أخو الصالح أيوب الذي كان حاكماً لمصر، والذي

تحدثنا كثيراً عنه وعن صلاحه وتقواه، لكن الصالح إسماعيل حاكم دمشق كان على شاكلة أخرى، فقد كان خائناً لدينه وشعبه، فتحالف مع الصليبيين لحرب أخيه نجم الدين أيوب في مصر، وكان من شروط تحالفه مع الصليبيين أن يعطي لهم مدينتي صيدا والشقيف، وأن يسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، وأن يخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر، وبالطبع ثار العالم الجليل العز بن عبد السلام، ووقف يخطب على المنابر ينكر ذلك بشدة على الصالح إسماعيل، ويعلن في صراحة ووضوح أن الصالح إسماعيل لا يملك المدن الإسلامية ملكاً شخصياً حتى يتنازل عنها للصليبيين، كما أنه لا يجوز بيع السلاح للصليبيين، وخاصة أن المسلمين على يقين أن الصليبيين لا يشترون السلاح إلا لضرب إخوانهم المسلمين.. وهكذا قال سلطان العلماء كلمة الحق عند السلطان الجائر الصالح إسماعيل.. فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن عزله عن منصبه في القضاء، ومنعه من الخطابة، ثم أمر باعتقاله وحبسه، وبقي العالم الجليل مدة في السجن، ثم أُخرج من سجنه ولكنه مُنع من الكلام والتدريس والخطابة، فرحل الإمام الجليل من دمشق إلى بيت المقدس ليجد فرصة ليعلم الناس هناك بدلاً من السكوت في دمشق، وأقام بها مدة، ولكنه فوجئ بالصالح إسماعيل يأتي إلى بيت المقدس ومعه ملوك الصليبيين وجيوشهم وهم يقصدون مصر لاحتلالها، وأرسل الصالح إسماعيل أحد أتباعه إلى الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله، وكان متلطفاً له غاية التلطف، بل ووعده بالعودة إلى كل مناصبه بشرط أن يترضى الصالح إسماعيل، ويعتذر له، وبشرط ألا يتكلم في أمور السياسة، وإلا اعتقله.

وذهب رسول الصالح إسماعيل إلى العز بن عبد السلام - رحمه الله- وقال له: «بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه، وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتُقبل يده لا غير!».

فرد عليه العز بن عبد السلام - رحمه الله- في كبرياء وعزة فقال: «والله يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده، يا قوم: أنتم في واد، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

الله أكبر..!! هؤلاء هم العلماء بحق!

وكان رد الصالح إسماعيل متوقعاً، فقد أمر باعتقال الشيخ الكبير في بيت المقدس، ووضعه في خيمة مجاورة لخيمته، وكان الشيخ عزّ الدين رحمه الله يقرأ القرآن في خيمته، والسلطان الصالح إسماعيل يسمعه، وفي ذات يوم كان الصالح إسماعيل يتحدث مع ملوك الصليبيين في خيمته والشيخ يقرأ القرآن، فقال الصالح إسماعيل لملوك الصليبيين وهو يحاول استرضاءهم: «تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم، قال: هذا أكبر علماء المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم».

يقول الصالح إسماعيل هذا الكلام ليسترضي ملوك النصارى، فقال له ملوك النصارى وقد سقط تماماً من أعينهم: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها!».

وحُبس الشيخ العز بن عبد السلام في بيت المقدس إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخلص بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٣ هجرية، وهنا أخرج الشيخ العز بن عبد السلام من السجن وجاء إلى مصر، حيث استُقبل أحسن استقبال، وقرب جداً من السلطان الصالح أيوب رحمه الله، وأعطاه الخطابة في مسجد عمرو بن العاص، وولاه القضاء.

ومن مواقفه الشهيرة والتي اصطدم فيها مع الصالح أيوب نفسه، أنه لما

عاش في مصر اكتشف أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى كلها للمماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك، ولذلك فهم في حكم الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار، فأصدر مباشرة فتواه بعدم جواز ولايتهم لأنهم من العبيد، واشتعلت مصر بغضب الأمراء الذين يتحكمون في كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك، وجاءوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلي عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض كل هذا مع إنه قد جاء مصر بعد اضطهاد شديد في دمشق، ولكنه لا يجد في حياته بديلاً عن كلمة الحق، فرفع الأمر إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ، ورفضه، وقال إن هذا الأمر ليس من الشئون المسموح بالكلام فيها، فهنا وجد الشيخ العز بن عبد السلام أن كلامه لا يسمع، فخلع نفسه من منصبه في القضاء، فهو لا يرضى أن يكون صورة مُفتٍ، وهو يعلم أن الله -عز وجل- سائله عن سكوته كما سيسأله عن كلامه، ومن هنا قرر العالم الورع أن يعزل نفسه من المنصب الرفيع، ومضحياً بالوضع الاجتماعي وبالمال وبالأمان بل وبكل الدنيا.

وركب الشيخ العز بن عبد السلام حماره، وأخذ أهله على حمار آخر، وببساطة قرر الخروج من القاهرة بالكلية، والاتجاه إلى إحدى القرى لينعزل فيها إذا كان لا يُسمع لفتواه، ولكن شعب مصر المقدّر لقيمة العلماء رفض ذلك الأمر، فماذا حدث؟

لقد خرج خلف الشيخ العالم الآلاف من علماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خرج النساء والصبيان خلف الشيخ تأييداً له، وإنكاراً على مخالفيه.

ووصلت الأخبار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فأسرع بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام واسترضاه، فما قبل إلا أن تنفذ فتواه، وقال له: إن

أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلابد أن يباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين فلابد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين، ووافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العزّ بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء حتى لا يحدث نوع من التلاعب، وبدأ يعرض الأمراء واحداً بعد الآخر في مزاد، ويغالي في ثمنهم، ودخل الشعب في المزاد، حتى إذا ارتفع السعر جداً، دفعه الملك الصالح نجم الدين أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعتقه بعد ذلك، ووضع المال في بيت مال المسلمين، وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف «ببائع الأمراء!».

يتبدى لنا من هذه القصة، وفي سيرة الشيخ العز بن عبد السلام - رحمه الله- بصفة عامة، قيمة العلم والعلماء في مصر في ذلك الوقت، واحترام الناس لكلمة الشرع، وكل هذا كان له أثر بالغ في تكوين الشعب المصري، وفي استجابته لنصائح العلماء.

إذن من حديثنا السابق عن العلماء وعن الشيخ العز بن عبد السلام كمثال لهم، يتبين أن قيمة العلم والعلماء كانت عالية جداً، ومحفوظة تماماً في الشعب المصري أيام الأيوبيين والمماليك، وهذا - ولا شك- سيكون عوناً هاماً لقطز - رحمه الله- في بث معاني الجهاد والتضحية في الشعب بعد ذلك.

الجهاد في سبيل الله :

أما القيمة الثانية ـ بعد قيمة العلم والعلماء ـ التي كانت محفوظة في مصر فهي قيمة الجهاد في سبيل الله.

لقد كان المسلمون في مصر في تلك الآونة يؤمنون إيماناً عميقاً بحتمية الجهاد

في سبيل الله للأمة التي تريد أن تعيش.. ما سقطت قيمة الجهاد في سبيل الله حتى في أوقات الضعف، وحتى في أوقات الصراع على السلطة، وحتى في أوقات الأزمات الاقتصادية.

وكانت الحملات الصليبية المتتالية على مصر والشام سبباً في بقاء هذا الشعور عند المسلمين في مصر، وعلموا أنه من المستحيل أن يكون هناك ما يسمى «بالسلام الدائم».. هذا أمر مستحيل فعلاً.. لأن من سنن الله - عز وجل- أن يظل الصراع دائراً إلى يوم القيامة بين أهل الحق وأهل الباطل.. وسيظل الحق موجوداً إلى يوم القيامة، وسيظل كذلك الباطل موجوداً إلى يوم القيامة، ولذلك فلن يقف الصراع أبداً إلا أن يتحول كل أهل الباطل إلى الحق، أو يتحول كل أهل الحق إلى الباطل، وهذا افتراض مستحيل، ولذلك فأكذوبة «السلام الدائم» هي أكذوبة ما يراد بها إلا خداع الشعوب وتسكينها وإبعادها عن الاستعداد الدائم للحرب.

لقد كان المسلمون في مصر في ذلك الوقت يعظمون جداً كلمة «الجهاد في سبيل الله»، ويربطونها دائماً بالله -عز وجل-، ولأن الجيوش الصليبية كانت دائماً أكثر عدداً من الجيوش المسلمة كانت الجيوش المسلمة شديدة الارتباط بربها عند المعارك، وشديدة التضرع إليه، وحريصة على توجيه النية كاملة لله - عز وجل-.. ولكل ذلك ما سقطت أبداً قيمة الجهاد في سبيل الله، وما وجد في ذلك الزمان من يُسَفِّه أمر الجهاد، أو يتهم من أراد الجهاد بأنه «إرهابي» أو «متطرف» أو «أصولي».. لم تكن كلمة الجهاد سبّة، إنما كانت فضلاً عظيماً، وهدفاً سامياً.

ولذلك كان الجيش المصري - آنذاك- مستعداً دائماً، حريصاً دائماً على استكمال كل أسباب القوة والإعداد، ولم يُفرغ الجيش أبداً لأعمال مدنية كما

تفعل الدول التي لا تجاهد ولا تنوي أصلاً أن تجاهد، إنما كان الجيش متفرغاً للتدريب العسكري، وتحديث السلاح، والتمرين على الخطط المختلفة للحروب، وإفراز القيادات الجديدة الماهرة، وحماية البلاد من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ونجدة المسلمين في البقاع المختلفة.

لقد كان الجيش المصري مستعداً دائماً.. وكان الشعب المصري كذلك مستعداً دائماً.

وشتان بين شعب رُبِّي على هذه المعاني، وشعب آخر رُبِّي على أنه لا بديل للسلام، وعلى أن خيار الحرب غير مطروح، وعلى أن الاستراتيجية الصحيحة هي المفاوضات والموائد المستديرة والمستطيلة، والمباحثات الهلامية، والاتفاقات الهزلية.

الشعب الذي من هذه الصورة الأخيرة ينشأ شعباً رخواً مائعاً لا لون له، ولا طعم، ولا هدف له، ولا حمية عنده.

وشعب مصر أيام قطز - رحمه الله- لم يكن على تلك الصورة.

إذن.. كان الشعب في مصر في الأيام التي صعد فيها قطز - رحمه الله- إلى كرسي الحكم على الرغم من أزماته الاقتصادية، وظروفه الصعبة، وفزعه من أخبار التتار، وفقدانه الثقة في كثير من زعمائه... كان شعباً واعياً فاهماً مقدراً لقيمة العلم والعلماء، ومحترماً لقيمة الجهاد في سبيل الله كوسيلة حتمية لحل الصراع مع الدول التي تغير على بلاد المسلمين.

وقطز - رحمه الله ـ كما رأينا ـ كان واضعاً قضية التتار نصب عينيه من أول يوم حكم فيه البلاد، بل كان واضعاً هذه القضية نصب عينيه في كل حياته، من يوم أن كان طفلاً أغار التتار على بلده، وقتلوا أهله، ومروراً بكل مراحل حياته الصعبة، وحياة الرق والعبودية، وانتهاءً بصعوده إلى أعلى منصب في مصر.

ورأينا كيف خطط قطز - رحمه الله- لتقوية جيشه، ولتدعيم الصف

الداخلي في مصر، ولتحسين العلاقات الخارجية مع الأشقاء المسلمين، ولا شك أنه كان يحتاج إلى وقت طويل، ولكن كثيراً ما تُفرض المعارك على المسلمين فرضاً، فلا يجدون الوقت الكافي للإعداد والتمهيد، ولذلك على الأمم التي تريد أن تعيش أن تكون جاهزة ومستعدة بصورة دائمة..

«قطز» في المواجهة!

فبينما كان قطز في إعداده المتحمس، وفي خطواته السريعة، جاءته رسل هولاكو يخبرونه أن اللقاء سيكون أسرع مما يتخيل، وأن الحرب على وشك الحدوث.. وبينما كان قطز - رحمه الله- في حاجة إلى بضعة شهور للإعداد إذا بالأيام تتسرب من بين يديه، والحرب مفروضة عليه، وما بين عشية وضحاها ستهجم الجحافل الهمجية على مصر، شاء قطز أم أبى، وشاء الجيش أم أبى، وشاء الشعب أم أبى، فالصراع سيكون قريباً، وقريباً جداً بين أي فئة مؤمنة، وبين أكبر قوة في الأرض، إن كانت هذه القوة ظالمة، فالظالمون المتكبرون لا يقبلون أبداً بصديق ولا حليف ولا محايد، إنما فقط يريدون التابع، ولابد أن يكون التابع ذليلاً..!!

جاءت رسل هولاكو لعنه الله، وهي تحمل رسالة تقطر سماً، وتفيض تهديداً ووعيداً وإرهاباً.. لا يقوى على قراءتها إلا من ثبته الله -عز وجل-.

﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾[الإسراء:٧٤].

وبفضل الله ثبّت الله -عز وجل- قطز، فقرأ الرسالة برباطة جأش عجيبة، وكذلك المؤمن الصادق، إذا خوّفه أحد الظالمين، استحضر هيبة الله تعالى، فهان عليه كل ظالم أو متكبر.

جاءت رسالة هولاكو مع أربعة من الرسل التتر.. وقرأ قطز -رحمه الله- فإذا فيها ما يلي:

«بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلطنا على خلقه.

الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس «المماليك».

صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها، وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها.

إنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غيظه.

فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر.

فاتعظوا بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم.

قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ.

فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى.

فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد.

فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب.

فأي أرض تؤويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟

وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟

فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص.

فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق.

وقلوبنا كالجبال، وعديدنا كالرمال!

فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع!

لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان.

فأبشروا بالمذلة والهوان.

(فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

وقد ثبت أنا نحن الكفرة وأنتم الفجرة.

وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة، والأحكام المقدرة.

فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل.

فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا رد الجواب.

قبل أن تضطرم الحرب نارها، وتوري شرارها.

فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أزتكم رماحنا أزاً.

وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية.

فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم».

وانتهت الرسالة العجيبة التي خلت من أي نوع من أنواع الدبلوماسية، إنما كانت إعلاناً صريحاً بالحرب، أو البديل الآخر وهو التسليم المذل، ولابد أن يكون التسليم مذلاً، بمعنى أنه دون فرض أي شروط، أو طلب أي حقوق.

عقد قطز - رحمه الله- مجلساً استشارياً أعلى، وجمع كبار القادة والأمراء والوزراء، وبدءوا فوراً في مناقشة القضية الخطيرة التي طرحت أمامهم، والخيارات محدودة جداً، إما الحرب بكل تبعاتها، وإما التسليم غير المشروط.

أما قطز - رحمه الله- فكانت القضية في ذهنه واضحة تمام الوضوح، إنه لم يطرح الخيارين على نفسه للتفكير، فخيار السلام - أو «الاستسلام» - في هذا

الموقف غير وارد عنده أبداً، وهو يعلم تمام العلم أن الحقوق لا «توهب» بل «تؤخذ»، وأن الجيوش المعتدية لا «تُقنع» بالعودة إلى بلادها، بل «تُرغم» على العودة إلى بلادها.

هكذا كانت الرؤية في منتهى الوضوح عند قطز رحمه الله.

لكن الأمراء الذين اجتمعوا معه لم يكونوا على هذه الدرجة العالية جداً من الفقه والفهم.. نعم لديهم حمية دينية عالية، ونعم يحبون الإسلام حباً جماً، ونعم على درجة راقية من الفروسية والمهارة القتالية، لكن الاختبار صعب جداً.

لقد كانت الفجوة هائلة فعلاً بين إمكانيات التتار كدولة من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، وإمكانيات مصر التي مهما زادت فهي محدودة.. لقد كانت الفجوة هائلة فعلاً بين أعداد التتار وأسلحة التتار، وأعداد المصريين وأسلحة المصريين، هذا فوق السمعة الرهيبة لجيوش التتار، وفوق الملايين المسلمة التي دُبحت على أيدي التتار، بالإضافة إلى الجيوش الخوارزمية والأرمينية والكرجية والعباسية والأوروبية والشامية التي هُزِمت أمام جيوش التتار.

لقد شاعت في تلك الأزمان كلمة تناقلها العوام والخواص.. كانوا يقولون: «إذا أخبرك أحد أن التتار يُهزمون فلا تصدقه!!».

كل هذه التراكمات جعلت الأمراء يترددون في قبول ما رآه قطز - رحمه الله- أمراً واضحاً جداً لا تردد فيه.. وظهر عليهم الهلع والضعف والتثاقل إلى الأرض!

كيف يتصرف القائد الحكيم مع مثل هذا الموقف؟

كيف ينزع الخوف والرهبة من القلوب؟

كيف يقنع قادة جيشه بأمر يعتقدونه مستحيلاً؟!

تعالوا نتعلم من قطز - رحمه الله-.

أنا ألقى التتار بنفسي..!

لقد سلك قطز طريقين من أعظم طرق التربية، ومن أبلغ وسائل التحميس والتحفيز على عمل قد يستصعبه كثير من الناس.

أما الطريق الأول فهو طريق «التربية بالقدوة».

لقد قال لهم قطز في شجاعة وعزم: «أنا ألقي التتار بنفسي».

قطز الذي يجلس على عرش الدولة العظيمة مصر سيخرج بنفسه للقاء التتار!.

قطز الذي لم «يستمتع» أو«يستفد» بعد من كرسيه ومنصبه سيخرج للجهاد!

قطز الشاب الذي ما زالت أمامه الحياة طويلة ـ كما يقولون ـ سيخرج للموت في سبيل الله..!!

لن يرسل جيشاً لمقابلة التتار ويبقى هو في قصره الآمن في القاهرة، بل سيتحمل مع شعبه ما يتحمل، وسيعاني مع جيشه ما يعاني.. ولو أرسل قطز جيشاً وبقي هو في القاهرة ما لامه أحد، فهو قائد المسلمين، والآمال معقودة عليه، ولو مات فقد ينفرط عقد الأمة، ولكن قطز لم يجد وسيلة أفضل من هذه الوسيلة لتحميس القلوب الخائفة، ولتثبيت الأفئدة المضطربة.. كما أنه يشتاق إلى الجهاد، ويشتاق إلى الشهادة، ويشتاق إلى الجنة.

وفي كل الأحوال هو لن يموت قبل الموعد الذي حدده الله له.

لقد فقه قطز عملياً ما أدركه كل المسلمين نظرياً.. وهو أنه «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها».. لكن مَن مِن المسلمين يعيش واقع حياته فعلاً بهذا المفهوم الذي عرفه نظرياً؟!

إن الناس تتصارع دائماً لأجل زيادة الرزق، وتتصارع دائماً لأجل زيادة العمر، لكن الذي لا يعرفه كثير من الناس أن الشجاعة لا تقلل أبداً من الأرزاق، ولا تقصر مطلقاً من الأعمار، وأن الجبن لا يكثر من المال المقسوم للإنسان، ولا يخلده في الحياة.

كما فقه قطز - رحمه الله- الحقيقة الرائعة، وهي أن الحياة بعزة ولو ساعة، خير من البقاء أبد الدهر في ذل وهوان.

ماذا كان ردّ فعل الأمراء؟!

لا شك أن الأمراء والوزراء لما شاهدوا قطز - رحمه الله- بهذه الحمية تحمست قلوبهم.

هذه هي القدوة أيها المؤمنون.

«فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل».

إن القائد مهما قام بجولات بين جنوده وقواده وشعبه يحمسهم ويشجعهم، لكنهم يعلمون أنه عند الضوائق والشدائد لن يجدوه معهم، بل سيؤمن نفسه وأحبابه فقط، ويترك جنوده وشعبه لمصيرهم، فإن هذه الجولات وهذه الخطب لا تؤثر شيئاً في الناس.

وقدوتنا العظمى في القادة الذين يعيشون هموم شعبهم، ويشاركونهم في كل صغيرة وكبيرة هو رسول الله ﷺ.

روى البخارى عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ، وقد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: «لن تراعوا، لن تراعوا»، وهو على فرس لأبي طلحة، عُري ما عليه سرج، في عنقه السيف، فقال: «لقد وجدته بحراً».

لقد سمع الرسول ﷺ صوتاً مفزعاً في الليل وهو في المدينة، فما أمر أحداً بالخروج للبحث عن مصدر الصوت، مع أنه قائد المدينة المنورة ورسول المسلمين، وكان خروجه سريعاً حتى إنه استعار فرساً من أبي طلحة، ولم ينتظر وضع السرج عليه، ولكنه فقط أخذ سيفه، وركب الفرس، وانطلق يبحث عن مصدر الصوت.. ولما اطمأن أنه لا شيء يهدد المدينة عاد إليها وقد خرج الناس فزعين، فإذا هو يطمئنهم: «لن تراعوا»، أي لن تفزعوا، ثم قال كلمة يثني فيها على الفرس الذي كان مشهوراً بالبطء، فقال: «لقد وجدته بحراً» أي سريعاً في الجري.. يقول ثابت أحد رواة الحديث كما جاء في سنن ابن ماجة: «كان فرساً لأبي طلحة ﷺ يُبطأ (يُتَّهم بالبطء) فما سُبق بعد ذلك اليوم».

والشاهد من الموقف أن الرسول ﷺ كان يعيش هموم شعبه، ويفتديهم بروحه، ويضحي بنفسه من أجلهم، ولا يفعل مثلما يفعل كثير من الزعماء الذين يضحون بشعوبهم بكاملها من أجل أنفسهم.

يروي الإمام أحمد - رحمه الله- عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «كنا إذا احمرَّ البأس (اشتدَّت الحرب)، ولقي القومُ القومَ، اتقينا (احتمينا) برسول الله ﷺ؛ فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه».

هذه هي «التربية بالقدوة».

وهكذا فعل قطز - رحمه الله- مع الأمراء والقواد حين قال لهم: «أنا ألقى التتار بنفسي».

كان هذا هو الطريق الأول الذي سلكه قطز - رحمه الله- في تحميس القوم.

من للإسلام؟ إن لم نكن نحن؟؟

أما الطريق الثاني فهو التذكير بعظم الهدف الذي من أجله خلق الإنسان، وبنبل الغاية التي من أجلها نعيش على الأرض.

إنه يرتفع بنفوس الناس من مطامع الناس المادية البحتة إلى آفاق عالية جداً جداً.. إنه يربط كل عمل يعملونه بإرضاء الله -عز وجل-، وبنصرة الدين.

إذا عظَّم كل واحد منا أمر الإسلام في قلبه فإنه سيستصغر أي تضحية في سبيل نصرة هذا الدين.

هذه من أبلغ وسائل التحميس والتحفيز.. أن تعظم الغاية والهدف إلى أقصى درجة.. فيصبح جهادُك واستعدادُك وحركتك نوعًا من العبادة لله رب العالمين.

لم يحفزهم قطز بدنيا، ولم يحفزهم لاتباع شخص معين، ولم يحفزهم بقومية مصرية أو غيرها، ولم يحفزهم بقومية عربية أو بغيرها، ولم يحفزهم حتى بحب البقاء في هذه الحياة، والدفاع عن النفس ضد الموت.. بل إنه حفزهم بالحرص على الموت..!!

وشتان بين من يجاهد وهو حريص على أن يموت، ومن يجاهد وهو حريص على ألا يموت..!! شتان فعلاً.

لقد قال لهم قطز في صراحة:

«يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين (عن القتال)».

كلام في منتهى الدقة، وفي منتهى الروعة.

القضية – بوضوح- قضية إيمان.

إذا علمت أن الله مراقب لك وخالفت، فإن وبال ذلك عليك.

ورسول الله ﷺ لم يُكره منافقاً على الخروج معه للقتال.. بل كان يترك الأمر على السعة، بل إنه إذا تخلف المسلمون المؤمنون (كما حدث في غزوة تبوك من بعض المؤمنين) فإنه لا يكرههم، بل كان إذا ذُكر له رجل تخلف قال: «دعوه، فإن يكن فيه خير سيُلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه».

وهكذا فعل قطز رحمه الله.

من أراد أن يخرج للجهاد في سبيل الله فليفعل، ومن أراد النكوص على عقبيه، والركون إلى الدنيا فليعلم أن الله مطلع عليه، وليعلم أن حرمات المسلمين والمسلمات التي تُنتهك في رقبته.

ولا يخفي علينا الإشارة المهمة التي ذكرها قطز من أن هؤلاء الأمراء والوزراء قد عاشوا سنوات يأكلون من بيت مال المسلمين، بل ويكثرون من الأكل والجمع، حتى فقدت وظائفهم كل معنى، ولم يبق لها إلا معنى واحد هو استغلال المنصب لأقصى درجة لزيادة الثروة، من الحلال وغير الحلال على السواء، وما عاد الوزير يعتقد أنه موظف عند الشعب وليس سيداً عليهم، وأنه كما أن له حقوقاً فإن عليه واجبات، وأنه مسئول ومحاسب من الله، ومن شعبه على كل خطوة، وعلى كل درهم أو دينار.. لقد كانت هذه الكلمات من قطز تهدف إلى إيقاظ الضمير، وإلى إحياء الأمانة، وكشفت هذه الكلمات الوزراء أمام أنفسهم.. لقد كان قطز يرى بوضوح ما بداخل كل وزير!!

ثم تحركت المشاعر بصورة أكبر وأكبر في صدر قطز - رحمه الله-، حتى وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول:

«يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن؟!».

كلمة رائعة.. كلمة هائلة..!!

كلمة تصلح أن تكون منهجاً للحياة.

إذا قالها كل مسلم فلن تسقط أبداً أمة الإسلام.

أحياناً ينتظر المسلم أن يأتي النصر من مسلمين آخرين.. ينتظر أن يتحرك للإسلام فلان أو غيره، ولكنه قليلاً ما يفكر هو في التحرك.. بل كثيراً ما يقوم بعملية نقد وتحليل وتعليق على أفعال وأقوال العاملين للإسلام، أما هو فلا يتحرك!

أحياناً ينتظر المسلم أن يخرج صلاح الدين أو خالد أو قطز أو القعقاع من بيت جاره، أو من بلد آخر، ولا يفترض أن يخرج هؤلاء من بيته هو شخصياً.

لماذا لا تكون أنت صلاح الدين الأيوبي؟

لماذا لا تكون أنت يوسف بن تاشفين؟

لماذا لا تكون أنت نور الدين محمود الشهيد؟

لماذا؟

من للإسلام إن لم نكن نحن؟

ووقعت الكلمة في قلوب الأمراء.. فضجوا جميعاً بالبكاء..!!

لقد خشعت القلوب.. ومن خشع قلبه فيرجى منه الخير كله.

وقام بعض الأمراء وتكلموا بخير، فقام البقية يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن، وهكذا نجح قطز - رحمه الله- في خطوة هي من أصعب خطوات حياته، وهي في ذات الوقت من أعظم خطوات حياته.

إذن مصر تعلن الحرب على التتار..!!

قرار من أخطر القرارات في تاريخ مصر مطلقاً.. وهو قرار لا ينفع أن

يرجع عنه القائد أو الجيش أو الشعب، وقطز - رحمه الله- يعلم أن قلوب الأمراء وافقت تحت تأثير القدوة، وتحت تأثير التذكير بالله، وبالواجب نحو الإسلام، لكن من الممكن لهذه القلوب أن تتردد وأن تخاف، ولذلك فقد أراد قطز أن يفعل أمراً يقطع به خط الرجعة تماماً على الأمراء، ويقطع به الأمل في الاستسلام، ولا يبقى أمامهم غير الخيار العسكري فقط!.

ماذا قرر قطز؟!

لقد قرر قطز بعد أن استشار مجلسه العسكري أن يقطع أعناق الرسل الأربعة الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وأن يعلّق رءوسهم على باب زويلة في القاهرة، وذلك حتى يراها أكبر عدد من الشعب، وهو يرمي بذلك إلى طمأنة الشعب بأن قائدهم لا يخاف التتار، وهذا سيرفع من معنوياتهم، كما أن هذا الردّ العنيف سيكون إعلاناً للتتار أنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل، وهذا قد يؤثر سلباً على التتار، فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل الأربعة هو قطع التفكير في أي حل سلمي للقضية، والاستعداد الكامل الجادّ للجهاد، فبعد قتل الرسل الأربعة لن يقبل التتار باستسلام مصر حتى لو قبل بذلك المسلمون.

كان هذا هو اجتهاد قطز - رحمه الله- والأمراء.

ومع ذلك فلنا وقفة مع هذا الحدث.

وقفة أمام قتل الرسل:

فأنا لا أدري ما هو السند الشرعي لقطز - رحمه الله- في عملية القتل هذه؟!.

فالرسل في الإسلام لا تقتل.. لا رسل المسلمين، ولا رسل الكفار، ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام.!

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: «أتشهدان أني رسول الله؟» قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما».

يعلّق عبد الله بن مسعود ﷺ على هذا الحديث فيقول: فمضت السنة أن الرسل لا تُقتل.

هذا الحديث رواه الإمام أحمد والحاكم، وأخرجه أيضاً أبو داود والنسائي مختصراً.

وفي رواية لأحمد وأبي داود عن نعيم بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في نفس الموقف: «والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما».

يقول الإمام الشوكاني - رحمه الله- في كتابه القيم «نيل الأوطار»: هذان الحديثان (حديث عبد الله بن مسعود وحديث نعيم بن مسعود رضي الله عنهما) يدلان على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين.

لهذا فالحكم الشرعي في الإسلام أن الرسل لا تقتل، ولا أدري ما الحجة الشرعية التي استخدمها قطز ليقتل هؤلاء الرسل؟ ولا أدري لماذا سكت العلماء في زمانه عن هذه النقطة؟ أو لعلهم تكلموا ولم يصل إلينا قولهم، ولعل قطز اجتهد في أن التتار قد هتكوا كل الأعراف والقوانين والمواثيق، فقتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين، وبأعداد لا تحصى، وقد قتلوا في بغداد وحدها مليون مسلم، هذا غير المدن التي سبقت والتي لحقت، ولعله اجتهد هذا الاجتهاد بعد أن أساء الرسل الأدب معه، وأغلظوا له في القول، وتكبروا عليه.. لعل هذا كان اجتهاده، وإن كنت أقول إننا لا يجب أن نُجرّ أبداً إلى قذارات السياسة المادية، وإلى أخلاق الكفار.. فإذا قتل الكفارُ الأطفالَ المسلمين فلا

يجوز للمسلمين أن يقتلوا أطفال الكفار بحجة أن العقاب بالمثل، وإذا قتل الكفار النساء المسلمات وهتكوا أعراضهن فليس هذا مبرراً لقتل النساء الكافرات غير المقاتلات، وهتك أعراضهن، وهتك العرض طبعاً غير مقبول سواء للمقاتلة أو غير المقاتلة، وإذا خان الكفار العهد فلا يجوز للمسلمين خيانة عهودهم.. وعلى الوتيرة نفسها لا يقتل المسلمون الرسل، ولا يقتل المسلمون الكفارَ الذين أخذوا أماناً من المسلمين.

كلُّ هذا ليبقى دين الإسلام نقياً خالصاً غير مختلط بقذارات القوانين الوضعية.. وليظل المثل الإسلامي الرفيع، والخلق الإسلامي العالي وسيلة باقية لدعوة شعوب الأرض إلى هذا الدين الرائع.. دين الإسلام.

لكل ما سبق فإني أعتبر ما حدث من قطز والأمراء في هذه الخطوة هو هفوة وخطأً في الاجتهاد.. ولابد لكل إنسان مهما عظم قدره أن يكون له أخطاء إلا الأنبياء المعصومين.. ويكفي المرء فخراً أن تعد معايبه.

المشكلة الاقتصادية:

بعد هذا الاجتماع الخطير، وبعد هذا القرار الصعب، وبعد قتل الرسل.. بدأ قطز - رحمه الله- في التجهيز السريع للجيش، فقد اقتربت جداً لحظة المواجهة.

لكن واجهت قطز مشكلة أخرى ضخمة لا تقل عن المشاكل التي قابلها قبل ذلك.. ولاحِظوا أن قطز - رحمه الله- قد تولّى عرش مصر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٥٧ هجرية، وجاءته رسالة هولاكو قبل أن يغادر هولاكو أرض الشام عائداً إلى منغوليا بعد وفاة زعيم التتار منكوخان، وهولاكو غادر الشام بعد سقوط حلب بقليل، وقبل فتح دمشق، وحلب سقطت في صفر ٦٥٨ هجرية، ودمشق سقطت في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هجرية.. أي بعد تولّي قطز

- رحمه الله- لرئاسة مصر بثلاثة شهور فقط.

إذن كل الترتيبات والخطوات التي أخذها قطز - رحمه الله- أخذت في ثلاثة شهور فقط، والمشاكل التي قابلها تحتاج فعلاً إلى سنوات - بل إلى عقود كاملة - حتى يتم حلها على الوجه الأمثل.. لكنه -رحمه الله- استعان بالله، وبدأ بحمية ونشاط يتعامل مع المشكلة تلو الأخرى، والهدف في ذهنه واضح جداً:

«لابدّ من القضاء على هذه القوة الهمجية.. قوة التتار، وتحرير بلاد المسلمين».

والمشكلة الجديدة التي أمام قطز الآن هي... «المشكلة الاقتصادية!!».

لابدّ من تجهيز الجيش المسلم، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار.. هذه أمور ضخمة جداً.. والأزمة الاقتصادية التي تمر بالبلاد أزمة طاحنة، وليس هناك وقت لخطة خمسية أو عشرية.. والتتار على الأبواب.. لقد كان التتار في غزة..!!

ماذا يفعل قطز رحمه الله؟

من جديد جمع قطز - رحمه الله- مجلسه الاستشاري، ودعا إليه ـ إلى جانب الأمراء والقادة ـ العلماء والفقهاء، وعلى رأسهم سلطان العلماء الشيخ العزّ بن عبد السلام رحمه الله.. وبدءوا يفكرون في حلّ للأزمة الاقتصادية الطاحنة، وكيف يوفرون الدعم الكافي لتجهيز الجيش الكبير الخارج لملاقاة التتار.

واقترح قطز - رحمه الله- أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض

الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جداً، ومؤقتة جداً، ولابدّ من وجود سند شرعي يبيح ذلك.. وإلا صارت الضرائب مكوساً، وفارض الضرائب بغير حق عقابه أليم عند الله -عز وجل-.

روى الإمام أحمد وأبو داود رحمهما الله عن عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة صاحب مكس**».

ولما زنت المرأة الغامدية ـ وكانت متزوجة ـ فرجمت بالحجارة بعد أن اعترفت بالزنا لتطهر نفسها من الذنب، قال رسول الله ﷺ ليعظم من شأن توبتها: «**.. فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**». جاء ذلك في صحيح مسلم عن بريدة ﷺ.

وفي هذا تقبيح شديد لعملية فرض الضرائب إن فرضت في غير حق، وصرفت في غير حق.

يقول الإمام النووي - رحمه الله- تعليقاً على هذا الحديث: «إن المكس من أقبح المعاصي، ومن الذنوب الموبقات، وذلك لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده، وأخذ أموالهم بغير حقها، وصرفها في غير وجهها».

فقطز -رحمه الله- يقترح الأمر، وينتظر رأي العلماء في هذه القضية.

ومع أن الغاية نبيلة، والمال المطلوب سوف يجهّز به جيش للقتال في سبيل الله، إلا أن الشيخ العزّ بن عبد السلام كان عنده تحفظ خطير على هذا القرار، فلم يوافق عليه إلا بشرطين.. والشرطان عسيران جداً!!

فتوى في منتهى الجرأة!!

قال الشيخ العزّ بن عبد السلام -رحمه الله-: «إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما

يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة) بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء (هذا هو الشرط الأول)، أما الشرط الثاني فكان أصعب!.. قال الشيخ العزّ بن عبد السلام - رحمه الله-: «وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا!!».

فتوى في منتهى الجرأة..!!

يقول الشيخ العزّ بن عبد السلام لقطز - رحمه الله-: إنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي لتجهيز الجيش، وليس أكثر من ذلك.

وإن كانت هذه الفتوى عجيبة في جرأتها، فإن استجابة قطز - رحمه الله- كانت أعجب..!!

لقد قبل قطز - رحمه الله- كلام الشيخ العز بن عبد السلام ببساطة!.. وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك!.. فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية.. واكتشف المسلمون في مصر اكتشافاً عجيباً.. لقد اكتشفوا أن مصر غنية جداً، وأن البلد به أموال ضخمة برغم الأزمة الاقتصادية الطاحنة، فقد امتلأت جيوب كثير من الوزراء والأمراء بأموال البلد الهائلة.. وأصبحت ثروات بعضهم تساوي ميزانيات بعض الدول.. لقد كانت ثروات بعضهم تكفي لسداد الديون المتراكمة على البلد.. وكانت ثروات بعضهم تكفي لسد حاجة الفقراء والمساكين.. وتكفي لإصلاح الوضع الاقتصادي.

وللأسف الشديد فإن كثيراً من هذه الأموال قد دخلت جيوب الأمراء والوزراء بطرق غير مشروعة، وبغير وجه حق؛ فهذا يختلس، وهذا يرتشي، وهذا يظلم، وهذا يأخذ نسبة، وهذا ينفق في سفه، وهذا يعطي من لا يستحق... وهكذا بُددت أموال الدولة العظيمة مصر!.. وأصبحت مصر دولة فقيرة نامية بينما إمكانياتها تسمح لها بأن تكون من دول الصدارة!!

ثم جاء قطز - رحمه الله- وبدأ في عملية تنظيف منظمة للبلد!.. تنظيف لليد والقلب.

أخيراً اصطلح القائد مع شعبه بعد سنوات من القطيعة بين الحكام والشعوب.. فكانت النتيجة تجهيز جيش عظيم مهيب.. غايته نبيلة.. وأمواله حلال.. ودعاء الناس له مستفيض.. وإعداده جيد.

كيف لا يُنصر جيش مثل هذا؟!.

إن معادلة النصر في الإسلام ليست صعبة.

المعادلة تقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

ونصر الله -عز وجل- لا يكون إلا بتطبيق شرعه، والجيش المسلم الذي يخالف قاعدة شرعية لا يمكن أن ينصره الله -عز وجل-.. فالبداية بيد المسلمين.. انصر الله -عز وجل- ينصرك الله -عز وجل-.

وهكذا.. جُهِّز الجيش المصري المسلم، وأعد إعداداً عظيماً.

حتمية الجهاد في فلسطين:

وجاء وقت إعداد الخطة، ووضع الخريطة لتحرك الجيش.

واجتمع قطز مع المجلس العسكري لبحث أفضل طريقة لحرب التتار، وليبحثوا توفير أفضل ظروف لتحقيق الانتصار.

وقام قطز - رحمه الله- بإلقاء بيانه الذي يوضح فيه رأيه في الخطة العسكرية.. وبمجرد أن ألقى برأيه، قام المجلس ولم يقعد..! لقد أحدث رأي قطز دوياً هائلاً في المجلس العسكري..!!

ماذا أراد قطز رحمه الله؟

لقد أراد قطز - رحمه الله- أن يخرج بجيشه لمقابلة جيش التتار.... في فلسطين!.

لقد قرر ألا ينتظر في مصر حتى يأتي التتار إليه، بل يذهب هو بجيشه لمقابلتهم.

واعترض أغلب الأمراء.. لقد أراد الأمراء أن يبقى قطز في مصر ليدافع عنها.. فمصر ـ في رأي الأمراء ـ هي مملكته، أما فلسطين فهي مملكة أخرى..!! لقد نظر الأمراء إلى القضية نظرة قومية بحتة.. بمعنى أنه لو لم يدخل التتار مصر فإننا نكون قد تجنبنا لقاءً دموياً هائلاً.. أما إذا ذهبنا نحن إليهم فلا خيار حينئذ سوى المعركة.

أما قطز - رحمه الله- فكانت نظرته أوسع من ذلك.

وبدأ قطز - رحمه الله- يناقش الأمراء ويشرح لهم مزايا خطته، وأبعاد نظرته، وأهداف الحرب في رأيه، ومهمة الجيش في اعتقاده.. لقد أفهمهم قطز - رحمه الله- حقائق غابت - ولمدة سنوات طويلة- عن أذهان الكثيرين منهم.

من هذه الحقائق:

أولاً: أمن مصر القومي يبدأ من حدودها الشرقية وليس من داخل البلد نفسه، وإلا فكيف يأمن المصريون على أنفسهم وإلى جوارهم في فلسطين دولة قوية معادية؟!.. العقل يؤكد أنه من المتوقع جداً أن

تنتهز هذه الدولة المعادية أي فرصة ضعف، وتجتاح مصر من شرقها، وستأخذ سيناء في أيام معدودات، وتهدد مصر في عمقها، فلابد إذن من إضعاف الجيش المعادي الرابض في فلسطين، إما بقتاله هناك، أو بمساعدة من يقاتلونه هناك.. هذا هو التفكير العقلي والمنطقي.

ثانياً: من الأفضل عسكرياً أن ينقل قطز المعركة إلى ميدان خصمه، فإن ذلك سوف يؤثر سلباً على نفوس أعدائه، كما أنه سيوفر له خط رجعة آمنًا إذا حدثت هزيمة للجيش المسلم، أما إذا حدثت الهزيمة للجيش المصري المسلم في داخل مصر، فإن ذلك سيفتح الطريق أمام العدو إلى القاهرة.

ثالثاً: من الأفضل عسكرياً – كذلك- أن يمتلك المسلمون عنصر المفاجأة، فيختاروا هم ميعاد المعركة ومكانها بدلاً من أن يختار العدو ذلك، والمسلمون إذا فاجأوا عدوهم فإن هذا يعطيهم أفضل الفرص للنصر، لأن الجيش المعادي لن يكون مستعداً الاستعداد الكافي، هذا إلى جانب الهزيمة النفسية التي ستلحق به.

رابعاً: (وهذه نقطة مهمة جداً) أن للمسلمين في مصر دوراً مهماً ناحية إخوانهم المسلمين في فلسطين وفي سوريا وفي لبنان وفي العراق وفي أفغانستان وفي أذربيجان وفي الشيشان... ولا يستقيم أن تُقام المذابح للمسلمين في تلك البلاد، وتُنتهك الحرمات، وتُهدم الديار، ولا يتحرك المسلمون في مصر.. إن حركة المسلمين في مصر لنجدة إخوانهم في فلسطين وغيرها ليست فضلاً أو نافلة، إنما هي فرض عليهم.. وليست فرض كفاية، إنما فرض عين.. لقد دهم العدو فعلاً أرض فلسطين فتعيّن القتال على أهلها لدفعه، فإن لم يكفِ أهلها

للقتال تعيّن القتال على من جاورهم من الأقطار الإسلامية، أي مصر والأقطار الأخرى المجاورة مثل سوريا والأردن ولبنان، فإن لم يكفِ أهل مصر والأقطار الأخرى تعيّن على الأقطار الأبعد... وهكذا، حتى لو احتاج القتال لكل مسلم على وجه الأرض.

القضية خطيرة جداً.

انتهاك حرمات المسلمين في بلد ما، وسكوت المسلمين في البلاد الأخرى عن هذا الانتهاك جريمة كبرى، ومخالفة شرعية هائلة.. ولذلك فإن قطز -رحمه الله- سيذهب لنجدة أهل فلسطين وسوريا وغيرهما، حتى لو لم يفكر التتار أصلاً في غزو مصر.

خامساً: للمسلمين دور ناحية التتار أنفسهم.. فهؤلاء إن رفضوا الإسلام أو الجزية وجب على المسلمين قتالهم، حتى ولو كانوا في بلادهم، فما بالك لو كانوا في بلاد المسلمين.. ووجود التتار بهذه المعتقدات الفاسدة، وبهذه الحروب الهمجية يمثل فتنة كبيرة في الأرض.. ولابد للمسلمين أن يقمعوا هذه الفتنة، لأن دور المسلمين في الأرض أكبر بكثير من مجرد تأمين حدود القطر الذي يعيشون فيه، بل عليهم نشر هذا الدين في ربوع الدنيا كلها، وتعليم الناس الإسلام، والأخذ بأيدي كل الناس في كل بقعة على وجه الأرض إلى الله -عز وجل-.

يقول الله -عز وجل-: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[آل عمران:١١٠].

ويقول أبو هريرة ﷺ تعليقاً على هذه الآية كما جاء في صحيح البخارى: «خير الناس لِلناسِ تأتون بِهم فِي السلاسِل في أعْنَاقِهِم حتى يَدْخلوا فِي الإِسْلام».

والمقصود بذلك: الفتوح الإسلامية.. فالناس يكونون في البداية كارهين لمن يغزو بلادهم، ثم بعد ذلك يعرفون الإسلام فيدخلون فيه، فيُستنقذون بذلك من النار ويدخلون الجنة، ولو ظلّوا على حالهم يعبدون صنماً أو خشباً أو بقراً أو ناراً أو بشراً ما دخلوا الجنة، ولا شموا رائحتها..﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨].

إذن هذه خمسة أسباب تجعل قطز - رحمه الله- يفكر في أخذ جيشه، ونقل ميدان المعركة إلى فلسطين بدلاً من مصر.

وعلى الجانب الآخر فلابد أن قطز كان يعلم أنه كانت هناك بعض الفوائد لانتظار جيش التتار في مصر، فانتقال جيش التتار من فلسطين إلى مصر سيُطيل على التتار خطوط الإمداد والمواصلات، فينقطع التتار بذلك عن قواعدهم، كما أنه سيرغم التتار على اجتياز الصحراء الواسعة في سيناء، وهي صحراء مهلكة للجيش الذي لا يعرف مسالكها ودروبها، كما أن انتظار التتار سيوفر على جيش مصر اجتياز صحراء سيناء وهذا سيوفر كثيراً من طاقة الجيش.

ومع ذلك فقياس الفوائد المتحققة من نقل ميدان المعركة إلى فلسطين بالنسبة للفوائد المتحققة من انتظار التتار في مصر يجعل القضية واضحة في ذهن قطز، ففوق الأسباب الخمسة التي ذكرناها، والتي تؤيد انتقاله إلى فلسطين.. كان يعلم أن القوات التترية قد أثبتت قبل ذلك كفاءة عالية في اجتياز الموانع الطبيعية المختلفة، وأنهم يجندون الكثير من أبناء المسلمين الذين يبحثون عن الثراء السريع، أو الراغبين في السلطة، أو في الأمان، وهؤلاء سيدلونهم على أقصر الطرق إلى مصر، وأكثرها أمناً، ولذلك فعبور سيناء بالنسبة للجيش التتري أمر متوقع، كما أن قطز - رحمه الله- كان يطمئن كثيراً إلى جيشه، ويثق في قدراته الحركية، وكفاءته التدريبية، ويعلم أن انتقاله عبر سيناء إلى فلسطين أمر ممكن، بل ميسور إن شاء الله.

وهكذا ترجحت كفة الانتقال إلى فلسطين.. واقتنع الحضور في المجلس العسكري الأعلى الذي عقده قطز - رحمه الله- برأيه الموفق.. وبدأ قطز - رحمه الله- في إعداد الجيش، وتجهيزه التجهيز المناسب لعبور سيناء وللقاء التتار.

أول القوة.. الإيمان:

وتبدأ حملة إعلامية تربوية في غاية الأهمية.. ليست للقائد أو للجيش فقط.. بل للشعب بأكمله!

لابد أن يُجهّز الشعب لهذا اللقاء المهم.

لابد أن يعيش الشعب حياة الجد والكفاح، ويترك حياة اللهو واللعب.

لابد أن يحب الشعب الجهاد.. وتتضح أمامه الأهداف.

ولابد أن يقوم بالحملة الإعلامية رجال مخلصون.. فأحياناً يقف بعض المنافقين يتحدثون عن الجهاد، ويشرحون مآسي المسلمين في قطر ما، وما يفعلون ذلك إلا لمصلحة سياسية مؤقتة، فإذا انقضت المصلحة انقطع الوازع، وانقطع معه الكلام عن الجهاد وعن الحرب.

هؤلاء الخطباء المنافقون، وهذه الأقلام المأجورة لا تصلح لهذه المهمات النبيلة.. ولذلك كان لابد أن يحمل مسؤولية الدعاية الإعلامية لحرب التتار علماء الأمة وفقهاؤها.

انطلق الشيخ العز بن عبد السلام - رحمه الله- ومن معه من علماء الأمة، يصعدون منابر المساجد، ويلهبون مشاعر الناس بحديث الجهاد.. وما أجمل حديث الجهاد.

لقد رغّبوا الناس في الجنة.. وزهّدوهم في الدنيا.. وعظّموا لهم أجر الشهداء.

لقد حدثوهم عن عظماء المسلمين المجاهدين.. حدثوهم عن خالد والقعقاع والزبير والنعمان.. حدثوهم عن طارق بن زياد وموسى بن نصير ويوسف بن تاشفين وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي.

لقد ذكّروهم بأيام الله.. ببدر.. والأحزاب.. وفتح مكة.. واليرموك.. والقادسية.. ونهاوند.

ذكّروهم بموقعة حطين الخالدة التي لم يمضِ عليها إلا خمسة وسبعون عاماً.

كما ذكّروهم بموقعتي المنصورة وفارسكور اللتين لم يمض عليهما سوى عشر سنين.

واشتعل الحماس في قلوب الشعب.

لابد ـ أيها المؤمنون الصادقون ـ من تأهيل الشعب لهذا اليوم.

لابد أن يُربى الأطفال والشباب على حب الموت في سبيل الله، وعلى تعظيم أمر الجهاد، وعلى حب الجنة.

ولابد أن يُربى الآباء والأمهات على أن يشجعوا أبناءهم على الجهاد، لا على أن يبعدوا أبناءهم عن كل ما يسبب «المشاكل»، ويهدد الروح، ولو كان الدين!.

ولابد أن تُربى الزوجات على حياة الجهاد.. فتحفز الزوجة زوجها على الخروج للجهاد، وترعى أولادها حق الرعاية في غياب زوجها، ولابد أن تُربى على استقبال خبر الشهادة بصبر واحتساب، بل بفرح..! لقد صعد الشهيد من أرض الموقعة إلى الجنة مباشرة.

إعداد الشعب ليوم الجهاد مهمة عظيمة.. وهي ليست سهلة أو بسيطة.. إنما تحتاج لمجهود كبير، ولمناهج مكثفة، ولإخلاص عميق، ولوقت قد يكون طويلاً..

وبدون هذا التأهيل لن يصبر الشعب على حياة الجهاد، وحياة الحروب، وحياة الحصار.

الأمر - يا إخواني - في غاية الجدّية.

ليس هناك وقت للترفيه ولا للّعب ولا للمزاح!.

وليس معنى هذا أن الترفيه واللعب والمزاح بالضوابط الشرعية حرام.. ولكن حياة الأمة المجاهدة تختلف عن حياة غيرها من الأمم.. الأمة المجاهدة حياتها جادة، فيها شيء من الترفيه.. وليست حياتها لاهية فيها شيء من الجد!

هذه التربية المركزة جداً تحتاج إلى تغيير جذري في كيان الشعب، وفي طريقة تفكيره، وهذا يحتاج إلى مربين من نوع خاص.. ولابد من تفعيل دور العلماء للقيام بهذا الواجب العظيم.

وانطلق علماء الأزهر ليقوموا بمهمتهم النبيلة جداً.. لقد فقه علماء الأزهر أن عملهم بالأزهر ليس مجرد وظيفة تدر دخلاً لمجابهة متطلبات الحياة، وليست وظيفة لمجرد الظهور في المحافل المختلفة، وليست وظيفة لإرضاء حاكم أو أمير.. إنما فقهوا وظيفتهم السامية في تعبيد الناس - كل الناس- لرب العالمين، وبالطريقة التي أرادها رب العالمين.

انطلق علماء الأزهر يقومون بالدور الذي طالما قاموا به منذ أن أقر صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله- المذهب السنّي في مصر.. الدور الذي قاموا به أيام الحملات الصليبية، وأيام التتار، والذي قاموا به بعد ذلك في معارك المسلمين اللاحقة مع الصليبيين.. ومع الحملة الفرنسية على مصر، ومع الاحتلال الإنجليزي لمصر، ومع الاحتلال اليهودي لمصر.

ونسأل الله -عز وجل- أن يضع دائماً أقدام علماء الأزهر على الطريق

الصحيح لقيادة الأمة في قضاياها الحرجة، ومواقفها الخطيرة.

وأصبح شعب مصر مؤهلاً تماماً ليوم اللقاء.

واستمر إعداد الجيش وتجهيزه، وجمع المتطوعين، وتدريب المجاهدين، وذلك لمدة خمسة شهور، من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨ هجرية إلى نهاية شهر رجب من السنة نفسها.

مشكلة «عكا»:

وفي هذه الأثناء ـ وتجهيز الجيش على قدم وساق ـ كانت هناك جهود دبلوماسية رائعة يقوم بها قطز - رحمه الله- لتمهيد الطريق إلى اللقاء الكبير المرتقب مع التتار.

لقد كانت هناك أجزاء ليست بالقليلة من فلسطين ولبنان وسوريا ـ وخاصة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ـ محتلة من قبل الإمارات الصليبية، فكانت هناك إمارات صليبية في عكا وحيفا وصيدا وصور وبيروت واللاذقية وأنطاكية وغيرها.. وكانت أقوى هذه الإمارات مطلقاً هي إمارة عكا في فلسطين، وهذه الإمارة تقع في طريق قطز - رحمه الله- إذا أراد أن يحارب التتار في فلسطين.. فماذا يفعل قطز - رحمه الله- مع الصليبيين في عكا؟!.

تعالوا نفكر مع قطز رحمه الله.

أولاً: الصليبيون أعداء الأمة كما أن التتار أعداء الأمة، بل إن الصليبيين - كما أشرنا قبل ذلك- أشد خطراً على الإسلام من التتار؛ لأن حرب التتار حرب همجية ليست لها جذور ولا أهداف ولا قواعد، فهي لمجرد التدمير، لا لشيء غير التدمير، أما المشروع الصليبي في أرض الإسلام فهو مشروع مختلف، فالصليبيون يحاربون المسلمين حرباً عقائدية، والكراهية شديدة في قلوبهم للمسلمين، وتخطيطهم لحرب الإسلام نفسه، بينما كان التتار يحاربون أي بشر

وأي حضـارة، والمشـروع الصـليبي يهـدف إلى الاستيطان في بـلاد المسـلمين، وإحلال النصارى مكان سكان البلد المسلمين الأصليين سواء في فلسطين أو في سوريا أو في لبنان، وشتان بين احتلال الشعوب واحتلال الجيوش..! الجيوش التترية ليس لها - مستقبلاً - إلا المغادرة لا محالة، أما الشعوب الصليبية المستوطنة فقد جاءت لتعيش في هذا المكان.. فكون الصليبيين يحاربون من منطلق عقائدي، وكونهم يحاربون ليستوطنوا في البلاد، وليعيشوا فيها يجعل خطورتهم أكبر من خطورة التتار، مع أن الحروب التترية أشد فتكاً وأكثر تدميراً من حروب الصليبيين، وكلاهما مُرّ.. فقطز - رحمه الله- يعلم أن الصليبيين أعداؤه كما أن التتار أعداؤه، ولابد أن يوضع هذا في الحسبان.

ثانياً: تاريخ التعاون الصليبي مع التتار قديم ومعروف، فهم الذين رغّبوا التتار أصلاً في بلاد المسلمين من أيام جنكيزخان، وهم الذين ساعدوا هولاكو في إسقاط بغداد ومدن الشام، وما تحالُف التتار مع الأرمن والكرج وأنطاكية ببعيد.. فوارد جداً أن يصل التتار إلى تحالف استراتيجي خطير مع الصليبيين في عكا.

ثالثاً: مع كون هذا التحالف الصليبي التتري أمر وارد، إلا أن قطز - رحمه الله- كان يعلم أن الصليبيين في عكا يكرهون التتار أيضاً، كما يكرهون المسلمين، وهم لا يكرهونهم فقط بل يخافون منهم كذلك.. فالتتار لا عهد لهم أبداً.. ومذابح التتار الجماعية مشهورة، وفظائعهم في شرق أوروبا وفي روسيا لا تُنسى، وأعداد النصارى الذين قُتلوا على أيدي التتار لا تحصى، كما أن نهب إمارتي صيدا وبيروت على يد التتار لم يمض عليه إلا شهور قليلة.. هذا كله بالإضافة إلى الحقد الصليبي الرهيب على هولاكو لأنه فرض بطريركاً أرثوذكسياً يونانياً على كنائس أنطاكية الكاثوليكية الإيطالية، وذلك في سابقة لم تحدث قبل ذلك أبداً، والجميع يعلم العداء المستحكم بين الأرثوذكس والكاثوليك،

ونصارى عكا كانوا من الكاثوليك المتعصبين جداً، ولا يتصورون أن يحدث ذلك في أنطاكية فضلاً أن يحدث معهم في عكا.. فكل هذه الخلفيات تجعل الصليبيين في عكا يتوجسون خيفة من التتار، ويعاملونهم في حذر شديد.

رابعاً: الصليبيون في ذلك الوقت ـ في سنة ٦٥٨ هجرية ـ يعانون من ضعف شديد، فمنذ هزيمة المنصورة سنة ٦٤٨ هجرية، ومنذ رحيل لويس التاسع ملك فرنسا إلى بلده، وقتل عدد كبير من الجنود الصليبيين في هذه المعركة، وأسر كل الجيش الباقي.. منذ كل هذه الأحداث والصليبيون في تدهور مستمر.. فإذا أضفنا إلى كل ما سبق تحرير بيت المقدس قبل ذلك في سنة ٦٤٣ هجرية على يد الصالح أيوب - رحمه الله- يتضح الوضع الحقيقي للصليبيين الآن.. فكل هذه التداعيات أدّت إلى هبوط كبير في إمكانيات وقدرات ومعنويات الجيش الصليبي في عكا.. ومن هنا فقطز يعلم أنه يتعامل مع عدو شديد الكراهية، ولكنه ليس شديد القوة.

خامساً: إمارة عكا إمارة حصينة جداً جداً.. بل هي أحصن مدينة على الإطلاق في كل الشام وفلسطين، واستولى عليها النصارى سنة ٤٩٢ هجرية، أي منذ مائة وست وستين سنة، ومنذ ذلك التاريخ والقواد المسلمون (بمن فيهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله) يفشلون دائماً في فتحها، ولا شك أن قطز يعلم أن فتح المدينة صعب جداً، حتى وإن كانت الإمارة في أشد حالات ضعفها.

إذن خلاصة هذه الأمور أن الصليبيين أعداء المسلمين كما أن التتار أعداؤهم، وتحالف الصليبيين في عكا مع التتار أمر وارد، وإن كان الصليبيون في عكا يكرهون التتار ويخافون منهم، والصليبيون في أشد حالات ضعفهم الإعدادي والمعنوي، وإن كانت مدينتهم عكا ما زالت أحصن مدن الشام وفلسطين.

في ضوء هذه المعطيات وجد قطز - رحمه الله- أن قتال الصليبيين في عكا سيؤثّر سلباً على جيشه.. نعم الهدف العام والنهائي لقطز هو تحرير كل البلاد الإسلامية من أي احتلال سواء كان تترياً أم صليبياً، لكن الهدف المرحلي الآن هو قتال التتار، وحصار المدينة الحصينة عكا وقتال حاميتها سيضعف جيش المسلمين، وسيضيع عليهم وقتاً، وسيبدد طاقاتهم، وسيرهق جيشهم قبل الموقعة الكبيرة مع التتار.

لكن قطز - في نفس الوقت - لا يستطيع أن يحارب التتار في فلسطين دون الانتهاء من مشكلة الصليبيين في عكا، فلو حدث تعاون (صليبي ـ تتري) فإن هذا سيضع الجيش المسلم بين شقي الرحى.. بين التتار من جهة، وبين الصليبيين من جهة أخرى.

ومن ثم وجد قطز - رحمه الله- أن أفضل الحلول هو الإسراع بعقد معاهدة مع الصليبيين في عكا، قبل أن يتحالف الصليبيون مع التتار.

وأسرع قطز - رحمه الله- بإرسال سفارة إلى عكا للتباحث في إمكانية إقامة هدنة سلام مؤقتة بين المسلمين والصليبيين، ولو وُفق الوفد المسلم في هذه الهدنة فإن هذا سيحيّد جيش الصليبيين من جهة، وسيُؤمّن ظهر الجيش المسلم من ناحية أخرى، وبالفعل جلس الوفد المسلم مع أمراء الصليبيين يتباحثون في أمر هذه الهدنة، وكان الصليبيون من الضعف بحيث إنهم خافوا ألا يظفروا من المسلمين بعهد؛ فينقلب عليهم المسلمون، ولذلك فقد تقبلوا فكرة الهدنة بسرعة، بل أن بعضهم عرض فكرة التحالف العسكري لقتال التتار، غير أن هذه الفكرة لم تلق موافقة من كلا الطرفين.. فبقية أمراء الصليبيين كانوا يخشون من الخروج من عكا بجيشهم فيدخل المسلمون عكا إذا انتصروا على التتار، كما أن المسلمين كانوا لا يضمنون خيانة الصليبيين أثناء القتال، وخاصة أن جيش التتار متعاون

مع بعض ملوك وأمراء النصارى (ملك أرمينيا وملك الكرج وأمير أنطاكية)، كما أن قائد التتار الحالي نصراني وهو كتبغا.

لذلك قبل الطرفان بفكرة الهدنة المؤقتة، وأصر الوفد المسلم على أن تكون هذه الهدنة مؤقتة تنتهي بانتهاء حرب التتار؛ لأنه ليس من المقبول شرعاً أن يقر المسلمون بسلام دائم مع مغتصب للأرض الإسلامية، وليس من الشرع أن يعترف المسلمون بدولة صليبية أو غيرها فوق الأرض الإسلامية مهما تقادم الزمان عليها في احتلال الأرض واستيطانها، واذكروا أن الصليبيين يعيشون الآن في عكا منذ مائة وست وستين سنة، أي أن هناك أجيالاً كاملة ولدت وعاشت وماتت في عكا، ومع ذلك لم يعترف قطز أبداً بأحقية هؤلاء المغتصبين في الأرض الفلسطينية المسلمة.

ولكن لأن قطز - رحمه الله- يعلم أن هؤلاء ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠]، فإنه أخذ حذره عن طريق الترهيب والترغيب مع الصليبيين.. فقد حذرهم الوفد المسلم بشدة من أنه إذا حدثت أي خيانة للعهد، فإن المسلمين سيتركون التتار وينقلبون على الصليبيين، ولن يتركوهم حتى يحرروا عكا، وهكذا فالمعاهدة من منطلق القوة والبأس تختلف كثيراً عن المعاهدة من منطلق الضعف والخَوَر.. القوي دائماً يملي شروطه، والضعيف يتلقى شروط الآخر، ولذلك فإذا عاهد المسلمون قوماً آخرين سواء كانوا تتاراً أو صليبيين أو يهوداً فإنهم لابد أن يملكوا وسيلة العقاب للطرف الآخر إذا خالف المعاهدة، أو نقض بنداً من بنودها، وإلا فلا معنى للمعاهدة، لأنهم حتماً سيخالفون إذا وجدوا فرصة.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

كان هذا هو جانب الترهيب.. أما الترغيب فإن قطز قد وعدهم أنه في حالة

الانتصار على جيش التتار، فإنهم سيبيعون خيول المغول لأهل عكا بأسعار مخفضة.. وهذا إغراء كبير، وذلك لحاجة الناس والأمراء والجيوش الشديدة للخيول.. وخيول التتار مشهورة بالقوة.

هذا وقد اتفق قطز أيضاً مع الصليبيين في عكا أن يسهموا في إمداد الجيش المسلم بالمؤن والطعام أثناء تواجده في فلسطين، ووافق الصليبيون على ذلك.

وأصبح بذلك الطريق إلى لقاء التتار آمناً، وبدأ قطز - رحمه الله- يضع اللمسات الأخيرة في جيشه استعداداً للانطلاق.

.. وتَطَهَّر الجيش المسلم!

وسبحان الله!.. برغم كل هذا الإعداد المادي والدبلوماسي والمعنوي والاقتصادي لهذا الجيش، وبرغم التحفيز العظيم الذي قام به العلماء لحثّ الناس على الجهاد، إلا أن هناك بعض المسلمين الضعفاء لم يصدقوا أن القتال أصبح أمراً واقعاً.. وبالطبع أنا أقصد ضعفاء القلب لا ضعفاء البدن، فإنهم طوال هذه الفترة يعتقدون أن هذه مجرد نفرة حماسية، وسوف تهدأ الأمور بعدها، اعتقدوا أن هذه كلمات تقال من قطز كعادة الزعماء في الضحك على شعوبهم لمجرد التنفيس عن الضغوط؛ لكي لا يحدث انفجار، وما اعتقدوا أبداً أن قطز - رحمه الله- يُعدّ إعداداً حقيقياً للقتال.. فلما اقتربت ساعة الصفر أيقن هؤلاء أن الأمر حقيقي، وأن اللقاء قريب، بل قريب جداً.

هنا تزعزعت قلوب هؤلاء الرجال ـ أو صور الرجال ـ وبدءوا يفكرون في الهرب من الجيش.. ثم بدأ بعضهم فعلاً في الفرار، والاختباء عن أعين المراقبين، بل إن منهم من خرج بالكلية من مصر ليهرب إلى قطر آخر؛ فمنهم من هرب إلى الحجاز، ومنهم من هرب إلى اليمن، ومنهم من وصل في هروبه إلى بلاد المغرب..!!

قد يعتبر بعض المحللين أن هذه خسارة.. وأن الجيش فقد بعضاً من عناصره الهامة، أو على الأقل سيصبح الجيش قليلاً في أعين الأعداء.

لكن سبحان الله!.. الخير كل الخير كان في هروب هؤلاء في هذه اللحظات السابقة للقتال!.. ولعل الله -عز وجل- يصعّب جداً من اللقاء قبل حدوثه حتى ينقّي الصف، فلا يخرج إلى القتال إلا من ينوي أن يثبت.

ماذا يحدث لو خرج هؤلاء المتذبذبون في جيش المسلمين؟

لقد ردّ الله -عز وجل- على هذا السؤال بوضوح في سورة التوبة فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

هؤلاء المذبذبون لو خرجوا في الجيش المسلم لأضعفوا قوته، ولبثّوا فيه الاضطراب والقلق، تارة عن غير عمد بخوفهم وجبنهم، وتارة عن عمد بُغية إثارة الفتنة، ورغبة في إضعاف الصف، وهذه ليست المشكلة الوحيدة، بل المشكلة الأكبر أن بعض المسلمين الصادقين قد يستمع إلى كلامهم ويقتنع بتشكيكاتهم، فيفقد المسلمون قوة أخرى هامة.. وذلك كما يقول الله -عز وجل-: ﴿.. وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.. ولذلك فخروج هؤلاء من الصف في هذا الوقت المبكر كان مصلحة للجيش المسلم، وإن ظهر للعين غير ذلك، ولذلك لم يحرص قطز - رحمه الله- كثيراً على إعادة ضمّ هؤلاء؛ فالجندية الحقيقية في الإسلام لا يُهرب منها، بل يُشتاق إليها.

وهكذا طُهّر الجيش المسلم.

إلى فلسطين

وبدأ تجمع الجيش المسلم في معسكر الانطلاق، وكان هذا المعسكر في منطقة الصالحية بمحافظة الشرقية الآن (انظر الخريطة رقم ١٨)، وهي منطقة صحراوية

واسعة تستوعب الفرق العسكرية المختلفة، وكانت نقطة انطلاق للجيوش المصرية المتجهة إلى الشرق.

وتجمعت الفرق العسكرية من معسكرات التدريب المنتشرة في القاهرة والمدن الكبرى، ثم أعطى قطز - رحمه الله- إشارة البدء والتحرك في اتجاه فلسطين.

اللهم هوّن علينا سفرنا هذا.. واطو عنا بُعده.

اللهم أنت الصاحب في السفر.. والخليفة في الأهل.

اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل.

واتجه الجيش المسلم من الصالحية إلى اتجاه الشمال الشرقي حتى وصل إلى سيناء، ثم اتجه شمالاً أكثر ليسلك طريق الساحل الشمالي لسيناء بحذاء البحر الأبيض المتوسط.

كان هذا التحرّك في أوائل شهر شعبان سنة ٦٥٨ هجرية، وهذا يوافق شهر يوليو من سنة ١٢٦ ميلادية، أي أن هذا التحرك كان في أشد شهور السنة حرّاً، والسير في الصحراء القاحلة الطويلة في سيناء، وليس في الطريق مدن آهلة اللهم إلا العريش.. ومع ذلك فقد صبر الجيش المجاهد.. وليتذكر الجميع غزوة تبوك، وما صاحبها من صعوبات شديدة الشبه بما يصاحب هذه الموقعة؛ فالمسلمون في تبوك فوق الحر، وفوق الأزمة الاقتصادية، وفوق قطع المسافة الصحراوية الطويلة كانوا يذهبون لقتال قوة هائلة هي قوة الرومان، وهذه المرة كذلك يقطع المسلمون المسافة الطويلة في هذا الحر وفي هذه الأزمة الاقتصادية ليقابلوا جيشاً هائلاً هو جيش التتار.. والتاريخ يكرّر نفسه.. غير أن المسلمين في تبوك لم يجدوا الرومان في انتظارهم، فلم تتم المعركة، أما في موقفنا هذا فالتتار كانوا في الانتظار.

كان قطز - رحمه الله- يتحرك على تعبئة.. بمعنى أنه يتحرك وقد رتّب جيشه الترتيب الذي سيقاتل به لو حدث قتال، وذلك حتى إذا فاجأه جيش التتار كان مستعداً.

وكان قطز - رحمه الله- قد وضع على مقدمة جيشه ركن الدين بيبرس القائد العسكري الفذ، ليكون أول من يصطدم بالتتار، فيحدث نصراً ـ ولو جزئياً ـ مما سيرفع من معنويات المسلمين بالتأكيد.

وكان قطز - أيضاً- قد سلك في ترتيب جيشه أمراً لم يكن يعهده المعاصرون في زمانه، وذلك على سبيل التجديد في القيادة والإعداد حتى يربك خطط العدو، فكون قطز - رحمه الله- مقدمة الجيش من فرقة كبيرة نسبياً على رأسها ركن الدين بيبرس، وجعل هذه الفرقة تتقدم كثيراً عن بقية الجيش، وتظهر نفسها في تحركاتها، بينما يتخفي بقية الجيش في تحركاته، فإذا كان هناك جواسيس للتتر اعتقدوا أن مقدمة الجيش هي كل الجيش، فيكون استعداد التتار على هذا الأساس، ثم يظهر بعد ذلك قطز، وقد فاجأ التتار الذين لم يستعدوا له.

أول النصر.. غزة!!

وهكذا اجتاز ركن الدين بيبرس الحدود المصرية في ٢٦ يوليو سنة ١٢٦٠ ميلادية، ودخل حدود فلسطين المباركة، وتبعه قطز بعد ذلك في سيره.. واجتازوا رفح وخان يونس ودير البلح، واقتربوا جداً من غزة (انظر الخريطة رقم ١٩).. وكما ذكرنا من قبل، فإن التتار كانوا قد احتلوا غزة، وحدث ما توقعه قطز رحمه الله، واكتشفت عيون التتار مقدمة الجيش الإسلامي بقيادة ركن الدين بيبرس، واعتقدت أن هذا هو جيش المسلمين كله، ونقلت الأخبار إلى حامية غزة التترية، وأسرعت الحامية التترية للقاء ركن الدين بيبرس، وتم فعلاً بينهما قتال سريع، هذا كله وجيش قطز الرئيسي ما زال يعبر الحدود الفلسطينية

المصرية، ولكن -كما ذكرنا- كانت مقدمة الجيش المسلم مقدمة قوية وقائدها ركن الدين بيبرس قائد بارع، والحامية التترية في غزة صغيرة نسبيًا، والجيش التتري الرئيسي على مسافة كبيرة من غزة، فقد كان جيش التتر بقيادة كتبغا يربض في سهل البقاع في لبنان على مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريباً من غزة، فتم اللقاء في غزة بمعزل عن الجيوش الرئيسية للمسلمين والتتار، وبفضل الله استطاعت مقدمة الجيش المسلم أن تنتصر في هذه الموقعة الصغيرة.. وقُتل بعض جنود الحامية التترية، وفرّ الباقون في اتجاه الشمال لينقلوا الأخبار إلى كتبغا في لبنان.

لقد فوجئت الحامية التترية في غزة!.. وكانت المفاجأة سبباً لهزيمة قاسية لهم، وليست المفاجأة الوحيدة في وقعة غزة هي مفاجأة المباغتة أو الخطة العسكرية أو الأبعاد الاستراتيجية في اتخاذ المواقع المناسبة أو غير ذلك من مفاجآت فنون الحرب.. إنما المفاجأة الحقيقية للتتار كانت اكتشاف أن هناك طائفة من المسلمين ما زالت تقاتل، وما زالت تحمل السيوف، وما زالت تدافع عن دينها وعن أرضها وعن شرفها وعن كرامتها.. لقد ألف التتار أن يجدوا جموع المسلمين يفرون ويهربون، وألف زعماء التتار أن يجدوا زعماء المسلمين يطلبون التحالف المخزي والركوع المذل.. وما توقعوا أن تظل هناك طائفة مسلمة تدافع عن حقها.

لقد كان هذا هو ظن التتار، وهو ظن ليس في محلّه حتماً، فإن هذه الأمة مهما ضعفت فإنها لا تموت، ومهما ركع منها رجال فسيظلّ فيها آخرون يدافعون عنها ما بقيت الحياة.

روى الإمام مسلم عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله**».

وسبحان الله..!! ففي رواية الإمام أحمد عن أبي إمامة ﷺ هناك زيادة مهمة، وهي أن الصحابة سألوا عن هذه الطائفة فقالوا: «يا رسول الله وأين هم؟» قال: «**ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس**».

ومع أن الذين قاتلوا التتار في غزة، ثم بعد ذلك في عين جالوت لم يكونوا - معظمهم - من أهل بيت المقدس ولا فلسطين، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذا المكان الطاهر «فلسطين» موطناً لانتصارات المسلمين.

نعم قد تحدث هنّات وسقطات.. لكن حتماً يكون هناك قيام.

على أرض فلسطين وما حولها من أرض الشام وُجهت ضربات إسلامية موجعة للإمبراطورية الرومانية في أجنادين وبيسان واليرموك وبيت المقدس.

وعلى أرض فلسطين وما حولها وُجهت ضربات إسلامية موجعة للصليبيين في حطين وطبرية وبيت المقدس.

وعلى أرض فلسطين وجهت ضربات إسلامية موجعة للتتار في غزة ثم في عين جالوت كما سنرى ثم في بيسان.

وعلى أرض فلسطين وجهت ضربات إسلامية موجعة لبقايا الصليبيين بعد ذلك في عكا وعسقلان وحيفا.

وعلى أرض فلسطين وجهت ضربات إسلامية موجعة للفرنسيين في عكا.

وعلى أرض فلسطين كذلك وجهت ضربات إسلامية موجعة للإنجليز في الثورات المختلفة وأشهرها ثورة ١٩٣٦، التي استمرت قرابة أربع سنوات.

وعلى أرض فلسطين وُجِّهَت - وما زالت تُوَجَّه - ضربات إسلامية موجعة لليهود.

وسيكون هلاك اليهود ـ بإذن الله ـ على هذه الأرض.

وستكون الحرب الأخيرة بين المسلمين واليهود على هذه الأرض، وسيقتلهم المسلمون.

هذا ليس استنتاجاً أو استنباطاً، إنما هو حقيقة كونية، وبشارة نبوية..!!

روى الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمْ الْمُسْلِمُونَ.. حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ.. يَا عَبْدَ اللَّهِ.. هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ... إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»..

نعود إلى بيبرس وإلى قطز وإلى الجيش المسلم.

لقد انتصر المسلمون على التتار، ولو كان هذا الانتصار جزئياً أو مرحلياً أو بسيطاً.

بعض المؤرخين يُبَسّطون جداً من شأن معركة غزة، حتى يتغافلها بعضهم تماماً، والحق أنها كانت - في رأيي - من أهمّ المواقع الحربية في تاريخ المسلمين، ليس لكثرة قتلى التتار، ولا لأهمية غزّة الاستراتيجية، ولا لغير ذلك، إنما في الأساس لأنها عالجت الهزيمة النفسية عند المسلمين.

لقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرّون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة، التي كانت تقول: «من قال لك أن التتار يُهزمون فلا تصدقه».

الآن من الممكن أن تصدقه.. هذه أول مرة يهزم فيها التتار منذ سنين طويلة.

لقد كان لموقعة غزة أثر إيجابي هائل على جيش المسلمين، وكان لها أيضاً أثر سلبي هائل على جيش التتار.

ولا يجب أن يستصغر المسلمون عملاً من الأعمال.

لا يستصغرنّ مسلم أن حجارة تُلقى على يهودي فيجري ويهرب.

ولا يستقلنّ مسلم أن يُقتل جندي يهودي أو أمريكي.

الهزيمة الحقيقية - يا إخوة- هي هزيمة الروح والنفس.. والانتصارات المرحلية البسيطة ـ وإن كانت عسكرياً لا تمثل الكثير ـ إلا أنها تفيد كثيراً في رفع الروح المعنوية للأمة.

إلى عين جالوت:

اتجه الجيش المسلم بعد انتصار غزة إلى ناحية الشمال، وهم يسيرون بحذاء ساحل البحر الأبيض المتوسط ليمرّوا على المدن الإسلامية العظيمة الواحدة تلو الأخرى، فمرّوا على عسقلان ثم على يافا (المدينة الإسلامية الجميلة) - نسأل الله أن يحررها وأن يحرز كل فلسطين من دنس اليهود -ومن المعروف يا إخواني أن مدينة تل أبيب قد أنشئت في شمال يافا مباشرة- ثم أكمل قطز والجيش المسلم طريقه في اتجاه الشمال، فمرّ في غرب طولكرم، ثم وصل إلى مدينة حيفا، ثم اتجه شمالاً بعدها إلى عكا المدينة المسلمة المحتلة من قبل الصليبيين (انظر الخريطة رقم ١٩).

وعسكر قطز - رحمه الله- في الحدائق المحيطة بحصن عكا في السهل الواقع في شرق عكا، ثم بدأت المراسلات بين قطز - رحمه الله- وأمراء عكا الصليبيين للتأكيد على الاتفاقيات السابقة، وأرسل قطز - رحمه الله- وفداً من الأمراء المسلمين، فدخلوا حصن عكا، وأحسن الأمراء الصليبيون استقبال المسلمين، وأكّد الطرفان على ما سبق الاتفاق عليه، وتكررت الزيارات أكثر من مرة، واطمأن الطرفان على استقرار الوضع، ومن ثم عزم قطز على الرحيل من عكا واختيار مكان مناسب للّقاء المهم المرتقب بينه وبين التتار..

وعندما بدأ قطز -رحمه الله- في مغادرة منطقة عكا أشار عليه أحد الأمراء الذين قاموا بالسفارة بينه وبين الأمراء الصليبيين أن عكا الآن في أشد حالات ضعفها، وأنهم مطمئنون إلى المعاهدة الإسلامية، وغير جاهزين للقتال، فإذا انقلب عليهم قطز فجأة فقد يتمكن من إسقاط حصن عكا، وتحرر المدينة الإسلامية بعد مائة وست وستين سنة من الاحتلال، فرد عليه قطز - رحمه الله- رداً قاطعاً صارماً واضحاً.. قال: «نحن لا نخون العهود!».

يا الله!! الرؤية واضحة جداً جداً في عين قطز رحمه الله.

هذه قيادة تأخذ بأسباب النصر الحقيقية.. ومن أسباب النصر الحقيقية اتباع شروط الله -عز وجل- في كل صغيرة وكبيرة، وحفظ العقود وعدم نقض المواثيق من صميم شرع الله -عز وجل-.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١].

وأنا أريد أن أنقل للصليبيين ولليهود وللتتار وللعالم أجمع حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الترمذي وأبو داود، وقال الترمذي: حسن صحيح، عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يَحُلنَّ عهداً، ولا يشدنه** (أي لا يغيرن العهد بأي طريقة) **حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء»**.

فإما أن تنقضي مدة العهد، وإما أن تخبر أعداءك بأنك لسبب أو لآخر ستقطع العهد.. أما الغدر فلا مكان له في العقود الإسلامية.

هذا هو دين الإسلام.. وهذا هو شرع الإسلام.. وهذه هي قوانين الإسلام.. وهؤلاء هم قادة الإسلام.

وهكذا ترك قطز - رحمه الله- عكا، واتجه إلى الجنوب الشرقي منها ليبحث

عن مكان يصلح للمعركة القادمة.

في هذه الأثناء كان كتبغا قد وصلته فلول جيش التتار الفارة من غزّة ينقلون إليه تحركات الجيش المسلم، فغضب كتبغا غضباً شديداً لهزيمة حاميته العسكرية في غزة، وغضب أكثر لأن هناك من المسلمين من يتجمع لقتاله، وكأنّ الأصل أن المسلمين ليس لهم حق المقاومة، فإن قاوموا عدوهم كان هذا داعياً لغضب كتبغا والتتار..!! وعقد كتبغا اجتماعاً استشارياً مع قادته، وحضر هذا الاجتماع الأشرف الأيوبي أمير حمص، واتخذ كتبغا قراره في هذا الاجتماع أن يتوجه بسرعة لحرب هؤلاء المتطرفين المسلمين الذين سيقوضون عملية السلام الدائرة بين كتبغا وبين الزعماء المسلمين.. ويهددون المباحثات التترية - الإسلامية بالفشل.

وكان واضحًا أن حركة التتار في اتجاه المسلمين كانت بطيئة جداً، لأن قطز قطع معظم الساحل الفلسطيني من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله دون أن يدخل التتار حدود فلسطين أصلاً، مع أن المسافة بين سهل البقاع اللبناني - حيث يعسكر جيش التتار- والحدود اللبنانية الفلسطينية لا تزيد عن مائة كيلومتر، وهي مسافة تقطعها الجيوش عادة في يومين أو ثلاثة.

المهم أن قطز هو الذي بدأ التحرك للبحث عن المكان المناسب للمعركة، وبذلك يسجل نقطة مهمة لصالحه، ويستطيع أن يرتب جيوشه في وضع أفضل، ويختبر المنطقة، ويعلم طبيعتها وخباياها.

وتحرك كتبغا في اتجاه الجنوب بين جبال لبنان حتى دخل فلسطين من شمالها الشرقي غرب مرتفعات الجولان، ثم عبر نهر الأردن، ووصل إلى الجليل الشرقي، واكتشفت الاستطلاعات الإسلامية المنتشرة في المنطقة تحركات كتبغا، ونقلت الأخبار بسرعة إلى قطز الذي كان قد غادر عكا في اتجاه الجنوب

الشرقي، فأسرع قطز باجتياز مدينة الناصرة، وتعمق أكثر في الجنوب الشرقي حتى وصل إلى منطقة تعرف بسهل عين جالوت، وهي تقع في الوسط تقريباً بين مدينتي بيسان في الشمال ونابلس في الجنوب، وهي بالقرب جداً من معسكر جنين الآن (انظر الخريطة رقم ١٩)، وهي المنطقة التي ستدور فيها معركة من أهم المعارك في تاريخ الأرض، وسبحان الله، فإن الأيام قد دارت وحدثت موقعة أخرى شريفة على أرض جنين بين المجاهدين الفلسطينيين وبين اليهود، وذلك في عام ٢٠٠٢ ميلادية، وزاد شهداء المسلمين فيها على خمسمائة بعد أن صبروا في قتالهم صبراً عجيباً.

ويقع سهل عين جالوت على مسافة٦٥ كيلومترًا جنوب منطقة حطين التي دارت فيها الموقعة الخالدة حطين في سنة ٥٨٣ هجرية قبل خمسة وسبعين سنة من وقعة عين جالوت، ويقع كذلك على مسافة حوالي ستين كيلومترًا إلى الغرب من منطقة اليرموك حيث دارت المعركة الخالدة بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهما- ضد الروم منذ أكثر من ستة قرون.

وهكذا ساهمت هذه الذكريات في رفع الروح المعنوية للجيش الإسلامي إلى أقصى درجة.

وجد قطز - رحمه الله- سهل عين جالوت منطقة مناسبة جداً للمعركة المرتقبة؛ فهو عبارة عن سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه إلا الجانب الشمالي فهو مفتوح.. كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأً مناسباً جداً للجيش الإسلامي؛ فيسهل عمل الكمائن الكثيرة على جوانب السهل المنبسط.

ورتّب قطز جيشه بسرعة.. فوضع على ناحية السهل الشمالية مقدمة جيشه بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعلها في مكان ظاهر حتى يغري جيش التتار بالقدوم

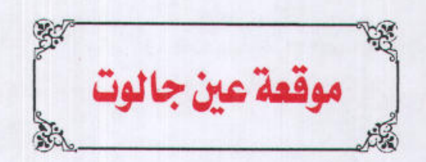
إليها، بينما أخفي قطز - رحمه الله- بقية الجيش خلف التلال والأحراش.

كان هذا الترتيب والإعداد في ٢٤ رمضان من سنة **٦٥٨** هجرية في العشر الأواخر من شهر رمضان الكريم.. وهو الشهر الذي حدثت فيه الانتصارات الإسلامية الخالدة قبل ذلك.. مثل بدر وفتح مكة وفتح الأندلس.. وانتظر المسلمون على تعبئة.. وعيونهم الاستخبارية تنقل أخبار كتبغا وجيش التتار، وقد اقتربوا جداً من سهل عين جالوت.

وما بقيت إلا ساعات قليلة ويحدث الصدام المروع بين قوة أمة الإسلام وقوة التتار.

ونسأل الله -عز وجل- النصر الدائم للإسلام والمسلمين.

* * *



موقعة عين جالوت

جاء جيش كتبغا وقد امتلأ بالصلف والغرور والكبر، تسبقه سمعته العالية في سفك الدماء وتخريب الديار وإفناء البشر.. وقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً.. ومر الجيش غرب بيسان، وانحدر جنوباً في اتجاه عين جالوت حيث كانت القوات الإسلامية قد أخذت مواقعها ورتبت صفوفها، ووقفت في ثبات تنتظر الجيش التتري.

وبينما قطز في سهل عين جالوت إذا بأعداد غفيرة من المتطوعين المسلمين من أهل فلسطين يخرجون من القرى والمدن ليلتحقوا بالجيش المسلم، وقد تيقنوا أن حرباً حقيقية ستحدث قريبًا.

سبحان الله..!!

لابد أن نتساءل:

أين كان هؤلاء المتطوعون يوم جاءت فرقة تترية بسيطة فاخترقت فلسطين من شمالها إلى جنوبها حتى احتلت مدينة من أواخر المدن في فلسطين: مدينة غزة؟!.

كيف تحرك هؤلاء الآن إلى سهل عين جالوت؟

لماذا قعدوا قبل ذلك؟ ولماذا قاموا الآن؟!!

الإجابة في منتهى البساطة:

إنها القدوة.

«التربية بالقدوة».

هذه كلمة ذكرناها كثيراً منذ أن تكلمنا عن قطز -رحمه الله- وعن جيشه الصادق.

هناك الكثير من المؤمنين الصادقين الذين يريدون خدمة الدين ورفعة الإسلام، لكنهم لا يجدون قدوة صالحة يقلدونها، أو قائداً مخلصاً يتبعونه.. لقد ألف هؤلاء البسطاء في فلسطين أن يروا قوادهم في الشام يعقدون الأحلاف المهينة مع التتار، ويفتحون لهم الحصون والديار، ويمدون لهم الجسور، ويمهدون لهم الطريق.

لقد افتقد هؤلاء المسلمون البسطاء القدوة الصالحة.. فلم يظهر الخير الكثير الذي بداخلهم، فلما جاء قطز -رحمه الله- ومن معه من المؤمنين الصادقين، وقطعوا هذا الطريق كله إلى أرض الموقعة، وهم يتقدمون في ثبات، ولم يفعلوا مثلما فعل الناصر يوسف الأيوبي عندما فر بمجرد سماعه أن جيش التتار قد اقترب... لما رأوا كل ذلك تحمست قلوبهم، وخرجت العواطف الكامنة في صدورهم، وتحركت فيهم الحمية لهذا الدين، فهانت عليهم التضحية، وهان عليهم الجهاد.

نعم هؤلاء ليسوا كالجيش النظامي في قدراته ومهاراته، لكنهم متحمسون ومتشوقون إلى العمل في سبيل الله.. وهذه الحماسة تنفع كثيراً في ميادين القتال.. كما أن قطز - رحمه الله- استخدمهم في سلاح الخدمات الخاص بالقوات الإسلامية، ووفر طاقة الجنود الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال، واستخدم هؤلاء الجنود في العمليات القتالية بعد أن قام المتطوعون بدورهم.

وسلاح الخدمات يشمل نقل العتاد والمعدات، والاهتمام بشئون الطعام والشراب، وإمداد الجنود بالسهام والرماح، ورعاية الخيول، ونقل الجرحى ومداواتهم.. وهذه أعمال كثيرة تستنفد جهداً ووقتاً، وهي -وإن كان لا يشترط

فيها كفاءة قتالية، ولا مهارة عسكرية - إلا أن لها أهمية قصوى في نجاح المعركة.. وهكذا استفاد قطز - رحمه الله- من كل طاقات المتطوعين الفلسطينيين.. وكل ميسر لما خلق له.

ثم إنه بالإضافة إلى هذه الأعمال فإن الجيش المسلم سيظهر في عيون الجيش الكافر أضعافاً مضاعفة، ولا شك أن هذا سيبث الرعب في قلوب الكافرين.. فتكثير سواد المسلمين أمر لا يُستهان به أبداً.

وإلى جانب أولئك المتطوعين اجتمع الكثير من الفلاحين من القرى المختلفة ممن لا يستطيع قتالاً ولا خدمة، إما لكبر سن أو لعجز أو لمرض، واجتمع كذلك النساء والصبيان، واصطفوا بأعداد كبيرة على طرفي سهل عين جالوت، وقد علت أصواتهم بالتكبير والدعاء، وارتفعت صيحاتهم التشجيعية للقوات الإسلامية، وتحركت ألسنتهم وأيديهم وقلوبهم بالدعاء لرب العالمين أن ينصر الإسلام وأهله، ويُذل الشرك وأهله.

كل هذه الأحداث في يوم ٢٤رمضان من سنة ٦٥٨ هجرية، وهو اليوم السابق مباشرة للموقعة الرهيبة: عين جالوت.

جند الله في جيش التتار!!

وبينما هم كذلك جاء رجل من أهل الشام وهو يسرع المسير، ويطلب أن يقابل أمير القوات الإسلامية قطز ومن معه من بقية الأمراء، وقال إنه رسول جاء من قِبَل «صارم الدين أيبك».

وصارم الدين أيبك هو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه، أم قَبِل ذلك مضطراً وهو يعد العدة لينفع المسلمين..

لا ندري هذا، فهذا بينه وبين الله -عز وجل-.

لكن ما نعلمه أنه قبيل موقعة عين جالوت قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع!.. وسبحان الله.. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[المدثر:٣١].

فهذا الرجل لا يعرفه قطز، ولا يعرفه أمراء الجيش الإسلامي، ولكن الله -عز وجل- وضعه في هذا المكان ليقدم للمسلمين خدمات جليلة.. والذي ساقه في ذلك التوقيت الفريد هو الذي ساق نعيم بن مسعود ﷺ من قبل ليسلم في أثناء غزوة الأحزاب، وليكون سبباً رئيسياً من أسباب نصر المسلمين!!

ولنلاحظ تدبير رب العالمين: لما جاءت القوات الإسلامية إلى فلسطين، وتحرك كتبغا في اتجاه عين جالوت، أرسل صارم الدين أيبك ذلك الرسول إلى قطز ليخبره ببعض المعلومات المهمة جداً عن جيش التتار.

وقد نقل هذا الرسول إلى قطز - رحمه الله- المعلومات التالية:

أولاً: جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند (وذلك عند ذهابه إلى تبريز بفارس)؛ فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها إلى الشام، فلا تخافوهم.

وكانت هذه معلومة في غاية الأهمية فعلاً، لأنها رفعت الروح المعنوية جداً عند من كان في قلبه خوف من التتار، ولابد أنك ستجد في هذا الجيش من يحدث نفسه، أو يحدث أخاه عن حروب التتار السابقة، وكيف أنهم أهلكوا البلاد والعباد.. فكانت هذه المعلومة المهمة شحنة قوية أمدت الجيش الإسلامي بطاقة عالية.

ثانيًا: ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً من ميسرته التي ستقابل ميمنة التتار.

ثالثاً: (وهو خبر مهم) أن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته، ومعه صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين.. أي أن الرسالة تقول إن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه، وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم.

كانت هذه الأخبار في غاية الأهمية، وجاءت في وقت مناسب، ولكن الحكمة تقتضي ألا يعتمد المسلمون على هذه المعلومات، لأنها قد تكون خدعة من التتار أو من الأشرف الأيوبي أو من صارم الدين أيبك.

لذلك قال الأمراء بعضهم لبعض في حكمة بالغة، وخبرة عسكرية فائقة:

«لا يكون هذا معمولية على المسلمين».

يعني لا يكون هذا شيئاً عمله التتار ليخدعوا به المسلمين.

ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد، أو تهاون في الاحتياط والحذر.

وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان.

وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء.

لقد كانت هذه ليلة من أعظم ليالي السنة لأنها في العشر الأواخر من رمضان.

بل إنها كانت ليلة وترية، ومن المحتمل أن تكون ليلة القدر.

غير أنها كانت كذلك ليلة من أعظم ليالي الدنيا، لأنها الليلة التي تسبق يوم الجهاد، وفي صبحها سيكون لقاء عظيم يثأر فيه المسلمون لدماء الملايين من المسلمين التي سُفكت على أيدي هؤلاء التتار الهمج.

هذه - يا أخوة- ليلة خالدة حقاً.

ترى كيف كانت أحاسيس قطز - رحمه الله- في هذه الليلة؟

أكاد أجزم أنها كانت قريبة من أحاسيس خالد بن الوليد ﷺ في الليالي التي تسبق معاركه!!

يقول خالد بن الوليد ﷺ: «ما ليلة تزف إليّ فيها عروس ـ أنا لها محب ـ أو أبشر فيها بغلام، بأحب عندي من ليلة شديدة البرد، في سرية من المهاجرين، أصبّح بهم أعداء الله».

متعة حقيقية لا يشعر بها إلا المجاهدون حقيقة.

لا شك أن قطز - رحمه الله- كان يقضي هذه الليلة في محرابه يدعو الله -عز وجل- أن ينزل نصره على أوليائه، وأن يثبت أقدام المجاهدين.. لقد كانت هذه ليلة طال انتظارها.. فهذه ليلة كان يعد لها قطز منذ أن ارتقى عرش مصر وإلى الآن.

لقد اجتهد قطز - رحمه الله- كثيراً في الزرع، وغداً هو يوم الحصاد.

وحان وقت الفجر.. وصلى المسلمون الفجر في خشوع.. ورتبوا صفوفهم بعد الصلاة واستعدوا، وما هي إلا لحظات وأشرقت الشمس.. هذا يوم الجمعة الخامس والعشرون من رمضان سنة ٦٥٨ هجرية، وبشروق الشمس أضاءت الدنيا، ورأى المسلمون من بعيد.. جيش التتار..!!

أتى الجيش التتري المهول من اتجاه الشمال، وبدأ في الاقتراب من سهل عين جالوت، وعلى أبواب السهل وقف الجيش التتري في عدده الرهيب وعدته القوية.

ولم يكن بالسهل أحد من المسلمين، فقد كانوا يقفون جميعاً خلف التلال.

لكن ـ كما أشرنا من قبل ـ فإن مقدمة جيش المسلمين بقيادة ركن الدين

بيبرس كانت لا تخفي نفسها، وذلك حتى يعتقد جواسيس التتار أن هذه المقدمة هي كل الجيش.. ومع ذلك فعند قدوم جيش التتار كانت هذه المقدمة مختفية هي الأخرى، ثم أشار لها قطز - رحمه الله- أن تنزل من فوق التلال للوقوف على باب السهل لقتال الجيش التتري.

«سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب»!

وبدأت القوات الإسلامية تنساب من فوق التل إلى داخل سهل عين جالوت، ثم تتجه إلى شمال السهل للاقتراب من جيش التتار.

ولم تنزل مقدمة الجيش دفعة واحدة، إنما نزلت على مراحل، وفي صورة عجيبة.

وأترك الحديث لصارم الدين أيبك ـ الرجل المسلم في جيش التتار ـ والذي كان يقف بجوار «كتبغا» وهو يصف القوات الإسلامية وهي تنزل من فوق التلال.

يقول صارم الدين أيبك: «فلما طلعت الشمس ظهرت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة».

موقف في غاية الروعة.

لقد نزلت الكتيبة الإسلامية الأولى وهي تلبس ملابس أنيقة أحمر في أبيض.. للفرقة كلها زي واحد، وكانوا يلبسون العدد المليحة، بمعنى أن الدروع والسيوف والرماح والخيول كانت في هيئة مليحة (جميلة).. لقد نزلوا بخطوات ثابتة، وبنظام بديع.

الجنود الإسلاميون ينزلون إلى ساحة المعركة في غاية الأناقة والبهاء.. وكأنهم في عرض عسكري.. لهم هيبة.. وعليهم جلال.. ويوقعون في قلب من يراهم الرهبة.

وهذه هي الكتيبة الأولى.

استمعوا إلى وصف صارم الدين أيبك وهو يتكلم عن كتبغا السفاح التتري الجبار.

يقول صارم الدين أيبك: «فبهت كتبغا.. وبهت من معه من التتار».

سبحان الله..!! ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

هذه أول مرة يرى فيها كتبغا جيش المسلمين على هذه الصورة، لقد كان معتاداً أن يراهم وراء الحصون والقلاع يرتجفون ويرتعبون، أو يراهم وهم يتسارعون إلى الهروب فزعاً من جيش التتار، أو يراهم وهم يسلمون رقابهم للذبح الذليل بسيوف التتار..!! كان كتبغا معتاداً على رؤية المسلمين في إحدى هذه الصور المهينة، أما أن يراهم في هذه الهيئة المهيبة العزيزة فهذا ما لم يحسب له حساباً أبداً!!

قال كتبغا في فزع: «يا صارم، رُنك من هذا؟! »

و«رنك» كلمة فارسية تعني «لون»، وهو يقصد كتيبة من هذه؟ إنها كتيبة مرعبة.

وكانت فرق المماليك تتميز عن بعضها البعض بلون خاص.. فهذه الفرقة مثلاً لونها الأحمر في الأبيض، فكانت تلبس الأحمر والأبيض، ولها رايات بنفس اللون، وتضع على خيولها وجمالها وأسلحتها نفس الألوان، وتضع على خيامها نفس الألوان، وكذلك على بيوتها في مصر، وعلى مخازنها وغير ذلك.. فكانت هذه بمثابة الشارة التي تميز هذه الفرقة أو الكتيبة.

فسأل كتبغا في فزع: رُنك من هذا؟

فقال صارم الدين أيبك: رُنك «سنقر الرومي» أحد أمراء المماليك.

ومهما كانت عظمة الكتيبة المسلمة وبهاؤها فإننا لا نستطيع أن نفهم رعب القائد التتري السفاح زعيم الجيش التتري المهول من هذه الكتيبة الصغيرة جداً بالقياس إلى جيش التتار إلا في ضوء حديث رسول الله ﷺ -الذي رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما- وقال فيه: «**نُصِرت بالرعب مسيرة شهر**».

وفي رواية أحمد عن أبي إمامة زيادة: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي**».

يقول الإمام السندي - رحمه الله- في شرح الحديث: هذا رعب يُقذف في قلوب الأعداء بلا أسباب ظاهرية، ومع ذلك فقد أخذ قطز - رحمه الله- بالأسباب الظاهرية قدر استطاعته، فحُسن الإعداد، وجمال الصورة، ودقة التنظيم، وبراعة الترتيب.. كل هذه أمور جعلت رعب التتار أمراً متحققاً، بالإضافة إلى أن الرعب جندي من جنود الله -عز وجل-.

ويقول الإمام السندي - رحمه الله-: إن هذه خاصية لرسول الله ﷺ، وقد بقيت آثار هذه الخاصية في خلفاء أمته ما داموا على حاله.

نعود إلى كتبغا سفاح التتار وهو يراقب نزول الكتائب الإسلامية من فوق التلال.

فبعد نزول الكتيبة الأولى: كتيبة سنقر الرومي نزلت كتيبة أخرى تلبس الملابس الصفراء عليها من البهاء والجمال ما لا يوصف.

تزلزل كتبغا وقال لصارم: هذا رُنك من؟

قال صارم: هذا رُنك بلبان الرشيدي أحد أمراء المماليك.

ثم تتابعت الكتائب الإسلامية بألوانها الرائعة المختلفة، وكلما نزلت كتيبة

سأل كتبغا: رنك من هذا؟.. فيقول صارم: فصرت أي شيء يطلع على لساني قلته.. يعني بدأ يقول أسماء مخترعة لا أصل لها، لأنه لا يعرف هذه الكتائب، ولكنه يريد أن يرعب كتبغا بكثرة الفرق الإسلامية.

وكل هذه الفرق ـ يا إخواني ـ هي مقدمة جيش المسلمين فقط، وهي أقل بكثير من جيش التتار الرهيب؛ فقد احتفظ قطز - رحمه الله- بقواته الرئيسية خلف التلال، وقد قرر ألا تشترك في المعركة إلا بعد أن تُنهَك قوات التتار.

وبعد أن نزلت مقدمة المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس بدأت فرقة الموسيقى العسكرية الإسلامية المملوكية تظهر على الساحة، وانطلقت في قوة تدق طبولها، وتنفخ في أبواقها، وتضرب صنوجها النحاسية.. لقد كانت الجيوش المملوكية تتلقى الأوامر عن طريق هذه الدقات التي لا يعرفها الأعداء.. فكانت هناك ضربات معينة للميمنة، وضربات معينة للميسرة، وضربات معينة للقلب، وكانت هناك ضربات للتقدم وضربات للانسحاب، وكانت هناك ضربات خاصة لكل خطة عسكرية، وبذلك يستطيع القائد قطز - رحمه الله- أن يقود المعركة عن بعد، وعلى مساحة شاسعة من الأرض من خلال دقات هذه الآلات الضخمة.. هذا فوق الرهبة التي كانت تقع في قلوب الأعداء من جراء سماع هذه الأصوات المزلزلة، بينما كانت هذه الدقات تثبت المسلمين، وتشعرهم بمعية القائد لهم في كل تحرك من تحركاتهم.

ووقف الأمير ركن الدين بيبرس بقواته على المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، بينما ترك السهل بكامله خالياً من خلفه، واقتربت جداً ساعة الصفر.

واحتدم اللقاء!

ونظر كتبغا إلى مقدمة القوات الإسلامية وكان لا يدرك شيئاً عن القوات الرئيسية المختبئة خلف التلال، فوجد أن قوات المقدمة الظاهرة أمامه قليلة جداً

بالنسبة لقواته.. ومع ذلك فهي في هيئة حسنة ومنظر مهيب، فأراد كتبغا أن يحسم المعركة لصالحه من أولى لحظاتها.. لذلك قرر أن يدخل بكامل جيشه وقواته لحرب مقدمة المسلمين.

وهذا تماماً ما كان يريده الملك المظفر قطز - رحمه الله-.

وأعطى كتبغا قائد التتار إشارة البدء لقواته، وانهمرت جموع التتار الرهيبة وهي تصيح صيحاتها المفزعة على مقدمة جيش المسلمين، أعداد هائلة من الفرسان ينهبون الأرض في اتجاه القوات الإسلامية.

أما القائد المحنك ركن الدين بيبرس فقد كان يقف في رباطة جأش عجيبة، ومعه الأبطال المسلمون يقفون في ثبات، وقد ألقى الله -عز وجل- عليهم سكينة واطمئناناً، وكأنهم لا يرون جحافل التتار.

حتى إذا اقتربت جموع التتار أعطى بيبرس إشارة البدء لرجاله.. فانطلقوا في شجاعة نادرة في اتجاه جيش التتار، ولا ننسى أن هذه المقدمة الإسلامية قليلة جداً بالنسبة لجيش التتار، وارتطم الجيشان ارتطاماً مروعاً.

وارتفعت سحب الغبار في ساحة المعركة، وتعالت أصوات دقات الطبول وأصوات الآلات المملوكية، وعلت صيحات التكبير من الفلاحين الواقفين على جنبات السهل، وامتزجت قوات المسلمين بقوات التتار، وسرعان ما تناثرت الأشلاء وسالت الدماء، وعلا صليل السيوف على أصوات الجند.

واحتدمت المعركة في لحظات.. ورأى الجميع من الهول ما لم يروه في حياتهم قبل ذلك.

كانت هذه الفرقة المملوكية من أفضل فرق المسلمين، وقد أحسن قطز - رحمه الله- اختيارها لتكون قادرة على تحمل الصدمة التترية الأولى.. والذي

يحرز النصر في بداية المعركة يستطيع غالبًا أن يحافظ عليه إلى النهاية.. ليس فقط للتفوق العسكري ولكن أيضاً للتفوق المعنوي.

وكان كثير من أمراء هذه المقدمة - بمن فيهم ركن الدين بيبرس- من أولئك الذين شاركوا في موقعتي المنصورة وفارسكور ضد الحملة الصليبية السابقة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، وذلك منذ عشر سنوات في سنة ٦٤٨ هجرية، وبذلك يكون هؤلاء الأمراء من أصحاب الخبرة العسكرية الفائقة، ومن أعلم القادة بطرق المناورة وأساليب القتال وخطط الحرب.

غبـــاء القوة!!

وثبتت القوات الإسلامية ثباتاً رائعاً مع قلة عددها، مما دفع كتبغا إلى استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف الجيش التتري.

كل هذا وقطز - رحمه الله- يرقب الموقف عن بعد، ويصبر نفسه وجنده عن النزول لساحة المعركة حتى تأتي اللحظة المناسبة، ومرت الدقائق والساعات كأنها الأيام والشهور.

ومع الفجوة الهائلة في العدد بين الفريقين إلا أن اللقاء كان سجالاً حتى هذه اللحظات.

كان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية: استنزاف القوات التترية في حرب متعبة، والتأثير على نفسياتهم عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم.

ثم جاء وقت تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الإسلامية البارعة.. ودقت الطبول دقات معينة لتصل بالأوامر من قطز إلى بيبرس ليبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة.

وكان الجزء الثاني من الخطة عبارة عن محاولة سحب جيش التتار إلى داخل

سهل عين جالوت، وحبذا لو سُحب الجيش بكامله، بحيث تدخل قوات التتار في الكمائن الإسلامية تمهيداً لحصارها.

وبدأ ركن الدين بيبرس في تنفيذ هذا الجزء من الخطة على صعوبته، فكان عليه أن يُظهر الانهزام أمام التتار، ويتراجع بظهره وهو يقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعاً جداً حتى لا يلفت أنظار التتار إلى الخطة، ولا بطيئاً جداً فتهلك القوة الإسلامية القليلة أثناء التراجع.. وهذا الميزان في الانسحاب يحتاج إلى قدرة قيادية فائقة، كما يحتاج إلى رجال أشداء مهرة في القتال.

وقد كانت هذه العوامل متوافرة في الجيش بحمد الله، وقبل هذا بالطبع كان توفيق الله -عز وجل- عونًا لهذا الجيش الصامد.

هذه الخطة - يا إخواني- هي خطة القوات الإسلامية نفسها في موقعة نهاوند الشهيرة ضد القوات الفارسية وذلك في سنة ١٩ من الهجرة، وكان يقوم بدور ركن الدين بيبرس القائد الإسلامي الفذ الصحابي القعقاع بن عمرو التميمي ﷺ، وكان يقوم بدور قطز - رحمه الله- الصحابي الجليل والفارس العظيم النعمان بن مقرّن ﷺ، وقام ساعتها القعقاع بن عمرو التميمي بسحب قوات الفرس الرهيبة في الكمين الإسلامي الذي قضى على قوات الفرس تماماً في نهاوند.

وهنا في عين جالوت يستفيد قطز - رحمه الله- من تجارب المسلمين السابقة ويطبق خطة نهاوند بحذافيرها، وبدأ ركن الدين بيبرس في الانسحاب التدريجي المدروس، وكلما رجع خطوة تقدم جيش التتار في مكانه.

وقام المسلمون بتمثيلية الانهزام خير قيام، وتحمس كتبغا ومن معه للضغط على المسلمين، وبدءوا يدخلون السهل وهم يضغطون على المسلمين، ومر الوقت ببطء على الطرفين، ولكن في النهاية دخل جيش التتار بكامله إلى داخل سهل عين

جالوت، وانسحب ركن الدين بيبرس بمقدمة الجيش إلى الناحية الجنوبية من سهل عين جالوت، وفي غضون حماسة كتبغا للقضاء على جيش المسلمين لم يترك أياً من قواته الاحتياطية خارج السهل بل أخذ معه كل جنوده!!

كيف فعل كتبغا ذلك؟

إنه خطأ عسكري لا ريب!!

وكتبغا قائد عسكري بارع، وذو خبرة طويلة جداً في مجال الحروب، فقد جاوز الستين من عمره، ولعله جاوز السبعين، فهو من الذين عاصروا جنكيزخان، وجنكيزخان مات قبل هذه الموقعة بأربعة وثلاثين سنة، قضاها كتبغا كلها في حروب وقيادة.

لقد كان من المفروض عليه كقائد محنك أن يترك قوات احتياط خارج السهل لتؤمن طريق العودة في حال الخسارة، ولتمنع التفاف الجيش الإسلامي حول التتار، ولتراقب أي تحركات مريبة لجيوش أخرى قد تأتي لمساعدة الجيش الإسلامي.

لكن هذا لم يحدث!

لقد توقفت العقلية التترية عن التفكير السليم في وقت حساس جداً من أوقات المعركة.. قد يفسر ذلك برغبة كتبغا في القضاء الكامل على قوات المسلمين وبحسم، وقد يفسر بضعف من المخابرات التترية التي لم تدرك حجم الجيش الإسلامي الحقيقي، وقد يفسر بالغرور والصلف الذي كان يملأ كتبغا من أم رأسه إلى أخمص قدميه، مما جعله يستهين تماماً بقوات المسلمين، وقد يفسر بأن هناك أهدافاً تكتيكية معينة في ذهن كتبغا لا نعرفها.

قد يفسر بأي شيء من هذا أو بغيره.. لكن كل هذه التفاسير لا تعطي مبرراً مقبولاً لهذا الخطأ العسكري الفادح الذي لا يقع فيه مقاتل مغمور في

مطلع حياته العسكرية، فضلاً عن قائد مخضرم مثل «كتبغا»!!

ولكن يبقى التفسير الوحيد المقبول في مثل هذا الموقف هو أن هذا تدبير رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي يخرج عن القياسات العادية للبشر، ويدفع أشخاصاً بعينهم لأفعال معينة في ظروف معينة.. ولو تكررت الظروف نفسها ألف مرة فلعل الرجل لا يأخذ القرار نفسه أبداً، ولكن الله -عز وجل- أراد لهذا الجيش التتري الهلكة على يد الجيش المسلم، فدفع كتبغا إلى اتخاذ قرار لا يتناسب أبداً مع إمكانيته كقائد عسكري، ولا يتناسب مع قوات جيشه كجيش ضخم، ولا يتناسب مع ساحة المعركة التي تعتبر كالقفص الذي له باب واحد، فإذا دخل الجيش بكامله القفص وأغلق الباب فالنجاة تكاد تكون مستحيلة.. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقد رأينا قبل ذلك غزوة بدر الكبرى أن أبا جهل هو الذي دفع جيشه الكافر للدخول في معركة بدر بعد أن عارضه جل قومه.. فكانت الهلكة لمعظم رءوس الكفر في مكة.

ورأينا أيضاً مسيلمة الكذاب في موقعة اليمامة الشهيرة يدفع قواته إلى حتفها.

ورأينا الفيروزان في موقعة نهاوند يدفع الفرس إلى مثواهم الأخير.

ورأينا باهان قائد الروم في موقعة اليرموك يدفع جيوشه إلى الهاوية.

وليس هناك مجال لقول قائل: لو تروى القائد لكان كذا وكذا، ولو تريث القائد.. ولو سمع القائد نصيحة فلان أو رأي فلان.

يا إخواني.. إنهم يُدفعون دفعاً إلى مصارعهم.

إنهم مهما بلغت قوتهم، وتعددت جيوشهم.. وتنوعت أسلحتهم لا يخرجون أبداً عن إرادة الله -عز وجل-.. والله -عز وجل- يريد النصر لعباده الذين نصروه.. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

قاعدة أصيلة لا خلف لها.

وهكذا دفع كتبغا جيشه دفعاً للدخول بكامله في سهل عين جالوت.

وبذلك نجح الجزء الثاني من الخطة الإسلامية نجاحاً مبهراً.

وبدأ تنفيذ الجزء الثالث من الخطة.

وجاءت إشارة البدء من قطز عن طريق الطبول والأبواق.

«كتبغا» في المصيدة!!

ونزلت الكتائب الإسلامية العظيمة من خلف التلال إلى ساحة المعركة.. نزلت من كل جانب، وأسرعت فرقة قوية لتغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، وبذلك في دقائق معدودات أحاطت القوات الإسلامية بالتتار إحاطة السوار بالمعصم.

الخطة تسير في منتهى الإحكام والدقة، ومع ذلك فهذه الخطة تحمل في طياتها خطورة عظيمة على الجيش الإسلامي نفسه.. لماذا؟ لأن حصار التتار دون ترك فرصة الهروب لهم سوف يدفع كل الجنود التتار لإخراج كل طاقاتهم.. إنهم سيقاتلون قتال المستميت.

قتال المحصور.. قتال الحياة أو الموت، وليس قتال الهزيمة أو النصر.

لكن في نفس الوقت إن نجحت الخطة فسوف يكون فيها هلاك عدد ضخم من الجيش التتري.. وقد تكون هذه هي الضربة القاصمة القاضية على هذا الجيش الرهيب.

واكتشف كتبغا الخطة الإسلامية بعد فوات الأوان، وحُصر هو والتتار في داخل سهل عين جالوت، وبدأ الصراع المرير في واحدة من أشد المعارك التي

وقعت في التاريخ.. لا مجال للهرب، ولا مجال للمناورات.. السهل منبسط والمساحات مكشوفة، وليس هناك من حماية إلا خلف السيوف والدروع.. لا بديل عن القتال حتى الموت.

حرب ضارية بشعة.. أخرج التتار فيها كل إمكانياتهم، وبدءوا يقاتلون بحمية بالغة.. والمسلمون صابرون ثابتون.

وظهر تفوق الميمنة التترية ـ كما أخبر بذلك رسول صارم الدين أيبك ـ وبدأت الميمنة التترية تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشهداء يسقطون، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش الإسلامي، وتتعادل بذلك الكفتان، وقد ترجح كفة التتار.. ويصبح إغلاق السهل خطراً على المسلمين.

وقطز - رحمه الله- يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف بكامله، ويوجه فِرَق الجيش إلى سد الثغرات، ويخطط لكل كبيرة وصغيرة.

وشاهد قطز - رحمه الله- المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بقوات احتياطية، ولكن الضغط التتري استمر، وبدأ بعض المسلمين يشعر بصعوبة الموقف، ولعل بعضهم قد شك في النصر، ولا ننسى السمعة المرعبة لجيش التتار الذي قيل عنه إنه لا يهزم.

واإسلاماه!!

وقطز - رحمه الله- يشاهد ذلك، ويدفع بقوات إضافية إلى الميسرة، ولكن الموقف تأزم جداً، هنا لم يجد قطز - رحمه الله- إلا حلاً واحداً لا بديل له.

لابد أن ينزل بنفسه - رحمه الله- إلى ساحة القتال.

لابد أن يثبّت جنوده بالطريقة التي اعتادها معهم... طريقة القدوة!

لابد أن يوضح لجنوده بطريقة عملية أن الموت في سبيل الله غاية ومطمح وهدف.

نحن نريد الآخرة.. وهم يريدون الدنيا.. وشتان!!

هنا فعل قطز - رحمه الله- فعلاً مجيداً.

لقد ألقى بخوذته على الأرض.. تعبيراً عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت الموازين في أرض المعركة.

لقد صرخ قطز - رحمه الله- بأعلى صوته: واإسلاماه.. واإسلاماه..!!

وألقى بنفسه - رحمه الله- وسط الأمواج المتلاطمة من البشر.

وفوجئ الجنود بوجود القائد الملك المظفر قطز - رحمه الله- في وسطهم.. يعاني مما يعانون.. ويشعر بما يشعرون.. ويقاتل كما يقاتلون.

أي تأييد؟! وأي تثبيت؟! وأي سكينة؟! وأي اطمئنان؟!!

القضية إذن واضحة جداً أمام الجميع.. القضية قضية إغاثة الإسلام والدفاع عنه.. القضية ليست أبداً حفاظاً على ملك.. أو حماية لكرسي.. القضية ليست حرصاً على توريث لابن أو عائلة.

القضية ـ يا إخواني ـ قضية صادقة.

وشتان بين القائد الصادق الذي يعيش لدينه ولشعبه.. والقائد الكاذب الذي يتكلم كثيراً عن فضائل الأعمال، وهو لا يعيش إلا لنفسه.

والتهب حماس الجنود، وهانت عليهم جيوش التتار، وحملوا أرواحهم على أكفهم، وانطلقوا في جسارة نادرة يصدون الهجمة التترية البشعة.

إنها ليست هجمة على ذواتهم.. إنها هجمة على الإسلام.

واشتعل القتال في سهل عين جالوت.. وعلا صوت تكبير الفلاحين على كل شيء.. ولجأ المسلمون بصدق إلى ربهم في هذا اليوم المجيد من شهر رمضان.

وقاتل قطز - رحمه الله- قتالاً عجيباً.

ثم صوب أحد التتر سهمه نحو قطز - رحمه الله- فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجل قطز - رحمه الله- على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له! وما تردد، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته - رحمه الله-.

ورآه أحد الأمراء وهو يقاتل ماشياً، فجاء إليه مسرعاً، وتنازل له عن فرسه، إلا أن قطز - رحمه الله- امتنع، وقال: «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك!!»

وظل يقاتل ماشياً إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية!!

وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: لِـمَ لْم تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك.

فقال قطز في يقين رائع: «أما أنا كنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قتل فلان وفلان وفلان... حتى عد خلقاً من الملوك (مثل عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم) فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضع الإسلام ».

رحمك الله يا قطز.. كنت ـ ولا زلت والله ـ قدوة للمسلمين.

وعلى أكتاف أمثالك تنهض الأمم.

ونتيجة مثل هذه المواقف أدت القوات الإسلامية أداءً راقياً جداً في القتال، وأخرجت كل إمكانياتها، ولم تكن قضيتها قضية موت أو حياة كالتتار، بل كانت إما نصرًا أو شهادة.

وبدأت الكفة - بفضل الله - تميل من جديد لصالح المسلمين.. وارتد الضغط على جيش التتار، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجيًّا على التتار.. وكان يوماً على الكافرين عسيراً.

مصرع الطاغية!

وتقدم أمير من أمراء المماليك المهرة في القتال وهو جمال الدين آقوش الشمسي، وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبي، وقد ترك الناصر لما رأى تخاذله وانضم إلى جيش قطز، وأبلى بلاءً حسناً في القتال، واخترق الصفوف التترية في حملة صادقة موفقة حتى وصل في اختراقه إلى ..كتبغا.. قائد التتار!!!

لقد ساقه الله إليه!! ورفع البطل المسلم سيفه، وأهوى بكل قوته على رقبة الطاغية المتكبر كتبغا.. وطار الرأس المتكبر في أرض القتال.. وسقط زعيم التتار.. وبسقوطه سقطت كل عزيمة عند جيش التتار.. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[الأنفال:١٧].

وتغير سيناريو القتال عند التتار.. فما أصبح لهم من هَمّ إلا أن يفتحوا لأنفسهم طريقاً في المدخل الشمالي لسهل عين جالوت ليتمكنوا من الهرب.. وانطلق المسلمون خلف التتار، يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً.

وسقطت جحافل التتار تحت أقدام المسلمين صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.. ضاعت السمعة.. وسقطت الهيبة.. ومُزّق الجيش الرهيب.

وعند «بيسان» تجدّد القتال!!

وركز التتار جهدهم على فتح ثغرة في مدخل سهل عين جالوت الشمالي.. واستطاعوا بعد لأي شديد أن يُحْدثوا ثغرة في الصف المسلم الواقف على باب المدخل، وانطلق التتار في سرعة عجيبة يولون الأدبار، وخرجت أعداد كبيرة

يسرعون الخطى في اتجاه الشمال لعل هناك مهربًا.. وجيوش المسلمين تجري خلف جيوش التتار.. لا يتركونهم.. فليس الغرض هو الانتصار في موقعة ما، وتحقيق كسب سياسي مؤقت يتفاوضون بعده.. إنما الغرض تحرير البلاد بكاملها عن طريق الجهاد.

التتار ينهبون الأرض شمالاً، والمسلمون لا يتركونهم:

ووصل التتار الفارون إلى بيسان (حوالي عشرين كيلومترًا إلى الشمال الشرقي من عين جالوت) ووجد التتار أن المسلمين جادون في طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من جديد، لتدور موقعة أخرى عند بيسان، أجمع المؤرخون على أنها أصعب من الأولى، وقاتل التتار قتالاً رهيباً، ودافعوا عن حياتهم بكل قوة، وبدءوا يضغطون على المسلمين، وكادوا أن يقلبوا الأمور لمصلحتهم، وابتلي المؤمنون، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وكانت هذه اللحظات من أحرج اللحظات في حياة القوات الإسلامية.. ورأى قطز - رحمه الله- كل ذلك.

فهو لم يكن «قريباً من الأحداث».. بل كان «في وسط الأحداث».

فانطلق قطز يحفز الناس، ويدعوهم للثبات.

ثم أطلق صيحته الخالدة: واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه.

قالها ثلاث مرات، ثم قال في تضرع: «يا الله!! انصر عبدك قطز على التتار!».. الله أكبر.

ما أحسن اعترافك يا قطز بعبوديتك في هذا المقام!.

يا الله.. انصر «عبدك» قطز على التتار.

لستُ أنا الملكَ المظفر.. لستُ أميرَ المسلمين.. لستُ سلطانَ مصر.

إنما أنا عبدك.

بالله عليكم.. كيف يلجأ العبد بصدق إلى الله.. ثم يتركه الله -عز وجل-؟

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

لقد دق قطز على الباب الذي ما طرق عليه صادق إلا وفتح له.

لقد تقرب قطز إلى من بيده ملكوت السموات والأرض.

وعندما يخشع ملوك الأرض يا إخوة، لابد أن يرحم جبار السموات والأرض.. لقد كان خشوع قطز الصادق هو الجبل الذي وقع على جيش التتار فأهلكهم.

نهاية الأسطورة!!

ما إن انتهى من دعائه وطلبه - رحمه الله- - إلا وخارت قوى التتار تماماً.

وبدأ الجنود الذين روعوا الأرض قبل ذلك يتساقطون كالذباب على أرض بيسان.. قضى المسلمون تماماً على أسطورة الجيش الذي لا يقهر.

وارتفعت راية الإسلام وتهاوت راية التتار.. وجاءت اللحظة التي ينتظرها المسلمون منذ أربعين سنة أو تزيد.. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤،٥].

أتدرون كم بقي من جيش التتار بعد عين جالوت؟!

لقد أبيد جيش التتار بكامله!! لم يبق على قيد الحياة من الجيش أحد بالمرة.. هل سمعتم أمراً كهذا؟! لقد فني الجيش الذي اجتاح نصف الكرة الأرضية.. فني الجيش الذي سفك دماء الملايين، وخرب مئات المدن، وعاث في الأرض فساداً..

وانتصر الجيش الإسلامي العظيم.

هنيئاً لكم أيها المسلمون بالنصر العظيم!!

هنيئاً لك يا قطز.. فقد حان وقت قطف الثمار!!

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ..﴾

ماذا فعل قطز - رحمه الله- عندما رأى جموع التتار صرعى على أرض بيسان المباركة؟

لقد نزل البطل المجاهد العظيم التقي الورع.. نزل من على فرسه.

ومرّغ وجهه في الأرض.. يسجد شكراً لله -عز وجل-!!

ما دخله غرور المنتصرين.. وما رفع رأسه بزهو المتكبرين.

وما شعر أنه قد فعل شيئاً.

بل إن الفضل والمنة لله -عز وجل-.. هو الذي أنعم عليه بأن اختاره ليكون مجاهداً.. هو الذي من عليه بالثبات.. هو الذي ألهمه الحكمة في القتال، والصواب في الرأي.. هو الذي هداه السبيل.

هنا بيت القصيد.

أن تعرف أنك عبد الله.. لا تُنصر إلا بنصره.. ولا تنجو إلا برحمته، ولا تتحرك إلا بإرادته.. ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

إذا أردتم أن تعرفوا قطز - رحمه الله-.. فانظروا إلى كثير من الزعماء الذين ينتفخون كِبراً وزهواً وفخراً، ويتطاولون على خلق الله، ويُصَعِّرون خدودهم للناس، ويمشون في الأرض مرحاً.. كأنما يبغون خرق الأرض أو مطاولة الجبال..!! وما فعلوا لأمتهم معشار ما فعله قطز - رحمه الله-.

بل كانوا وبالاً على شعوبهم، ومصيبة على أمتهم.

هنا تبرز قيمة قطز الحقيقية.

«بضدها تتميز الأشياء».

ومن هنا فلا عجب أن يُنصر قطز - رحمه الله-، ولا عجب أن يُخذل غيره.

والله لا يظلم أحداً.

يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠].

الإنسان هو الذي يختار.

لم يأت قطز-رحمه الله- في زمان تمكين ولا سيادة.. لم يأت في ظروف طيبة ومريحة.

لم يحكم البلاد وهي قوية قاهرة.. لم يجلس على الكرسي وأموال دولته لا تحصى.

إنما كانت كل الظروف ضده.

لكنه استعان بالله، وعمل بصدق وإخلاص، وحفز الآخرين على العمل معه.. فكان لابد من الوصول.

ويوم يعمل المسلمون كما عمل قطز -رحمه الله- سيصلون حتماً إلى ما وصل إليه.

وليس بالضرورة أن يحتاج التغيير إلى سنوات أو قرون أو عقود.

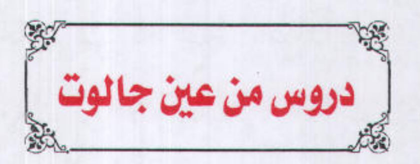
فقد كانت عين جالوت بعد عشرة أشهر فقط من تولي قطز مقاليد الأمور.

المهم أن يوجد المخلصون الصادقون العاملون العاملون.

ووعد الله لا يتخلف أبداً.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١].

* * *



دروس من عين جالوت

سقط الجيش التتري في مستنقع أعماله.

لقد أفسد جيش التتار في الأرض إفساداً عظيماً، والله -عز وجل- لا يصلح عمل المفسدين.. وبرغم أن جيش التتار جيش مُفسد إلا أنه سُلط على المسلمين فترة من الزمان (أربعين سنة تقريباً)، وهُزم أمامهم المسلمون في مئات المواقع الحربية.. ثم دارت الأيام، وتمت المعركة الهائلة عين جالوت، وانتصر المسلمون انتصاراً مبهراً.

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠].

وهناك سؤالان قد يخطران على بال المحلل للأحداث، والمتدبر في مجريات الأمور.

وللسؤالين إجابة واحدة.

السؤال الأول هو: كيف سُلّط جيش التتار الفاسد المفسد على أمة الإسلام، وهي خير منه مهما خالفت المنهج، ومهما قصّرت في واجباتها؟!

السؤال الثاني هو: جيش التتار الذي انتصر على المسلمين في كل المواقع السابقة هو جيش التتار نفسه الذي هُزم في عين جالوت.. لماذا انتصر في السابق؟ وما الذي حدث حتى يهلك الجيش بكامله بهذه الصورة العجيبة؟!

والإجابة عن السؤالين نجدها في جزء من خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابي العظيم الملهم، وكان قد أرسل خطاباً إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان يقود الجيوش الإسلامية المتجهة لحرب الفرس في موقعة القادسية.

يقول الصحابي الحكيم عمر ﷺ يخاطب سعداً ﷺ:

«فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدّونا شر منا، فلن يُسلَّط علينا، فرب قوم سُلِّط عليهم مَن هو شر منهم، كما سُلّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً..»

هذا جزء من رسالة الفاروق عمر ﷺ، والتي تُعد من أنفس ما قال، ومن أعظم الرسائل على وجه الأرض.. والرسالة طويلة.. ودراستها في غاية الأهمية لبناء الأمة.

في هذا الجزء الذي ذكرناه يتضح لنا أن الله -عز وجل- أحياناً يسلط الكفار والمفسدين على المسلمين إذا عمل المسلمون بمعاصي الله، فإذا التزم المسلمون بتقوى الله -عز وجل- وساروا على منهج ربهم ومنهج رسوله ﷺ انتصروا على الجيوش التي طالما انتصرت عليهم.

لم ينتصروا عليها لقوة جسد أو لكثرة عَدد أو لكفاءة عُدد، وإنما ينتصرون لارتباطهم بربهم، وبُعد أعدائهم عنه سبحانه.

من هنا نفهم لماذا سُلّط التتار أربعين سنة على المسلمين في الأرض.

ومن هنا نفهم لماذا انتصر المسلمون في عين جالوت على الجيش الذي دوّخ بلاد المسلمين عشرات الأعوام.

ومن هنا أيضاً نفهم أحداثاً كثيرة في التاريخ، وأحداثاً كثيرة في الواقع.

فإذا رأيتم - يا إخواني- ضعفاً وخوراً وجبناً واستكانة في جيوش المسلمين.

وإذا رأيتم تبعية لغرب أحياناً، ولشرق أحياناً أخرى.

وإذا رأيتم هواناً في الرأي، وسقوطاً للهيبة، وذلة في كل الأحوال.

وإذا رأيتم موالاة لمن سفك دماء المسلمين، وتحالفاً مع من دمّر ديار المسلمين، وصداقة مع من شرّد ملايين المسلمين، واستعانةً بمن خرّب اقتصاد المسلمين.

إذا رأيتم أن الأمة العظيمة الكبيرة الكثيرة قد أصبحت لا تساوي شيئاً في عيون أعدائها.. فيتطاول عليها أخس أهل الأرض، من إخوان القردة والخنازير، ومن عبّاد البقر، ومن عبّاد البشر، ومن الملحدين.

إذا رأيتم كل ذلك.. فاعلموا أن الأمة تعمل بمعاصي الله، وأن الأمة لا تتبع شرع الله.. وأن الأمة سقطت من عين الله.. وأن الله -عز وجل- ـ بنفسه ـ هو الذي يُسلّط عليها الفاسدين من اليهود والصليبيين والهندوس والشيوعيين وغيرهم.

أهذا شيء يدعو إلى الإحباط واليأس؟

أبداً.. إنه يدعو إلى التفكر والتدبر والاستفادة من التاريخ والعمل.

وعين جالوت بين أيدينا.. وإلا فلماذا ندرس هذه الأحداث التاريخية التي مرّ عليها قرون وقرون؟!!

العودة إلى الله -عز وجل- ليست صعبة!!

مهما غرقت الأمة في معاصيها، ومهما ابتعدت عن كتاب ربها، ومهما ضلت طريقها، فإنها تعود إلى الله -عز وجل- في لحظة واحدة.

هذا إذا أرادت أن تعود.

هذا إذا أرادت أن تعيش.

بل هذا إذا أرادت أن تسود وتقود وترفع رأسها وتُعزّ شأنها.

مهما ابتعدنا عن الله - يا إخواني- فإنه يقبلنا إذا عدنا إليه.. بل يفرح بنا ـ سبحانه وتعالى ـ إذا عدنا إليه.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ**».

فقط علينا أن نعود إلى الله.. وسنرى عين جالوت.. وألف عين جالوت.

هذا وحده إذن هو التفسير الشرعي للانتصار والهزيمة في الإسلام.. ينتصر المسلمون بارتباطهم بربهم، ويُهزمون ببُعدهم عن الشرع.. والله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

تحرير «دمشق»..

نعود إلى قطز - رحمه الله- بعد الانتصار الرائع في عين جالوت.

لم تنته مهمة الملك المظفر بعد.. ما زال هناك تتار في بلاد الشام.. ما زال هناك تتار في دمشق وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية.. وما زال هناك تتار في العراق وتركيا وفارس وغيرها.

وليس في حياة قطز - رحمه الله- راحة.

مع كثرة الشهداء وكثرة الجراح والآلام.. ومع الإرهاق الشديد الذي يعاني منه الجيش المناضل البطل.. الذي عبر صحراء سيناء بكاملها في شهر يوليو، والذي حارب في غزة، ثم اجتاز فلسطين كلها من جنوبها إلى شمالها حتى وصل إلى عكا، والذي عاد بعد ذلك إلى عين جالوت، والذي خاض المعركة الهائلة مع أقوى جيوش الأرض.

مع كل هذه المعاناة إلا أن الخطوة التالية مباشرة لقطز بعد انتصار عين جالوت المجيد أن يتجه إلى دمشق في الشمال..!!

ودمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلومترًا تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها.

لابد من تطهير هذه المدينة الإسلامية العظيمة من دنس التتار.. ولابد من استغلال فرصة الانكسار الرهيب في جيش التتار، فتُحرر دمشق وغيرها قبل أن تأتي إمدادات التتار من فارس أو من أوروبا أو من الصين.

وقطز - رحمه الله- القائد المحنك أراد أن يهيّئ الفرصة العظمى لجيشه في الانتصار على قوات التتار في دمشق، وهو يعلم أن جيش التتار قد قتل بكامله في عين جالوت، ولم ينقل أحد منهم الخبر إلى دمشق، فأراد هو أن ينقل خبر النصر العظيم إليهم، فيرفع بذلك من معنويات المسلمين، ويضع من معنويات الحامية التترية في دمشق؛ فيسهل عليه بذلك فتح تلك المدينة العظيمة..

وبالفعل أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر المجيد.. وكان مما جاء في هذه الرسالة:

«أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى (ولاحظ أنه ينسب النصر إلى الله)، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام.

وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس ونُسخت آية الليل بسورة الشمس.

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم (وما ربك بظلام للعبيد..)».

وصل الكتاب يحمل البشارة إلى أهل دمشق، وفي الغالب وصل الكتاب في يوم ٢٧ أو ٢٨رمضان، واستقبل المسلمون الخبر بفرح لا يوصف؛ فقد يئس الكثير من إمكانية هزيمة التتار، فلما سمعوا بأخبار الانتصار المبهر ارتفعت هممهم إلى السماء، ورأوا عمالقة التتار أقزاماً، وقام الشعب في دمشق بثورة عارمة على جيش المغول، وأمسكوا بجنود التتار وفتكوا بهم، فما استطاعوا من قيام، وما كانوا منتصرين.

لقد سقطت هيبة التتار، وتنفس المسلمون الصعداء بعد قهر وبطش استمرا أكثر من ستة شهور.

وانتهى المسلمون من أمر الحامية التترية بسرعة، فمنهم من قُتل، ومنهم من أُسر، ومنهم من فرّ، واتجه المسلمون بعد ذلك للانتقام من النصارى الذين تطاولوا جداً على أهل الإسلام في أثناء سيطرة التتار على دمشق، وقد ذكرنا طرفاً من أعمال النصارى في دمشق قبل ذلك.. وتجاوز بعض المسلمين الأمر إلى حرق الديار والكنائس، وإلى قتل البعض منهم، وكاد الأمر يخرج عن السيطرة،

ونشط بعض الغوغائيين، وقرروا أيضاً الفتك باليهود الذين يعيشون في دمشق، لولا أن قام العلماء ينصحون بعدم الظلم؛ لأن اليهود لم يشتركوا مع النصارى في إيذاء المسلمين أيام حكم التتار، وتكهرب الجو في دمشق، وكادت الفتنة أن تعم في البلاد.. وامتزجت في نفوس الناس مشاعر السرور والزهو بمشاعر الانتقام والتشفي.. وتأزّم الموقف جداً.

وبينما هم كذلك ـ وفي اليوم الثلاثين من رمضان سنة ٦٥٨ هجرية ـ وصل البطل العظيم الملك المظفر قطز - رحمه الله- إلى دمشق.. بعد خمسة أيام من يوم عين جالوت.

واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر.

هذه - يا إخواني- هي الفرحة الحقيقية.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

فرحة النصر لدين الله، والرفعة للإسلام، والعزّة للمسلمين.

لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان.

العيد الحقيقي..

ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق.. واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة.. لم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد؛ فتعم الفوضى، ويُترك الحبل على الغارب، وتنتهك الحرمات أمام أعينهم وتنتهب المحلات والديار وهم يشاهدون.

لم يحدث كل هذا.. إنما استقر الوضع بسرعة، بل أمن النصارى واليهود على أرواحهم وأموالهم، وقام قطز - رحمه الله- بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار، وكان موالياً لهم، وعيّن مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر

الدين بن سني الدولة، وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى.. حتى لا يُظلم نصراني في بلاد المسلمين.. هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة.

وفي اليوم التالي لدخول قطز - رحمه الله- إلى دمشق كان عيد الفطر.

وهو أعظم عيد مرّ على المسلمين منذ أربعين سنة، لم يكن عيداً للفطر فقط، بل كان أيضاً عيدًا للنصر والتمكين.. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠].

ولم يضيع قطز - رحمه الله- وقتاً بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار، وتُطهّر المدن الشامية الأخرى من الحاميات التترية، فوصلت القوات الإسلامية إلى حمص، واقتحمت على التتار معسكراتهم ففروا مذعورين، وأطلق المسلمون الأسرى المسلمين الذين كانوا في قبضة التتار، وانطلقوا خلف الحاميات التترية الهاربة، فقتلوا أكثرهم، وأسروا الباقين، ولم يفلت منهم إلا الشريد.

وهكذا حررت حمص بسرعة، واتجهت القوات الإسلامية إلى حلب، ففر منها التتار كالفئران المذعورة، وانطلقوا يجرون أذيال خيبتهم، وسبحان مغيّر الأحوال.

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ إلى حال!!

وطَهّر المسلمون بلاد الشام بكاملها في غضون بضعة أسابيع، وعادت من جديد أرض الشام إلى ملك الإسلام والمسلمين.. نسأل الله لها ولسائر بلاد المسلمين دوام التحرر والعزة.

وأعلن قطز - رحمه الله- توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم

الدين أيوب - رحمه الله- في سنة ٦٤٨ هجرية.. وخُطب لقطز - رحمه الله- على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خطب له في أعالى بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات.

وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم.

وبدأ قطز - رحمه الله- يوزع الولايات الإسلامية على الأمراء المسلمين، وكان من حكمته - رحمه الله- أنه أرجع بعضاً من الأمراء الأيوبيين إلى مناصبهم؛ وذلك ليضمن عدم حدوث الفتنة في بلاد الشام، لأنه لا شك أن هؤلاء لهم أتباع من المسلمين، ولم يخش قطز - رحمه الله- من خيانتهم، وخاصة بعد أن تبين لهم أنه لا طاقة لهم بقطز - رحمه الله- وبجنوده الأبرار.

أعطى قطز - رحمه الله- إمارة حمص للأشرف الأيوبى -الذى كان موالياً للتتار- بعد أن أظهر ندمه وتوبته، وأرسل إلى قطز قبل عين جالوت مع صارم الدين أيبك أنه سوف ينهزم عمداً بين يدى قطز، والله أعلم لو كان النصرُ حليف التتار ماذا كان فاعلاً، فهذا بينه وبين الله -عز وجل-، ولكن المهم الآن أنه اعترف بخطئه السابق الجسيم من موالاته للتتار، وقبل حكم حمص تحت رعاية قطز - رحمه الله-، وأعطى قطز - رحمه الله- إمارة حلب إلى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذى مات منذ شهور قليلة، وأعطى إمارة حماة إلى صاحبها الأسبق الأمير المنصور، والذى كان يقاتل معه في القوات الإسلامية المشتركة في عين جالوت، وعين الأمير جمال الدين آقوش الشمسي على الساحل الفلسطينى وغزة، أما دمشق فقد عين عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبى.

وهكذا استقرت الأوضاع تماماً في بلاد الشام وفلسطين، وقويت شوكة الإسلام، واختفي كلُ تهديد يمسّ أمن المسلمين ورعاياهم من النصارى واليهود.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر شوال سنة ٦٥٨ هجرية بعد شهر كامل من يوم عين جالوت بدأ السلطان قطز - رحمه الله- رحلة عودته إلى عاصمته القاهرة.. فكثير من الأوضاع السياسية هناك يحتاج إلى استقرار، وكثير من الأمور تحتاج إلى إدارة.. وقد أصبحت دولة قطز - رحمه الله- تصل من الفرات إلى حدود ليبيا، ولابد من إعادة تنسيق كثيرٍ من الأوراق.. ولا ننسى أن قطز - رحمه الله- لم يتول الحكم حتى ذلك اليوم إلا منذ أحد عشر شهراً فقط، فقد تولى الحكم في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٥٧هجرية، وما زالت تنتظره الآلاف من الأعمال.

هكذا تم النصر المبين على التتار، واستيقظ المسلمون من الكابوس المزعج الذى آلمهم في كل السنوات الماضية.

آثار «عين جالوت»..

وسبحان الله.. مع أن موقعة عين جالوت هذه كانت موقعة واحدة، وتمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت من القوة بحيث لا تتخيل، وكانت من الكثرة بحيث لا تحصى.. آثار عين جالوت كانت في غاية الأهمية، ولا نستطيع في هذه العجالة أن نمرّ عليها كلها، ولكن سنمرّ على طرفٍ منها.. وعلى الدارسين والمحللين أن يبحثوا في هذه الآثار بمزيد من التفصيل والدراسة.

الأثر الأول: عاد المسلمون إلى الله -عز وجل- أثناء التحضير وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمان.. لقد وضحت المعادلة جداً في أذهان الناس؛ فالمسلمون عندما ابتعدوا عن الله - عز وجل- تمكن التتار من رقابهم، ولما عادوا إلى الله حدث النصر الذى اعتبره كثير من المحللين معجزة.. وواقع الأمر أنه ليس بمستغرب، فالنتيجة الطبيعية لعودة المسلمين إلى الله -عز وجل- أن يتم نصرُهم على أعدائهم.

وتبين المسلمون أيضاً بوضوح أن الحرب دينية في المقام الأول؛ فقد تحالف كثير من النصارى مع التتار، مع أن مصالحهم على المستوى البعيد كانت مع المسلمين وليست مع التتار؛ فالتتار لا عهد لهم، بينما يحترم المسلمون العهود جداً.. هذا في أصل دينهم، وهذا هو واقعهم في معظم فترات التاريخ، والمخالفات الإسلامية من ناحية إخلاف الوعود والعهود قليلة جداً، ويكون لها عادة مبررات قوية.. ولذلك فقد استقرّ في نفوس المسلمين بعد انتصار عين جالوت أن الحروب التى دارت بينهم وبين التتار والنصارى لم تكن حروب مصالح فقط، كما يحب كثير من الغربيين والعلمانيين أن يصوروا، وكما يحب الماديون أن يصوروا؛ فيجعلون الاقتصاد هو المحرك الرئيسي للحروب.. أو يجعلون الأغراض العسكرية والاستراتيجية هي الهدف الأساسي.. بينما رأينا في هذه القصة التى مرت بنا أن الدين كان له أثر كبير في تحريك النصارى، وكان له أثر أكبر في تحريك المسلمين.. والله -عز وجل- نبهنا إلى ذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠]؛ فجعل الرضا عندهم مقرونًا باتباع ملتهم وليس ببقاء مصالحهم.

وكذلك قال: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[البقرة: ٢١٧].

فوضح أن القتال سيستمر حتماً إلى أن يترك المسلمون دينهم، أما قبل ذلك فالحرب لن تتوقف، ولن تكفي سيطرة اليهود والنصارى والتتار والمشركين والهندوس على الأرض والديار والأموال والبترول والناس وغير ذلك.. لن يكفي كلُّ ذلك.. بل سيظل الهدف الأسمى لهؤلاء هو السيطرة على الدين الإسلامى.. أو قل «محو الدين الإسلامى»، وما نراه من متابعة لكل الحركات الإسلامية والتوجهات الدينية، وما نراه من محاولات تغيير لمناهج المسلمين الدراسية، وما نراه من حرب في وسائل الإعلام المختلفة.. كل هذا ما

هو إلا صور للتعبير عن شدة الكراهية «لوجود» الدين، وليس لوجود القوة أو الحدود.

أي أن المعركة في أصلها هي معركة «وجود» أساساً، هم لا يقبلون «بوجود» الدين الإسلامي على وجه الأرض.. لذلك فالحرب لن تنتهي أبداً.. لأن دين الإسلام لن ينتهي أبداً بإذن الله.. وهكذا لا يصلح أن يكون السلام اختياراً استراتيجياً مهما تغيرت الظروف.. فأنت إن تنازلت عن كل شيء في مقابل السلام فهم لن يقبلوا.. إلا أن تتنازل عن «الدين»..

لقد فقه المسلمون بعد موقعة «عين جالوت» أن الصراع ديني في المقام الأول، ومن ثَمَّ إذا أردت أن تنتصر في هذا الصراع الديني، فلابد أن تكون دينياً.. بمعنى أن تكون متمسكاً تماماً بهذا الدين.

كان هذا هو الأثر الأول لموقعة عين جالوت الخالدة.

الأثر الثاني: قتل المسلمون في عين جالوت الهزيمة النفسية البشعة التي كانوا يعانون منها.. والتي فصلنا في ذكرها في أول هذا الكتاب.

خرج المسلمون من حالة الإحباط الشديد التي كان تسيطر عليهم، وعلموا أن الأمل في الله -عز وجل- لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها ولا شك إلى زوال.. ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٦،١٩٧].

ظهر للمسلمين بوضوح بعد عين جالوت أن الله -عز وجل- قادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهم وإن كانوا يعلمون ذلك علماً نظرياً قبل عين جالوت، فإن موقعة عين جالوت جاءت كالدرس العملي التطبيقي الذي لا يُبقي شكاً في قلب أحد.. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧].

الأثر الثالث: عادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية في أواخر القرن السادس الهجري في درجة عظيمة جداً من درجات النصر والفخر والسيادة، وذلك بعد انتصارَيْ حطين في المشرق (في فلسطين)، والأرك في المغرب (في الأندلس) حدث انكسار شديد في حالة الأمة الإسلامية، ضاعت هيبتها، حتى بدأت الكلاب تنهش جسدها، والأفاعي تجول بأرضها.

لكن عين جالوت ألقت الجلال والمهابة على الأمة الإسلامية، حتى إن هولاكو الذي كان يستقر في تبريز في فارس، ومعه عدد ضخم من القوات التترية لم يفكر في إعادة احتلال بلاد الشام مرة ثانية، وأقصى ما استطاع فعله هو إرسال حملة انتقامية أغارت على حلب، وسفكت دماء بعض أهلها كنوع من إثبات الوجود، لكن هيبة الأمة الإسلامية وقرت في صدره، فلم يشأ أن يلقي بجيشه في مهلكة جديدة.

وهيبة الأمة لا تعود إلا بأيام كعين جالوت.

«إن الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن».

الأثر الرابع: فنيت قوة التتار العسكرية في منطقة الشام وتركيا وفلسطين.. لم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك، اختفى القهر والظلم، واختفى البطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم.. ولم يروع الناسَ أحدٌ في هذه المناطق إلا بعد عين جالوت بأكثر من مائةٍ وأربعين عاماً، عندما دخل التترى السفاح تيمورلنك بلاد الشام، فاجتاح حلب ودمشق سنة ٨٠٤ هجرية بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامي الشرقية.

أحداث تيمورلنك سنتعرض لها - إن شاء الله- عند الحديث عن دولة المماليك، وأيضاً سنتناولها عند الحديث عن الخلافة العثمانية.. لكن ما يهمنا في هذا المجال هو أن هذه الموقعة «عين جالوت» قد أمَّنت المسلمين مائة وستًا وأربعين سنة كاملة.

الأثر الخامس: تعتبر موقعة عين جالوت شهادة الميلاد الحقيقية لدولة المماليك العظيمة، التي حملت راية الإسلام لمدة تقترب من ثلاثة قرون (مائتين وسبعين سنة..).. نعم، كانت بداية حكم المماليك منذ سنة ٦٤٨ هجرية عند ولاية شجرة الدرّ ثم زوجها الملك المعز عزّ الدين أيبك المملوكي، لكن «عين جالوت» هي التي أعطت الشرعية أمام جميع المسلمين لدولة المماليك.. فقد حقق المماليك في غضون عشر سنوات انتصارين هائلين على أعداء الإسلام.. أما الانتصار الأول فكان في المنصورة وفارسكور على جيوش فرنسا بقيادة الملك لويس التاسع، والانتصار الثانى هو عين جالوت، ولئن كانت القيادة العامة لجيش المسلمين في موقعة المنصورة ثم فارسكور قيادة أيوبية، فإن الجيش كان معتمداً في الأساس على المماليك، أما في عين جالوت فالانتصار كان مملوكياً خالصاً، وبذلك شعر الجميع أن هؤلاء المماليك هم أقدر الناس على قيادة الأمة.

وهكذا نشأت الدولة المملوكية التى حملت على عاتقها صدّ هجمات أعداء الله -عز وجل- من تتار أو صليبيين، وكانت دولة جهادية في معظم فتراتها.

ومع أن دولة المماليك حاولت أن تضفي شرعية على وجودها بصورة أكبر حيث استضافت أبناء خلفاء بنى العباس في القاهرة ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت مباشرة. وفي عهد الظاهر بيبرس، إلا أن دولة المماليك لم تكن تمثل الخلافة الحقيقية للمسلمين لأنها لم تكن في أقصى اتساعها تسيطر إلا على

أجزاء محدودة من العالم الإسلامي، فكانت تسيطر على مصر والشام والحجاز واليمن وأجزاء من العراق وأجزاء من ليبيا، أما بقية العالم الإسلامى فكان موزعاً بين طوائف شتى، ولم يجد المسلمون معنى الخلافة الحقيقية الجامعة لكل المسلمين تقريباً إلا بعد قيام الخلافة العثمانية العظيمة التى أعادت جمع المسلمين بعد سنوات من التفرق.

لكن على العموم.. كانت دولة المماليك أقوى دول المسلمين في فترة وجودها، وأكثرها جدية، وأعظمها هيبة، ولذلك يطلق المؤرخون كثيرًا على العهد الذى عاش فيه المماليك «العهد المملوكي» متجاهلين بذلك كثيراً من الدول الصغيرة التى عاشت في تلك الفترة..

الأثر السادس: عادت الوحدة العظيمة بين مصر والشام، وكونا معًا التحالف الاستراتيجي الصُلب الذي يمثل حاجز صدّ رائع ضد الهجمات الأجنبية.. فمصر والشام - بما فيها فلسطين - يمثلان قلب العالم الإسلامي استراتيجيا وسياسياً وجغرافياً وثقافياً وتاريخياً.. واتحاد مصر مع الشام يمثل عامل أمان كبير لكل المنطقة، كما أنه يقلل كثيراً من أطماع الطامعين في العالم الإسلامي، وخاصة أن معظم أعداء الإسلام كثيراً ما يركزون تفكيرهم على منطقة مصر والشام، وذلك لأسباب دينية واقتصادية وعسكرية.. وبذلك يتضح أنه لا نجاة لهذه المنطقة إلا بوحدة شاملة بين كل الشام بما فيها سوريا وفلسطين والأردن ولبنان.. وبين مصر.. وهذا ما فعلته دولة المماليك الناشئة.

الأثر السابع: اختفى من على الساحة الإسلامية كل الأمراء الأيوبيين الذين كانوا أقزاماً في ذلك الزمن الذي لا يعيش فيه إلا العمالقة.. لقد فرّط معظم هؤلاء الأمراء في الأمانة الثقيلة التي خلَّفها لهم جدُّهم العظيم صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله-، وما كان لهم من همٌّ إلا الصراع على السلطة،

وجمع المال، وتوريث الأبناء.. عاشوا حياتهم في مؤامرات ومكائد، وداسوا على كل الفضائل والمكارم في صراعاتهم، حتى انتشرت بينهم موالاة النصارى، والاستعانة بهم في حرب إخوانهم من المسلمين، وأحيانًا في حرب إخوانهم الأشقاء..!! وظلّ هؤلاء الأقزام يُذيقون شعوبهم الألم والظلم والقهر والخيانة، وظلوا يقاومون أيّ مشروع للوحدة تحت راية واحدة، لأنهم يختلفون فيمن يصعد إلى كرسي الحكم إذا حدثت الوحدة، وظلوا يقاومون الحكم المملوكي في مصر، ويتعاونون مع الصليبيين لإسقاطه إلى أن حدثت موقعة عين جالوت الخالدة.. فكان من آثارها المباشرة سقوط هذه الزعامات الوهمية، وعرف كل منهم قدره، ورضي بما يناسب حجمه، وبذلك وَقَتْ موقعة عين جالوت الأمةَ شر أبنائها.. كما وَقَتْهَا شر أعدائها.

الأثر الثامن: نتيجة الوحدة بين مصر والشام، ونتيجة اختفاء الأمراء الأقزام من على الساحة، ونتيجة ظهور دولة المماليك، ونتيجة الطبيعة الجهادية لدولة المماليك، ونتيجة النشأة الإسلامية والحميّة الدينية والفقه العالي الرفيع لهذه الدولة.. نتيجة لكل هذا حدث أمر هائل عظيم.

لقد أخذ المماليك على عاتقهم مهمة تحرير بلاد الشام وفلسطين من الإمارات الصليبية التي ظلّت تحكم هذه البلاد منذ سنة ٤٩١ هجرية.. أي منذ أكثر من مائة وستين عاماً قبل عين جالوت.. ومع أن عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي - رحمهم الله جميعاً- قد بذلوا جهوداً مضنية لتحرير هذه المناطق إلا أنهم لم يفلحوا في تحرير كثير منها، إلى جانب تفريط أبنائهم في بعض الولايات المُحرَّرة حين تنازلوا عنها من جديد للصليبيين، ولذلك فبعد «عين جالوت»، وبعد استقرار المماليك في الحكم بدءوا يوجهون جيوشهم الواحد تلو الآخر لتحرير هذه البلاد الإسلامية العظيمة؛ فلسطين وسوريا والأردن ولبنان وتركيا.. نسأل الله لها جميعًا دوام التحرر.

فبدأ الظاهر بيبرس حملاته على هذه الإمارات ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت بشهور قليلة، وبعد جهاد مُضْنٍ بدأت الإمارات الصليبية في التساقط في أيدي المسلمين المجاهدين، فحرّر المسلمون في سنة ٦٦٤ هجرية قيسارية وحيفا وحصن أرسوف جنوب قيسارية، وكل هذه المدن في فلسطين، ثم في سنة ٦٦٥ هجرية حررت صفد في الشمال الشرقي لفلسطين، وبينما كان بيبرس يحرر هذه البلاد في فلسطين كان قائده سيف الدين قلاوون يحرر قليقية في تركيا، وانتصر هناك على قوات الأرمن النصرانية بقيادة الملك هيثوم، وجمع غنائم لا تحصى، وأسر من الصليبيين ونصارى الأرمن أربعين ألفاً، وفي سنة ٦٦٦ هجرية حرّر الظاهر بيبرس يافا، وفي سنة ٦٦٧ هجرية حُررت أنطاكية إمارة الأمير بوهمند الذى كان متحالفاً مع التتار، وهي أول مملكة صليبية في بلاد المسلمين حيث احتلت في سنة ٤٩١ هجرية، وكانت أغنى الإمارات حتى إن غنائمها من الذهب والفضة كانت توزع على الفاتحين بالمكيال وليس بالعدد..!!

ولم يبق عند وفاة الظاهر بيبرس - رحمه الله- من المدن الإسلامية المحتلة إلا عكا وكانت أقوى المدن المحتلة، إلى جانب صور وصيدا وطرابلس وبيروت وهي جميعاً في لبنان، وأيضاً طرطوس واللاذقية وهما من المدن السورية.

وقد حُرِّرت طرابلس في سنة ٦٨٤ هجرية بعد عين جالوت بستة وعشرين عاماً على يد السلطان المملوكي المنصور قلاوون، ثم خلفه بعد ذلك ابنه السلطان العظيم الأشرف خليل بن قلاوون الذي أخذ على عاتقه تحرير كل المدن الإسلامية المحتلة من الصليبيين، فحُررت عكا الحصينة في سنة ٦٩٠ هجرية، بعد قرابة قرنين من الاحتلال الصليبي، وبعد فشل كل أمراء المسلمين السابقين على مدى قرنين كاملين في فتحها، وبفتح عكا سقطت أعظم معاقل الصليبيين في الشام، وبعدها بقليل حررت صيدا وصور وبيروت وجبيل

وطرطوس واللاذقية، وبذلك انتهى الوجود الصليبي تماماً من الشام، وذلك بعد اثنتين وثلاثين سنة فقط من عين جالوت، مما يجعل هذا التحرير من النتائج المباشرة لهذه الموقعة العملاقة.

هناك بالطبع تفاصيل في غاية الأهمية والروعة في تحرير كل هذه المدن والإمارات، ولكننا نرجئ ذكرها إلى حين الحديث عن الحروب الصليبية إن شاء الله.

الأثر التاسع: ارتفعت قيمة مدينة القاهرة المصرية ارتفاعًا بالغًا، بعد انتصار عين جالوت وقيام دولة المماليك، وخاصة بعد التدمير الذي لحق ببغداد سنة ٦٥٦ هجرية على أيدي التتار، وبعد سقوط قرطبة سنة٦٣٦ هجرية في أيدي الصليبيين الإسبان.

أصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء، ونشطت الحركة العلمية جداً، وعظم دور الأزهر، وأصبح - ولا يزال - من أعظم جامعات العالم الإسلامي، وحمل لواء الدفاع عن الدين، ونشر الدعوة، والجهر بالحق عند السلاطين، والمطالبة بالحقوق، وتزعم الحركات الجهادية ضد أعداء الأمة.

وبذلك توارثت الأجيال في هذه المدينة العريقة «القاهرة» الدعوة إلى الله، والصحوة الإسلامية، وحمل هَمّ المسلمين، ليس في مصر وحدها بل في العالم أجمع.

الأثر العاشر: وهو من أعجب الآثار، وأعظم الآثار!!

فقد رأى كثير من التتار دين الإسلام عن قرب، وقرأوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه.. فأعجبوا به إعجاباً شديداً، وخاصة أنهم - كعامة البشر- يعانون من فراغ ديني هائل.. فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين الإسلام.. ومن اقترب منه وبحث فيه لابد أن يرتبط به، إن كان صادقاً في بحثه، وطالبًا للحقيقة فعلاً.

لقد بدأ بعض التتار يؤمنون بدين الإسلام.. ثـم شـاء الله -عـز وجـل- أن يدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية - أحد الفروع الكبيرة جداً في قبائل التتار -، وهذا الزعيم هو ابن عم هولاكو مباشرة، وهو أخو «باتو» القائد التتري المشهور، وتلقب هذا الزعيم باسم «بركة»، وكـان إسـلامه في سـنة **٦٥٠** هجرية، ثم تولى «بركة» زعامة القبيلة الذهبية سنة **٦٥٢** هجرية، وأصبح اسمـه «بركة خان»، وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولـة التتـار، وتحكـم المنطقـة التى تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسـم «بـلاد القبجاق» وهى تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وهذا أمر عجيب حقاً، لأن دخول كل هؤلاء في الإسلام كان قبـل عـين جـالوت، وكـان التتـار يتحكمـون في رقـاب المسـلمين، والمسـلمون مهزومون في كل مواقعهم، وهى من المرات القليلة جداً في التاريخ الـتي يـدخل فيها الغازي في دين من يغزو بلادهم، ويدخل القوي في دين الضـعيف، ولكنـه دين الإسلام الذي يخاطب الفطرة البشرية، وهذا يضع مسئولية كبيرة على عاتق الدعاة المسلمين، في أن يصلوا بهذا الدين إلى أهل الأرض جميعاً، فإن من وصـل إليه الدين صـحيحاً نقيـاً فإنـه يُرجـى إسـلامه مهمـا كـان معاديـاً للإسـلام في بَدء حياته.

ومن آثار موقعة عين جالوت العظيمة أن تزايد عدد المسلمين جداً في القبيلة الذهبية حتى أصبح كل أهلها تقريباً من المسلمين، وتحالفوا مـع الظـاهر بيـبرس ضد هولاكو، ولهم مع هولاكو حروب متكررة نعرض إليها - إن شاء الله- عند الحديث عن تاريخ دولة المماليك.

والجدير بالذكر أن بقايا القبيلة الذهبية ما زالت موجـودة، ومكونـة لـبعض الإمارات الإسلامية مثل إمارة قـازان وإمـارة القـرم وامـارة اسـتراخان وإمـارة

النوغاي وإمارة خوارزم وغيرها، وكل هذه الإمارات ما زال محتلاً إلى يومنا هذا من روسيا، وما استطاعت أن تتحرر بعد حتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، ونسأل الله لها ولسائر بلاد المسلمين التحرر الكامل والسيادة المطلقة على أراضيها.

كان هذا هو الأثر العاشر لموقعة عين جالوت.

فتلك عشرة كاملة.

ولا شك أن هناك آثارًا أخرى كثيرة لهذه الموقعة الخالدة.. والأمر بين يدي الباحثين والدارسين.

* * *



إذا كان لموقعة عين جالوت كلُّ تلك الآثار التي عرفناها، فلا يفوتنا هنا أن نتدبر في أسباب هذا النصر العظيم.

لقد شرحنا بالتفصيل خطوات قطز - رحمه الله- في إعداد الأمة والجيش لهذا النصر.. وهنا - في إيجاز شديد - نعرض لبعض الأسباب التي أخذ بها قطز - رحمه الله- ومن معه من أبطال ومن علماء الإسلام، وأدت في النهاية إلى هذا الانتصار المبهر..

السبب الأول (وهو أعظم الأسباب): **الإيمان بالله:**

والاعتقاد الجازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى.. ولذلك اهتم قطز - رحمه الله- بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة، وعظّم دور العلماء، وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصري، ولخص ذلك في عين جالوت بكلمته الموفقة «واإسلاماه»، ولم يقل: وامصراه.. وامُلْكاه.. واعروبتاه..!! لقد كانت الغاية واضحة جداً عند قطز - رحمه الله-، وكانت هويتُه إسلامية تماماً.. ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سبباً مباشراً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق.

وقد ظهر رسوخ هذا الأمر في نفس قطز - رحمه الله- عندما لجأ إلى الله بوضوح عند الأزمة الخطيرة في عين جالوت، حيث وقف متضرعًا يناجي ربه ويقول: «يا الله.. انصر عبدك قطز على التتار».. فالدعاء هو العبادة.. الدعاء اعتراف من العبد بعبوديته لله -عز وجل-.. الدعاء إعلان صريح من العبد أنه

فقير لرب العالمين.

لقد كان قطز - رحمه الله- يدرك في كل خطوة من خطوات إعداده أنه لن يفلح إلا إذا أراد الله -عز وجل-، ولذلك لابد أن يطلب منه باستمرار وبإلحاح وبخشوع وبتضرع.. ولم ينسب النصر إلى نفسه أبداً.. بل كان دائما ينسبه إلى الله -عز وجل-؛ لأنه يعلم أنه كثيراً ما طلب من الله -عز وجل-، وأن الله -عز وجل- قد تفضّل وتكرّم عليه بالنصر والتوفيق.. فلله تعالى المنّة والفضل.

السبب الثاني: الوحدة بين المسلمين:

فالأمة المتفرقة لا تُنصر، وقد حرص قطز - رحمه الله- منذ اليوم الأول لارتقائه عرش مصر أن يوحّد المسلمين قدر ما يستطيع؛ فعفا عن المماليك البحرية، وجمعهم مع المماليك المعزّية، وراسل ملوك الشام الأيوبيين، وتقرب منهم، وضم إلى قواته الشاميين والخوارزمية والمتطوعين بصرف النظر عن أصولهم وأعراقهم... وبذلك نجح في تحقيق ما كان يعتقد الكثيرون أنه مستحيل.

السبب الثالث: إذكاء روح الجهاد في الأمة:

فقد تيقن قطز - رحمه الله- أن السبيل الأساسي لاستعادة حقوق المسلمين هو الجهاد، وأن السلام إذا صلح أن يكون اختياراً في بعض الظروف، إلا أنه لا يمكن أن يُختار إذا انتُهبت حقوق المسلمين، وإذا سُفكت دماؤهم، وإذا شُرّدوا في الأرض.. السلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون إلا ونحن أعزّاء، ولا يكون إلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية لدحر العدو إذا خالف معاهدة السلام.. أما بدون ذلك فالسلام لا يكون سلاماً بل يكون استسلاماً، وهو ما لا يُقبل في نظر الشرع.

والحق أن شعب مصر كان مؤهلاً للجهاد، ومعظماً له من جرّاء الحروب الصليبية المتتالية، ولذلك كان سهلاً على قطز - رحمه الله- أن يذكّر الناس

بالجهاد كسبب رئيسي من أسباب النصر، ولابد أن تفقه الأمة الإسلامية أنها لا سبيل لها لرفع رأسها في الأرض إلا بالجهاد، ولذلك فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام.. أى أعلى ما فيه، ومن يتمسك به يكن أعلى الناس في الأرض.

السبب الرابع: الإعداد الجيد للمعركة:

فقد أخذ قطز بكل الأسباب المادية لتقوية جيشه، من إعداد للسلاح وتدريب للجنود، وترتيب للصفوف، ووضع للخطة المناسبة، واختيار المكان المناسب، وعقد الأحلاف الدبلوماسية المناسبة، وتهيئة الجو على أفضل ما يكون، ويكفي أن نذكر هنا بالصورة الجميلة البهية الرائعة التى كانت عليها جيوش المماليك في عين جالوت، وكأنها تتجه إلى عرض عسكري، وليس إلى معركة ضارية.

ومن لم يعدّ العدة وتوقَعَ النصر فلا شك أنه واهم.. ليس هذا من سنن الله -عز وجل-.

السبب الخامس: القدوة:

التي ضربها قطز - رحمه الله- لجنوده ولأمته في كل الأعمال.. وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. كان قطز - رحمه الله- قدوة في أخلاقه.. قدوة في نظافة يده.. قدوة في جهاده.. قدوة في إيمانه.. قدوة في عفوه..

لم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز.. لقد نزل قطز - رحمه الله- بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم، فكان حتماً أن يقاتلوا معه.

السبب السادس: عدم موالاة أعداء الأمة:

فلم يوال قطز - رحمه الله- التتار أبداً مع فارق القوة والإعداد بينهما.. كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك.. لقد سقط الكثير من

الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقُهم في ذلك أنهم يجنّبون أنفسهم أساساً.. ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك - كما يدَّعون - ويلات الحروب.. فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة؛ فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ.. وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر.. وموالاة العدو واعتباره صديقاً خطأ ثالث..

لكن قطز - رحمه الله- كان واضح الرؤية.. وتحقق له هذا الوضوح في الرؤية بفضل تمسكه بشرع الله -عز وجل-.. لقد قرأ في كتاب الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

وهذا تحذير خطير.. بل خطير جداً.. من رب العالمين.

وكم هو أحمق - بل ضعيف الإيمان - من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يتلفت إليه.

السبب السابع: بث روح الأمل في الجيش والأمة:

فالأمة المحبطة من المستحيل أن تنتصر.. والإحباط والقنوط واليأس ليست من صفات المؤمنين.

﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧].

لقد عمل قطز - رحمه الله- على رفع الروح المعنوية للجيش وللأمة.. ووضح لهم أن نصر الله -عز وجل- للأمة التي سارت في طريقه ليس أمراً محتملاً، بل هو أمر مؤكد، وأمر يقيني.. وأمر عقائدي..

﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

هذه - أيها المؤمنون - قضية منتهية!!

السبب الثامن: الشورى الحقيقية:

التي سار على هداها قطز - رحمه الله- في كل خطواته تقريباً.

الشورى التي تسعى - حقيقة - للوصول إلى أفضل الآراء، لا إلى تثبيت وتدعيم رأي الزعيم!! الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام.. والذي لا يأخذ بها يضحّي بملايين الطاقات في شعبه، ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ.. وفوق ذلك كلِّه يخالف أمر الله -عز وجل- الذي جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز.. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩].

السبب التاسع: توسيد الأمر لأهله:

فقد ولَّى قطز - رحمه الله- أولئك الذين يتصفون بصفتين رئيسيتين مهمتين لكل وظيفة ـ صغرت أم كبرت ـ هاتان الصفتان هما: الكفاءة والأمانة.. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

القوي في مجال عمله.. المتفوق على أقرانه.. السابق لهم.. المتقن لعمله المبدع فيه، والأمين الذي لا يضيع حق الله، ولا حق العباد، ولا حق الأمة، ولا حق نفسه.

وكم تخسر الأمم إذا وُسّد الأمر لغير أهله.. بل هي من علامات الساعة.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة..»

فإذا تولى الأمورَ رجالٌ لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بوساطة أو قرابة أو رشوة.. إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد!!

وقد رأينا في قصتنا هذه كيف ولَّى قطز - رحمه الله- فارس الدين أقطاي رئاسة الجيش مع كونه من المماليك البحرية، وكذلك ولى ركن الدين بيبرس على مقدمة جيش المسلمين في عين جالوت مع كونه منافسًا له وصاحب تاريخ وقوة، ومع كونه زعيمًا للمماليك البحرية، ورأينا كيف ولى أمراء الشام على بلادهم ولم يول أصحابه وأقاربه.. ومن كان على هذه الصورة فلابد أن يُنصر.. لأن من حفظ الأمانة حفظه رب العالمين.

«احفظ الله يحفظك..» هذه قاعدة ثابتة من قواعد النصر.

السبب العاشر: الزهد في الدنيا:

وما يفشل الزعماء الوهميون - في زمان قطز أو في زماننا أو إلى يوم القيامة - إلا بغرقهم في الدنيا، وانغماسهم فيها.. وما ظلموا شعوبهم، وما والَوا أعداءهم.. إلا جريًا وراء المادة، وسعيًا وراء الدنيا.

ولذلك كان رسول الله ﷺ دائم التحذير من أمر الدنيا.. فقد روى البخاري ومسلم - على سبيل المثال - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله.. فقال: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها..**»

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي حذرنا فيها رسول الله ﷺ من أمر الدنيا؛ فهذا أمر متكرر كثيرًا، وبأكثر من صيغة، وفي أكثر من موقف، وليس كل ذلك إلا لخطورتها الشديدة على المسلمين.. بل على المؤمنين.

وفي قصتنا هذه رأينا الذين تعلقوا بالدنيا كيف كانت حياتهم وطموحاتهم وأحلامهم، وكيف باعوا أنفسهم وشعوبهم وأخلاقهم، بل وعقيدتهم، من أجل أعراضٍ رخيصة من الدنيا.. ورأينا كيف عاشوا في ذلة وصغار، وكيف ماتوا في ذلة كذلك.. رأينا محمد بن خوارزم، وجلال الدين بن خوارزم، والناصر لدين الله

الخليفة العباسي، والمستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبي وغيرهم..

أما قطز فقد فطن إلى هـذا المرض الـذي ابتُلي بـه هـؤلاء الضـعفاء فزهـد فيـه وتجنبه، وعلم أن متاع الدنيا ـ مهما كثر ـ فهو قليل، وأن نعيمها ـ مهما كان لـه بريـق ـ فهو زائف ومنقطع؛ فلذلك لم يُفتن بالـدنيا لحظـة، ولم يطمـع فيهـا قيـد أنملـة، بـل حرص على أن يبيع دنياه كلها، ويشتري الجنة، فترك المـال الغزيـر الـذي كـان تحـت يده، ولم يطمع فيه.. بل باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار..

ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي ـ على قلة شأنه ـ إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عـائلي أو اجتماعي أو أمـن وأمـان، فكـرس حياتـه للجهـاد والقتـال، علـى صـعوبته وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد بـه العمـر؛ فخـرج بنفسـه علـى رأس الجيـوش ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلـم أنـه سـيكون أول المطلـوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنـه، فإن أحدًا لن يلومه؛ لأنه الملك الذي يجب أن يُحافظ على نفسه لأجل مصـلحة الأمة، لكنه اشتاق بصـدق إلى الجهـاد في سـبيل الله، وتمنـى المـوت بـين صـليل السيوف وأسنة الرماح، وزهد في هذه الدنيا الفانية؛ فلم يتردد لحظـة، ولم يجـزع أبدًا، وكانت حياته تطبيقًا عمليًا كاملاً لكلماته.. ولذلك أعطاه الله -عز وجل- الدنيا التي فر منها، وأعطاه الكرسي الذي زهد فيه، وأمده بالغنائم الهائلة، والمال الوفير الذي لم يفكر في الحصول عليه أبدًا..!!

وهكذا عاش قطز - رحمه الله- عزيزًا شريفًا رافعًا رأسـه، مُعِزًا لـدين الله، محبوبًا من شعبه، مرهوبًا من أعدائه..

لقد فقه قطز - رحمـه الله- أن رزق العبـد مكفـول لـه قبـل أن يولـد، وأن نصيبه من المال والسلطة والملك سـوف يصـل إليـه حتمًـا، بـل سـيجري وراءه

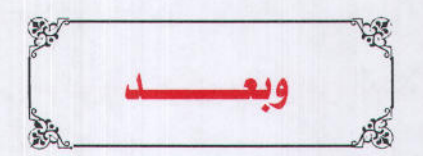
حثيثًا.. ولذلك لم يُذِلَّ نفسه أبدًا، وكان دائمًا يعتمد على الذي بيده الرزق والأمر سبحانه، وأجْمَلَ في الطلب؛ فلم يخضع لإنسان مهما بلغت قوته، ولم يرهب جيشًا مهما كانت عدته، وفقه بعمق كلام رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، والذي قال فيه: «**أيها الناس، اتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها.. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب.. خذوا ما حَلَّ، ودعوا ما حَرُمَ..**».

رحم الله هذا العلم الجليل، والقائد الفذ «قطز».. الذي تعلمنا منه ـ ولا نزال نتعلم ـ كيف يعيش المسلم بالقرآن، وكيف تخالط كلمات الحبيب المصطفى ﷺ كل ذرة من كيانه.

ونسأل الله -عز وجل- أن يصلح آخرته كما أصلح دنياه، وأن يعزه أمام الخلق يوم العرض الأكبر، كما أعزه في عين جالوت، وأن يكتب اسمه في سجل الصادقين المخلصين المجاهدين، كما كتب اسمه في سجل الخالدين.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كان هذا هو السبب العاشر من أسباب النصر في هذه الموقعة الجليلة.... فتلك عشرة كاملة.. وأسأل الله أن ينصر الإسلام والمسلمين.

* * *



وبعـــد

هذه قصة التتار.

وهذه قصة عين جالوت.

دورة طبيعية من دورات التاريخ.

فالتاريخ من طبيعته أن يصعد بأمة إلى أعلى الدرجات ثم يهوي بها إلى أسفل سافلين.. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، صعد التتار ثم هبطوا، وهبط المسلمون ثم صعدوا، وسيكون بعد الصعود هبوط، وسيكون بعد الهبوط صعود... وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإنما نعرض التاريخ لا لمشاهدة الصعود والهبوط فقط.. ولكن لدراسة الأسباب التي أدّت إلى رفعة قوم وإلى ذلّة آخرين.. والتاريخ يتكرر بصورة عجيبة.. ومن قرأ التاريخ أضاف إلى خبراته خبرات السنين، وخبرات الأمم، وخبرات الزمان والمكان.

في هذه القصّة رأينا كيف تحول مسار التاريخ تماماً بظهور رجل معين، هو قطز - رحمه الله- كما تحول مسار التاريخ قبل ذلك تماماً أيضاً بظهور جنكيزخان لعنه الله.. وشتان بين الشخصيتين.. ولكنهما يجتمعان في أن كليهما مؤثر.. فكلاهما أثّر في الملايين.. كلاهما أثر في جغرافية الأرض.. كلاهما أثر في حركة التاريخ.. ولكن شتّان بين الأثرين.. أما الأثر الأول فقد استمد قوته من قوة الجسد والسلاح وشريعة الغاب.. وأما الأثر الثاني فقد استمد قوته من

قوة الإيمان والروح وشريعة الإسلام.

من السهل جداً يا إخواني أن تدمِّر، ولكن من الصعب جداً أن تبني...

من السهل جداً أن تظلم، لكن من الصعب جداً أن تعدل.

من السهل جداً أن تغضب، لكن من الصعب جداً أن تعفو.

وهذه هي روعة الإسلام.

قطز إنسان، وجنكيزخان إنسان.

لكنَّ الأوّل جُمِّلَ بالإسلام، والثاني حُرِمِ الإسلام.

فتغيّرت حركة التاريخ تبعاً لذلك.

قطز بنى حضارة الإنسان واستحق أن يكون خليفةً في الأرض.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

وجنكيزخان هدم حضارة الإنسان واستحق بذلك أن يكون مسخاً ملعوناً.. ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:٦٣].

وأمثال جنكيزخان في الأرض كثير.. وعلى عكس ذلك: أمثال قطز في الأرض قليل؛ لأنه كما ذكرنا: ما أسهلَ التدمير، وما أصعبَ البناء!!

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

ومن المؤرخين من يشكك في أن التاريخ لا يُصنع بإنسان بعينه.. وأن الإنسان الفرد لا يقوى على تغيير المجتمعات.. وتغيير حركة التاريخ.. ولكن التاريخ نفسه يثبت عكس ذلك.

تغيّرت حركة التاريخ تماماً في أزمان كثيرة، وفي أماكن متعددة بظهور أشخاص بعينهم.. ولا أقول لك تغيرت بحياة رسول أو نبي، فهذا واضح ومفهوم، ووجود الوحي والتوجيه الرباني المباشر يجعل المقارنة مع بقية فترات التاريخ مستحيلة.. لكن أقول لك تتغير حركة التاريخ بأشخاص معينين ليسوا أنبياء ولا رسلاً.. تغيرت حركة التاريخ بوجود رجل مثل أبى بكر الصديق، وراجعوا حروب الردة.. تغيرت حركة التاريخ بوجود رجل مثل عمر بن الخطاب وراجعوا فتوح الإسلام.. تغيرت حركة التاريخ بظهور عمر بن عبد العزيز، وبظهور موسى بن نصير، وبظهور عبد الرحمن الداخل، وبظهور عبد الرحمن الناصر، وبظهور عماد الدين زنكي، وبظهور نور الدين محمود، وبظهور صلاح الدين الأيوبي، وبظهور قطز، وبظهور عبد الله بن ياسين، وبظهور يوسف بن تاشفين، وبظهور محمد الفاتح.. وبظهور غيرهم.... رحمهم الله جميعاً.

نعم يظهرون على فترات متباعدة.. ولكن يمتد أثرهم إلى آماد بعيدة.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةِ لا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»

ولكن هذه الراحلة إن وجدت، فيا سعادة أهل الأرض بوجودها!.

روى أبو داود عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

وقطز - ولا شك - كان من هؤلاء المجددين.

إن شئت فتحدث عن إيمانه وخشوعه، وإن شئت فتحدث عن زهده وعفافه، وإن شئت فتحدث عن كفاءته ومهارته، وإن شئت فتحدث عن صدقه وإخلاصه، وإن شئت فتحدث عن جهاده وتضحيته، وإن شئت فتحدث عن

صبره ومصابرته، وإن شئت فتحدث عن حلمه وتواضعه.

لقد كان رجلاً مجدداً بمعنى الكلمة.

كان كما وصفه الإمام الذهبي - رحمه الله- في سير أعلام النبلاء حيث قال: «كان فارساً شجاعاً، سائساً، ديِّناً، محبباً إلى الرعية، هزم التتار، وطهّر الشام منهم يوم عين جالوت، ويَسْلَم له إن شاء الله جهادُه، وكان شاباً أشقر، وافر اللحية، تامّ الشكل، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوَّض الله شبابه بالجنة، ورضي عنه».

وكان كما وصفه ابن كثير - رحمه الله- في البداية والنهاية: «كان شجاعاً بطلاً، كثيرَ الخير، ناصحاً للإسلام وأهلِه، وكان الناس يحبونه، ويدعون له كثيرًا».

ولاحِظْ أن المؤرخين المسلمين يعلّقون دائماً على مسألة حب الناس للشخص، وحب الرعية للزعيم.. وهو مقياس دقيق من مقاييس العظمة الحقيقية.. فالصالحون من هذه الأمة لا يحبون إلا صالحاً.. ولا يبغضون إلا فاسداً.. ومن أجمع الصالحون على حبه فهو محبوب عند الله، ومن أجمع الصالحون على بغضه، فهو بغيض عند الله.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبَّه.. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه.. فيحبه أهل السماء. قال: ثم يُوضع له القَبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أُبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيُبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيُبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**».

وهكذا - يا إخواني- نرى بوضوح في حركة التاريخ أن هناك رجالاً

بأعينهم يغيرون فعلاً من مسار التاريخ.. ولكن مع وضوح هذا الأمر فإن العجيب أن الناس دائماً يبحثون عن هذا الرجل في خارج بيوتهم وشوارعهم ومدنهم.. يعتقدون أن هذا الرجل سيأتي من بعيد.. من بعيد جداً.. من بعيد في المكان، ومن بعيد في الزمان.. أو لعله يأتي من خارج الأرض!! لماذا لا يعدّ كل واحد منا نفسه وأهله وأبناءه وإخوانه ليكونوا هذا الرجل؟!

لماذا لا يكون قطز أنت؟!

لماذا لا يكون قطز ابنك؟!

لماذا لا يكون قطز أخاك؟!

لماذا ندرس التاريخ يا إخواني؟؟

ألسنا ندرسه لكي نسير على درب الصالحين ونتجنب دروب الفاسدين؟!

لماذا لا نسير على خطوات قطز - رحمه الله- الواضحة الثابتة لنصل إلى عين جالوت في زمان كثر فيه التتار وأشباه التتار؟

والله ما عاد لدينا عذر.. فقد أقيمت علينا الحجة!!!

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

تلك كانت قصة قطز - رحمه الله-.

ولكن بقيت في القصة مفاجأة!!

الفصل الأخير!!

المفاجأة العجيبة في قصة قطز - رحمه الله-.. أنه لم يبق في كرسي الحكم إلا أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً فقط!! لم يُكمل السنة!!

كل هذا التاريخ المجيد، والإعداد المتقن، والتربية العالية، والانتصار المذهل، والنتائج الهائلة، والآثار العظيمة.. كل هذا في أقل من سنة!!

لقد مات قطز - رحمه الله- بعد انتصار عين جالوت بخمسين يوماً فقط.

ومع أنه حكم هذه الفترة البسيطة فقط.. إلا أنه كان من أعظم رجال الأرض.

إن قيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر، ولا بكثرة المال، ولا بأبهة السلطان.. إنما تقاس بالأعمال الخالدة التي تغيّر من وجه التاريخ، ومن جغرافية العالم، وهى في ذات الوقت تثقل في ميزان الله -عز وجل-.

مَن قطز إذا لم يتمسك بشرع الله، وينتصر في عين جالوت بفضل تمسكه بهذا الشرع، والتزامه في السير في طريق الله -عز وجل-؟

من قطز بغير هذا الطريق؟

لا شك أن التاريخ كان سيُغفل اسمه كما أغفل أسماء الكثيرين الذين كانوا كغثاء السيل، بل كانوا وبالاً على شعوبهم وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلة والأعمار المديدة.. لا شك أن حفر الاسم في سجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء.

وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل.

الناس تعتقد أن التغيير لابد أن يأخذ فترات طويلة جداً.. ولذلك يُحبطون.. والحق غير ذلك.. التغيير لا يعتمد على الزمن.. إنما يعتمد على نوعية الرجال المغَيِّرين.. إن وُجد هؤلاء العظماء فالنصر قريب، والتغيير ممكن.. بل أكيد.. إن شاء الله.

وإن لم يُوجد أمثال هؤلاء.. فقد تمر على الأمة عشرات السنين وهى لا

تتقدم خطوة بل تتأخر الخطوات.

لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى على الأمة بعد أن فقدت قطز - رحمه الله- بهذه السرعة.. كان يخشى أن يضيع النصر الكبير، وتنهار الأمة من جديد.. لقد قال بعد موت قطز وهو يبكي بشدة: «رحم الله شبابه، لو عاش طويلاً لجدد للإسلام شبابه»

ولكن قطز - رحمه الله- جدد فعلاً للإسلام شبابه، مع أنه لم يعش طويلاً..

لقد ظلت دولة المماليك قرابة ثلاثة قرون تذود عن حمى المسلمين، وترفع راية الإسلام.. لقد وضع قطز - رحمه الله- الأساس المتين.. وعليه سيبني الآخرون بناءً راسخاً.. وبغير الأساس لا يرتفع البناء.

يقول الشيخ العز بن عبد السلام - رحمه الله-: «ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- من يعادل قطز - رحمه الله- صلاحاً وعدلاً»

ونقول: كيف صنع قطز - رحمه الله- هذا المجد؟!

بل نقول: كيف صُنع «قطز» - رحمه الله-؟!

لقد صُنع قطز - رحمه الله- بكتاب الله القرآن، وبسنّة رسول الله ﷺ.

أعظم معجزات هذا الدين هي «صناعة الرجال»!!

مَنْ عمر بغير الإسلام؟

مَنْ خالد بغير الإسلام؟

مَنْ طارق بن زياد بغير الإسلام؟

مَنْ قطز بغير الإسلام؟

والكتاب بين أيدينا، وكذلك سنّة رسول الله ﷺ.

حفظهما الله لنا.. وسيظلان كذلك إلى يوم القيامة.

ولن تضل الأمة أبداً ما دامت تتمسك بهما.

روى الإمام مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتابَ الله وسنةَ نبيه»

ومَعين الأمة لا ينضب أبداً.

والله الذي خلق للأمة خالداً والقعقاع وطارقاً وصلاحاً وقطز سيخلق لها دوماً رجالاً يغيّرون من واقعها، ويجددون لها دينها وشبابها، ويبعثون في نفوس أبنائها الأمل، ويقودونها إلى صدارة الأمم وقيادة العالم.. بل يقودونها إلى جنات النعيم.

ففي الإسلام - والله - عزّ الدنيا، وعزّ الآخرة.

وأخيرًا..

فقد انتهت قصة التتار.. وانتهت قصة عين جالوت.

ومات الصالحون.. ومات الطالحون.. مات الجند الظالمون، ومات الجند المؤمنون.. ومرت الأعوام والأعوام والقرون والقرون.

ذهبت الديار والرجال والقلاع والحصون.

ذهبت الأفراح والأتراح.. والضحكات والدموع.

ذهب كل شيء.. ولم تبق إلا العبرة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١]

الذي بقي هو كلام رسول الله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي

هريـرة ﷺ: «تكفّل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه إلا الجهادُ في سبيله وتصديقُ كلماته بأن يدخلَه الجنة، أو يُرجعَه إلى مَسْكَنِه الذي خرج منه مع ما نال من أجرٍ أو غنيمة».

وتبقى السنة الإلهية التي لا تتبدل ولا تتغير.

﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

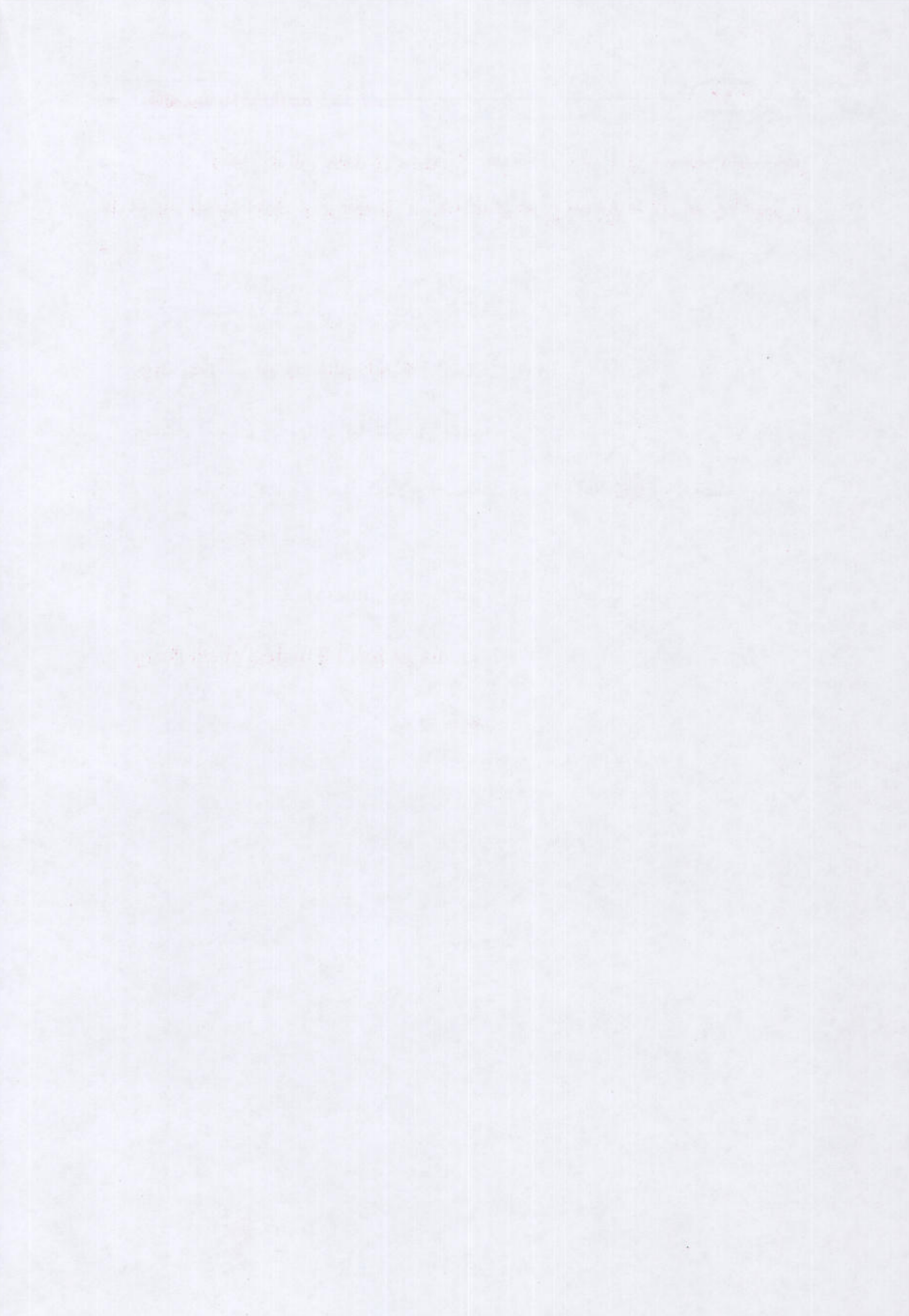
ونسأل الله أن يجعل حياتنا كلَها في سبيله.

وأن يجعل كلامنا وواقعنا ككلام أصحاب رسول الله ﷺ وواقعهم عندما أجابوا الرسول ﷺ وقالوا:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.

وأسأل الله أن يجعل لنا في التاريخ عبرة!!

* * *



بغداد .. بين سقوطين !

بعد أن انتهت قصة التتار على هذا النحو الذي أعز الله فيه عباده وأذل أعداءه.. لابد لنا من وقفة أمام المأساة المحورية في تلك القصة.. مأساة سقوط بغداد في أيدي التتار..

فنحن لم نقص هذه القصة لمجرد التأريخ لما سبق من أحداث الأرض.. أو لمجرد التنظير والتحليل دون عمل أو وقفة.. نحن نقص القصة للعبرة وللتفكر والاستفادة.. نحن نقص القصة لقراءة المستقبل.

ما أشبه الليلة بالبارحة!!

ما أشبه سقوط بغداد تحت أقدام الأمريكان بسقوط بغداد تحت أقدام التتار..!!

ما أشبه مسلمي اليوم بالمسلمين أيام التتار.

وما أشبه حكام المسلمين اليوم بحكام المسلمين أيام التتار.

وما أشبه الأمريكان بالتتار.

وما أشبه حلفاء الأمريكان بحلفاء التتار.

صورة متكررة في التاريخ بشكل عجيب.

لقد ظهر الأمريكان فجأة على مسرح الأحداث كما ظهر التتار تماماً.. أمة بلا تاريخ.. قامت على السلب والنهب.. قتل الأمريكان عشرات.. بل مئات الألوف من الهنود الحمر لكي يقيموا لهم دولة.. نهبوا ثروات غيرهم،

وأقاموا ما يسمونه «حضارتهم» على أشلاء وجماجم سكان البلاد الأصليين.

ومرت الأيام وصاروا «قطباً أوحد» في الأرض تماماً كما كان التتار.. ولم يقبلوا الآخر أبداً.. ورسخوا الظلم والبطش والقهر في الأرض مع ادعائهم المستمر أنهم ما جاءوا إلا لنشر العدل والحرية والأمان للشعوب.

ما أشبه طاولة مفاوضات الأمريكان بطاولة مفاوَضات التتار! عهود ولا ضمير.. مواثيق ولا أمان.. كلمات جوفاء تطلق في الهواء لتسكين الشعوب إلى أجل.. ولخداع البشر إلى حين.. والعزم مبيت على نقض العهود.. والنية معقودة على الطعن من الظهر.

لقد دخل الأمريكان بلاد المسلمين بحجج واهية تماماً كما دخل التتار بحجج واهية.

ما احتاجوا إلى دليل دامغ أو إلى حجة ساطعة.. بل هي أوهام في أوهام.. وادعاءات في ادعاءات.. فتارة هم يحاربون الإرهاب.. وتارة يرسخون الديموقراطية.. وتارة يحررون الشعوب.. وتارة يبحثون عن أسلحة الدمار الشامل..!! ليس المهم أي سبب سيدخلون من ورائه، ولكن المهم أنهم حتماً سيدخلون.

لقد حارب الأمريكان في بلاد المسلمين حروباً كحروب التتار.. حروبًا بلا قلب.. لا تفرق بين مدني ومحارب.. ولا بين رجل وامرأة.. ولا بين طفل أو شاب أو شيخ كبير.. واستولى الأمريكان على ثروات المسلمين تماماً كما فعل التتار.. وإلا فما الفارق بين البترول وبين الذهب والفضة؟! وما الفارق بين تغير المناهج وتبديلها وتزييفها وبين إغراق مكتبة بغداد؟!!

طمس لكل ما هو إسلامي.. وروح همجية لا تقبل الحضارة.

وسبحان الله.. كأن الله -عز وجل- أراد أن يطابق الأمريكان أفعال التتار فجعل خطواتهم في إسقاط بغداد شديدة الشبه بخطوات التتار.

فكما تمركز التتار في أفغانستان أولاً قبل إسقاط بغداد.. تمركز الأمريكان كذلك في أفغانستان عن طريق الاحتلال، وإسقاط نظام طالبان قبل إسقاط بغداد!! وسعوا إلى إقامة قواعد لهم في أوزبكستان وباكستان.. كما فعل التتار ذلك تمامًا قبل عدّة قرون!!! ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات:٥٣].

وكما كان إعداد التتار العسكري مبهراً وقوياً كذلك كان إعداد الأمريكان.. فهم لم يبخلوا على حربهم بالمال ولا بالسلاح ولا بالفكر.. أساطيل مهولة.. وأسلحة حديثة.. واستعدادات وتدريبات وحصار وخطط.

وكما عقد التتار أحلافهم عقد الأمريكان أحلافهم كذلك.

وإذا كان منكوخان خاقان التتار أيام سقوط بغداد يقسّم العالم إلى دول «مارقة» أي: معادية.. ودول «صديقة» أي: تابعة، فكذلك فعل خاقان أمريكا «جورج بوش!!».. بمنطق السيد الذي يسوس عبيده لا الحليف الذي يعاهد ويفاوض.

وكما تحالف التتار مع الصليبيين على حرب المسلمين مع اختلاف أيديولوجياتهم وسياساتهم وتوجهاتهم واستراتيجياتهم.. كذلك تحالف الأمريكان مع اليهود مع شدة العداء بين النصارى واليهود.. وتعاون الأمريكان مع الروس برغم التاريخ الأسود الذي يجمع بين البلدين.. وجلس الأمريكان على طاولة المفاوضات مع الصين مع توجس كل طرف من الآخر.

وكما كوَّن التتار قوات التحالف وتحالفوا مع دول نصرانية ضعيفة - مقارنة بهم - كأرمينية والكرج.. فعل ذلك الأمريكان وتحالفوا مع إنجلترا وإسبانيا وغيرهما مع ضعف هذه الدول بالنسبة لأمريكا! واستفادوا من هذه الدول كما استفاد التتار من أرمينية؛ فإنجلترا - مثلاً - صاحبة خبرة بعيدة في بلاد المسلمين، ولها معهم تاريخ طويل، كما أنها ستتولى السيطرة على مناطق قد يكون بها خطورة شديدة على الأمريكان، فلا مانع من دفع الإنجليز إلى هذه المناطق في مقابل الفتات، وفي مقابل السماح لهم بالعيش إلى جوار الأمريكان.

وكما تعاهد التتار مع بعض أمراء المسلمين.. فعل الأمريكان نفس الشيء.. وتحالفوا مع بعض الأمراء المسلمين.. أو مع كثير من الأمراء المسلمين.. وكما تحالف بدر الدين لؤلؤ زعيم الأكراد في شمال العراق مع التتار كذلك تحالف أكراد الشمال العراقي مع الأمريكان، وكما فتح كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع المجال الأرضي التركي لقوات التتار فعل كذلك الأتراك الآن.. وكما اخترقت الجيوش التترية أراضي المسلمين دون مقاومة لتصل إلى العراق كذلك اخترقت جيوش الأمريكان أراضي المسلمين الآن ليس فقط بدون مقاومة ولكن بترحيب عال، وباستقبال حافل.

حقاً.. ما أشبه الليلة بالبارحة!!

فكما فكر التتار في التعاون مع الشيعة في العراق فكر الأمريكان كذلك.

وكما استغل التتار بعض المنافقين من المسلمين لبث الحرب الإعلامية التي تحط من نفسيات المسلمين، وتلقي الرعب في قلوبهم قام الأمريكان

بالشيء نفسه حتى رأينا الصحف القومية في البلاد الإسلامية تتحدث عن تدريبات الأمريكان وتسليحاتهم وإمكانياتهم، وتوسع الفجوة جداً بين أمريكا والمسلمين، وتحبط المسلمين من أي إمكانية للمقاومة.

وكما عمد هولاكو إلى توصية مؤيد الدين العلقمي الشيعي أن يقوم بإنقاص أعداد الجيوش الإسلامية كذلك فعل الأمريكان مع كثير من بلاد المسلمين فوضعوا عليها قيوداً في التسليح وفي أعداد الجنود وفي التدريبات.

وكما حوصرت بغداد من التتار حوصرت من الأمريكان، وكما قُصفت بغداد من التتار قُصفت من الأمريكان كذلك، وكما انهارت أسوارها تحت قذائف التتار انهارت كذلك تحت قذائف الأمريكان.

وكما طلب التتار تسليم المجاهدين فعل ذلك الأمريكان.

وكما طلب التتار تدمير الأسلحة فعل ذلك الأمريكان.

وكما هرب المستعصم بالله من الموقف ورضي بالهوان كذلك فعل صدام حسين.

وكما قُتل ولدا المستعصم قبل أن يُقبض عليه قُتل ولدا صدام قبل أن يُقبض عليه..!!

وكما خالف التتار عهودهم بالأمان قبل دخول بغداد كذلك خالف الأمريكان.

وكما دخل التتار البلاد لكي لا يخرجوا منها.. دخل كذلك الأمريكان العراق لكي لا يخرجوا منها.

تطابق مذهل بين التاريخ والواقع..!!

لكن كل هذا الشبه بين التتار والأمريكان لا يخيفني ولا يرهبني.. فملة الكفر واحدة.. وحال الكفار يتشابه في كل الأزمان، إن ما يخيفني ويرهبني حقاً هو تشابه واقع المسلمين اليوم مع واقعهم أيام التتار.. فنحن لا نُهزم أبداً لقوة الكفار سواء كانوا من التتار أو الفرس أو الروم أو الروس أو الأمريكان أو غيرهم.. إنما نُهزم لضعفنا نحن.. لقد افتقر المسلمون أيام التتار لكل مقومات النصر؛ فكان لابد من الهزيمة والذل والهوان.. وكذلك افتقر المسلمون في زماننا إلى نفس مقومات النصر فكانت النتيجة هي العربدة الأمريكية والروسية والهندوسية واليهودية والصربية في أراضي المسلمين.

الأمراض الأخلاقية التي تفشت في الأمة الإسلامية وكانت سبباً في هذا الانهيار أيام التتار هي الأمراض الأخلاقية نفسها التي تتفشى في أمتنا اليوم.

لابد أن يقف المسلمون وقفة صادقة مع أنفسهم يفتشون عن أدوائهم الخطيرة.. لماذا يفعل أهل الأرض بنا ما يشاءون ونحن نزيد على المليار؟.. لماذا لا يأبه بنا أهل الشرق أو أهل الغرب؟ لماذا نزع الله -عز وجل- المهابة منا من قلوب أعدائنا، ولماذا ألقى في قلوبنا الوهن والضعف والخور؟!

فلنراجع التاريخ يا إخواني ولنراجع الواقع.

أمراض الأمة:

إنها بإيجاز شديد:

المرض الأول: عدم وضوح الهوية الإسلامية:

والقاعدة الإسلامية الأصيلة هي ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].. ونصر الله -عز وجل- يكون بتطبيق شرعه، والالتفاف حول راية إسلامية واحدة..لا عنصرية..ولا قبلية..ولا قومية.

أما البعد عن منهج الله -عز وجل- وقبول الحلول الشرقية والغربية، والإعراض عن كتاب الله -عز وجل-، وعن سنة رسوله ﷺ فهذا أصل البلاء وموطن الداء.. ولم يغير المسلمون من واقع التتار إلا عندما ظهر من يرفع النداء الجميل: «وإسلاماه».. لقد وفق الله -عز وجل- قطز - رحمه الله- إلى هذه الكلمة ليوجز بها كل حياته، وليوجه أنظار جنده الأبرار ومن تبعهم بإحسان إلى الراية الوحيدة التي ما وقفت تحتها الأمة إلا انتصرت.

لكن مهما حاول أي قائد أن يحفز شعبه بغير الإسلام فلن نفلح أبدًا.. أبى الله -عز وجل- أن ينصرنا إلا إذا ارتبطنا به في الظاهر والباطن.. ظاهرنا مسلم وباطننا مسلم.. سياستنا مسلمة.. اقتصادنا مسلم.. إعلامنا مسلم.. قضاؤنا مسلم.. جيشنا مسلم.. هكذا بوضوح.. دون تستر ولا مواربة ولا خوف ولا وجل. ليس هناك ما نستحيي منه.. بل الذي يتبرأ من الدين هو الذي يجب أن يستحيي..

سبحان الله!! انظر إلى واقعنا.. الذي يتكلم في الدين عليه أن يكون حريصًا جدًا وكل كلمة محسوبة عليه، وعليه أن ينتقي ألفاظه بدقة.. ويجب أن لا يكون للكلمات مرامٍ أخرى.. أما الذين يتكلمون في الفجور والإباحية فكما يريدون لا ضابط ولا رابط.. الفيديو كليب، والبرامج الماجنة، والإعلانات القذرة.. دون رقيب أو محاسب! كيف تنصر أمة فقدت هويتها إلى هذه الدرجة؟!.

كيف تنصر أمة يستحيي فيها العالم أن يقول كلمة الحق ولا يستحيي فيها الفاجر أن يجاهر بفسوقه ومجونه؟

لابد من وقفة أيها المسلمون.. ضياع الهوية الإسلامية هو المرض

الرئيسي الذي أدى لتمكين أعداء الأمة من بلادنا.

المرض الثاني: الفرقة بين المسلمين:

فكما كان الصراع يشتعل بين كل الأقاليم الإسلامية أيام التتار، وكما كان جلال الدين يعيث فساداً في بلاد المسلمين وجيوش التتار قابعة على بعد خطوات.. كذلك نرى الخلاف والشقاق يدب بين كل بلاد المسلمين الآن تقريباً.. قلما تجد قُطرين إسلاميين متجاورين إلا وجدت بينهما صراعاً على حدود أو اختلافاً على قضية.. انشغل المسلمون بأنفسهم، وتركوا الجيوش المحتلة تعربد في ربوع العالم الإسلامي، وجعلوا همهم التراشق بالألفاظ والخطب - وأحياناً بالحجارة والسلاح - مع إخوانهم المسلمين.. ولا شك أن التنازع بين المسلمين قرين الفشل.. يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

المرض الثالث: الترف والركون إلى الدنيا:

لقد كبرت الدنيا جداً في أعين المسلمين أيام التتار.. وكذلك في أيامنا.. أجيال كاملة لا تعيش إلا لدنياها وإن كانت الدنيا حقيرة ذليلة.. عاش كل فرد ليجمع المال ويجمّل ويحسّن في معيشته.. ولينعم بأنواع الطعام والشراب والدواب والمساكن.. وليستمتع بأنواع الغناء المختلفة وأساليب الموسيقى المتجددة.. وهكذا غرق المسلمون في دنياهم.. كثير من الشباب يحفظ الأغاني الماجنة أكثر من القرآن.. كثير من الشباب يعلم بالتفصيل تاريخ حياة الفنانين والفنانات، ويعلم على وجه اليقين سيرة لاعب في بلادنا أو في بلاد غيرنا، ولا يعلم شيئًا عن تاريخ وسيرة أبطال وعلماء وقواد المسلمين.. بل لا يعلم شيئًا عن أصحاب الرسول ﷺ.. بل قد لا يعلم شيئًا عن

الرسول ﷺ نفسه!!

أليس هذا مرضًا يحتاج إلى علاج.

الترف من أسباب الهلكة الواضحة.. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦].

لقد وصل الترف اليوم إلى عموم المسلمين حتى وصل إلى فقرائهم..!! فالرجل قد لا يجد قوت يومه ثم هو لا يستغني عن السيجارة..!! ويكاد لا يجد ما يستر به نفسه وأولاده ثم هو يجلس بالساعات في المقاهي والكافيتريات، وقد لا يستطيع أن يعلم أولاده ولكنه حريص كل الحرص على اقتناء فيديو أو طبق فضائي!!

ركون إلى الدنيا وانغماس في شهواتها.. ولا يستقيم لأمة تريد القيام أن تكون بهذه الهيئة.

المرض الرابع: ترك الجهاد:

وكنتيجة طبيعية للانغماس في الدنيا، والترف الزائد عن الحد ترك المسلمون الجهاد.. ورضوا بالسير في ذيل الأمم.. وقبل المسلمون ما سماه عدوُّهم: «السلام»، بينما هو بوضوح: «استسلام».

لم يفقه المسلمون أيام التتار - كما لم يفقه كثير من المسلمين في زماننا الآن - أن السبيل الأساسي لاستعادة حقوق المسلمين المنهوبة هو الجهاد، وأن السلام لو صح أن يكون اختياراً في بعض الظروف إلا أنه لا يمكن أن يكون الخيار المطروح إذا انتُهِبَتْ حقوق المسلمين، أو سُفكت دماؤهم، أو

شُرِّدوا في الأرض، أو استُهْزِئ بدينهم وآرائهم ومكانتهم.

لم يفقه المسلمون أن السلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون إلا ونحن أعزة، ولا يكون إلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية للرد على العدو إذا خالف معاهدة السلام، أما بدون ذلك فالسلام لا يكون سلاماً بل يكون استسلاماً، وهو ما لا يُقبل في الشرع.

يجب أن يفقه المسلمون أن كلمة الجهاد ليست عيبًا يجب أن نستحيي منه أو نخفيه.. ليست كلمة قبيحة يجب أن تنزع من مناهج التعليم ومن وسائل الإعلام ومن صفحات الجرائد والكتب. أبدًا.. إن الجهاد ذروة سنام الإسلام!.. الجهاد أعلى ما في الإسلام.. شاء ذلك أم أبى أعداء الأمة سواء من خارجها أو من أبنائها.

كلمة الجهاد بمشتقاتها وردت في كتاب الله -عز وجل- أكثر من ثلاثين مرة.

كذلك كلمة القتال بمعنى قتال أعداء الأمة وردت.

أين نذهب بهذه الآيات؟

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[الأنفال:٦٥].

أين نذهب بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:١٢٣].

أين نذهب بقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦].

يا إخواني ويا أخواتي:

أنى لأمة تريد أن تحمي نفسها وتدافع عن عرضها وشرفها أن تترك الجهاد والقتال؟!.

في أي عرف أو قانون أو ملة تُدعى الأمة التي تُحتل في المشرق والمغرب إلى عدم الحديث عن الجهاد والقتال والحرب والإعداد.

أنا أعتقد أن هذا المرض.. مرض ترك الجهاد وترك الحديث عنه والإعداد له من أعظم أمراض الأمة.. وليس في تاريخها أبدًا قيام إلا به.. ولنا في التاريخ عبرة.

المرض الخامس: إهمال الإعداد المادي للحروب:

لقد اجتهد التتار في إعداد كل ما يمكّنُهُم من النصر، سواء في ذلك الجنود أو السلاح أو تجهيز الطرق أو وضع الخطة أو الاهتمام بالأحلاف أو الحرب النفسية والخطط البديلة.

لقد كان إعداداً متميزاً حقاً.

كل ذلك بينما كان المسلمون يعيشون في واد آخر..!!

أُهمِلت الجيوش الإسلامية وانحدر مستواها، ولم يهتم حاكم بتحديث سلاحه أو تدريب جنده.. لم توضع الخطة المناسبة، ولم توجد المخابرات الدقيقة.. لقد تهاون المسلمون جداً في إعدادهم.. ورُتِّبَتْ أولوياتهم بصورة مخزية.. فبينما كانت الملايين تُنفقُ على القصور وعلى الرخام وعلى الحدائق.. لم يُنفَق شيء على الإعداد العسكري والعلمي والاقتصادي للبلاد.. وبينما قل ظهور النماذج المتفوقة في المجالات العلمية والقيادية

والإدارية كثر ظهور المطربين والمطربات، والراقصين والراقصات، واللاعبين واللاعبات، واللاهين واللاهيات!!

ولابد أن تُهزَم أمة كان إعدادها بهذه الصورة.. فأمة الإسلام بغير إعداد لا تقوم.. وليس معنى أن يرتبط الناس بربهم ويعتمدوا عليه أن يُهملوا المقومات المادية، والتجهيز البشري.. لابد أن يفقه المسلمون هذا الدرس جيداً.

المرض السادس: افتقار المسلمين إلى القدوة:

تربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. الجنود يشعرون بالغربة الشديدة وبفقدان الحماسة تماماً إذا افتقدوا القدوة.

ألف خطاب للتحميس على الجهاد لا تفعل شيئاً إذا وجد الجنود قائدهم أول المختبئين عند الكوارث!!

ألف خطاب عن تحمل الظروف الصعبة، والرضا بالقليل، والزهد في الدنيا، وتحمل المصائب الاقتصادية لا تغني شيئاً إن وجد الشعب زعيمه يتنعم في القصور، وينفق الملايين على راحته وسعادته ورفاهيته وحفلاته الصاخبة.

ألف خطاب عن الأخلاق الحميدة لا تقدم شيئاً للأمة إن كان الذي يقتدى به لا يُصَلِّي، ولا يصوم، ولا يتَّسِم بنظافة اليد واللسان، وبطهارة الضمير والوجدان.

كيف يلتزم الشعب بدينه وشرع ربه وقلما يستمع إلى لفظ الجلالة: «الله» من زعيمه أو أستاذه أو مربيه؟!

كيف للشباب أن ينصلح حالهم وهم يرون أن القدوات التي تبرز لهم قدوات منحلة بعيدة كل البعد عن طريق الصلاح؟!

القائد الذي لا يكون قدوة حية لشعبه في الجهاد والخلق والصبر والزهد والعدل لا يجب أن يتوقع من شعبه أن يحميه وقت الشدائد، ولا يقف معه في زمان المصائب.

وفي التاريخ عبرة!!

المرض السابع: موالاة أعداء الأمة:

لقد سقط الكثير من زعماء المسلمين أيام التتار في مستنقع الموالاة لأعداء الأمة، وكان منطقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ويلات الحروب.. فارتكبوا خطأ شرعياً وعقلياً شنيعاً.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة.. فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو واعتباره صديقاً، والثقة في كلامه وفي عهوده خطأ ثالث.

وربنا سبحانه وتعالى يقول في كتابه بوضوح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة:٥١].. وهذا تحذير خطير من رب العالمين.. وكم هو أحمق - أو ضعيف الإيمان - من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يلتفت إليه.

المرض الثامن: الإحباط:

الأمة المحبطة من المستحيل أن تنتصر، والإحباط والقنوط واليأس ليست

من صفات المؤمنين، ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]

لقد عمل التتار كما عمل الأمريكان - كما عمل أتباع التتار والأمريكان - على خفض الروح المعنوية للشعوب المسلمة إلى أدنى درجة ممكنة.. لقد عظموا كل ما هو تتري أو أمريكي، وخفضوا كل ما هو مسلم.. ووسعوا الفجوة جداً بين إمكانيات العدو وإمكانيات الأمة، وصوروا لهم أنه لا سبيل للنجاة إلا بالخنوع والخضوع والتسليم.

وقد رأينا التاريخ.. ورأينا مصيبة التتار قد اتبعت بنصر مجيد على يد قطز - رحمه الله-.. وكان من أهم الأسباب للنصر أنه - رحمه الله- رفع الروح المعنوية لجيشه، وعلمهم أن التتار خلق من خلق الله لا يعجزونه، وأن المسلمين إذا ارتبطوا بالله -عز وجل- فلا سبيل لأحد عليهم.. لا التتار ولا اليهود ولا الأمريكان ولا غيرهم.. وأن الجولة الأخيرة حتمًا ستكون للمسلمين.

وبغير هذا الإعداد النفسي وبث روح الأمل في الأمة فالنصر بعيد ولا شك.

المرض التاسع: توسيد الأمر لغير أهله:

لقد رأينا في قصة السقوط الأول لبغداد كيف أن الأمر قد وُسِّد لغير أهله، وضيعت الأمانة، وتولى المناصب العليا في البلد أناس افتقروا إلى الكفاءة وافتقروا إلى التقوى.. فلا قوة ولا أمانة.. وهذه والله الطامة الكبرى..!!

إذا لم يصل إلى مراكز القيادة إلا أصحاب الوساطة أو القرابة أو الرشوة فهذا أمر خطير.. بل شديد الخطورة.

إذا رأيتم أن القريب يوظف قريبه، وأن المراكز تباع وتشترى وتهدى، وأن أصحاب الكفاءات لا تقدر كفاءتهم، ولا يُرفع من قدرهم، فاعلم أن النصر مستحيل.

إذا كنا نجد أننا الآن في ذيل الأمم -كما كان الوضع أيام التتار- فلننظر إلى مراكز القيادة ومن جلس فيها.. ولننظر كيف وصلوا إلى هذه المراكز.. فإنك ولا شك ستجد الغالب الأعم قد وصل إليها بأسلوب لا يرضى عنه الله -عز وجل-.

ولا سبيل للنصر إلا بتوسيد الأمر إلى أهله.. وإلا بجعل الأمور في يد الذي جمع بين عمق العلم وصلاح العمل ونقاء الضمير وحسن السيرة.

المرض العاشر: غياب الشورى:

الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، والذي لا يأخذ بها يضحي بملايين الطاقات في شعبه، ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ، وفوق ذلك كله يخالف أمر الله -عز وجل- الذي جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وما نقصده هنا هو الشورى الحقيقية.. لا الشورى الوهمية التي ليس لها من هَمٍّ إلا جمع الآراء المؤيدة لرأي الزعيم.. ولا الشورى التي تغلف آراء الديكتاتور بغلاف برّاق جميل اسمه الديموقراطية.. غلاف ليس له قيمة، ولا يلبث أن يُلقى في سلة المهملات ويبقى رأي الدكتاتور..!!

كان هذا هو المرض العاشر من الأمراض التي أدت إلى انهيار المسلمين تحت أقدام التتار، فتلك عشرة كاملة، وهي أسباب الهزيمة والهوان نفسها في

أي عصر من العصور.. وتذكروا أننا لا نهزم لقوة أعدائنا، ولكن لضعفنا وسوء إعدادنا.

الطريق إلى النصر:

أمر بسيط للغاية.. لا لبس فيه ولا غموض..!!

النصر هو أن تعالج هذه الأمراض العشرة التي ذكرناها.. أن تعالجها علاجاً حقيقياً صادقاً.. لابد أن نعترف بوجود هذه الأدواء، ونسعى جاهدين صادقين لعلاجها، والرقي بهذه الأمة، وتوظيف كل الطاقات لتمكين هذه الأمة الإسلامية في الأرض.

النصر ببساطة يكون في هذه الأمور العشرة (التي هي علاج الأمراض السابقة):

١- العودة الكاملة غير المشروطة لله -عز وجل- ولشرعه الحكيم.

٢- الوحدة بين المسلمين جميعاً على أساس الدين.

٣- الإيمان بالجنة والزهد في الدنيا والبعد عن الترف.

٤- تعظيم الجهاد والحث عليه، وتربية النشء والشباب على حب الموت في سبيل الله.

٥- الاهتمام بالإعداد المادي من سلاح وعلم وخطط واقتصاد وتقنيات وسياسات.

٦- إظهار القدوات الجليلة وإبراز الرموز الإسلامية الأصيلة، وتعظيمها عند المسلمين.

٧- عدم موالاة أعداء الأمة، والفقه الحقيقي للفرق بين العدو والصديق.

٨- بث روح الأمل في الأمة الإسلامية، ورفع الهمة والروح المعنوية.

٩- توسيد الأمر لأهله.. وأهله هم أصحاب الكفاءة والأمانة.

١٠- الشورى الحقيقية التي تهدف فعلاً إلى الخروج بأفضل الآراء.

ومع كل التطابقات السابقة بين السقوطين القديم والحديث إلا أن هناك فارقاً مهماً جداً بين القصتين، وهذا الفارق يبعث الأمل الكبير في النفوس، وينفي عنها الإحباط المقيت.. وهذا الفارق هو ببساطة: المقاومة..!! لقد شاهدنا مقاومة ضارية من الشعب العراقي بعد انهيار الجيش، وخاصة في المثلث السني، وشاهدنا ضحايا من المغتصب الأمريكي، وشاهدنا فشلاً أمريكياً في اختراق صفوف المقاومة، وشاهدنا تعاطفاً من العالم الإسلامي مع المجاهدين العراقيين، وشاهدنا قلقاً أمريكياً واضحاً سواء في القيادة أو في المعارضة أو في الشعب أو في الجنود، حتى وصل إلى الانتحار في صفوف المقاتلين الأمريكان!!

كل هذه المشاهدات لم نرها في القصة القديمة، مما يعطي انطباعاً أن وضعنا الآن أفضل، وأن حالتنا لم تصل إلى الحال المتردية التي كانت عليها الأمة أيام التتار، وكل هذا يبعث الأمل في النفوس، ويقوي العزيمة على القيام من جديد، ونصر الله لهذه الأمة آت لا محالة مهما طال الزمان، ومهما تعقدت الظروف، وإذا كانت الأمة قد استطاعت الخروج من أزمتها الطاحنة أيام التتار فنحن - إن شاء الله - على الخروج من أزمتنا أقدر، والله الذي أخرج قطز من بين صفوف المؤمنين قادر على إخراج أمثاله من بين صفوفنا،

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[ص:٨٨]!.

ونسأل الله أن يجعل حياتنا كلَّها في سبيله.. وأن يجعل كلامنا وواقعنا ككلام أصحاب رسول الله ﷺ وكواقعهم عندما أجابوا الرسول ﷺ وقالوا:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.

وأسأل الله أن يجعل لنا في التاريخ عبرة!!

فستذكرون ما أقول لكم.. وأفوض أمري إلى الله.. إن الله بصير بالعباد.

* * *

قصة التتار من البداية إلى عين جالوت في سطور

٦٠٣ هجرية: ظهور دولة التتار بقيادة جنكيزخان.

٦١٦ هجرية: بدء الاجتياح التتري للأمة الإسلامية.

اجتياح بخارى.

٦١٧ هجرية: اجتياح سمرقند.

مطاردة محمد بن خوارزم شاه زعيم المملكة الخوارزمية.

وفاة محمد بن خوارزم شاه في جزيرة في وسط بحر قزوين.

احتلال مازندران.

احتلال الري.

احتلال أذربيجان.

احتلال أرمينيا.

احتلال الكرج (جورجيا).

تدمير إقليم فرغانة.

تدمير مدينة ترمذ.

تدمير قلعة كلابة.

دخول التتار إلى بلدة بلخ المسلمة، واستمالة أهلها للتعاون معهم ضد بقية المسلمين.

اجتياح الطالقان.

مأساة مرو.

مأساة نيسابور.

اجتياح هراة.

مأساة خوارزم.

انتصار الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة جلال الدين بن محمد بن خوارزم على التتار في بلق.

انتصار جلال الدين مرة أخرى في كابول.

انقسام الجيش الإسلامي بسبب الإختلاف على الغنائم.

هزيمة جيش جلال الدين على ضفاف نهر السند (باكستان).

هروب جلال الدين إلى الهند.

اجتياح مدينة غزنة (أفغانستان).

٦١٨ هجرية: تدمير مراغة.

التهديد بغزو الخلافة العباسية في العراق ثم العدول عن ذلك.

اجتياح همدان.

اجتياح أردويل.

دعوة الجهاد في تبريز بقيادة شمس الدين الطغرائي، وهروب التتار من المواجهة.

اجتياح بيلقان (إيران).

التتار يقفون على أبواب مدينة كنجة.

اجتياح داغستان.

اجتياح الشيشان.

احتلال الجنوب الغربي من روسيا.

٦١٩ هجرية: تثبيت التتار لأقدامهم في الأرض الواقعة بين الصين والعراق.

٦٢٠ هجرية: هزيمة التتار من البلغار الروس.

المسلمون يحاربون الكرج وحدوث مجزرة بين الطرفين تنتهي بالصلح

ظهور غياث الدين بن خوارزم أخو جلال الدين في شمال فارس (إيران)

غياث الدين يسيطر على إقليم فارس بعد هزيمة التتار من الروس.

غياث الدين يسيطر على إقليم كرمان (جنوب إيران).

فتنة بين غياث الدين وخاله إيغان طائسي بإيعاز من الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

تنصر ابن مغيث الدين بن طغرل شاه (من ملوك السلاجقة) ليتزوج ملكة الكرج.

الجراد يهاجم أراضي المسلمين في العراق والشام وفارس والجزيرة.

٦٢١ هجرية: حرب بين غياث الدين بن خوارزم وسعد الدين بن دكلا تنتهي بتقسيم فارس بينهما.

٣ آلاف تتري يدمرون ٥ مدن إسلامية (الري وساوة وقم وقاشان وهمدان – في إيران).

قلة الأمطار، والجراد، وارتفاع الأسعار.

٦٢٢ هجرية: عودة جلال الدين بن خوارزم من الهند.

تحالف جلال الدين مع سعد الدين ضد أخيه غياث الدين.

جلال الدين يسيطر على فارس.

جلال الدين يغزو البصرة ويهدد بغداد.

الخليفة العباسي الناصر لدين الله يستغيث بالتتار.

جلال الدين يسيطر على أذربيجان والكرج.

صلح مؤقت بين الأخوين جلال الدين وغياث الدين.

وفاة الخليفة العباسي الظالم الناصر لدين الله.

ولاية الخليفة العادل الظاهر بالله.

٦٢٣ هجرية: وفاة الخليفة الظاهر بالله وولاية المستنصر بالله.

جلال الدين يحاصر مدينة خلاط المسلمة.

٦٢٤ هجرية: وفاة جنكيزخان وولاية أوكيتاي على التتار.

أوكيتاي يوقف الحرب مؤقتاً في البلاد الإسلامية لحين تنظيم الأوضاع في الصين.

تجدد الحروب بين جلال الدين وأخيه غياث الدين

٦٢٦ هجرية: الأمراء الأيوبيون في الشام يسلمون بيت المقدس صلحاً إلى الصليبيين.

٦٢٨ هجرية: الهجوم التتري الثاني على بلاد المسلمين بقيادة شورماجان.
هزيمة جلال الدين من التتار في إقليم فارس.
هروب جلال الدين إلى أرض الجزيرة شمال العراق.
مقتل جلال الدين على يد فلاح كردي.

٦٢٩ هجرية: التتار يعيدون احتلال شمال فارس.
التتار يعيدون احتلال أذربيجان.
شورماجان يوقف التوسع لحين تثبيت الأقدام في البلاد الإسلامية المحتلة.

٦٣٤ هجرية: عودة التوسع التتري بقيادة شورماجان واحتلال أرمينيا والكرج والشيشان وداغستان.
جيش تتري جديد بقيادة باتو بن جاجي يحتل حوض نهر الفولجا الروسي

٦٣٥ هجرية: بدء حملة منظمة بقيادة باتو لاحتلال روسيا.
سقوط المدن الروسية ريدان، ثم كولومونا ثم فلاديمير ثم سوذال.

٦٣٦ هجرية: تدمير موسكو.
سقوط روسيا بالكامل (يورييف وجاليش وبريسلاف وروستوف وياروسلاف وتورزوك).

٦٣٨ هجرية: احتلال أوكرانيا وتدمير العاصمة كييف.

٦٣٩ هجرية: احتلال بولندا بقيادة بايدر.
هزيمة الجيوش الألمانية المتحدة مع جيش بولندا من التتار في غرب بولندا.
باتو يحتل المجر بعد سحق جيشها.
بايدر يحتل سلوفاكيا بالكامل.
احتلال كرواتيا والوصول إلى البحر الأدرياتي الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا.
وفاة أوكيتاي خان التتار وتوقف الفتوحات في أوروبا.
ولاية كيوك بن أوكيتاي على التتار وتثبيت الأقدام دون توسع.

٦٤٠ هجرية: وفاة الخليفة العباسي المستنصر بالله وولاية المستعصم بالله.

٦٤٣ هجرية: سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى كيوك خان التتار بغرض الاتحاد ضد المسلمين.

٦٤٥ هجرية: سفارة البابا إنوسنت الرابع إلى بيجو قائد القوات التترية في منطقة فارس.

٦٤٦ هجرية: سفارة لويس التاسع ملك فرنسا إلى كيوك خان التتار.

وفاة كيوك بن أوكيتاي.

ولاية أوغول بنت قيميش على التتار.

٦٤٧ هجرية: احتلال لويس التاسع لدمياط في مصر.

٦٤٨ هجرية: موقعة المنصورة وانتصار المسلمين على الفرنسيين.

٦٤٩ هجرية: ولاية منكوخان على التتار.

زعامة هولاكو على الجيش التتري في فارس والمواجه للخلافة العباسية.

بدء الإعداد لإسقاط الخلافة العباسية.

٦٥٠ هجرية: اجتياح إقليم الجزيرة في شمال العراق.

٦٥١ هجرية: سفارة صليبية من لويس التاسع ملك فرنسا إلى منكوخان.

٦٥٤ هجرية: اكتمال الإعداد التتري لغزو العراق.

٦٥٥ هجرية: حشد الجيوش التترية من الصين وفارس وروسيا وأوروبا وأرمينيا والكرج.

٦٥٦ هجرية: حصار بغداد.

اجتياح بغداد.

قتل آخر خلفاء بني العباس في بغداد.

إسقاط الخلافة الإسلامية لأول مرة في التاريخ.

الكامل محمد الأيوبي يبدأ الجهاد في ميافارقين.

حصار ميافارقين.

الاختلاف بين هولاكو والناصر يوسف الأيوبي.

٦٥٧ هجرية: بدء اجتياح الشام.

احتلال نصيبين.

احتلال إلبيرة.

حصار حلب.

٦٥٨ هجرية: قتل الكامل محمد الأيوبي.

سقوط حلب.

احتلال دمشق.

احتلال غزة.

التتار يهددون مصر.

قطز يأخذ قرار الحرب.

خروج الجيش المسلم من مصر إلى غزة.

انتصار الظاهر بيبرس على التتار في غزة.

الانتصار الكبير لقطز في عين جالوت.

تحرير دمشق وحلب وبقية الشام.

توحيد مصر والشام.

* * *

المماليك في سطـور

١٩٨ هجرية: - ولاية الخليفة العباسي المأمون أول من بدأ في استجلاب المماليك.

٢١٨ هجرية: - ولاية الخليفة العباسي المعتصم الذي أكثر من استجلاب المماليك.

٦٣٧ هجرية: - ولاية الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر .

٦٤١ هجرية: - الامراء الأيوبيون في الشام يتوحدون مع الصـليبيين لقتـال الملـك الصـالح نجم الدين.

٦٤٢ هجرية: - أنتصار الملك الصالح نجم الـدين أيـوب علـى أمـراء الشـام والصـليبيين في موقعة غزة.

٦٤٣ هجرية: - الملك الصالح نجم الدين أيوب يحرر بيت المقدس.

- بدء تكوين الممالك البحرية بقيادة فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس.

- وصول العز بن عبد السلام الى مصر.

٦٤٧ هجرية: - الملك لويس التاسع يحتل ميناء دمياط في مصر «٢٠ صفر».

- وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب في المنصورة «١٥ شعبان».

- إدارة شجرة الدر زوجة نجم الدين أيوب لمعركة المنصورة.

- انتصار المسلمين في موقعة المنصورة «٤ ذي القعدة».

- وصول توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين من تركيا إلى المنصـورة«١٧ ذي القعدة».

٦٤٨ هجريـة: - انتصـار المسـلمين بقيـادة تـوران شـاه في موقعـة «فارسـكور» علـى الصليبيين«أوائل محرم».

- أسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا.

- توران شاه يتوجس خيفة من شجرة الدر وأقطاي وبيبرس.

- قتل توران شاه «٢٧ محرم».

- شجرة الدر أول ملكة على مصر الإسلامية «أوائل صفر ».

- زواج شجرة الدر من عز الدين أيبك.

- تنازل شجرة الدر عن ملك مصر بعد « ٨٠ » يومًا فقط من ملكها «أواخر جمادى الثانية»

- ولاية الملك المعز عز الدين أيبك على مصر.

- الملك المعز ينتصر على أمراء الشام الأيوبيين في موقعة العباسية بمصر «١٠ ذو القعدة».

٦٥٠ هجرية: - بدء تكوين المالك المعزية بقيادة قطز.

٦٥١ هجرية: - الملك المعز يضم فلسطين إلى مصر.

٦٥٢ هجرية: - الملك المعز يقتل فارس الدين أقطاي «٣شعبان ».

- هروب المماليك البحرية إلى الشام وعلى رأسهم بيبرس.

٦٥٥ هجرية: - الملك المعز يقرر الزواج من بنت بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل.

- شجرة الدر تقتل الملك المعز «ربيع الأول».

- القصاص من شجرة الدر بالقتل «ربيع الأول».

- صعود الطفل نور الدين بن عز الدين أيبك إلى حكم مصر تحت رعاية قطز.

- المغيث فتح الدين عمر أمير الكرك يغزو مصر ويُهزم على يد قطز «ذو القعدة ».

٦٥٦ هجرية: - سقوط بغداد.

- محاولة جديدة من أمير الكرك لغزو مصر «ربيع الآخر» .

٦٥٧ هجرية: - بدء اجتياح الشام بقيادة هولاكو.

- صعود قطز إلى كرسي الحكم في مصر « ٢٤ ذي القعدة ».

٦٥٨ هجرية: - بدء قطز للإصلاحات الداخلية في مصر.

- العفو عن المماليك البحرية وتوحيد المماليك المعزية مع البحرية.

- استقدام الظاهر بيبرس من دمشق إلى مصر .
- محاولة قطز توحيد مصر والشام عن طريق المراسلات مع أمراء الشام الأيوبيين.
- سقوط حلب «صفر » وسقوط دمشق «ربيع الأول».
- وصول رسالة التتار بتهديد مصر بالاجتياح.
- قرار قطز أن يقاتل التتار.
- قرار قطز أن يخرج لقتال التتار في فلسطين وليس في مصر.
- بدء تجهيز الجيش المصري اقتصاديًا وعسكريًا .
- بدء تأهيل الشعب المصري عن طريق العلماء لقبول فكرة حرب التتار.
- قدوم بعض جيوش الشام للانضمام إلى قطز في مصر.
- تجمع الجيش المسلم في الصالحية.
- تحرك الجيش المسلم باتجاه فلسطين « شعبان ».
- انتصار المسلمين على حامية التتار في غزة بقيادة بيبرس.
- المفاوضات مع الصليبيين في عكا.
- اختيار قطز لعين جالوت لتكون مكان اللقاء مع التتار.
- انتصار المسلمين في عين جالوت «٢٥ رمضان».
- تحرير دمشق من التتار بقيادة قطز «٣٠ رمضان » .
- تحرير حلب من التتار بقيادة بيبرس «أوائل شوال » .
- توحيد مصر والشام تحت قيادة قطز.
- عودة قطز إلى مصر «٢٦ شوال».
- مقتل قطز .

* * *

المراجــــع

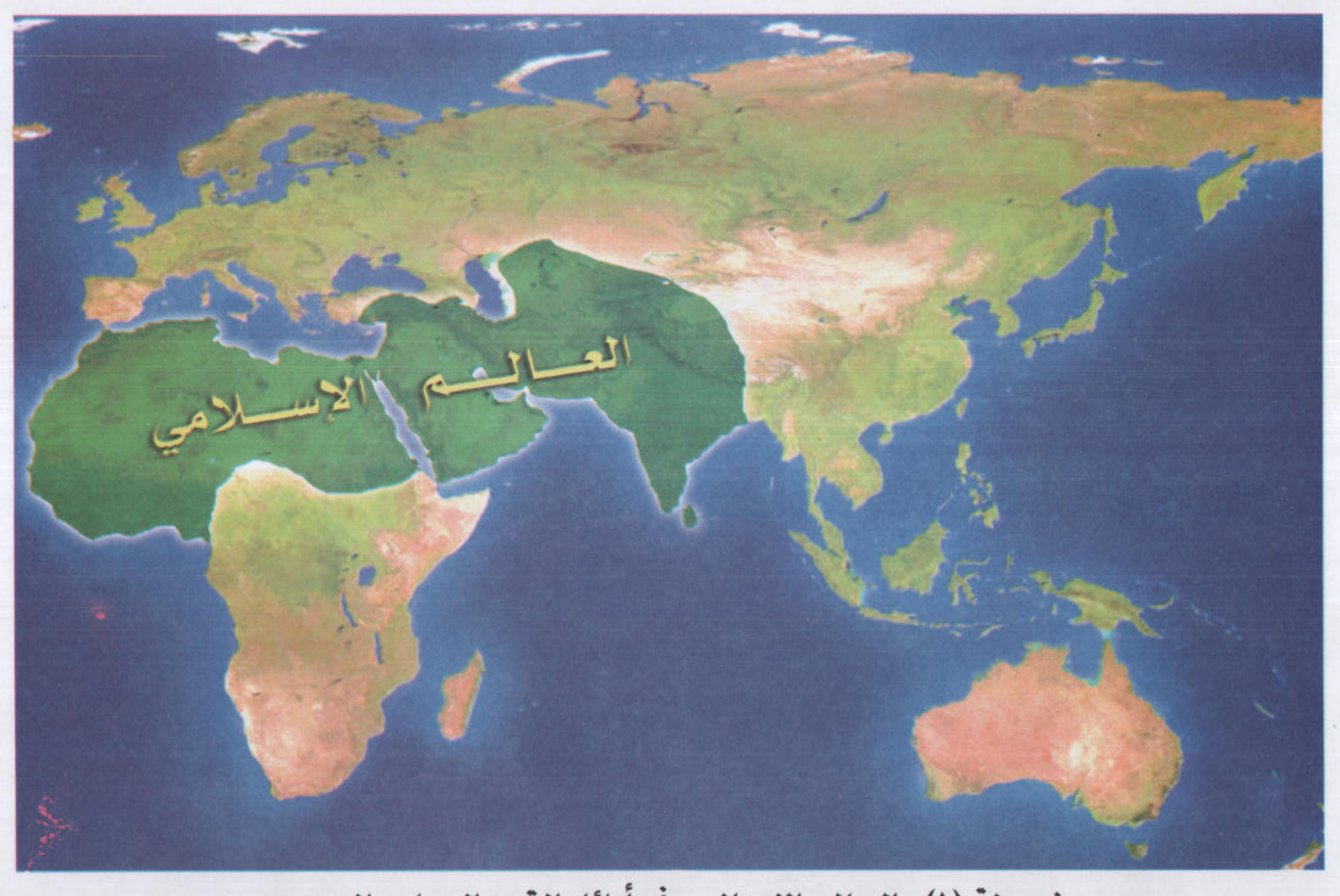
١- القرآن الكريم وتفاسيره.
٢- كتب الحديث النبوي الشريف وشروحها.
٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير الجرزي.
٤- البداية والنهاية لابن كثير.
٥- تاريخ الخلفاء للسيوطي.
٦- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش.
٧- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش.
٨- السلطان المظفر سيف الدين قطز للدكتور قاسم عبده قاسم.
٩- المظفر قطز ومعركة عين جالوت لبسام العسلي.
١٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي.
١١- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر.
١٢- أطلس التاريخ العربي الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل.
١٣- أطلس دول العالم الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل.
١٤- أطلس الوطن العربي والعالم، دار الشرق العربي.
١٥- تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون.
١٦- من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي.
١٧- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام للدكتور محمد عبد الله عنان.

* * *



ملحق الخرائط

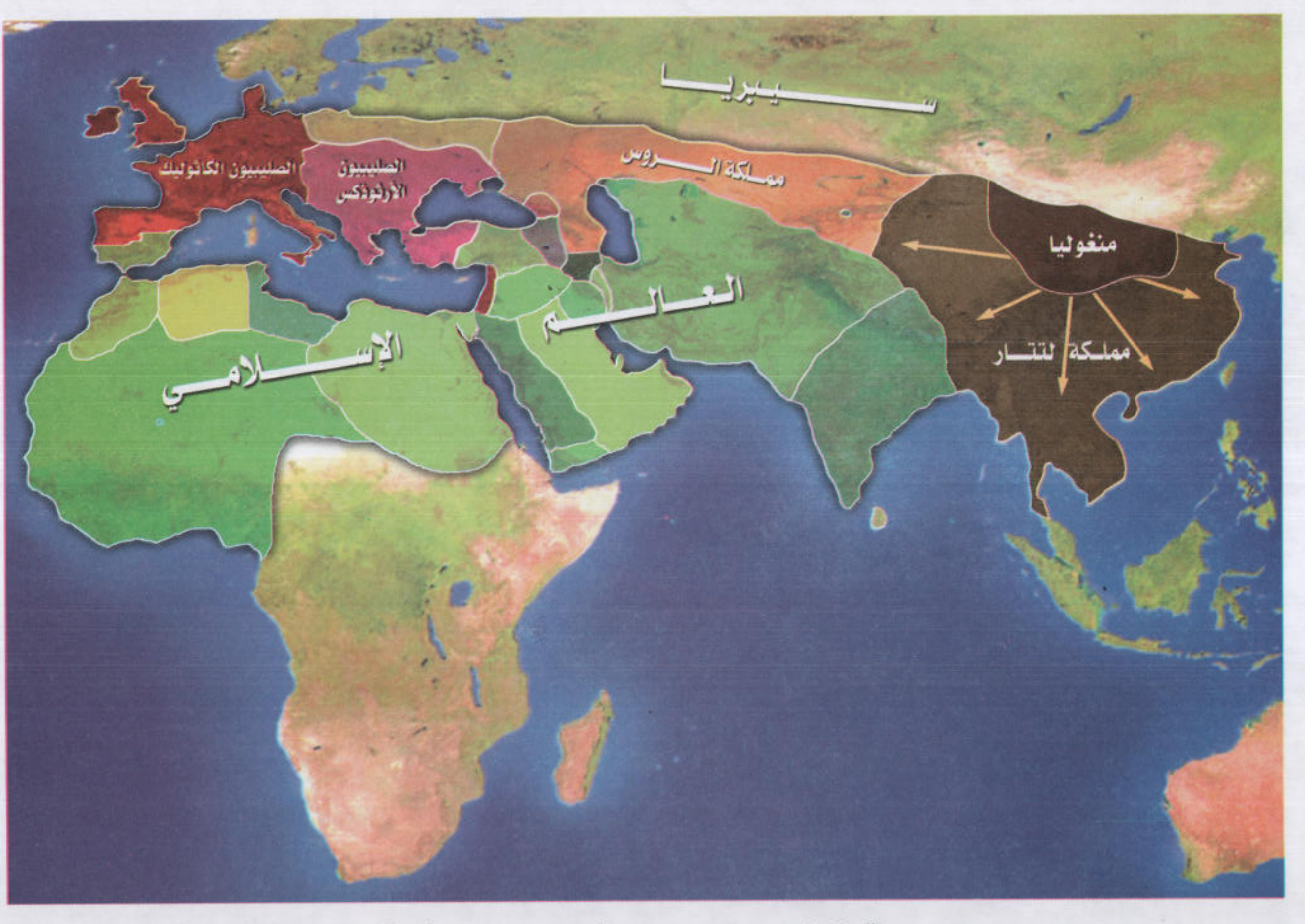




خريطة (١) : العالم الإسلامي في أوائل القرن السابع الهجري



خريطة(٢): الدويلات و الإمارات الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري



خريطة (٣) : ظهور مملكة التتار سنة ٦٠٣هـ



خريطة (٤) : بدء الغزو التتري للدولة الخوارزمية



خريطة (٥) : غزو التتار للدولة الخوارزمية

خريطة (٦) : توسع مملكة التتار داخل العالم الإسلامي حتى سنة ٦٢٤هـ

خريطة (٧) : ظهور حركة (جلال الدين بن خوارزم) سنة ٦٢٢هـ



خريطة (٨) : غزو التتار لأقاليم باكستان و إيران و أذربيجان سنة ٦٢٩هـ



خريطة (٩) : مملكة التتار سنة ٦٢٩هـ



خريطة (١٠) : غزو التتار لشرق أوروبا سنة ٦٣٩هـ



خريطة (١١) : مملكة التتار سنة ٦٣٩هـ



خريطة (١٢) : جيوش التتار المشتركة في حصار "بغداد"



خريطة (١٣) : حصار "ميافارقين"



خريطة (١٤) : غزو التتار للشام



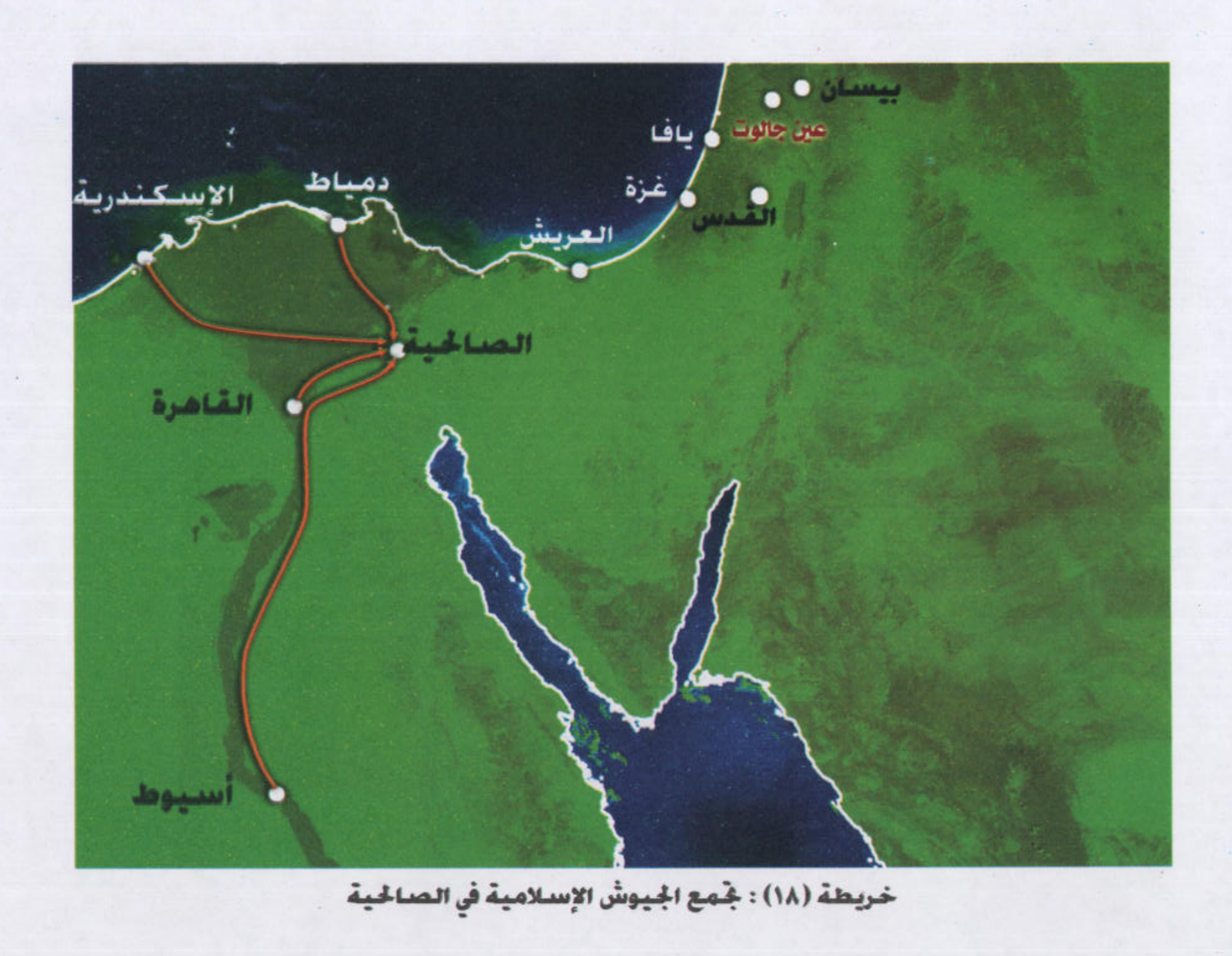
خريطة (١٥) : مملكة التتار بعد احتلال الشام



خريطة (١٦) : الدولة الأيوبية في أقصى اتساع لها سنة ٥٨٩هـ

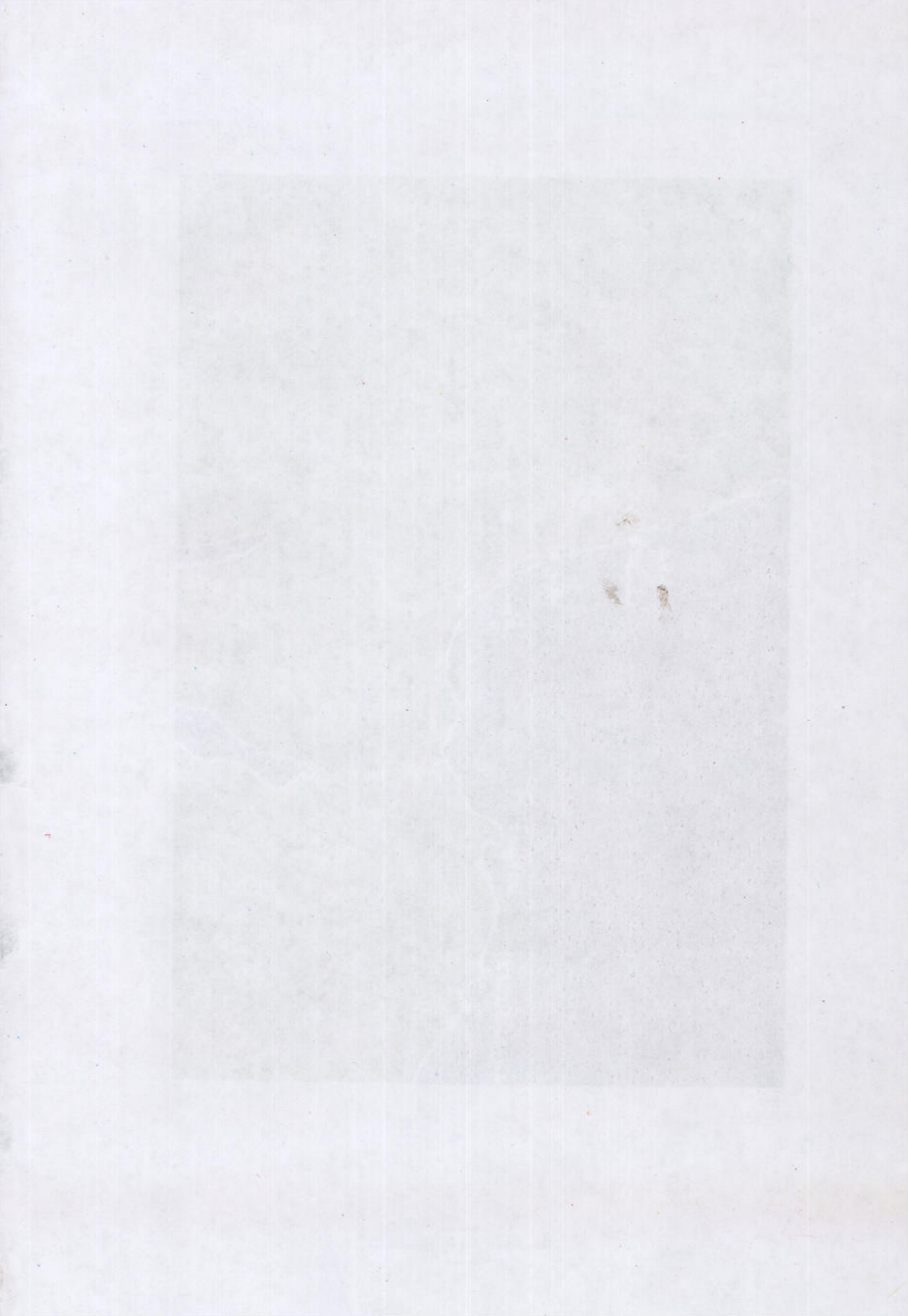


خريطة (١٧) : الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ



خريطة (١٨) : تجمع الجيوش الإسلامية في الصالحية

خريطة (١٩) : حركة الجيوش الإسلامية داخل فلسطين حتى "عين جالوت"



الفهـــرس

***